حمدان حمدان

إغتيال التاريخ

"رداً على نتنياهو في مكانه تحت الشمس"





اغتيال التاريخ

اغتيال التاريخ

• اغتيال التاريخ (رداً على نتنياهو في مكانه تحت الشمس)
• حمدان حمدان

• الطبعة الأولى ١٩٩٧
الناشر: بيسان للنشر والتوزيع والإعلام
□ ص.ب: 5261 ـ 13 بيروت ـ لبنان
□ هاتف: 351291

حمدان حمدان

اغتيـــال التاريخ

« ردأ على نتنياهو في مكانه تحت الشمس »



الإهداء

إلى والدي من طبريا
الذي لا يعرف روسيا
بولونيا.. رومانيا
أو بحر الخزر

إلى والدي الذي مات.
وترك ميراثاً لا يقدر بذهب:
مفتاح بيت أبيه القديم
المطل على بحيرة المسيح

ثم..
إلى أولادي من بعدي
حيث صار المفتاح
أمانة في أعناقهم

مدخل

ليس من السهل التقاط التاريخ متلبساً، بجهدٍ أقل وافتراء أكبر، مثلما فعل نتنياهو في كتابه ذي العنوانين: مكان تحت الشمس أو بين الأمم. ذلك أن الرحلة على طريقته ستفضي بنا إلى محطة تحويل، يتم منها تسيير القطار على السكة الملائمة، حيث وجهة القصد: زيارة كيفية إلى التاريخ.. وبسبب من ضعف العرب واستخذائهم، فإن التاريخ هنا، يُساق بسوط المنتصر لابصوت الحقيقة، فهو يجري مهرولاً أمام عَظَمة الشعب المختار لا خلفه، وهو يؤدي المشهد المرسوم على مسرح المنطقة والعالم، لا كما هو التاريخ، بل كما يُراد له أن يكون، وإذ يصدع التاريخ كما أوقف يشوع الشمس حتى الإنتهاء من مذبحة أريحا، أو الإمتلاء من مشهد الدم، فإن نتنياهو يعيد استرداد الأسطورة، بأن الله خلق العالم بعد أن خلق شعب إسرائيل، كذلك فإن الدائرة عنده لاتنقطع مع انتهاء التاريخ القديم، بل تدور لتشمل التاريخ الحديث، من حيث أن اسرائيل هي معجزة العالم اليوم كما كانت هبة الله بالأمس.. فهو يضرب في الرؤى والمرويات والأحداث والتشكيلات بحيث أن (الآخر) عنده ليس أكثر من إنسان زائد، أو لعلّه في مكان آخر، يحذف كل تاريخه ووجوده، فإذا ما حضَر بقوة الواقع أو الحجر، فإن نتنياهو يشتق من (تاريخ اللعنة) التوراتي ما هو دليل على عقاب إسرائيل، فالفلسطيني موجود في اللعنة، لكنه غير موجود في التاريخ، إنه ماثلٌ في الشر وغير ماثل في الحياة الإنسانية، وبذلك فإن هذا الكائن موجود وغير موجود بآن معاً... موجود في القوة الغاشمة والإرهاب وغير موجود في التاريخ، وإذن فهو غير موجود أساساً، لا في الإنتماء ولا الهوية، وحين يصطدم بسبعة آلاف عام ميلادية وهجرية وما قبلهما، فإنه يحيل الأمر كله إلى تاريخ الرعاة، وكأن أجداده الغابرين لم يكونوا من الرعاة، على أطراف كنعان المزدهرة والمستقرة.

في قراءة منفصلة (لمكانه تحت الشمس)، كان المشترك الجمعي بيننا نحن أصحاب اقتراح الرد عليه، هو ذلك الاندهاش المتماثل، جراء الاستخفاف المفرط، الصادر عن صاحب الماجيستير من جامعة فيلادلفيا الأمريكية(*)، ليس بالجهد المُضني لأولئك الرواد الشجعان الذين قرأوا المنطقة من خلال المُكتشف من تاريخها فحسب، بل وبكل المكتشفات الأثرية ـ التي قلبت طاولة الكهّان، من حجر الرشيد إلى رأس شمرا، وإلى ماري وإيبلا، ثم إلى البحر الميت، ورسائل تل العمارنة في وادي النيل، وما تغصّ به متاحف الغرب والشرق من كنوز بابل وغير بابل حيث التجوال بين أخذٍ ورد إلى أسرار الآلهة والتوحيد، عبر الآشوريين والهكسوك، وآلاف

(*) المشكلة أن ماجيستير نتنياهو كان في إدارة الأعمال ولم يكن في علم الآثار أو التاريخ أو اللاهوت!..

الأسفار الأخرى إلى الكرنك ووادي الملوك والنهر الخالد. معضلة نتنياهو الراهنة، تاريخية بالأساس، كذلك هي معضلة العرب بالمقابل، لكن الفارق يظل قائماً بين تاريخين، فإلى أي تاريخ يريدنا السيد نتنياهو أن نحتكم؟

هل إلى تاريخ المأثورات الشفوية والأساطير المتطيّرة، أم إلى تاريخ العلم وعلى رأسه علم الآثار، أي بمعنى آخر، إلى تاريخ التاريخ نفسه دون اسقاطات إضافية.. إذ ماذا يقول له تحصيله العلمي في الولايات المتحدة؟!...

وعلى ما يبدو فإننا هنا مازلنا على حافة الجدل مع إنسان غربي يتخّذ من (المكراه)(*) أساساً، فإذا ما نُفخ في أبواق أريحا وانهدّت الأسوار، وسيم القومُ سوء العذاب، وإذا ما أقتلعت (عاي) المدينة الفلسطينية القديمة. بريح صرصرٍ تخرج من صدور أبناء يهوه، وإذا ما اتخذ الكتاب المقدس مرجعاً كدوائر الشهر العقاريّ أو (الطابو) لتوزيع السندات على المختارين.. فإن على التاريخ أن يتكيّف.. أو يتوقف من تلقاء نفسه!. نحن هنا إزاء عمل يتّسم أول ما يتسم بالوقوع في (ورطة) وبيلة، فإذا ما أُطلقَ ابن الأسطورة المقدسة (مُطلقة التاريخي) في وجوهنا، فإننا نخشى أن نتحول إلى أنصاب من الملح في مدينة سدوم، أو إلى أنصابٍ من الفحم في قانا، عندها لن نعرف متى نقوم وإلى أين نذهب.. أما إذا كان يستسقي غوطته من دموع الحيارى والتائهين في مجتمعات الشتات العنصرية، إذن فهو يلعبُ لعبة الاحتيال نفسها، فتاريخ نتنياهو الشخصي لايشجع على الرهان في إيمانه وتقواه، وقد كتب حزب العمل تحت صورة له، (أيها الإنسان لاتزني) وهي وصية توارثها الأنبياء جيلاً بعد جيل، فمن أين هبطت عليه كل هذه (المقدّسات)؟!

لم يئن الأوان لدخول الحلبة بعد، فلدى نتنياهو في كتابه المزيد من العزف على الكومبيوتر المبرمج، فبعد مقدمتيه العربية والعبرية، يبدأ بإخراج الحركة الصهيونية كما خرجت منيرفا فجأة من رأس جوبيتر، حيث العالم كان ثاوياً إلا من نفحة إيمانية مفاجئة على العهد القديم، إذ لا صراع ولا حروب ولا قوى ولامصالح، في مجمّع فرساي الذي يقطر طهراً وتُقىً.. وفي الفصل الثاني، يطيل الحديث ويجمع الشواهد بل ويصمم الروايات من أجل البرهان على أن الغرب وعلى رأسه بريطانيا، نكلوا بالعهد إذ تراجعوا عن وعد بلفور، لتقيم بريطانيا حلفاً مع العرب ضد اليهود في فلسطين وكل هذا في سبيل الاستمرار في السياق التاريخي نفسه، فالأسطورة اليهودية قائمة هنا، مثلما كانت قائمة في التاريخ، وها هم اليهود يتغلّبون على بريطانيا والعرب والفلسطينيين في آن واحد!..

ثم من الأسطورة إلى الحقيقة المتعلقة بالقضية الفلسطينية كما يراها من مكمنه في تاريخ مقلوب، فالعرب هم الذين استلبوا (أرض إسرائيل) وليس اليهود مَن استلب فلسطين..

وفي فصله الرابع، فإنه يتحدث عن (قلب حقيقة السبب والمسبب)، حيث لا علاقة لوجود إسرائيل في صراعات المنطقة الناشبة، ويضرب على ذلك مثلاً بالصراعات العربية ـ العربية، كذلك

(*) جملة الأساطير التي صاغها كهان اليهود في تواريخ متباعدة، وهي بمجموعها تشكل الأساس الديني لمجمل التراث اليهودي في التاريخ.

الصراعات الأهلية المحلية، فضلاً عن الصراعات الحدودية مع الجوار كتلك الحرب الضروس بين العراق وإيران... وهو ينتقل من حصان طروادة إلى نوع السلام المنشود فالجدار الواقي لحماية إسرائيل، حيث العرب لا حاجة لهم إلى الوقاية.. ثم من المشكلة السكانية داخل إسرائيل، إلى السلام الدائم، فالإنتهاء إلى المحصلة المركزية: مسألة القوة الإسرائيلية المتفوّقة... وما يجب أن تحافظ عليه إسرائيل وعلى مدى أربعمئة صفحة في عشرة فصول، فقد بدا أن نتنياهو يوّجه - ولو بالحلم الجميل - ضربة قاضية إلى التاريخين القديم والحديث، وهنا فإنني لا أخشى من إجازة هذا الكتاب لتقرأه الأوساط العربية في كل مكان، إذ فوق تهافته يحمل القرينة على الخداع، فهل ثمة مَن يروي حتى اليوم، حكاية الخواء في فلسطين قبل مجيئ اليهود إليها غير نتنياهو، وهل ثمة مَن يُحتّم أن أرض إسرائيل اليوم لاتشكل أكثر من ١٥ بالمئة من أرض إسرائيل التوراتية غير ملك اليهود الجديد؟!....

ثم مَن هو القادر على قطع التاريخ ووصله من نقطة داوود الملك وحتى الحركة الصهيونية لا قبل ولا بعد، فهل هذا هو كل تاريخ فلسطين؟. أو حتى بعضه؟!

إننا لانؤمن - رغم إيماننا العميق - بأن الكتب المقدسة هي راسمة الحقوق للشعوب على الأرض، فإذا كان التاريخ ينطق بآثاره فقط، فلماذا يسكت ابن العلوم الأمريكية، عما حكت عنه آثار التاريخ القديم في فلسطين؟!

أين ذهب بمليون سنة التي تعود إلى العرق الأحمر من العصر الجليدي في فلسطين، وقد أشارت إليه كاحتمال مقبول، أثريات غور الأردن جنوب غربي مصب نهر اليرموك وفي وادي الشقمة كذلك في منطقة الغاب والرستن ما بين حمص وحماة في سوريا، وهنا لماذا فلسطين وحدها دون جوارها؟!

أين ذهب بإنسان العبيدية قبل ٦٠٠ ألف سنة من اليوم، حيث أثبتت ١٤ وحدة صخرية منذ عصر (مندل) الجليدي وجود هذا الإنسان على ضفاف بحيرة طبريا وجنوبها، كما أثبتت (من خلال العظام) وجود أكثر من خمسين نوعاً من الثدييات كانت تعيش في هذه المنطقة الدافئة. أين ذهب بإنسان أم قطفة (كهف قريب من مدينة القدس) وإنسان جسر بنات يعقوب شمالي بحيرة طبريا، وكهف طابون في الجليل وإنسان يبرود في سوريا، الذي أثبتت المكتشفات الحديثة، بأنهم في هذه الحقبة من عصر (فورم) أي زهاء سبعين ألف سنة قبل الميلاد، كانوا قد استخدموا النار لأول مرة في تاريخ البشرية. أين ذهب بالإنسان (الموسيتيري) في فلسطين (من ٧٠ ألف إلى ٤٠ ألف قبل الميلاد) حيث كشفت عنه آثار دامغة مثل آثار كهف طابون وكهف أم السخول في الجليل، وكهف كبارا في الكرمل وموقع أم عبدو في صحراء النقب.. ومن العصر الحجري القديم إلى الحجري المتوسط والحديث، (أي من ١٨ ألف إلى ٤ آلاف سنة قبل الميلاد) أين ذهب نتنياهو بحضارات شعوب الكباريين والنطوّفيين ذوي الأدوات الصوانية والبازلتية والأدوات الهلالية والمناجل والجواريش البازلتية، وكل ماهو مسروق إلى المتحف البريطاني (التاريخي) في لندن.. ثم ألم تشر هذه المكتشفات كما سبق وأشارت، إلى أن أعظم اكتشاف في التاريخ، الذي هو الزراعة

وتأسيس المدن، كان قد تمّ على أيدي هذه الشعوب التي شادت مدينة أريحا منذ عشرة آلاف سنة قبل الميلاد...

ومن ذلك إلى العصر المتحضّر والمقروء (أي زهاء أربعة آلاف قبل الميلاد) أين ذهب نتنياهو بحضارات النحاس والفخار والبرونز والحديد (مابين ٥٠٠٠ إلى ٣٠٠٠ قبل الميلاد) وأهم منها (اختراع الحرف) على يد سكان ما بين النهرين (المسمارية) وعلى يد سكان مصر (الهيروغليفية) وسكان فلسطين الكنعانية، حيث تمكن الفينيقيون من نشر لغة أجدادهم المسمارية بأبجديتهم المختزلة إلى أطراف العالم.

ثم أين ذهب نتنياهو بهجرات الأقوام العربية التي لايُحبّها بدءاً من الكنعانيين والعموريين والفينيقيين والآراميين... وإلى آخر فروع السلسلة.. لماذا لايقول نتنياهو ما قاله أمناء التاريخ قبله حتى من الشعب اليهودي نفسه، إذ ما هو تعليق العالِمة الدكتورة شولوميت جيفا أستاذة الدراسات اليهودية في جامعة تل أبيب على الآثار اليهودية في فلسطين؟! ألم يسمع نتنياهو بمقطعها هذا: (لقد أريد لعلم الآثار اليهودي أن يكون أداة للحركة الصهيونية بكل التعسف، والمطلوب أن تُختلق واسطة لإيجاد الصلة بين التاريخ اليهودي والحركة الصهيونية)، أما أستاذ التاريخ البروفيسور كيت ويتلم فقال (مايجري هنا هو محاولة لاختراع التاريخ اليهودي القديم وخنق التاريخ الفلسطيني كله)، كذلك الدكتور نورمان كانتور وهو من أكبر كُتّاب التاريخ اليهودي: (إن التوراة شيء ينتمي إلى عالم الأدب أكثر مما ينتمي إلى عالم التاريخ أو الدين)، وقد وصف العالِم ويليم درامبل جهود إسرائيل الحثيثة من العام ١٩٤٨ إلى يومنا، بأنها جهودٌ (ترمي لإخراج شيء يمكن القذف به في وجوه المتشككين) ولما دانت الفرصة للكشف الرهيب عن هيكلِ سليمان إلى جانب أسوار المسجد الأقصى تبيّن بأن المولود كان أموياً لا إسرائيلياً، فما ظنوه هيكلاً لم يكن سوى قصر أموي لأحد خلفاء بني أمية في القدس.

ألم يتساءل نتنياهو لماذا تظهر آثار الإنسان الحجري (العصر الحجري)، في فلسطين، بأكثر مما تدّعيه حضارة خاصة ولاحقة في تاريخها؟.. فهذه (الأوابد اللعينة) لا تريد أن تستجيب، والأركولوجيات الفلسطينية مازالت ترفض إظهار شيء غير تاريخها، أما التلفيق في الاستنتاج وما أكثره، فأفضل مَن يحمل وزره اليهودي الروسي الممتاز فيلوكوفسكي، في كتابه عصور من الفوضى، وأما ألف وأربعمائة سنة إسلامية عربية فغزوة بربرية داهمة لاتصلح كأساس للتدوين، وأما بضعة عقود مشتتة ليس فيها سوى الاضطراب بين قبائل إسرائيل في الشمال وقبائل يهودا في الجنوب... فهي التاريخ كله[*]، وعلى هدي الأسطورة وبدءاً من ذبح داوود لابنه أبشالوم الذي قاد حركة تمرد ضد أبيه مع بعض أسباط إسرائيل، ومروراً بقتل قائد جيشه (أوريا) طمعاً بزوجته

(*) إذا افترضنا أن سنة البدء الرئيسية، كانت في مملكة داوود، فهي تعود إلى العام ١٠٠٠ قبل الميلاد، وإذا ما صدقت الرواية بأن ابنه الملك سليمان توفي في العام ٩٢٥ قبل الميلاد، فهذا يعني أن أعظم أثر يهودي رسمي لم يدم أكثر من ثلاثة أرباع القرن، علماً بأنه ضمن هذه المرحلة التي يعود إليها المجد كله، كانت إسرائيل مشتتة بين مملكة الشمال والجنوب.

الحثّية (بتشبَع)، وانتهاء بقتل (يوآب صاحب داوود) على يد ابنه الملك سليمان حيث تزوّج الأخير بألف امرأة ومحظية كما يقول سفر الملوك... وإلى أن ينهي نبوخذ نصر هذه الحفلة القبلية الصاخبة، وحتى يحين موعد (انتصار اليهود) على يد قورش الفارسي، كما هي العادة في الانتصارات على يد الآخرين... يكون جدّ نتنياهو السيد نتان، قد دار دورة كاملة في الشتات، ثم ليعود في العام ١٩٢٠ من الأسر البابلي إلى حقّه المضيع في فلسطين..

إذن مرحى للعرب في ظل احترابهم وأسوأ ما في أزمانهم من مصائر.. مرحى للمجتمع الإسرائيلي الذي أخرج لنا من أكياس سحرته، جامعَ الأسطورة وماجستير فيلادلفيا على حد سواء!...

ولنعد العدّة لاستقباله على رأس اكتشافه الجديد ـ القديم، ففلسطين هي أرض الخواء في التاريخ، إنها موطن الشعوذة والقبور(*) قبل أن تطأ أقدام جده السلافي أرضها، أما الغريب الذي ظل يتقدم من فراغ المجهول أو العدم، فهو الفلسطيني القادم من سديم الديجور أو سراب الصحراء... وعلى الشرعية الدولية أن تقرر اليوم. فيما إذا كان بالإمكان قبوله في مصاف الشعوب. أم لا.

□□□

(*) يقول نتنياهو على لسان الشاعر الفرنسي ألفونس دي لامارتين، بأنه في العام ١٨٣٥ وخارج أسوار القدس (لم نر مخلوقاً حياً، ولم نسمع صوت مخلوق، صادفنا فراغاً وسكوناً تامين يخيمان على المدينة، على الطرق، على البلاد كلها... إنها قبر لشعب كامل)... وقد نسي نتنياهو أو تناسى، بأن لامارتين عضو الجمعية الوطنية الفرنسية كان قد قال في الوقت نفسه، أو في التاريخ نفسه، بأنه إذا سعت بريطانيا لخلق مملكة يهودية في الشرق، فإن على فرنسا أن تخلق مملكة مسيحية هناك قبلها...

كيف يمكن إذن أن تُشاد الممالك إلا على فراغ القبور، إن خداع الفراغ في المخيلة لازم من أجل التفريغ في الواقع، وإلا كيف لهرتزل الذي لم يكن قد زار فلسطين بعد ولا يعرفها أن يطرح مقولة: أرض بلا شعب لشعب بلا أرض... وكيف يمكن لإبادة الهنود الحمر أن تتم لولا هذا الخداع...

الفصل الأول
التاريخ يكتبه المنتصرون

إن الشريعة لايمكن أن توضع في موضع السيف أو التاج.

دليل الحائرين - موسى بن ميمون.

يجعل نتنياهو من لقاء تيودور هرتزل مع صديقه النمساوي ماكس نورداو، موعداً لإنطلاق الفكرة، علماً بأن الفكرة غالباً ما يكون لها أكثر من موعد!.. وهو مع ذلك، يرجع هذا الموعد إلى خريف العام ١٨٩٥، أما المكان فهو العاصمة الفرنسية باريس. كانت الفرضية الهرتزلية المتشائمة،تقول بأن تيار اللاسامية في أوروبا سيأخذ في الصعود، وأن هذا الخطر الداهم سيدفع بأعداد كبيرة من اليهود إلى أحضان الشيوعية العالمية..

وبسبب من هذا الإنحياز المفترض، فإن أوار اللاسامية سيزداد في ألمانيا وروسيا، بل وفي أوروبا كلها، أما الحل الوحيد الذي انبثق من رأسه، فهو إقامة دولة لليهود في أي مكان، لتأمين خروج المُطاردين إليها.

كان نورداو العلماني، يستمع حتى نهاية السيناريو، لكنه أقلع عن حالة الاسترخاء حين قال: (إذا كان ثمّة مَن يتهمك بالجنون، فأنا مجنون مثلك... باستطاعتك أن تثق بي)... ولا يذكر نتنياهو لماذا الإتيان على الجنون في مثل هذه الحالة، لكنه يقفز إلى جبل صهيون في القدس (علماً بأن التسمية نفسها يبوسية قديمة)، ليجعل منه رمزاً لانطلاق الحركة وتأسيس الدولة في فلسطين. إن مطلع هذه القصيدة لنتنياهو عن هرتزل، يفتقر إلى العمق، فالثنائيات غالباً ما تكون للغناء أو أدب الشعر والرواية.. ومع ذلك دعونا نسأل هل كان هذا هو كل المقطع حقاً؟!.. أم أن هناك مطلعاً آخر حذفه نتنياهو من تاريخ الرجل؟ بسؤال آخر، هل كان هرتزل هو نفسه ذلك اليهودي (المتصومع) في محراب العهد القديم بما فيه من سندات التمليك الجغرافية، أم أن قلقه كان ينبعث من حُمّى انتشار اللاسامية الأوروبية حيث مثّل هذا العامل الخارجي - بعد فضيحة درايفوس - كل استشراقاته، مما قاده في النهاية للتفكير بأي وطن يكون خلاصاً لليهود من عالمهم هذا.. ثم هل كانت فلسطين هي وجهته بالضبط ولماذا التردد والقبول بأرض وغيرها في أمريكا اللاتينية أو أفريقيا أو سيناء آسيا.. وأكثر من هذا، هل كان هرتزل يهودي العقيدة بالفعل، أم شخصية أقرب إلى العلمانية في بلد الثقافة الألمانية، حيث العالم كله يشهد انفجار العبقرية الألمانية في مجال

الفكر والفلسفة والسياسة والموسيقا والأدب. فإذا كان هرتزل هو تلك الشخصية التي لعبت دوراً تأسيسياً بصحبة صديقه الأول ماكس نورداو، فما موقف نورداو نفسه من عقيدة العهد القديم؟!..

يصف نورداو كأوروبي مهذب ومتحمس حقيقي للعلم في كتابه (كذب حضارتنا التقليدية) العهد القديم بما يلي: (إن العهد القديم كأثر جاء متأخراً عن الفيدا، وأن قيمته كعمل أدبي تفوقها قيمة كل شيء كُتب في الألفي سنة الأخيرة، حتى ما كتبه المؤلفون من الدرجة الثانية، إنه لايُقابل بحق، بإنتاج هوميروس أو سوفوكليس أو دانتي أو شكسبير أو غوته، ولا يفعل ذلك إلا كل متعصّب فَقَدَ قدرته على الحكم، أما مفهومه عن الكون فهو سخيف، ومبادئه الأخلاقية مغلقة، كما أنه لايتوانى عن تنسيب الانتقام الخبيث إلى إله اليهود..).

إن نشوء الحركة الصهيونية وفق منظور متكامل، لايمكن أن يأتي في ثنائية لقاءٍ فرضية تبتدئ قبل تسع سنوات من وفاة هرتزل، فقبل ماكس نورداو، كان يجري الكثير في فينا على ضفاف الدانوب.

دعونا نُقلّب صفحات الرجل باختصار:

فقد ولد تيودور هرتزل المجري في قلب العواصف الهوجاء لعالم مضطرب، ففي عام ولادته ١٨٦٠، وقعت الفتنة الكبرى في لبنان بين الدروز والموارنة وكان للقوى الأجنبية من أوروبية وعثمانية دور فيها، ثم ما لبث أن شن الفرنسيون حملة في آب من أجل بسط الحماية على لبنان..

عام ولادة هرتزل أيضاً، كان جوسيب غاريبالدي يغزو بمتطوّعيه ذوي القمصان الحمر جنوب إيطاليا أملاً يبعث نهضتها القومية التوحيدية وقد نجح مسعاه بجريان الدماء، فيما أخفق مسعاه باحتلال مدينة روما لتحريرها من سيطرة البابوية التي كانت ما زالت على عنادٍ مع رياح العصر التي هبّت على أوروبا منذ حين. وما أن دخل الفِطامُ سرير الطفل اليهودي، حتى كانت الحرب الأهلية الأمريكية تلهب بسياطها ظهر القارة الجديدة، فقد اندلعت الحرب بين الشمال والجنوب في العام ١٨٦١، بعد أن رفضت الولايات الجنوبية مبدأ الغاء الرق (العبودية)، وهكذا حَظيت معركة غيتسبورغ الشهيرة بقيادة ابراهام لنكولن بسبعمئة ألف ضحية من الجانبين المتحاربين..

مع بداية الوعي الضبابي لهرتزل مابين العاشرة والحادية عشرة، نشبت الحرب الفرنسية ـ البروسية، وانهزم نابليون الثالث بحصار البروسيين لمدينة باريس وقد خسرت فرنسا في النهاية مقاطعتي الألزاس واللورين بعد أن تم إعلان الإمبراطورية الألمانية في العام ١٨٧١.

وفي العام نفسه، انقّضَ الثوريون الفرنسيون يمزقون صكوك الاتفاق الناجم عن هزيمة نابليون الثالث، وما عتم الثوار أن أعلنوا كومونة باريس، وقد وصفها كارل ماركس بأنها الثورة التي كانت ترنو لاصطياد النجوم.. غير أن جمهورية الشغيلة هذه، ما لبثت أن تنحّت عن تاريخ ليس لها... لكنها مع ذلك كانت قد دفعت ضريبة الدم الباهظة، عشرات الألوف من ضحايا الانتفاضة تحت شوارع باريس وفوقها...

كان تحرير اليهود مع الغاء الرق، ثمرةً بطيئة من ثمار المذهب العقلي، وقد جاء نتيجة الجهود

التي قام بها العلمانيون لا المؤمنون الأوروبيون، وفي روسيا وإسبانيا، فإن تقدم المذهب العقلي كان بطيئاً، أما في فرنسا فكان التحرير كاملاً، لكن معارضي رياح التغيير كانوا قد عارضوا بدورهم منح الحريات لليهود، وقد قاوموا طوال القرن التاسع عشر أولئك الذين عملوا على تهديم فرنسا وتدميرها. إن أول أزمة تعرض لها تيودور هرتزل وكان في الثالثة والعشرين من عمره. هي تلك التي اتصلت بأعضاء (جمعية الباي) حيث كان عضواً في الجمعية، ففي التظاهرة التي أقيمت إحياءً لذكرى الموسيقار الألماني ريتشارد فاغنر انطلقت إشارات لا سامية (ففي حين تجد في موسيقا فاغنر عنصراً ألمانياً فخوراً، فإنك تجد في موسيقا يهود الألمان أمثال ألبريخ ومايم ما يشعرك بالاستكانة والدونية) وقد احتج هرتزل على التمييز في الجمعية فقدّم استقالته، إلا أن إدارة الجمعية رفضت استقالته، ثم ما عتمت أن أصدرت قراراً بطرده.

غير أن مواهب هرتزل، كصحافي متخصص بالروايات المتسلسلة أو بالمقالات أحياناً، كانت قد جلبت له الشهرة، ففي العام ١٨٩١ ذهب إلى باريس وهو يمثّل (الصحافة الجديدة الحرة) وهي صحافة تعمل على إظهار الحضارة النمساوية وماساهم به اليهود في الثقافة الألمانية، وقد صُدم هرتزل ثانيةً حين وجد كتاب ادوارد درومونت بعنوان (فرنسا اليهودية) ينتظره (إن يهود فرنسا ليسوا فرنسيين بل شعب ضيف يستّغل ضيافته في توسيع النظام الاقتصادي لمصلحته الخاصة ولتحقيق السيطرة على العالم... إنهم يجمعون ثروة فرنسا في أيديهم مثل ثروات آل روتشيلد... إننا ندعو لمصادرة ثرواتهم واستعمالها في خلق فرص العمل لأولئك الفقراء من المُستغَلين...).

أما كارل ماركس فكان يقدّم لوحة أخرى عن اليهود لليسار:

(إننا نجد وراء كل طاغية يهودي، ووراء كل بابا يسوعي، والواقع أن الحرب لاتكون ممكنة، لو لم يكن هناك جيش من اليسوعيين يكبت الفكر وحفنة من اليهود تنهب الجيوب).

لقد قرأ هرتزل مثل هذه الكتابات وغيرها. مما كانت تقدمه أوروبا، مثل كتاب وليم جونسون الشهير (يهود كولون) وكتاب يوجين دورنغ الذي يتحدث عن العوامل التاريخ لصعود أوروبا وما الذي ينتظرها على يد اليهود.. وقد اعترف هرتزل بأن السلوك الدنيوي للعديد من اليهود، إنما هو نتيجة للضغط الصادر عن المجتمع المسيحي ليس أكثر (صحيح أن اقراض المال لابد أن يشوّه الخُلق الإنساني، لكن هذه المهنة الكريهة، فرضها المجتمع المسيحي عندما كان يُحرّم إقراض المال بفائدة معينة، كما أن هذا المجتمع نفسه، لايسمح لليهود بمزاولة أعمال أخرى)..

غير أن هرتزل مع ذلك كان قد وصل إلى تفكير آخر.. يقول نتنياهو في إشارة نقدية لتفكير هرتزل دون أن يأتي على اسمه صراحة (مكان تحت الشمس ص ٥٠ ـ دار الجليل للنشر). ـ (في البداية بدا أن حل المشكلة اليهودية أمر سهل حين سيحصل على المساواة في الحقوق المدنية والدينية في المجتمعات التي يعيشون بين ظهرانيها.. فهل كان الأمر كذلك حقاً؟!...)

ثم ما يلبث أن يورد شواهد على خطر مثل هذا التفكير، على لسان جان جاك روسو (إن الحرية الفردية هي الشرط لوجود حرية قومية) كذلك على لسان الشاعر الإنكليزي اللورد بيرون (الحمامة وجدت لها عشاً، وهناك عرين لكل رجل، وصخرة لكل أرنب.. أما اليهودي فله القبر).

كذلك الرئيس الأمريكي جيفرسون الذي أعلن عن سعادته بإعادة الحقوق المدنية لليهود، كما يستشهد بأقوال أخرى للشعراء والأنبياء، كتلك التي يتحدث فيها عن نبوءة حزقيال:

(لقد خلصتكم من الغرباء وجمعتكم من الأقطار وأحضرتكم إلى أرضكم...).

هذه الغلطة العابرة ـ حسب نتنياهو ـ في تفكير هرتزل المبكر، تريد أن تظهر أن الحق التاريخي (الوعد) لليهود في فلسطين كان ثابتاً مع هرتزل، قبله وبعده على الدوام.

غير أن التاريخ يحكي شيئاً آخر:

فقد اقترح هرتزل أول الأمر، أن يتم اندماج اليهود التام في العالم غير اليهودي مع اعتناق دينه، ويقول دزموند سيتوارت في كتابه (تاريخ الشرق الأوسط ـ معبد جانوس دار النهار ص ١٥٢) بأن هرتزل في اقتراحه هذا، أظهر فهماً قليلاً لليهودية والمسيحية على حد سواء، فاليهود من ناحيتهم رفضوا اقتراحه، كما أن الكنيسة الكاثوليكية، كانت من ناحيتها غير مستعدة للترحيب بأناسٍ ظلّوا على يهوديّتهم ثمانية عشر قرناً من الزمن.

ثم مالبث أن أهمل هرتزل، اقتراحه لصالح اقتراح جديد يرمي إلى تجمع اليهود في مكان ما على غرار الدويلات أو الأمارات القائمة في أوروبا.

هذا هو يوري أفينري يقول في كتابه (صديقي العدو ص٧ ترجمة حركة التحرير الوطني الفلسطيني) مايلي:

(لم تكن ترد على لسان هرتزل كلمة عرب في يومياته عن الدولة المنشودة، والسبب في ذلك، أن حلم هرتزل بهذه الدولة، لم يكن ليتركز على بلاد معيّنة، فما حلم به كان عبارة عن (مسودة) وطن قومي، يمكن أن يقام في أي مكان: في الأرجنتين مثلاً، أو في كندا، أو في أوغندا، ولم يكن هرتزل على قناعة بأن ربط المشروع بفلسطين يمكن أن يُضفي على الفكرة ذلك الحماس الضروري (أو الإرادة الفاعلة) إلا في آخر مرحلة من كتابته لكتابه دولة اليهود...)

لماذا ينكر نتنياهو حتى الآن، بأن فلسطين حتى مع هرتزل مؤسس الحركة الصهيونية لم تكن موطن الوعد تماماً، وأن الفكرة كانت على درجة من التردد، بحيث يصبح (القطع) في فلسطين مسألة لاحقة..

هل تجاوز نتنياهو مع ذلك المقطع الأهم في تاريخ الحركة الصهيونية، حين أهمل عن قصد، خطاب خَلَف هرتزل في زعامة الحركة الصهيونية والرئيس الأول لدولة إسرائيل، حاييم وايزمن؟!

ماذا قال وايزمن في المؤتمر الصهيوني عام ١٩٣١ وكيف وصف فكرة هرتزل؟

يقول الخطاب الذي ألقاه وايزمن في المؤتمر بالحرف:

(في جميع بيانات هرتزل، لاتظهر فكرة الدولة اليهودية إلا في كتابه «دير جورنيستان» أي الدولة اليهودية، وحين كتب هذا الكتاب كان هرتزل أبعد ما يكون عن التأكد من أن فلسطين ستكون البلد الذي يتحقق فيه مشروعه، وعلى العكس من ذلك، فإن تفكير هرتزل الفلسطيني أشبه ما يكون بعمل أكاديمي ينطوي على رغبة دينية غير جدية بالنسبة له، فكل أسلوب كتابه

ومنحاه، يشير إلى أنه من المرجح كان يفكر ببلاد أخرى.. ثم ما لبث أن أضاف الفقرة الفلسطينية فيما بعد، لمجرد أن يجعل أصدقاءه من الصهيونيين يشعرون بالثقة والإرتياح).

لقد صوّب هرتزل سهامه أول الأمر، إلى الأرجنتين، ذلك أن مشروع الوطن القومي يندمج في فكر هرتزل، بمشروع شركة استثمار عالمية، وهو عينه ما حدا به للنظر في موضوع الأرجنتين، وقد شجعه أن البارون اليهودي هيرش، كان قد أنشأ مستعمرات يهودية هناك، لكن المشروع من زاويته الاقتصادية، ما لبث أن تعرّض للفشل، عندها توجّه هرتزل في تفكيره إلى شبه جزيرة سيناء والعريش، غير أن بريطانيا لم تكن مستعدة حتى للنظر في هذا الاقتراح، ولم ييأس فطالب بقبرص، إلا أن وزير الخارجية البريطانية تشمبرلن أفاد بأن السكان من المسلمين واليونانيين لن يسمحوا بدخول غريب ثالث إلى الجزيرة... ثم سعى فطلب من البرتغاليين أرضاً في موزامبيق، ومن البلجيكيين أرضاً في الكونغو... وأخيراً، جراء وساطات يهودية نافذة في الحكومة البريطانية، عرضت بريطانيا أرض أوغندا التي كانت جزءاً من كينيا، فاقترح (ماكس نورداو) صديق هرتزل بأن يقبل العرض، وفي آب عام ١٩٠٣ عرض هرتزل الاقتراح على المؤتمر الصهيوني، فصوّت إلى جانبه ٢٩٥ مندوباً غير أن ١٧٧ مندوباً رفضوا الاقتراح، وكان معظم الرافضين من روسيا.. أين الحق الذي لايتزعزع في فلسطين إذن؟! وما الذي دعا هرتزل إلى الاستدارة في تفكيره؟..

يقول نتنياهو في كتابه ص٤٦ مايلي:

(عام ١٨٩٤ غطى هرتسل بتكليف من صحيفته، محاكمة درايفوس في باريس، وقد دفعته المشاهد اللاسامية التي رافقت المحاكمة إلى التفكير بالمسألة اليهودية وسرعان ما بلور خطة محددة لحل هذه المسألة: سلسلة إجراءات عملية لإقامة دولة يهودية حديثة في (أرض إسرائيل) تكون شاطئ أمان، وبيتاً لملايين اليهود الذين يسيرون إلى نهاية فظيعة في أوروبا.. ولتحقيق هذه الغاية طلب وضع كافة الموارد والإمكانيات المالية التي يمتلكها اليهود في كافة أنحاء العالم لصالح صندوق الاستيطان اليهودي (Jwish Colonial trust) وهكذا يكون هرتسل هو الذي أضفى الطابع السياسي على الحلم اليهودي). ها هنا يحاول نتنياهو أن يؤكد على طريقة الكتابة اللاحقة في التاريخ اليهودي.. فهرتزل كما رأينا من شهود يهود غاية في النجومية الصهيونية. لم يكن على موعد مع دولة إسرائيل في فلسطين إلا أواخر أيامه، إذ قبل سنة من وفاته فقط (عام ١٩٠٤) كان يعرض في العام ١٩٠٣، أوغندا كوطن قومي مقبول، وحين خشي من الانقسام الذي سيحدثه يهود روسيا في الحركة الصهيونية، آثر التريث والاستماع إلى النهاية.. أما قضية درايفوس فتساق على طريقة الملحمة اليهودية في التاريخ، ولنعد إلى دزموند ستيوارت (مصدر سبق ذكره ص ١٥٢) كي نسمع ماذا يقول عن القضية ذاتها:

لقد ظهرت قضية درايفوس وهو كابتن يهودي في الجيش الفرنسي واسمه الكامل ألفريد. ج. درايفوس، من منطقة الحدود، في بادئ الأمر كقضية تجسس عادي من أجل المال، فقد اكتشف البوليس السري الفرنسي، أن السفارة الألمانية في باريس تشتري أسراراً عسكرية فرنسية عن طريق الميجر ڤون شفارتز كوبن، وأن الميجر الألماني على اتصال مع الكابتن الفرنسي درايفوس وهو من

أصل ألزاسي، وكانت عائلة درايفوس تمتلك مصنعاً في مقاطعة الألزاس التي أصحبت منذ هزيمة فرنسا عام ١٨٧٠ مقاطعةً ألمانية.

ثم عقدت المحكمة العسكرية جلساتها للنظر في القضية، وقد تبيّن بشهادة الخبراء (في شكل الكتابة والخط) بأن درايفوس مذنب، فقضت المحكمة العسكرية بتجريده من رتبته العسكرية وسجنه، وقد وصف هرتزل الذي حضر مراسم التجريد في يهو الأكاديمية العسكرية في باريس، حيث لم يتعدّ الحضور خمسة آلاف شخص معظمهم من كبار الضباط (مع عائلاتهم) ولفيف من الصحفيين، وقد أجمع الشهود بما فيهم هرتزل على السيناريو التالي: ـ يقول الجنرال القائم على عملية تجريد الرتبة ما يلي:

ـ ألفريد درايفوس. أنت لاتستحق حمل السلاح، باسم الجمهورية الفرنسية أجردك من رتبتك. فلينفذ الحكم... صاح درايفوس مقسماً بأنه بريء، لكن الحكم كان قد أخذ مجراه وسيق درايفوس مكبلاً إلى السجن. هذا ولم يذكر هيرتزل في رسالته إلى صحيفته مايشي بشيء عن اللاسامية المدعاة فيما بعد، ذلك أن الرجل أدين على أساس أنه خائن لا لأنه يهودي.. لكن الصحافة اليمينية المتطرفة، هي التي هاجمت يهودية درايفوس قبل خيانته فيما بعد.

لقد وقف رجال فرنسيون عظماء مثل كليمنصو نفسه والكاتب الرائع إميل زولا إلى جانب براءة درايفوس، وقرر المجلس العسكري بعد إعادة المحاكمة، براءة درايفوس في العام ١٩٠٦ ثم ما لبث أن أعيد إلى الجيش مع كامل حقوقه وامتيازاته، فهل حدث كل هذا الفارق في اللاسامية المدعاة في غضون عقد من الزمن فقط؟!

ثم أين هي فلسطين التي نادى بها هرتزل بعد فضيحة درايفوس حسب أقوال نتنياهو؟! ولماذا لايتحدث عن تجربة روديسيا الأفريقية التي أراد هرتزل تقليدها بأمانة نادرة.

كان سيسيل رودوس على قناعة بأن العرق الأنكلوساكسوني قد وصل إلى قمة التطور الإنساني بإنجازه مشروعاً إلهياً، وهكذا سيركز رودوس ثروته الهائلة باعتباره سيد مناجم الذهب في جوهانسبرغ، ليشكل شركة تشمل الإمبراطورية البريطانية والعالم كله، وهكذا بعد حصوله على إذن خاص من حكومته البريطانية، فإنه قام بدمج منطقتين في جنوب أفريقيا عام ١٨٩٥، وقد أطلق عليهما اسمه الخاص فأصبحت (روديسيا).

في الوقت الذي يتحدث فيه نتنياهو عن الفظاعة اللاسامية إثر فضيحة درايفوس، كان هرتزل مشغولاً بشيء آخر، فقد أرسل على الفور ودون إضاعة للوقت، برسالة مشورة إلى سيسيل رودوس، يطلب فيهاأن يقدم الأخير خدمة له:

(أرجو أن ترسل لي نصّاً يقول أنك قد امتحنت برنامجي وأنك قد قبلت به.. سوف تتساءل يا سيد رودوس لماذا أوّجه إليك مثل هذا الطلب.. وجوابي لكم بأن برنامجي إعماري مثل برنامجكم).

كان رودوس من أجل إتمام مشروعه الإقليمي الضخم، قد حصل من روتشيلد على مليون

جنيه استرليني وهو رقم فلكي آنذاك، ولذلك فقد انفتحت القناة بين مشروعين استعماريين متماثلين في الجوهر: جنوب أفريقيا وفلسطين، وفي الوقت الذي دارت فيه عجلات رودوس على الأرض، كانت فكرة هرتزل ما تزال على الورق، غير أنه أدرك بنبوءة نادرة، أن الوقود الذي سيدفع بالقاطرة الصهيونية سيتألف لامحالة من عنصرين:

- العنصر الأول ويتمثل في إحياء الأسطورة القادرة على بعث روح الماضي، أو ما يُسمى بالتركيز على الأرض المسكونة بروح الأجداد.

- العنصر الثاني، واقعي عملي، ويتمثل بالدعم اليهودي العالمي للشركة ذات الامتياز التي سينشئها على طريقة رودوس.

لم يكن هرتزل من الأتقياء المؤمنين بعهد التوراة، فعلى ضفاف الدانوب، سواء في بودابست أوفينا، كانت ثقافة ألمانيا وألحان فاغنر هي الأقوى... وحين سأله الكاتب الصحفي آشر مايرز: ما موقعك من التوراة؟ أجاب: (أنا رجل حر التفكير، وعلى كل منا أن يبحث عن خلاصه بطريقته الخاصة). وحين جيء على مقولة العرق الصافي أجاب ساخراً: (نحن اليهود وحدة تاريخية ذات أصول بشرية متنوعة، ويكفينا ذلك لقيام دولة يهودية إذ ليس هناك أمة ذات عرق صاف).

وفي موضوعة أسطورة الأرض (أي أرض الميعاد)(*)، فإن هرتزل لم يكن يهتم بالأفكار الدينية الخاصة بفلسطين، إلا بمقدار ما تخدم المَثَل القومي الأعلى، ولم تكن المعتقدات الدينية المنسوجة حول الأرض المقدسة بالنسبة له ذات فائدة، إلا على أنها مناورات بارعة لحماية النزعة القومية وطاقاتها القوية في مواجهة مظاهر الاندماج الذي يهدد مشروعه.

والواقع أن القضية الجوهرية بالنسبة له كان في إنشاء دولة يهودية أياً كان موقعها.

حين قرأ هرتزل رواية (سجين زندا) للروائي الشهير أنتوني هوب، فقد أثارت الرواية عنده أخطر ما سيتعرض حلمه من طموح، إذ ماذا سيفعل بالسكان الأصليين، وقد عثر على حلّه الميكيافيلي بحرمان هؤلاء من العمل مع شراء أراضيهم بأسعار مغرية إلى أن يصلوا إلى درجة من اليأس ترغمهم على الرحيل خلف الحدود، فحين سأل تشمبرلين عن مصير سكان قبرص الأصليين مثلاً، كان جواب هرتزل جاهزاً: (سنعمل على ترحيل المسلمين إلى ديارهم التركية بالقوة، أما السكان اليونان، فسيسعدهم أن يبيعوا أراضيهم بأسعار مغرية ثم يهاجروا إلى أثينا أو كريت).

أُعجب تشمبرلن بطريقة العرض الاستعمارية لدى هرتزل، غير أن واقع بريطانيا في المنطقة لم يكن يسمح بذلك، فالمسألة الشرقية على الأبواب، وهو يريد حلاً مشتركاً مع حلفائه الكبار، لا مع حليفه الصغير هرتزل...

(*) إنها الأرض التي وعد الله بني إسرائيل، فإذا ما رجعنا إلى التاريخ القديم في المنطقة، فإننا نجد أن الشعوب جميعها كانت قد تُوعدُ بالوعد نفسه، فعلى مسلة الكرنك أيام تحوتمس الثالث نُقشت العبارة: (بإرادتي سأخصّك بالأرض طولاً وعرضاً)، وفي قصة الخلق البابلية يعد الإله مردوخ بتحديد نصيب من الأرض لكل شعب، والأسطورة هنا أقل عنصرية على الأقل، أما الشعوب الحثية فكانت تنشد مع آلهة الشمس إرينا التي تسهر على حفظ الأرض ورسم الحدود. فماذا لو عادت هذه الشعوب كي تطالب بما وعدتها به آلهتها؟!..

أما الفارق بين هرتزل ونتنياهو في المسألة، فإنه يكمن في أن الأول يتجاهل مسألة السكان الأصليين، فإذا ما أُقحم في السؤال تدّبر حلاً عملياً ـ ميكيافيلياً لا يفتقر إلى استخدام القوة عند الضرورة ولكن قبل استخدام قوة، المال أولاً، أما الثاني (نتنياهو) فهو ينكر أصلاً وجود شعب فلسطيني، فإذا ما أشير إلى هذا البحر من السكان. أجاب: اليهود هم شعب فلسطين، أما هؤلاء فهم من العرب!.. سيعزف نتنياهو على وتر الغرب المتُحضّر حامل الثقافات الإغريقية والتوراتية، حين سيعزو تعزيز التأييد الغربي لفكرة النهضة القومية اليهودية إلى عوامل مثل إيمان الغرب بالعهد القديم، وانتشار أفكار الحرية والمساواة، ثم الثقافة العالية التي كان يتحلى بها أعضاء مؤتمر الصلح في فرساي، ولايجد مانعاً من الاتيان على (ممالك العدل) الأوروبية، فيخصّ زعماءها بالإطناب والمديح مبتدئاً بالرئيس الأمريكي جون آدامز (ص ٥١)، واللورد ليندسي (ص٥٢) كذلك لويد جورج وبلفور وويلسون (ص٧٢) وروسو وبيرون وآخرين..

لقد جمع نتنياهو زعماء الصهيونية ـ المسيحية من غير اليهود، ليثبت أن الصهيونية كانت في بداياتها تلقى التأييد من أوساط مسيحية نافذة بأكثر مما تلقاه من اليهود، ثم يقول: (كان التأييد الذي حظيت به الصهيونية من جانب الدول العظمى في مطلع القرن العشرين، يكمن في نظرة جديدة للشعب اليهودي، تطورت في عصر الثقافة والمساواة، وأبرزت الحق الطبيعي في الحرية لكل بني البشر). (ص٤٩).

غير أن نتنياهو آثر أن يبدأ بنابليون حين وصفه بأنه (كان شريكاً بالرغبة في رؤية اليهود عائدين إلى وطنهم.. ففي عام ١٧٩٩ عندما كان جيشه يقف على بعد ٤٠ كم من القدس أعلن نابليون: أفيقوا أيها الإسرائيليون. حان الوقت للمطالبة بوجودكم السياسي كأمة بين الأمم ـ ص٥١).

هل يجهل نتنياهو، خريج الجامعات الأمريكية تاريخ المنطقة إلى هذا الحد؟ أم أنه يتجاهل فيغتال التاريخ لصالح ما يريد تعزيزه على هواه..

هل من الممكن أن يتصوّر رئيس وزراء شعب التفوّق، بأن نداء نابليون لليهود، كان صادراً عن قناعة بالتاريخ أو الحقوق؟ فإذا كان الأمر كذلك، فلماذا لايفصح نتنياهو عن حقيقة (نابليون اليهودي) الذي كان حامياً للإسلام قبل قليل؟!. وسواء كان (تاريخ نتنياهو المقصود) نابعاً عن جهل او تجاهل، فإن لوحة الصراع الدولي آنذاك، لايمكن أن تخفي نفسها حتى عن عيون طالبٍ في الثانوية العامة، فجنرال فرنسا العبقري، عاد مرة أخرى ليستأنف حلم لويس الرابع عشر، حتى لو أدى ذلك إلى الصدام المسلح مع بريطانيا، وقد شرع بتطبيق أفكاره بالحملة الشهيرة على مصر والتي أسماها (بحملة النيل)، وكان القصد بعد مصر بلاد الشام، حيث الغاية النهائية، هي جوهرة التاج البريطاني التي هي الهند نفسها...

كانت ورقة نابليون الإسلامية جاهزة ومطبوعة، قبل أن تبحر سفنه الحربية من موانئ فرنسا، ومن المرجح أن ورقته اليهودية كانت كذلك أيضاً، إلا أنه آثر إرجاء الثانية حرصاً على كسب ود مليوني مصري آنذاك، ولم يكن أمام شعب مصر الذي أنهكته مظالم المماليك إلا أن يصدّق

(إسلامية نابليون)، أما الورقة اليهودية التي طيّرها مع اقترابه من مدينة القدس، فلم تكن ليهود فلسطين بالطبع، إذ ماذا يفعل (ألفان من اليهود في فلسطين) لنابليون؟.. غير أن العبقرية البونابرتية كانت تتجلّى في ذلك الأثر الاستراتيجي الذي رسمه نابليون والتقطه العالم الاستعماري منذ حملته وإلى تاريخنا هذا... فنابليون كان يرمي إلى اجتذاب قوة اليهود العالمية إلى جانبه ضد بريطانيا ليس أكثر أما استراتيجية نابليون هذه، فقد أصبحت دليل عمل لبريطانيا فيما بعد.

لم يكن بونابرت يهودياً ولا موالياً لفكرة الحق اليهودي في أي مكان، بل لعل العكس هو الصحيح، ففي ورقته اليهودية التي أغفل نتنياهو مضمونها الحقيقي، مايشي بنبرة الازدراء، ولنستمع إلى ما تقول بقية الورقة:

(إلى المشردين في التيه الذين عليكم غَسل ذلك العار الذي أوقعكم تحت نير العبودية، وذلك الخزي الذي شلّ إرادتكم لألفي عام، إن فرنسا تقدّم لكم يدها حاملة إرث إسرائيل، وهي تفعل ذلك في هذا الوقت بالذات، رغم شواهد يأسكم وعجزكم).

فأية حفلة من التوبيخ إذا كانت كل مفرداتها هي: العار، والتيه، والعبودية، والخزي وشل الإرادة... ثم اليأس والعجز!..

إن الورقة البونابرتية لليهود، كانت بمثابة نبوءة للمستقبل، وهي ما اقتحم الانكليز مجاله بفعالية فيما بعد، فقد أخذ رئيس وزراء بريطانيا اللورد بالمرستون عن إمبراطور فرنسا وتعلّم منه، وكانت تلك هي ميزة بريطانيا الكبرى في مراحل صعودها، فهي تحفظ الدرس ولو من أعدائها، ثم ما تلبث أن تحيله أداءً ممتازاً يبزُّ الأصل في صورته وتصوّره وممارسته...

يقول نتنياهو بهذا الصدد، (لقد كان السياسيون البريطانيون الذين أعلنوا عن تأييدهم للنهضة القومية اليهودية من المعروفين وذوي الأهمية في الإدارة البريطانية مثل: بالمرستون وشافتسبري ودزرائيلي واللورد سولبري واللورد مانشستر، كما أن هناك عدداً من رؤساء الولايات المتحدة مثل وليم ماكنلي وتيودور روزفلت ووليم تيبت وقفوا إلى جانب الصهيونية..) إلى أن يقول: (لقد اندمج في هذه الحركة الجماهيرية تيار بالغ الأهمية زادت قوته في القرن الماضي هو: الصهيونية - المسيحية، فقد آمن أتباع هذا الخط، بأن خلاص البشرية الروحي، لن يتحقق، إلا بعد تجميع الشتات اليهودي وفقاً لما ورد في التناخ).

ثم يتابع: (على أية حال كانت الصهيونية سواء بالنسبة لليهود أو المسيحيين بمثابة تحقيق لنبوءة قديمة، كان قد قالها يشعياهو: ويجمع إسرائيل الشتات، ويحمل معجزة للغرباء، ويجتمع اليهود من كافة أقطار الأرض) (صفحات ٥١ و ٥٢ ومابعدها...).

تلك هي المسألة إذن، فأصحاب تيار العقل من الغربيين، سواء في مجال السلطة أو الفكر أو الأدب... ينظرون إلى حرية اليهودي لا على أساس فردي، بل على أساس جماعي قومي لايتحقق إلا في أرض الأجداد، أما أصحاب الأسطورة فيؤمنون بالنبوءة التي طالما أرسلها أنبياء اليهود في العهد القديم. فلماذا يغتال نتنياهو أصحاب تيار العقل من عظماء اليهود في العالم، حين لا يأتي على ذكر الفيلسوف الكبير باروخ سبينوزا الذي أسهم على نحو رائع وأصيل في التيار العقلاني الديكارتي، أو

على ذكر موسى مندلسون الملقب (بلوثر اليهودية الجديد) خاصةً في كتابه الخلاص اليهودي، أو على ذكر أولئك اليهود الذين أسهموا في حقل الفلسفة الكانتية فنبغ منهم هاينرش هايني في مجال الشعر ومندلسون في مجال الموسيقا وآينشتاين في مجال الفيزياء. بالطبع، لأن هذه الروائع العالمية، كانت جزءاً لا يتجزأ من مجمل الثقافة الغربية السائدة في القرنين السابع عشر والثامن عشر، بحيث لايرى في هذه الروائع أي أثر لخصوصية يهودية مثلما لايرى أي أثر من كاثوليكية باستور في أبحاثه البيولوجية، ولا أي أثر من بروتستانية نيوتن في فيزيائه، ولا أثر يهودي لماير في موسيقاه...

فسبينوزا مثلاً، لايُعجب النزعة الأسطورية أو التعصبية التي يقوم عليها نتنياهو في مبحثه العجيب، إذ حين سئل سبينواز عن موطنه الذي يحب (إذ هو سليل أسرة هربت من محاكم التفتيش في إسبانيا) أجاب على الفور: هولندا هي موطني، إنها النموذج الأكمل لنزعة الانفتاح والشمولية). وقد أصدر حاخامات (نتنياهو) في أمستردام يومها، قرارا بالحرمان ضد سبينوزا بتهمة الهرطقة، بل إنهم حاولوا قتله، ولم يُرَدُّ له اعتباره إلّا بعد مئتين وخمسين عاماً من وفاته أي في العام ١٩٢٧(*).

أما مندلسون فسيكون نتنياهو أبعد عنه بكثير، إذ كيف لنتنياهو أن يستشهد بكتاب مندلسون الشهير (الخلاص اليهودي)، والذي يقول فيه مخاطباً اليهود: (واأسفاه يا إخوتي... لقد عانيتم من الخضوع لنير التعصب ما عانيتم، وكل الشعوب حتى الآن، كانت قد خُدعت بالفكرة القائلة بأن الدين يمكن أن يفرض فرضاً بيد من حديد، لقد قاسيتم من ألوان العذاب ما جعلكم تقتنعون بتلك الفكرة، أيها الأخوة اسلكوا طريق المحبة كما سلكتم سابقاً طريق الحقد)..

ثم مالبث أن أعلن الكونت دي كليرمون من الجمعية الوطنية الفرنسية ما نذر مندلسون نفسه إليه، فبعد خمس سنوات من وفاته ستشرّعُ الثورة الفرنسية ما يُعتبر بمثابة وضع الحد النهائي لقرون العنصرية الباغية: (كل شيء لليهودي الفرد، إنه والمواطن الفرنسي سواء بسواء، لكن لاشيء لليهود على أنهم أمة في فرنسا).

لقد بزغ تيار ملائم وعظيم، لاندماج اليهود في مجتمعاتهم بدءاً من فرنسا، ثم مالبث أن عمّ هذا التيار جميع أوروبا، حين نودي في التشريعات على أن لليهودي ملء الحق في المطالبة باحترام عقيدته وطراز عيشه وحريّته وعمله..

إلا أن ذلك لم يعجب نتنياهو، وهو الذي يرفض حلّ الاندماج اليهودي عبر التاريخ(**)، وها

(*) في عصر الأنوار دعا سبينوزا إلى اتباع دين الإنسانية والتسامح، وقد أدان عصور التعصب الديني المظلمة، كما ندّد بعصور الحَجر والعزلة اليهوديتين التي تقوم على عادات: شكلانية الطقوس والنظام الانعزالي المنكمش، ثم سخر من الشريعة القائلة بعدم زواج اليهودي إلا من يهودية!..

(**) لايدق نتنياهو باب أحد من دعاة الاندماج في التاريخ اليهودي، رغم أنه يستشهد برجالات الغزو الغربي أو بشخصيات الحقد الأسطوري في تاريخه، فبايرون بدلاً من شكسبير، وعنده بالمرستون بدلاً من ماركس وجابوتنسكي بدلاً من مندلسون، والحاخام يهودا هيلفي بدلاً من سبينوزا وقس على ذلك، علماً بأن دعاة الاندماج هؤلاء أكثر نجومية في تاريخ العبقرية الإنسانية.

هو يكتب بإعجاب عن اللورد الانكليزي شافتسبري حين يؤكد بأن (النهضة الكبرى لليهود لايمكن أن تتحقق إلا في الأرض المقدسة) ثم يزداد اعجابه باللورد بالمرستون (وزير الخارجية ثم رئيس الوزراء في بريطانيا) حين يقول: (سوف أعمل على اقناع السلطان التركي بأن الخير سيأتي إلى إمبراطوريته حين سيسمح لليهود بالقدوم والاستيطان في فلسطين).

كانت رياح واترلو المعركة التي أدت إلى هزيمة نابليون في بلجيكا، ما زالت تهب في أرجاء القارة الأوروبية المتذابحة حول مناطق النفوذ في العالم، وقد التقط اللورد بالمرستون رؤى نابليون حول الشرق الأوسط، قبل أن يلتقط دفء الإيمان بالحق اليهودي أو نُبلَ الأهداف الإنسانية في المساواة والعدالة والحرية، فاللورد بالمرستون شأنه شأن أي لورد بريطاني يتولى المسؤولية بدءاً من الخارجية وحتى رئاسة الوزراء في لندن، فيما بدا أن بالمرستون، كان قد اكتفى بالإجهاز على الخطط الفرنسية التي كان يديرها نابليون، وفي الوقت نفسه، فإن الدعاوى التبشيرية التي أطلقتها طائفة البروتستانت انطلاقاً من العهد القديم، كانت قد وصلت إلى سمعهِ، لكن المشكوك فيه أنها وصلت إلى عقله، أما الشخصية الثانية التي يستشهد بها نتنياهو، فكانت هي شخصية اللورد شافتسبري قريب بالمرستون بالمصاهرة، وتؤكد وثائق تلك المرحلة ووقائعها بأن الأزمة كانت قد وصلت إلى عنق الزجاجة جراء هجرة اليهود من شرق أوروبا إلى غربها، وقد خشيت الطبقة الأرستقراطية اليهودية من هجوم جحافل الفقر والتخلف إلى غرب أوروبا مما يمكن أن تنشب معه صراعات ضد اليهود بشكل سافر، وما من شك بأن شافتسبري وروتشيلد وحتى بالمرستون كانوا يفضلون إرسال الفائض من (أكوام الفقر والمرض) إلى فلسطين، غير أن الأهداف الاستراتيجية التي كانت تتبلور في ذهن بالمرستون كانت شيئاً أكبر، فقد كان عليه ـ بناء على نصيحة اللورد ولنغتون قائد الجيوش البريطانية وقاهر نابليون في معركة واترلو ـ أن يتأكد من تحقيق مايلي:

١ ـ إخراج محمد علي باشا من سوريا وإعادة تسليم المنطقة خاوية إلى السلطان التركي.

٢ ـ تحجيم محمد علي داخل مصر بحيث عليه حل الجيش وتدمير معامل السلاح والمنشآت الحيوية الأخرى، وما يمكن تشبيهه بما يحدث في العراق اليوم.

٣ ـ اقتراح روتشيلد صاحب الثراء اليهودي الشهير، باقفال عنق الزجاجة المصرية في وجه بلاد الشام نهائياً وذلك بتشكيل منطقة عازلة يقوم على رقابته كيان يهودي يتحقق بالسماح بالهجرة إلى فلسطين.. ولعل اقتراحه هذا كان يستسقيه من ينابيع التاريخ القديم: فراعنة مصر أو حطين.

٤ ـ وفق حاجز العزل هذا، فإن الطريق إلى جوهرة التاج البريطانية وهي الهند، سيكون مأموناً على الدوام.

ولعل اللورد بالمرستون وقتها، كان ينكب بالطبع، على ماهو أكثر أهمية من مجرد الاستماع لظلامات أهل الحق في التاريخ، فهو كرجل دولة بريطاني كان يسعى لخدمة استراتيجيات المصالح العظمى لبريطانيا، لا كما يريد نتنياهو أن يقوله، فلا التوراة ولا البروتستانت، ولا التناخ أو المكراه، كانت قائمة في ذهن اللورد سليل العرق الممتاز للانكلو ساكسونية، وكيما يتأكد نتنياهو من تاريخه، ولعلنا نتوقع منه ألا يفعل ذلك، فإننا سنسوق الواقعة ذات الدلالة البالغة، التي يرويها

شاهد نتنياهو الآخر، اللورد شافتسبري نفسه، وذلك كما وردت في كتاب الأستاذ محمد حسنين هيكل (المفاوضات السرية بين العرب وإسرائيل - دار الشرق - ص٣٩):

(أمس تناولت العشاء مع بالمرستون، ورحت بعد العشاء أحدثه عن مأساة اليهود وعذابهم، وكان يستمع إلي وعيناه مغمضتان يمسك بيده كأس براندي يرشف منه ما بين وقت وآخر.

وعندما تركت حديث المأساة اليهودية، ورحت أحدثه عن المصالح والمزايا التجارية والمالية التي تنتظر بريطانيا في الشرق، لمعت عيناه وتبدى اهتمامه وترك كأس البراندي على المائدة بجانبه ثم راح يسمعني بكل جوارحه)..

لماذا كان اللورد نائماً عند الحديث عن المأساة اليهودية؟

ثم لماذا صحا فؤاده وعقله عند الحديث عن مصالح بريطانيا العظمى؟! وهل ننتظر الإجابة من صاحب العرض التاريخي الخاص بالغرب في فلسطين... إنني أعرف بأن نتنياهو لا يجهل تاريخ بريطانيا في فلسطين، فهو معنيٌّ به أكثر من أي شخص آخر، أليست بريطانيا نفسها، هي التي وزّعت صور صاحب مدرسته في السياسة والتاريخ إسحاق شامير، ثم طبعت تحت الصورة بلغات ثلاث: مطلوب للعدالة.

بعد مئة عام من تاريخ نتنياهو السريع ستتكرر حفلة الإيمان بالحق اليهودي في فلسطين، على لسان المتدينين والعلمانيين من الصهاينة اليهود وغير اليهود في بريطانيا وأمريكا، حيث في مطلع القرن، سيمثّل ساسة كبار من أمثال لويد جورج وآرثر بلفور ودوور ويلسون، دوراً مستكملاً لسياسات أسلافهم في الإدارة.. وها هو يأتي على رجال فرساي فيقول:

(كان رجال فرساي أولاً وقبل كل شي، ذوي فكر سياسي درسوا مسألة النهضة القومية اليهودية على أساس من مبادئ الحقوق القومية وتقرير المصير.. وقد وافق زعماء العالم على أن يحصل اليهود على دولة خاصة بهم، رغم معرفتهم بأنه لاتوجد سابقة لمحاولة إقامة دولة من لاشيء).

وكان ينقص نتنياهو أن يتمم: ولعل الشيء الوحيد الذي كان في فلسطين هو اليهود!..

ما هو الشيء الذي كان موجوداً في مخيلة زعماء العالم في فرساي؟ أليس هو اقتسام تركة الرجل المريض؟ لماذا لايتحدث نتنياهو عن المسألة الشرقية التي تشكل (دولته) إحدى نواتجها؟ ولكن قبل فرساي بقليل، علينا أن نطرق باب داوننغ ستريت في لندن (مقر رؤساء الوزارات)، حيث يخطط الدهاقنة من لويد جورج إلى دزرائيلي إلى آرثر بلفور.. لاقفال المنطقة لصالح بريطانيا من الخليج العربي وحتى رأس الرجاء الصالح، مع السهر على (أغلى مشروع عالمي قدمّه القرن التاسع عشر) ألا وهو قناة السويس، وبإنشاء الهلال المضروب من مستعمرة عدن وحتى جنوب العراق، على أفواه البحار ومخارجها، تكون بريطانيا قد أرست أهم ما في استراتيجيتها من قواعد: عزل مصر عن بلاد الشام، تأمين خطوط المواصلات الإمبراطورية إلى الهند، السيطرة على طرق التجارة البحرية، وأهم شريان لها قناة السويس (التي تم تدشينها في العام ١٨٦٩)، ثم السيطرة

على البحرين الأبيض والأحمر، كذلك تأكيد المركز المالي والتجاري لصالح الإمبراطورية في المنطقة والعالم.

لقد عملت بريطانيا مع اليهود في هذه الآونة بصورة وثيقة، وكان منشور بالمرستون السري إلى قناصل بريطانيا في دمشق وحلب والقدس وبيروت وحيفا يقول: (إن حكومة انكلترا تعتبر نفسها مسؤولة عن سلامة اليهود وحمايتهم... والأتراك يعرفون ما ينبغي عمله تجاه اليهود... وإن على اليهود في بلاد الشام أن يتعرفوا على مضمون هذا التعهد.. كذلك يهود النمسا وفرنسا وعموم أوروبا بصفة عامة... فإذا ما قصّر قناصل هذه الدول (الأوروبية) في توفير الحماية لليهود، فإن من الضروري أن يلجأوا في هذه الحالة إلى القنصل البريطاني أينما كان..).

وبعد بالمرستون، عملت السياسات البريطانية اللاحقة على تطوير المشروع، ففي جنوب أفريقيا (سلسلة مشاريع رودوس) كان الرأسماليون والمضاربون اليهود، أحلافاً متحمسين في عطاءات ذهب الترانسفال (أي التحويلات إلى البنوك البريطانية)، وفي الهند جوهرة التاج، انحدرت العائلات الانكليزية ـ الهندية من عشيرة ساسون الفارسية اليهودية، إلا أن ذلك وغيره لم يكن يعني أن السلالة الممتازة من العرق الانكلو ـ ساكسون، كانت سعيدة بالعيش مع اليهود، ولا حتى بالاستسلام الأعمى لمطالبيهم التي لاتتوقف.. فزملاء دزرائيلي في مجلس العموم، كانوا ينعتونه رغم انكليزيته الرسمية بالغريب، وقد وصف إيرل دربي وهو من شخصيات المجتمع والبلاط، دزرائيلي بقوله: (إنه يؤمن بالأبهة الفارغة كما يفعل جميع الغرباء) أما لورد سالزبري زميله الآخر في المجلس فوصفه بطريقة أكثر خشونة (إنه يهودي متحجر وهو مجرد من المبادئ الخلقية ولا حق له في أن يكون عضواً في مجلس العموم) (تاريخ الشرق الأوسط ـ سيتوارت ص ١٥٥ ـ ١٥٦ دار النهار).

ورغم إعجاب آرثر بلفور بالعهد القديم، إلا أنه لم يكن يحمل الإعجاب نفسه ليهود زمانه، وقد كان بلفور ينتمي إلى الطبقة التي يعود لها الفضل الأكبر في خلق الإمبراطورية التي لاتغيب الشمس عن أراضيها، وفي محاضرة له ألقاها في جامعة كمبردج، مزج بين الغرباء البرابرة الذين حطموا عظمة الإمبراطورية الرومانية، ومايمكن أن يفعله الغرباء في بريطانيا.. هذا وسيرفض بلفور وضع أفريقيا في الاتحاد السكسوني الذي كان يحلم بإنشائه، حيث لايمكن لهذا الاتحاد إلا أن يكون وطناً خالصاً للعرق الأبيض.

وقد قام بلفور بدور برلماني كبير لمقاومة هجرة اليهود إلى انكلترا، خاصة أولئك الهاربين من مذابح القيصرية الروسية (يمكننا أن نتصور وضعاً لا يفيد هذا البلد حين يكون فيه عدد كبير من الأشخاص الذين مهما كان اخلاصهم واجتهادهم، يظلون شعباً منعزلاً، ولا يختلف دينهم عن دين أكثرية المواطنين فحسب، بل لا يتزاوجون إلا فيما بينهم أيضاً) (ستيوارت ـ المصدر السابق ص١٥٦).

سيساعد الاستعداد لقبول كون اليهود ساخطين على وضعهم على تسهيل دور حاييم وايزمن في مرحلة لاحقة كداعية للصهيونية في انكلترا، فقد قدم الرجل اختراعه (الأسيتوني) الكيميائي،

في مرحلة كان فيها لويد جورج منهمكاً بحاجات الجبهة حتى النخاع، ورغم أن بلفور كان منهمكاً مثله، إلا أنه ظل يحلم بخلفٍ بين الأعراق الممتازة، هذا وسيسهم اختراع وايزمن الثمين في تأكيد مقولة لويد جورج القديمة من أن اليهود (خليط من الذهب والوحل)، ولما كان جورج وبلفور من المعجبين بالعهد القديم، فإن العبرانيين القدامى هم الذين كانوا يمثلون عرق الذهب في التاريخ، أما اليهود المعاصرون فكان رأيهما أنهم يمثلون مستنقع الوحل الذي آلوا إليه!.

شيئان في هدية وايزمن جذباً كُلّاً من لويد جورج وبلفور:

ـ الحفاظ على عرق الذهب من اليهود في بريطانيا.

ـ تجفيف مستنقع الوحل بإبعاد العدو الأكبر منهم إلى فلسطين. وهناك شيء ثبّت الصفقة، وهو أن بريطانيا بعرضها على الحركة الصهيونية ما تريد، فإنها تضع يدها على فلسطين، إذا ما جاءت فلسطين في حصة الأسد البريطاني إثر توزيع مغانم التركة العثمانية.

يتباهى نتنياهو وهو على حق، بالمقدرة الاستثنائية التي مثّلتها شخصية يهودي يكتشف فنّ السياسة ويجيد استغلال المصالح المشتركة على الصعيد السياسي ـ نتنياهو ص٤٨) وبأطناب متواتر، يقدم لنا صورة الرجل الذي بقي في المضمار يصارع حواجز المستحيل لبلوغ الهدف، إلا أن الحقائق لم تكن وردية على هذا النحو (الذي هو جزء من أسطورة نتنياهو المحببة) ففي رأي العديد من معاصريه، فإن هرتزل كان شديد التشاؤم بل والتردد أيضاً(*)، وقد وصفه أحد جلسائه بأنه الصورة الثانية لشخصية هملت المضطربة، وغالباً ما كان يرتعش عند سماعه سخرية الآخرين لما يطرحه، وقد قال ذات مرة:

(إن أعنف معاركي ستكون مع السخرية اليهودية لأن هذه السخرية نابعة من صورة السجين الذي يريد بالوهم، أن يظهر نفسه حراً..).

وفي وصفه للقاءات البارعة التي حققها هرتزل رغم عمره القصير (١٨٦٠ ـ ١٩٠٤) فإن نتنياهو يقول (لم يكن من السهل أبداً، على صحفي يهودي أن يحقق مقابلة مثل المقابلة التي حققها مع قيصر ألمانيا)، أما النجاح في مقابلة السلطان التركي فشيء يبعث على الإعجاز، ويتابع قائلاً: (إن الإهتمام الذي أبداه زعماء العالم بمشروعه... يدل على صحة أسلوبه وقوة شخصيته).

وأكثر من هذا فقد قابل هرتزل العديد من زعماء العالم غير ما ذكره نتنياهو واقتصر عليه، إذ لم يكن يتوانى الرجل عن لقاء العرقيين من أعداء شعبه، قبل اللقاء بحلفائه المقربين، وهناك وقائع مثيرة للقاءات حققها هرتزل بأساليب شتى، مع غير النجوم الكبار من زعماء العالم

(*) لم يكن هو المتردد الوحيد بخصوص الموطن الذي يريد تأسيس مشروعه الكبير عليه، ورغم اعجابه بكتاب ليوبنسكر (التحرر الذاتي) فإنه كان قد وضع خطاً تحت فقرة خطيرة تقول:

ليس من الضروري أن يكون هدفنا هو استعادة الأرض المقدسة، نحن لانريد أن نربط أنفسنا بالمكان الذي تحطمت فيه حياتنا وتوقفت... من حقنا أن نطالب بأرض، أية أرض، أية قطعة من الأرض تكفي إخواننا البؤساء... أرض تكون ملكاً لنا ولايستطيع أحد أن يطردنا منها.

(وزراء، قناصل وسفراء، زعماء شعبيين مثل مصطفى كامل في مصر، كتاب وفنانين وسواهم كثير). وللتاريخ فإن هرتزل كان يجدُّ في طلب المقابلة لكل مَن يستشعر أنه يخدم قضّيته غراماً أم كرَها، فاللاسامية كما وصفها هو، ستصبح حليفته الحقيقية في دفع اليهود للرحيل، وعدم التعصب الذي تبديه الأعراق الأوروبية الممتازة، يتناسب مع بزوغ فجرها نحو عالم جديد هو عالم المستعمرات، والعالم الذي يبتغيه هرتزل ليس أكثر من مستعمرة غربية يقيم عليها اليهود، ولو أن هذه المستعمرة في خياله ظلت تتنقّل من جنوب أمريكا إلى أفريقيا فقبرص الآسيوية أو العريش المصرية.

غير أن نتنياهو لايقيم التمييز بين تاريخين، فهرتزل قبل مؤتمره الصهيوني الأول، هو غيرُه بعده لظروف أخرى.

فقد قوبلت أفكار هرتزل قبل نجاحه في عقد مؤتمره الصهيوني الأول، بمزيد من عدم الاكتراث أو العداء أو حتى الهزء، وقد أهمل مستشار ألمانيا القوي بسمارك مذكرته لأنه لايرى فائدة في رجل لا مال عنده ولا جند، كما أن ألفرد روتشيلد كان قد أهمل في فينا رسائله، وتشدد بعض اليهود في القارة الأوروبية ضد المطالبة بقومية يهودية دنيوية تتعارض مع قدوم المسّيِ المنتظر (أي مسيح اليهود المنتظر)، وزادوا على ذلك، بأن القبول بنظرية القومية اليهودية، هو القبول نفسه بنظرية اللاسامية العرقية، وقد ضحك الآخرون منه، لأنهم لم يتخيّلوا إمكان نزع ولاية اسلامية مسكونة، وملئها بمستوطنين يهود تنقصهم الخبرة الزراعية والعسكرية، وأشد ما ملأه غيظاً إلى درجة الحقد، هو موقف البارون اليهودي الشهير دي هيرش الساخر منه، وقد هدد هرتزل البارون بنشر رسائله التي كان قد أرسلها إليه في وقتٍ سابق،إذا ما استمر في غيّه.

سيناور هرتزل البارع في فن السياسة وسط المطامع الأوروبية المتصارعة دون أن يثنيه شيء عن حلمه، وعشية مؤتمر بال ١٨٩٧، كانت تتصاعد أبخرة المسألة الشرقية من المقلاة الأوروبية، وفي التفتيش عن أقصر طريق يوصل بريطانيا إلى الهند، كانت المسألة اليهودية جاهزة للاستقبال.

غير أن هرتزل فضّل أن يبدأ بزُعاةَ ثقافته الأولى، حيث كانت لغة المؤتمر الصهيوني الرسمية هي اللغة الألمانية، وهكذا اجتمع مع السفير الألماني في فيينا وعرض عليه أن تكون ألمانيا هي بديل بريطانيا في رعاية مشروعه، وبفضل براعته في الغواية، فقد تمكن من مقابلة للشركة ذات الامتياز تحت الحماية الألمانية في فلسطين، ثم مال إلى الجانب الأهم، الذي كان يؤرق القيصر، فالصهيونية يمكن أن تلعب دوراً فعالاً ضد الاتجاهات الاشتراكية المدمرة في ألمانيا... كان القيصر غارقاً في أفكاره، وقد وجد هرتزل سانحة للمضي قدماً في عرض مقترحاته، إذ حاول أن يبرهن بأن الصهيونية لن تخدم المصالح الألمانية في وجه انكلترا فحسب، وإنما في وجه فرنسا وروسيا أيضاً، فالخط الحديدي من برلين إلى استامبول فبغداد، سيجد طريقه على جسر الذهب اليهودي، ومطامح ألمانيا في الخليج الفارسي لابد أن تتحقق بتحالف العبقرية الألمانية والإخلاص اليهودي:

كما أن ممتلكات الإمبراطورية العثمانية، ستكون بين يدي القيصر، أما بريطانيا فيكفيها أنها استولت على القارة الهندية، وحين سأل القيصر: قل لي يا سيد هرتزل بإيجاز ما الذي تريد أن أطلبه من السلطان عبد الحميد.

أجاب: شركتي ذات الامتياز تحت الحماية الألمانية.

وهكذا صار طريق فلسطين لدى هرتزل من الآن فصاعداً، يمر عبر استامبول. فقد قرر مقابلة السلطان التركي بتوصيةٍ من القيصر الألماني، لا بوزن براعته وفنّه.

لقد حصل هرتزل بعد مؤتمره الصهيوني الثاني في بال ١٨٩٨، على التصريح (المنشود) بإنشاء المصرف الذي كان يحلم به طوال حياته، وبذلك أصبح (التروست اليهودي للأعمار)، باعتمادات كريديه ليونية في باريس، ودريسدنر في برلين وبنك لويدز في لندن، جاهزاً للعمل بعد أن أودعت الاعتمادات في المصارف التركية...

سيتحدث هرتزل من موقع قوة مع السلطان المهدد بالإفلاس، كما سينحو ذات الإيقاع الذي سلكه مع قيصر ألمانيا، ولن يتورع في تملق السلطان حين سيتحدث عن حيوية تركيا التي يؤمن بها أشد الإيمان، وأنَّ مصارف أوروبا جاهزة لإنقاذ تركيا من إفلاسها(*). لقاء استيطان اليهود أرض فلسطين. أو لعل هرتزل كان قد كتب في يومياته بتاريخ ١٥ حزيران ١٨٩٦ مايلي:

(سوف نقدم للسلطان ٢٠ مليوناً من الجنيهات الاسترلينية، لإصلاح الأوضاع المتدهورة في بلاده، منها مليونان بدل فلسطين، و ١٨ مليوناً يمكن استخدامها في تحرير تركيا من الحماية الأوروبية وشراء سندات ديونها).. وكان المشروع مبطناً بالدهاء والمكر. وكان جواب السلطان يحمل كلاماً مفجعاً كما عبّر هرتزل عنه:

(اثنتان من فرقي جاءتا بالأمس من سوريا وفلسطين، وقد قاتلتا حتى آخر رجل في (بليفنيا)، لم يستسلم رجالها، بل سقطوا جميعاً في الميدان صرعى الإمبراطورية الإسلامية، إن الشعب هو مالك هذه الأرض لا أنا... يستطيع اليهود أن يوفروا ملايينهم فحين تقسم الإمبراطورية الإسلامية سيأخذون فلسطين دون مقابل، لكن لن تقسم الإمبراطورية إلا على جثتنا). ثم أيقن هرتزل بأن امتلاك فلسطين لن يتم إلا بانهيار الإمبراطورية وتقطيع أوصالها...

خلال الرحلة البحرية من القسطنطينية إلى يافا عبر اليونان ومصر، أبرق هرتزل إلى القيصر الألماني الذي كان يقيم ضيفاً في قصر يلدز العثماني استعداداً لزيارة فلسطين، وقد حملت البرقية احتجاجاً خشية أن يمنعه الجنود العثمانيون من دخول يافا، ولم يكن هناك من داع للبرقية، فالجنود الذين خشي منهم، ساعدوه بحمل حقائبه عند قسم الجمارك في ميناء يافا. كان هرتزل يخطط للقاء قيصر ألمانيا في فلسطين، وقد تيقّن أن القيصر لابد أن يعلن من فلسطين شيئاً لصالح

(*) كانت ديون تركيا للغرب في هذه الآونة قد جاوزت مئة مليون جنيه استرليني، وبالفعل وما عدا تأمين احتياجات المتطلبات الحربية، والتبذير الحاصل على أيدي دهاقنة الفساد، فإن شعوب الإمبراطورية كانت تصل إلى حافة المجاعة.

الصهيونية. وتمت المقابلة في الثاني من تشرين الثاني إلا أنها كانت مُقتضبة:

(هناك متسع للجميع... إن مستقبل هذا البلد يوحي بالتفاؤل، رغم أنه مازال مريضاً اليوم..) هذا ما قاله القيصر وهو على ظهر جواده، ولم يحصل هرتزل على بيان قيصري عام كما كان يأمل.

ولعله كان قد ندم على الكلمات التي ألقاها أمام القيصر مجاناً، من أن الصهيونية التي تتكلم الألمانية ستقوّي نفوذ جلالته في هذه المنطقة، وسوف تكون حاجزاً في وجه الأطماع الانكليزية...

وقد راع هرتزل أن البلاغ الألماني الرسمي عن الزيارة الإمبراطورية لفلسطين، لم يحمل أكثر من عبارات مقتضبة عن الزيارة (وفد المستعمرات اليهودية للقيصر) وأن القيصر نصح أعضاء الوفد بتحسين الزراعة ما دامت تلائم مصلحة الإمبراطور التركية وتُدار بروح الاحترام التام لسيادة السلطان!..

لدى افتتاح المؤتمر الصهيوني الرابع عام ١٩٠٠ في لندن، سيحوّل هرتزل وجهته نحو بريطانيا فيقول: (إن إنكلترا العظمى، انكلترا الحرة التي تهيمن على البحار السبعة ستفهَمُنا وتفهمُ أهدافنا، ومن هنا ستنطلق الفكرة الصهيونية لتحلّق بعيداً في الأعالي... نحن واثقون من ذلك أشد الثقة)!...

سيكون للقاءات هرتزل التالية مع المسؤولين الروس وقع الصاعقة في المؤتمر الصهيوني السادس الذي انعقد يوم الخامس من أيلول عام ١٩٠٣، فقد صرخ الصهاينة الروس في وجه هرتزل ورموه بالخيانة العظمى، وكان مرد ذلك يعود إلى أن هرتزل كان قد قابل سفاح مدينة كيشينيف الروسية، وزير الداخلية فياتسلاف بيليف.

وكان بيليف مسؤولاً عن مذبحة أدت إلى مقتل خمسين يهودياً وجرح ألف وخمسمائة آخرين، فيما تم تهديم وتحريق الحي اليهودي في مدينة كيشنيف بأكمله بتوجيهٍ منه.

ومن المثير أن تتلاقى الأهداف الساميّة واللاسامية في هذا اللقاء بشكل متوازن، فقد افتتح بيليف النقاش بقوله:

ـ أرجو يا سيد هرتزل ألا تسيء استغلال هذا اللقاء ويجيب هرتزل:

ـ لن أستغلّه إلا على الوجه الذي تأمرني به.

ويتواصل استمرار اللقاء في بطرسبرغ:

ـ يمكن الحديث عن دعم مادي ومعنوي للحركة الصهيونية حين نرى بعض الإجراءات العملية المؤدية إلى إنقاص عدد اليهود في روسيا، كما سنقوم بحماية وكلائكم لدى الحكومة العثمانية.

ويجيب هرتزل:

ـ إن اليهود الروس في المؤتمر الصهيوني السادس رفضوا مشروع الاستيطان في شرق أفريقيا... فالهجرة إلى هناك لن تمتصّ سوى بعض الآلاف من الكادحين، أما الاستيطان في فلسطين

فسيكون حافزاً قوياً لرحيل الرعايا اليهود من روسيا للمشاركة في المجتمع الجديد. وحسبما ما أكدتم عليه، فإن هجرة بلا عودة لن تتحقق إلا في الهجرة إلى فلسطين... وهكذا فإن آمالاً كبيرة سنعلقها على الوعد الرسمي لحكومتكم بالمساعدة...

أما الحوار مع وزير المالية الروسي دي وايت فشيء يدعو إلى التدوين من جديد:

يروي هرتزل في يومياته شيئاً عن المباحثات التي دارت بينه وبين وزير المالية الروسي وايت عام ١٩٠٣ في مدينة سان بطرسبرغ فيقول:

سألني الوزير:

- هل حقاً تريد إخراج اليهود من بلادنا.

- هذا ما أنوي العمل لأجله.

- هل أنت عبري حقاً؟

- نعم. وأنا زعيم الحركة الصهيونية.

- إذن ما الذي يمكن أن نتبادله من آراء؟

وراح هرتزل يتحدث بما عنده عن مشروع الاستيطان اليهودي الكبير، فيما وزير المالية يستمع... غير أن هرتزل توقف عند سؤال كان يجول في خاطره قبل اللقاء:

- كيف تعللون يا صاحب السيادة سرّ عداوة حكومتكم لليهود؟!

- إنهم سبعة ملايين من أصل ١٣٦ مليوناً، لكن نسبتهم في الأحزاب التخريبية يصل إلى مافوق خمسين بالمئة، إنهم أقل من خمسة بالمئة نسبة إلى الشعب الروسي.

- ماذا اقترحتم إذن على صاحب الجلالة القيصر؟

- إغراق ستة ملايين منهم في البحر الأسود.

- وهل كان ذلك حلاً عملياً.

- للأسف لا.. فلا بد أن يعيش اليهود ولكن ليس في هذه البلاد.

ثم يسأل وزير المالية الروسي:

- باختصار ما الذي تريده من حكومتنا؟

- لاشيء سوى التشجيع.

- نحن نضطهدهم وبذلك نشجعهم على الهجرة.

- أنا لا أتحدث عن هذا النوع من التشجيع فهو معروف لدي.

ثم شرح هرتزل النقاط التي تضمنتها مذكرته إلى وزير الداخلية من قبل.

لم يكن كتاب الأمير لميكيافلي بعيداً عن أجواء القارة الأوروبية، وبالفعل فإن وصايا الكاتب الإيطالي كانت دعوة صميمية لتوحيد إيطاليا بصرف النظر عن الوسيلة، غير أن إيطاليا كانت

تشكل وحدة جغرافية لشعب واحد ممزق فوق أرضه، فإذا ما كانت الغاية سامية، فإن الوسيلة يجب أن تكون من مستنبتها، ومع مرور الوقت، حيث ما بين كتاب الأمير (١٥١٤) ومسلك زعيم الحركة الصهيونية (١٨٩٧)، فإنه لم يبق من ميكيافيلي غير وسيلته غير السامية بالطبع، فمنذ الغزوات الاستعمارية، وأوروبا تتذابح على المصالح، ولم يكن مشروع هرتزل، سوى تفصيل صغير في كون ذلك العالم، فإذا ما كانت إيطاليا موطن الميكيافيلية النظري، فإن بريطانيا صارت سيدة موطنه العملي بلا نزاع(*).

لم يعد أمامنا سوى أن نقول كلمات لنتنياهو، فقد زوّد هرتزل أعداء اليهود بفضاء من الشؤم أرجو ألا تكون اللانهاية آخرته، فهو ملوم بحق اليهود حين كذب عليهم من أن فلسطين أرض بلا شعب لشعب بلا أرض، فإذا ما كان مفهوم الخواء عنده، هو ما أطلقه الغرب ذات يوم (كل أرض خالية من العرق الأبيض فهي خواء)، إذن فما الفرق بين عنصريتّين يهودية هرتزلية، وانكليزية بلفورية.. إن هرتزل بوعوده وتناقضاته، باحترامه للسلطان وسعيّه لتقسيم امبراطوريته سراً، بتعمّده وضع المال اليهودي وصحافته ونفوذه في خدمة الذين يساعدونه وعلى رقاب الذين يعارضونه، باستعداده للإيمان بالخرافات... رغم علمانيته ـ والبناء عليها، بعدم مبالاته بالإخلاص في اقتراحه الأول تعميد يهود النمسا بادخالهم في المسيحية، وعدم اكتراثه بالأهلين المحليين الذين لايُعرف مصيرهم بخططه الاستيطانية، بنشره اعتراضات على امكان مشاركتهم العيش، وبكل ما هو جائر، فإن بأسطورته المتطيّرة تمكن من جعل اليهود قوة موحدة ومخيفة، بعد أن ظلوا جماعات دينية مشتتة، مشاكسة ومنعزلة، فإذا ما كانت الأسطورة مفيدة لهرتزل في مسعاه، فإنها من الصعب أن تظل كذلك بالنسبة لشعوبه اليهودية التي باتت تسمى اسرائيل، هذا إن لم تجلب الأسطورة، الكارثة لهم في المستقبل.

لقد ترك هرتزل للعديد من اليهود حلماً موحداً، وللسكان الأصليين كابوساً موحداً، وسوف يوّفر كل من الحلم والكابوس مزيجاً مفجعاً لوقود المحرك، فإذا ما أصبح حلم هرتزل حقيقة إثر حربين عالميتين، فإن على أسباطه أن يرثوا آلام حقيقته، فالنزاع الذي افتتح مضماره في بال، هو نزاع يقع في مفهوم اللانهاية، وليس صحيحاً أنه شبيه بنزاعات أوروبا قبل قرن من الزمان، فهناك شعوب خلفَ حدودها تتنازع المنفعة مع شعوب أخرى مجاورة، وهناك الرؤى والمصالح والهيجانات المحلية التي تتقاطع هنا ولاتتقاطع هناك، ولم يكن موضوع النزاع في أوروبا يدور حول اقتلاع شعب ليحل محله شعب آخر...

وحين نعمد إلى تحليل أجزاء الصراع العربي ـ الإسرائيلي اليوم، فإننا نجد بأنه (مُرَكبٌ مُعقّد) من طاقات لاتنفد، فهو في جزء منه ـ وهو الأهم ـ يحمل مفهوماً دينياً مقدساً من المحرّم التنازل

(*) يجب ألا ينشأ في الذهن، ذلك المفهوم السالب تماماً عن وصايا ميكيافيلي للأمير، فهي رمزية وغايتها البعيدة ترمي إلى توحيد إيطاليا، وهو من غير شك مفهوم نبيل رغم إثارته للجدل، فالهدف الذي قَصَدهُ ميكيافيلي يجب أن يكون كبيراً كيما يستأهل ذبذبة الوسيلة، أما أن تحذف شعباً بأسره من التاريخ والجغرافيا فهو ما ينتفض ميكيافيلي لأجله من قبره...

عنه، وهو في أحد جوانبه يحمل مفهوماً قومياً يجد في إسرائيل مانعَ الوحدة الأكيد، وهناك المفهوم المحلي الفلسطيني (وإن شئت فقل الإقليمي البحت) الذي يحاور بالتاريخ والإسلام والحجر والانتفاضة، وهناك المفهوم المولّد من رؤية أبناء هرتزل المدججين بالسلاح صباح مساء، ثم هناك مفهوم الأحقية... والعدالة والإنسانية وما اخترع العالم بخصوص حرية تقرير المصير وحقوق المواطن وسيادة الإنسان على مر الدهور...

إن نتنياهو لايريد أن يضع خاتمة لتراجيدية هرتزل عبر السنين، وهو بالعكس، بدلاً من ذلك فإنه يقيم مسرحاً جديداً لها، وكقريب وابن عم!. فإننا ننصحه بقراءة شيء عن سقوط الإمبراطوريات في التاريخ.

○ ○ ○

(٢)

يوفر نتنياهو الدليل تلو الدليل، من أجل إثبات يهودية فلسطين قبل الإسلام، وهو يسخر من الرأي القائل باقتلاع اليهود من أرض إسرائيل على يد الرومانيين (صحيح أن خراب بيت المقدس على يد الرومانيين عام ٧٠ ميلادية كان حدثاً كبيراً في تاريخ اليهود.... لكنه ليس هو الحدث الذي أدى إلى تصفية السكان اليهود في هذه البلاد)... ثم يقول: (من الخطأ القول، أن الرومانيين هم من **أنهوا الحياة القومية اليهودية على أرض إسرائيل،** فقد حدث هذا الأمر بعد مئات السنين من الاحتلال، ويواصل نتنياهو هجومه (بعد بضع سنوات من عودة البيزنطيين بزعامة القيصر هيركوليوس، **دخل العرب عام ٦٣٦ م أرض** إسرائيل بعدما دمرّوا نهائياً الاستيطان اليهودي الكبير والمزدهر في شبه الجزيرة العربية... وفي غضون سنوات اتضحت سياسة العرب (الاسماعيليين) وتلاشت آمال اليهود، خلافاً أي محتل سابق... **وغمر العرب البلاد بموجات من المهاجرين... الذين صادروا الأراضي والبيوت والقوى العاملة ومن هنا نجد أن اليهود لم يسلبوا العرب أرضهم... إنما العرب هم الذين سلبوا أرض اليهود...)** (صفحات ٦٠، ٦١، ٦٢).

لنتتبّع خطوات نتنياهو التلفيقية واحدة فأخرى. فنتنياهو هنا يحاول المراوغة بتركيبه مفردات مضللة ولا تاريخية، فالحياة القومية اليهودية على أرض اسرائيل، ليست من مفردات ذلك الزمن، فإذا أراد نتنياهو التأكد من الارهاصات القومية، الغائمة في العصور، فعليه أن يعود إلى مؤلَّف نيكولو ميكيافيلي بعنوان (تاريخ فلورنسا) عام ١٥٢٤ ميلادية. أي بعد الرومان بألف وأربعمائة عام تقريباً... وإذا أرادأن يتزوّد باستيضاح صريح عن نشوء القومية الأوروبية كما نفهمها اليوم، فعليه أن يعود إلى الثورة الصناعية في بريطانيا في العام ١٧٦٩، ثم إلى غاريبالدي في العام ١٨٦٠ (سنة ولادة هرتزل نفسه)، كذلك إلى الحرب الأهلية الأمريكية بعد عام واحد من ثورة غاريبالدي القومية، ومع هذا الجمع وعلى رأسه فرنسا وألمانيا...

لم تكن اليهودية في فلسطين قبل الإسلام، قومية من جملة قوميات ذلك الزمن، فالقومية كانت مازالت في بطن التاريخ، ومن المشكوك ـ ضمن المعايير القومية المعاصرة ـ أن يشكل يهود إسرائيل اليوم، قومية يهودية، فاليهودية كدين ظلّت موزعة من (بحر الخزر)(*) إلى سيبيريا، ومن المتوسط إلى المتجمد الشمالي، فاليهودي الانكليزي من الناحية العلمية، هو انكليزي القومية يهودي المذهب، كذلك الفرنسي والألماني والروسي... كذلك اليهودي في فلسطين قبل الإسلام، والحقيقة التي يُغمطُها نتنياهو، أو المفردة التي يتلاعب عليها، هو أن الإسلام لم يأت إلى فلسطين غازياً بل محرراً، كذلك فإن الإسلام هو الذي جاء إلى فلسطين (وليس العرب) من حيث أنهم كانوا فيها بالأساس. فإذا ما أخذنا بالهجرات السامية القادمة من الجزيرة العربية، لعثرنا على العموريين والكنعانيين والآراميين التي تشكل قبيلة إسرائيل، واحدة من فروعها، وفي المحصلة، فإن هؤلاء جميعاً كانوا في البيّنات التاريخية من أصول مشتركة وأسرة لغوية واحدة...

إن النصوص اليونانية المكتشفة في الأردن، تؤكد أن معظم السكان في فلسطين أيام حكم روما، كانوا من العرب، أما الأنباط العرب فكانوا قد أقاموا مملكة لهم جنوب فلسطين في القرن الرابع قبل الميلاد، وأما اليهودية في نظر الإسلام فكانت ديناً، كذلك المسيحية، وليست شعوباً أخرى، وبالنسبة إلى معركة اليرموك، فقد دارت رحاها بين الغرباء والأصلاء، فقد ظلت روما تمثل الغزو الأجنبي القادم من الخارج، كذلك ما كان يحدث في المواجهات ضد طغيان امبراطورية فارس... والسؤال هو: أين ذهب نتنياهو بأعظم القبائل العربية في المنطقة قبل الإسلام، إذ أين الغساسنة والمناذرة ثم أين هم اللخميون، ألم يدرس ماقاله المؤرخون عن معركة اليرموك، أليس هو نفسه الضابط في الجيش الإسرائيلي ولا يقرأ حيثيّات المعارك الفاصلة في التاريخ... ألم يقل المؤرخون من المسلمين العرب وغير العرب، كذلك من اليهود، أن معركة اليرموك، كانت معركة سهلة غير ما تصوّرها الخليفة أبو بكر وبعده الخليفة عمر بن الخطاب، فمن أين جاءت هذه السهولة؟! لنستمع إلى المؤرخ الإسلامي البلاذري من القرن التاسع الميلادي ماذا يقول عن اليرموك بثلاث كلمات (كانت غزوةٌ سهلة)، فما الذي جعلها كذلك؟ أليس لأن الجيش البيزنطي كان يقاتل فوق أرضٍ ليست أرضه، وأن المحيط السكاني قبل الإسلام، كان من العرب في المنطقة، وأن أدّلاء خالد بن الوليد إلى بلاد الشام في معظمهم كانوا من النصارى العرب، وأن اليهود استبشروا خيراً بمقدم أبناء عمومتهم من نسل إسماعيل(**)، وأن المسيحيين

(*) إن صراعات الامبراطوريات العظمى، فارس وروما، وفيما بعد الإمبراطورية الإسلامية العثمانية وامبراطورية روسيا، هي ما كانت تدفع بالمسيحية أو الوثنيين إلى التهوّد، فيهود بحر الخزر لا يعتبرون من يهود الشتات، فقد تهوّدوا للتخلص من صراعات المسيحية والإسلام، حيث لا علاقة لليهودية بتلك الصراعات، واليهودي في مثل هذه الحالة آمِن، ثم لماذا لايسأل نتنياهو مَن قتل صاحب كتاب يهود الخَزر؟!...

(**) كما يقول نتنياهو نفسه في الصفحة ٦١ من كتابه، لكنه يعود سريعاً ليتراجع بقوله: (ولكن في غضون سنوات قليلة، اتضّحت سياسة العرب وتلاشت آمال اليهود خلافاً للمحتلين الذين سبقوهم)...

فما الذي فعله العرب لليهود كي ينفث نتنياهو ما في صدره... ألم يقل أبو بكر في وصيته: ولاتهدموا صوامع ويتغ يذكر فيها اسم الله... ألم يعط ابن الخطاب عهداً لأهل إيليا ومَن في حكمهم فلا يعترضنَّ أحد على شعائرهم وعباداتهم وأملاكهم. من المؤسف أن يكون التشويه هو وجهة نتنياهو في تاريخه..

العرب من السوريين، انسحبوا قبيل المعركة من جيش بيزنطا، إذ لايحاربون أبناء عمومتهم من العرب... لقد دان عرب بلاد الشام عموماً بالنصرانية قبل الإسلام، وقبل الاحتلال الفارسي للمنطقة عام ٥٩٧ ميلادية، ظل المسيحيون العرب يؤمنون (بالطبيعة الواحدة للسيد المسيح)، وهو مذهب يقول بالطبيعة الإلهية للمسيح فقط، وبعد احتلال القدس على يد فارس والحاق الهزيمة بالبيزنطيين، تحول العديد من المسيحيين العرب إلى (النسطورية) التي يقول مذهبها بالطبيعة البشرية للمسيح وليس الإلهية، أما الغساسنة العرب فظلوا على مذهب الطبيعة الواحدة للمسيح، وأما اللخميون فآمنوا بالطبيعة البشرية له، لكن النصارى من عرب فلسطين، فقد قالوا بالمذهب الآريوسي الذي يؤمن بأن المسيح إنما هو في الجوهر، كلمة الله الأزلية غير المخلوقة (مخطوطات البحر الميت تشير إلى هذا المذهب)...

هذا وسوف يظل المذهب المسيحي الأريوسي قائماً في فلسطين، حتى دخول الخليفة ابن الخطاب مدينة القدس حيث يكتب المؤرخ اليهودي (رابيبور) لوحة وصفية رائعة عن الاستقبال:

(كان التناقض صارخاً بين بساطة البدوي المنتصر، وبين مظاهر الترف الباذخة لدى حكام الولايات الفلسطينية من البيزنطيين، وما كان لهذا المشهد إلا أن يحدث أثره في جمهور السكان الساخط على حُكمٍ غريب، اتصف وجوده بالطغيان والوحشية)...

سيتفاخر نتنياهو بالتمردات اليهودية التي كانت تنشب في وجه المحتلين من اليونان أو الرومان قبل المسيح وبعده، ويجعل من هذه التمردات دليلاً على:

- الجذور القومية اليهودية الراسخة في فلسطين (ص٦٠).
- يهودية فلسطين في معظمها (٦١).
- وجود حياة فكرية خاصة باليهود (٦١).
- حيوية الشعب اليهودي (إذا اشترك بعشرين ألف مقاتل إلى جانب الفرس حين حصار مدينة صور - ص ٦١).

ويمر مرور الكرام على هذه الأحداث الخطيرة والمتشابكة، إذ ليس من المهم في عرف نتنياهو التاريخ بل صناعته، إن أهم مَثَلٍ يضربه نتنياهو- بل ويكرره - هو الثورة المكابية التي نشبت في العام ١٦٧ قبل الميلاد ضد الحكم اليوناني في فلسطين..

لندعَ إذن كل التمردات اليهودية الأخرى، حيث سنأخذ بالمكابية، لا كما ينتزعها نتنياهو من أجوائها المحيطة، التي هي أجواء المنطقة بالتأكيد، فماذا يقول نتنياهو عن هذا التمرد:

(أما الاسكندر الأكبر الذي انتزع البلاد من أيدي الفرسَ فلم يمنح السيادة لليهود، لكنه في العام ١٦٧ ق.م تمرد اليهود على الحكم اليوناني ونجحوا بقيادة الحشمونائيم، لكنهم فقدوا استقلالهم لدى استيلاء الرومان على البلاد في العام ٦٣ قبل الميلاد، ولكن حتى عندما كانت البلاد تحت الاحتلالين الفارسي واليوناني طيلة مئات السنين، استمر اليهود في تعميق جذورهم القومية في هذه الأرض).

لماذا تكون مئات السنين، هي القفزة بين الفاصلة والأخرى في تاريخ نتنياهو، وما هو المطلوب

من وراء هذا الأسلوب، ألا يظن القارئ للوهلة الأولى، بأن تمرد المكابية هو شيء حاصل في وجه الاسكندر نفسه، لنمعن النظر في العبارة مرة أخرى (الاسكندر الأكبر لم يمنح السيادة لليهود، لكنه في العام ١٦٧ ق.م تمرد اليهود على الحكم اليوناني....).

أين كان الاسكندر حين تمرد اليهود ضد اليونان؟، أما الفارق بين وفاة الاسكندر وتمرد المكابية، البالغ ١٥٦ عاماً فيبتلعه نتنياهو كما يريد ابتلاع تاريخ فلسطين، فقد توفي الاسكندر المقدوني في بلاد ما بين النهرين في العام ٣٢٣ قبل الميلاد، وإلى أن يصل الحكم اليوناني إلى المكابية فهناك قرن ونصف ظلت فلسطين خلالها تترنح تحت سيطرتين متذابحتين، بين السلوقيين (خلفاء الاسكندر) الذين دمروا امبراطوريته بالسرعة التي بناها فيها، وحكام مصر من البطالمة...

وفي الأساس فإن يهود فلسطين كانوا منذ اليوم الأول على مجيئه، يتخذون موقف العداء من الفاتح اليوناني الذي هزم الفرس أولياء التحرر اليهودي من بابل في التاريخ...

وما من شك أن الحكم الذي أسسه المكابيون لليهود في فلسطين (امتد من ١٦٧ ـ ١٠٤ قبل الميلاد)، ما كان ليحدث لولا انحطاط الأوضاع التي تولّدت بفعل تناحر ورثة الاسكندر على حكم الولايات في الإمبراطورية، أما الجزء الأهم في اللوحة التاريخية، فكان يتمثل بصراع السلوقية اليونانية، مع حكام مصر من البطالمة الذين كانوا يتلقون الدعم من روما. وما بين السلوقية اليونانية، والبطلمية الرومانية، سوف تحضرُ تراجيديا يهودية إلى مسرح التاريخ من جديد..

تقول الأسطورة اليهودية المتشامخة، بأن المكابيين هزموا جيش الملك أنتيخيوس اليوناني في العام ١٦٧ قبل الميلاد، وكانت الهزيمة في مملكة يهودا الجنوبية، ويعترف التاريخ بهذه الهزيمة على يد اليهود، ولكن دون الاستئذان من الأسباب الحقيقية التي أدت إليه، وأيضاً حسب البيانات لا البيّنات!.. وإذ يبقى السؤال: هل بمقدور بضعة آلاف من المتدينين ممن لايجيدون فن الحرب، أن يلحقوا الهزيمة بجيش يوناني، كان يقوده وارث من ورثة الاسكندر الكبير؟!.

وبغير الأسطورة أيضاً، لماذا نجح المكابيون في إلحاق الهزيمة بهذا الجيش؟. لنحتكم إلى النصوص عن هذه الحقبة، وماذا تقول: الواقع، هو أن أنتيخيوس الرابع قائد الجيش اليوناني، كان مهزوماً قبل هزيمته على يد المكابيين، فقد استطاع البطالمة المدعومين بجيوش رومانية، أن يلحقوا هزيمة مريرية بجيش انتخيوس على الحدود المصرية، وعاد بفلوله حانقاً كسيراً إلى مدينة القدس، وقد استشعر بأن اليهود (المُعادين في الأساس) كانوا وراء هزيمته، فما كان منه إلا أن أباح أورشليم للذبح والنهب، ثم حرّم كل عبادة دينية فمنع الالتزام بطقوس (السبت اليهودي) والختان، كما أتلف نصوص التوراة في الساحات العامة، وزاد في الغيظ، أنه اختار موقعين لليهود (معبد أورشليم وجبل جرزيم في المملكة اليهودية الأخرى ـ السامرية) ودعا إلى عبادة الإلهة (زيوس) اليونانية على الموقعين...

وقد بدأ العصيان اليهودي بقيادة ماتاتياس في قرية من قرى يهودا ضد تقديم الذبائح لآلهة اليونان، وبعد سنة غير موفقة، توفي ماتاتياس وقاد ابنه يهودا المكابي ثورة أبيه في الجبال، وتصادف

أن قتل انتخيوس على يد اليونانيين أنفسهم في معركة على الولاية، وحل محله غريمُه ديمتريوس الملك السلوقي الجديد، الذي أراد تهدئة الأوضاع بإظهار التسامح مع اليهود، وبالفعل فقد قبل الحاكم اليوناني الجديد، بإعادة العبادات كما كانت، بل ونصّب أحد الكهان اليهود في منصب كبير الكهنة، واستدار ليطلب الصلح من يهودا المكابي. وحينذاك انقَسَمت الأشمونية (نسبة إلى شمعون جد يهودا المكابي) إلى فئات ثلاث، ليخرج منها فِرَقٌ ثلاث هي: الفريسيون، والصدوقيون ثم فرقة يهودا المكابي نفسه..

أما الأولى فدعت إلى السلم والتصالح مع اليونانيين، وأما الثانية فدعت إلى اتباع مذهب الهيلنية الجديدة مع موقف غامض من اليونانيين، وأما الثالثة فدعت إلى مواصلة الحرب مع اليونانيين. غير أن يهودا المكابي ظل يفتّش عن دعم خارجي في حربه إلى أن مات، وقد حصل وريثه شمعون المكابي على دعم من روما بالفعل، وهكذا خلت الساحة للرومانيين على حساب اليونانيين، على يد اليهود، إنّ الخارج هو سيف اليهود على الدوام. لقد دام حكم سلالة (الاشمونيين) أربعين عاماً حافلة بالصراعات والمذابح بمساعدة المرتزقة من (خارج الدين اليهودي) وقد وصلت (الأشمونية) إلى دِركها الأسفل من الانحلال الخلقي والسياسي حين ألحق الإمبراطور بومبي فلسطين بروما، وصار الأمراء ألعوبة بيد روما، لايستطيعون الاحتفاظ بمناصبهم إلا بسياسات مترعة بالتزلّف والنفاق، أما بقايا المكابية التي حكمت فلسطين من ٣٧ ق.م إلى ٤ ق.م، على يد هيرودوس المتزوج من أشمونية اسمها ماريانا، فإنه رغم انتسابه لليهودية، فقد ارتكب أعنف الفظائع، حين ذبح زوجته الأشمونية مع ولديها، كما أعدم ابنه البكر من زوجته الأولى (وهي رومانية)، فيما ظل يواظب على إعادة بناء الهيكل مع ترميم قبور الأقدمين في حبرون...

لقد كانت المكابية في أواخرها، على النقيض من مؤسسها الأول يهودا حين أراد أن يقود موجةً خلاصية ضد اليونان، إلا أن الورثة كما هي العادة، فقد نقلوا عن روما أسوأ ما في التاريخ الإنساني من شرور.

لقد مثلّت الموسوية أجمل ما في الحمورابية من تشريعات، لكن المكابية اللاحقة، كانت قد مثّلت أقبح ما في الرومانية من فظائع وحشية بحق الإنسان.

إن فلسطين بأصولها الضاربة في التاريخ، كانت معبراً لهجرات الأقوام العربية من اليمن والجزيرة العربية إلى بلاد الشام حتى أقصى الشمال، ومن الطبيعي أن يتحول هذا الترحال إلى الاستقرار عبر الموجات المتلاحقة حسب الطبيعة الجغرافية والمناخية لذلك التاريخ، أما الدليل الذي يريد نتنياهو أن يقيمه على يهودية فلسطين من خلال تتابع التمردات، فهي آخر مافي التاريخ من بيّنات، إذ ما كان إنسان ذلك الزمن وتاريخه وجغرافيته... قطعة واحدة كما يتراءى لنا إنسان اليوم (أي شعوب العالم)، فهناك الداخل وهناك الساحل وهناك المرتفعات الجبلية والأودية السحيقة، وهناك المسافات المخيفة قياساً إلى الوسائط القديمة، وهناك الطبيعة بقسوتها المناخية وزلازلها الأرضية، وهناك العصور والجليد والقحط والحرائق... فمن أين لهذه الأقوام أن يتصلّب

عودها وأن يترسّخ كيانها الجمعي، كما يريد نتنياهو أن ينحو مناحي ما قبله، في الاسقاط على التاريخ، دون أن يعلم!...

وإلى يومنا هذا، فإن الضرورة تقتضي أن نسلم بأن هذه المنطقة إنما هي مهبط الأديان الثلاثة التي لارابع لها في العالم كله... لكن هذه الأديان بمفهوم المعاصرة، لم تكن تشكل قوميات ثلاث، فاليهودية لايمكن حسب تعاريفنا اليوم، أن تشكل قومية، أو تشكل أمة، كذلك الحال بالنسبة للمسيحية والإسلام، والإسرائيلية الأولى بحكم المنطق وقوة الدلالة، هي من الجذور السامية في المنطقة، بل ربما آرامية على الأرجح بسبب التداخل اللغوي، (العربي والعبري كلمتان لأحرف واحدة) ومن البديهي أن تكون فلسطين كتفصيل صغير من تفاصيل المنطقة الأشمل، هي موطن الإيمان بالديانات الثلاث على التتابع، ولم تكن الديانات في تاريخها هي صانعة الشعوب، بل إن الشعوب هي حاملة الديانات ولاشيء آخر، أما كيف صنعت اليهودية شعبها فسؤال يجيب عليه القرن التاسع عشر (أبو الغزوات الاستعمارية) وليس الديانة اليهودية ذاتها.

بعد حذف المكرور من فصل ناتنياهو، فإن الفكرة التي تستأهل الاهتمام، هي الفكرة القائلة بخواء فلسطين قبل فتح أبواب الهجرات اليهودية إليها، ويتسلح نتنياهو بحشد ضخم من الرحالة الأوروبيين والقناصل والمؤرخين وعلماء الآثار... الذين سيشهدون شهادات تتراوح ما بين انعدام البشر والشجر، إلى الصور المتخيّلة عن الفراغ في الذهن الأوروبي(*)، وكل ذلك من أجل خدمة المقولة المفزعة التي طرحها هرتزل ذات يوم (أرض بلا شعب، لشعب بلا أرض)، وتلك هي مهنة صناعة التاريخ.

لنستمع الآن إلى شهود نتنياهو عن فلسطين:

- المؤرخ هنري موندل، كتب في العام ١٦٧٩ مايلي:

إن الناصرة عبارة عن قرية صغيرة ليست ذات أهمية وفي نابلس يوجد شارعان فقط، وأصبحت أريحا قرية حزينة قذرة، وعكا عبارة عن خربة كبيرة.

- عالم الآثار البريطاني توماس شو، كتب في العام ١٧٣٨ مايلي:

إن فلسطين أرض قاحلة لايوجد فيها شيء، بالنظر إلى قلة السكان.

- الرحالة والكاتب قسطنطين فولني، كتب في العام ١٧٨٥:

وجدنا صعوبة بالغة في التعرف على القدس، إن سكانها لايزيدون عن اثني عشر ألفاً، الفلاحة سيئة هنا، أما بيت لحم فتستطيع تجنيد ٦٠٠ رجل قادرين على حمل السلاح، وأما الخليل أقوى قرية في المنطقة فتستطيع تجنيد ٨٠٠ رجل مُسلح.

- الشاعر الفرنسي دي لامارتين وصف فلسطين في العام ١٨٣٥ بقوله:

(*) أكثر من ذلك فإن المبالغة في التخيل أدت بموجب الأساطير إلى استنتاجات مفادها: أن فلسطين بقيت على حالها منذ أن هجرها العبرانيون القدامى، وأن خراب أريحا يشهد على أن ابن نون كان قد مرّ عليها بالأمس ليس أكثر... وهكذا قس على بقية المدن والقرى!...

خارج أبواب القدس، لم نر مخلوقاً حياً، ولم نسمع صوت مخلوق، الفراغ والسكون يخيمان على المدينة، وعلى الطرق، وعلى البلاد... إنها قبر لشعب كامل.

- القنصل البريطاني في فلسطين جيمس بين كتب في العام ١٨٥٧:

البلاد خالية من السكان إلى درجة كبيرة، لذا فهي بحاجة إلى مجموعة كبيرة من السكان.

ثم أرسل برسالته هذه إلى الخارجية البريطانية!..

- الكاتب الأمريكي مارك توين كتب في العام ١٨٦٧:

في سهل مرج ابن عامر بكل طوله وعرضه لاتجد قرية واحدة، إنما مضارب بدوية صغيرة، تستطيع أن تقطع مسافة عشرة أميال ولا تصادف عشرة أشخاص.

ويضيف:

إن مَن تشتاق نفسه لحياة العزلة الموحشة فليذهب إلى منطقة الجليل وطبريا الحزينة، أما أريحا الملعونة، فهي عبارة عن خربة مهدمة اليوم، تماماً كما تركها يشوع بن نون، قبل ما يزيد على ثلاثة آلاف سنة، أما بيت لحم المقدسة، فهي خالية من كل مخلوق ذي حياة.

وأما (لجنة بل) التي أرادت رسم صورة لمستقبل فلسطين فكتبت في العام ١٩٣٧ مايلي:

في القرون الاثني عشرة، منذ الاحتلال العربي، اختفت هذه البلاد عن المنصّة التاريخية، وسواء على الصعيد الاقتصادي أو السياسي فقد بقيت هذه البلاد خارج تيار الحياة الرئيسي في العالم، وعلى الصعيد الفكري والعلمي والأدبي... لم يكن لها دور في المدينة.

وعن المواقع والمدن والقرى، يستشهد نتنياهو بعلماء آثار من أمثال ادوارد روبنسون وكلود كوندور وغيرهما، حيث استطاعوا التعرف بسهولة على المواقع الأثرية اليهودية، ذلك أن العرب لم يهتموا حتى بتغيير أسمائها فتركوا الأسماء العبرية القديمة على حالها.

ثم يتراجع نتنياهو بسرعة ليقول (ص٧٨) ومن بين المواقع اليهودية التي لم يجر تبديل أسمائها!.. وجد الباحثون مدينة يرمياهو، عناثوت (عناتا) وميادين المعارك التي خاضها المكابيون في لبونة (لوبان) وفي بيت حورون (بيت عور) والحصن الأخير لباركوخفا (بيتار) وشيلا (سلوان) وعراد (تل عوريد) وأشكلون (عسقلان) وبير شيفع (بئر السبع) وبني براك (ابن ابريق)، وبيت شآن (بيسان) وبيت شيمش (عين شمس) واشتموع (السموع) ومئات المواقع الأخرى.

ثم يقذف نتنياهو بقذيفة مدوية:

وفي حقيقة الأمر، فقد أقام العرب خلال ١٢٠٠ سنة من وجودهم على أرض إسرائيل مدينة واحدة هي الرملة ثم يسوق السير جورج آدم سميث ليشهد بدوره:

(لاتوجد أي حضارة محلية في فلسطين يمكن أن تكون بديلاً للحضارة التركية سوى الحضارة اليهودية تلك الحضارة التي منحت فلسطين كل شيء ذي قيمة إلى الأبد) (صفحات ٧٣ - ٧٤ - ٧٧ - ٧٨).

باديء ذي بدء، هناك اعتراض نقدّر أن نتنياهو سوف يُقّر به، إذ هو يتعلق بمفهوم الفراغ على الطريقة الأوروبية، وطالما أن نتنياهو يرفض اللاسامية الأوروبية، التي هي الوجه الآخر لسياسة الفراغ (من حيث هي التفريغ بعينه)، فإن مفهوم الفراغ مثلما أطلقه الغرب، سيطال نتنياهو نفسه كونه خارج سور القارة البيضاء، فالفراغ بموجب هذا المفهوم ليس شأناً يتصل بالكمية أو اللون (إذ كل عبيد روما كانوا من البيض) ثم أن الكمية العددية لاتمثل سد الفراغ في المقولة، فطالما أن الأعراق هنا، هي من الشعوب الملونة من الأصفر إلى الأسمر إلى الداكن فالأسود، فإنها جميعها تمثل (الآخر) بالنسبة إلى أوروبا، وهذا هو الأساس.

لقد انطلق مفهوم (الآخر) بالنسبة إلى روما، ممّن هو (خارج سور المدينة) بصرف النظر عن لونه، ثم مع أوروبا (كونتا كونتي)(*)، فإن (الآخر) أخذ وظيفةً أخرى، فقد دشنّ عهد التمدن الاستعماري نفسه، بشحن البشرية السوداء، في عملية اقتلاع جماعية لا مثيل لسوئها في التاريخ..

ولقد طُرحت قضية الاستعمار الصهيوني لفلسطين، بالصيغة نفسها، التي كان يطرحها المستعمرون الآخرون، ووفق هذا المنطق، فإن أرضاً لايسكنها الأبيض الغربي تُعد أرضاً شاغرة، وقد عبرّ أحد الصهاينة الأمريكيين عن ذلك بقوله: (أنا أعلم أن أمريكا تُنتقد لأنها حاصرت واحتلت تكساس وكاليفورنيا أثناء حرب المكسيك، ولكن ما قيمة هذا النقد إذا حُرمت هاتان المنطقتان من خيرات أمريكا ونعمها، إذ حين تكون هناك أرض فارغة في عرفنا، فلا بدأن يتحمس الناس لانقاذها، أما فلسطين فلم تكن سوى صورة مصغرة لتكساس، فمنطق التاريخ يقتضي ألا تبقى مساحات شاغرة وغير مأهولة في هذا العالم، لا لشيء وإنما ببساطة لأن الطبيعة تكره الفراغ) بالنسبة إلى شهود نتنياهو التاريخين، دعونا نعيد إضاءة الصورة من جديد:

ـ هذا هو موندل في العام ١٦٩٧ يقول (الناصرة مدينة صغيرة، يوجد في نابلس شارعان... أريحا قذرة..عكا خربة..).

ولكن ماذا يريد نتنياهو ـ وقبله موندل ـ أن تكون المدن الفلسطينية في هذا التاريخ، أي قبل ثلاثمائة عام من شهادة نتنياهو عن موندل، أتراها كان عليها، أن تكون مثل مونت كارلو، أو لوس أنجلوس اليوم؟... فإذا ما كان الرحالة الإيطالي أمريكو فيسبوتشي قد اكتشف أمريكا كقارة جديدة قبل مئتي عام فقط (١٤٩٧) من وصف موندل لفلسطين، وإذا ماشهدت بريطانيا حربها الأهلية الطاحنة قبل خمسين سنة من تقرير موندل هذا (حيث دامت هذه الحرب الأهلية مدة سبع سنوات من العام ١٦٤٢ إلى العام ١٦٤٩ أيام السلطة المطلقة للملك تشارلز الأول)، إذن... فماذا يمكن أن تكون فلسطين في تاريخ موندل غير ما كانت، وهل

(*) بطل رواية الجذور لألكس هالي، والرواية تفضح النزعة اللاإنسانية تماماً لدى الغرب، وهي تحكي قصة اصطياد الإنسان الأسود من غينيا على طريقة اصطياد وحيد القرن، وبواسطة الشباك القوية كان يتم جر المجموعات البشرية بالسياط إلى أقبية السفن تمهيداً للإقتلاع النهائي من أفريقيا إلى أوروبا على طريقة الإنسان الرقم...

يمكن أن تقفز فلسطين خارج تاريخها إلى ما بعده تأييداً للأسطورة التوراتية من أنها أرض العسل واللبن في التاريخ!... ثم ألم يكن العالم كله، خارجاً لتوّه من قرون وسطاه الظلامية؟!...

أما عن قذارة أريحا.. وخربة عكا، فإننا نود أن نسوق لموندل أو لتتنياهو هذه الواقعة من تاريخ أوروبا نفسه:

قبل ثلاثة عقود فقط (ثلاثين عاماً) من تقرير موندل عن فلسطين أي في العام ١٦٦٦، انتشر في بريطانيا نفسها وباء الطاعون، وقد أدى هذا الوباء إلى وفاة ثمانية وستين ألفاً من المواطنين في مدينة لندن وحدها، وقد انتقل البرلمان البريطاني نتيجة الوباء إلى اكسفورد، ثم ما لبث أهل البلاط الملكي أن شدّوا الرحال إلى مدينة سالزبوري، وقد أصبحت العاصمة البريطانية مقفرة إلا من الجرذان الهائجة، فقد نقلَت العدوى من شارعٍ إلى آخر، ثم راح المُصابون يرسمون علامة الصليب الأحمر على الأبواب مشفوعةً بعبارة (ارحمنَا يا رب)، ثم ما تلبث العربات أن تحضر بصحبة الملثمين للتخلّص من الجثث، وفي العام ١٦٦٧ شب حريق هائل في لندن، أتى على الإنسان والطاعون معاً، ولم تستطع بريطانيا التخلص من هذا المرض إلا بعد سنوات (تاريخ الحضارات العام ـ كويليت لبيبد). فأين قذارة أريحا من طاعون لندن، وأين خربة عكا من وباء الجدري الذي تفّشى في العام ١٧١٧ في أوروبا من جديد...

توماس شو عالم الآثار البريطاني (فلسطين أرض قاحلة لايوجد فيها شيء، بالنظر إلى قلة السكان) والعام هو ١٧٣٨. ويتزامن هذا التقرير مع وقائع كبيرة في المنطقة والعالم، فمن جهة فإن وُلاة مصر من المماليك بدأوا باستفراد السلطة في مصر واكتفوا من أجل كسب ثقة الباب العالي بإرسال الهدايا والضرائب الواجبة... ومن جهة أخرى فإن بريطانيا بدأت رحلاتها البحرية الجوّابة حول العالم من أجل التمهيد للدخول في النشاط الاستعماري المتصاعد، فإن لم يكن (شو) من سلك الاستخبارات البريطانية المبكرة في المنطقة، فإن تقريره هذا ينأى عن مهمته كعالم آثار، حيث المنفعة هي وجهته، ونحن بدورنا لانعترض على ما جاء في مضمون التقرير بل نعترض على نصف حقيقته المغيّبة، ففلسطين شأنها شأن بقية الأقطار في المنطقة تستحوز على مناطق خصب ومناطق غير ذات خصب، ومنذ ما قبل (شو) وقرنه الثامن عشر، فإن مناطق الخصب الفلسطينية معروفة لكل ذي بصر وبصيرة، فالشمال غير الجنوب، (وهذا في العالم كله)، والسهول الساحلية تختلف عن تربة البوادي الداخلية، أما عالم الزراعة الفلسطيني، فمعروف قبل سبعة آلاف سنة من ولادة السيد المسيح، وما كان على (شو) إلا أن يقرأ شيئاً عن تاريخ أريحا كما أظهره علم الآثار لا كما لفظته الأسطورة... وأما عن قلة السكان، فليس صعباً أن نجري التناسب بين سكان فلسطين يومها، وسكان كل قطر من أقطار المنطقة، بل وتعداد البشرية آنذاك لنفهم شيئاً عن الكثافة السكانية...

إن (شو) يُقدّم تقريراً (للموازنة) وليس تقريراً لوجه الحقيقة..

ثم ننتقل إلى الرحالة والكاتب فولني حيث كتب في العام ١٧٨٥ مايلي:

(وجدنا صعوبة في التعرف على القدس... سكانها لايربون على اثني عشر ألفاً... الفلاحة سيئة... بيت لحم تستطيع تجنيد ٦٠٠ رجل.. الخليل تستطيع تجنيد ٨٠٠ رجل... الخ)، ونحن إذن، إزاء دراسةٍ لنسبة القوى المتحاربة، لا إزاء القيمة العلمية لبحث أثري أو تاريخي، إذ ما علاقة إمكانيات التجنيد بأصل البحث الذي يريد نتنياهو أن يثبته، فطالما هو بصدد (الخواء الفلسطيني) إذن لماذا يحتسب عدد العسكر مسبقاً؟ ومن المعلوم أن الفراغ السكاني، لايُقدّم جيوشاً بالفعل، فكيف عاد هذا الخواء عن خوائه، ليُقدّم رجالاً مسلحين في بيت لحم والخليل؟!..

إن محاكاة النزعة العسكرية التي بنت عليها النزعة العرقية الأوروبية، وتلوينها بتلاوين عبرانية، لهي مضمون هذا التقرير وروحه، ففولني كاتب التقرير وحامله، لايخرج عن نطاق النظرة الجرمانية التي وصلت إلى أوج عرقيتها في منتصف القرن الثامن عشر، وقد كتب جيلُ فولني بريشة الداعية الجرماني بيردشفكي فقرة تقول: (هناك أزمنة يعيش فيها الناس والأمم بالسيف وقوة الذراع والقدرة على الكفاح، إنها أزمنة العنف حيث لاحياة إلا للأقوى.. فالسيف تحقيق للحياة وتجسيد لها بكل ما فيها من جرأة وتحدٍ).

وعلى ما يبدو فإن تقرير فولني جاء بمثابة استطلاع عسكري مبكر، الهدف منه، تبيان حقيقة القوة المحلية التي يمكن أن تقف في وجه طارئ دخيل.

أما شاهد نتنياهو الآخر، فهو الشاعر الفرنسي دي لامارتين حيث وصف فلسطين في العام ١٨٣٥ حسبما يلي:

خارج أبواب القدس، لم نر مخلوقاً حياً.. لم نسمع صوت مخلوق الفراغ والسكون يخيمان على المدينة.. وعلى البلاد.. إنها قبر لشعب كامل.

فإذا لم يكن الوصف تجديفاً في تجديف، إذن لماذا غيّر الشاعر الفرنسي ألفونس دي لامارتين رأيه بعد خمس سنوات فقط من هذا التقرير (أي في العام ١٨٤٠):

لم يكن لامارتين شاعراً فحسب، بل وسياسياً أيضاً، فمع مجيء اللورد الفيسكونت بالمرستون إلى رئاسة مجلس الوزراء البريطاني، كان الشاعر لامارتين يحتل مقعداً في الجمعية الوطنية الفرنسية (البرلمان الفرنسي)، وقبيل انقضاء النصف الأول من القرن التاسع عشر، كان مشروع محمد علي باشا، لإقامة دولة اقليمية تمتد من قونية إلى منابع النيل، قد تعرض للضرب المباشر على يد بريطانيا، وتم سجن المشروع داخل مصر وفي حدود الاحتياجات المحلية لمتطلباتها الداخلية الأمنية والمعيشية.. ثم بدا أن بريطانيا تريد التهام المنطقة، وكانت فرنسا تتابع عن بعد مشروعات بالمرستون وخططه، فباريس حتى بعد هزيمة نابليون، كانت مازالت تجتر خطط الإمبراطور العبقري نحو الشرق، وقد أدت شهية بالمرستون النهمة، إلى إثارة ردود العداء لبريطانيا في جميع أنحاء فرنسا، وبوازع من واجبه، فقد كان السفير الانكليزي في باريس، يرسل بخطابات متواترة إلى إدارته في لندن، يشرح فيها ما يسمع ويرى، ومن بين هذه الخطابات كان الخطاب التالي:

(هناك مشاعر بالشك تتزايد في باريس إزاء مشروعات انكلترا في الشرق الأدنى، وقد شهد

مجلس النواب الفرنسي مناقشات حادة حول هذا الموضوع، ومن بين الذين تكلموا اليوم، الشاعر الشهير ألفونس دي لامارتين، وقد وقف المسيو لامارتين ليقول: إنه من الأولى لفرنسا أن تفكر في إقامة دولة مسيحية على منابع الأردن شاملة لجبل لبنان، شريطة أن تكون القدس عاصمتها، فإذا استطاعت فرنسا تحقيق هذا الحلم فإن ذلك يكفيها مجداً وعظمة عن أي بقعة أخرى في العالم.

إن اللورد بالمرستون يفكر في إقامة جمهورية يهودية، فلنطلب إليه أن يختار مكاناً آخر يحقق فيه ما يحلم به، أما فرنسا فيتحتّم عليها أن تسعى وأن تصمم على قيام مملكة مسيحية في الشرق عاصمتها القدس) (من وثائق هيكل في كتابه المفاوضات السرية ـ ص٥١).

ويرد السؤال، كيف يمكن أن تكون فلسطين (بقدسها) مقبرة جماعية لشعب كامل، ومملكة مسيحية ـ مشرقية (بقدسها) تزهو بها فرنسا من دون بُقاع العالم؟...

لم يكن ينقص لامارتين سوى أن يمتشق سيفه في وجه بالمرستون ليقول له: ارحل عن منطقتنا فنحن لم نذهب من أجل اللعب حين وضعنا الألوف من فرساننا تحت الأرض في حطين. فهل يريد نتنياهو تقريراً آخر عن لامارتين، وعن وضع اليهود في العالم آنذاك؟. أم أن البحث هنا قد لايتسع؟!.

مع ذلك. فلنمض مع نتنياهو حتى آخر شهوده، إذ ماذا يقول القنصل البريطاني جيمس بين في فلسطين وعنها عام ١٨٥٧:

(البلاد خالية من السكان.. إنها بحاجة إلى مجموعات كبيرة من السكان.. الأماكن هنا موحشة، متخلفة وقذرة...).

أما الكاتب الأمريكي مارك توين (١٨٦٧) فقد أراد نتنياهو أن يصب في طاحونته هو الآخر حيث كتب يقول (في سهل مرج ابن عامر بكل طوله وعرضه لاتجد قرية واحدة إنما مضارب بدوية صغيرة تستطيع أن تقطع عشرة أميال ولاتصادف عشرة أشخاص).

لقد كان الكاثوليك في القرن التاسع عشر يحجون إلى مزارات أوروبية مرتبطة بأسطورة ظهور العذراء، أما البروتستانت فإن ارتباطهم الشديد بالتوراة، جعلهم يقتنعون بارتباط فلسطين بتاريخ اليهود التي كانت ذروته وستكون في موت المسيح وقيامه.. وقد كتب القس البروتستانتي جورج كرولي عام ١٨٤٢، (حيث التاريخ ليس بعيداً عن شهود نتنياهو)، تعليقاً على رسومات للأرض المقدسة بريشة الفنان ديفيد روبرتس، يقول فيه: (هذه الأرض الجميلة التي مجدَّ الله فيها تاريخ اليهود فجعله أعظم تاريخ في العالم.. غير أن خراب الهيكل كان دليلاً على أن رفض اليهود للمسيح كإبن لله، قد حقق النبوءة القاسية التي تنبأها المسيح لهم.. ففي سنة ٧١ ميلادية احتلت كتائب تيتوس القدس وأحرقت مليوناً من اليهود، وأخذت ستة وتسعين ألفاً أسرى، فهل عودة اليهود من الأسر البابلي قد حققت نبوءات الحلم بالعودة، أم أن هناك عودة ثانية تسبق ظهور المسيح؟!..).

وها هو قسٌّ آخر (هوج فيسك) يقول بعد زيارته لبيت لحم والناصرة ويصف المنطقة بين الناصرة وطبريا بقوله:

(من أعلى قمة في الجبال وبينما نجتاز ممراً لولبياً ينفتح إلى الغرب، ظهر أمامنا منظر غاية في الروعة.. لقد رأينا تحتنا سهلاً ممتداً مليء بالقرى والكروم وأشجار الزيتون، يجري فيه نهر صاف وجميل).

وفي العام ١٨٤٨ زارت بعثة أمريكية برئاسة الملازم الأول البحري و. ف. لينش فلسطين في مهمة هدفها دراسة البحر الميت واكتشاف ما يحتوي من معادن، وقد نقلت المعدات والقوارب بدءاً من جبال الجليل في الأعلى مروراً بالحولة وطبريا، وبدأ لينش بإرسال تقاريره تباعاً:

(إنني غير معجب بالأكثرية العربية التي تسكن الأرض المقدسة، ولا بالأقلية اليهودية، فيهود طبريا قذرون في ملبسهم وسكناهم، غير أن للعرب فضيلة الامتناع من تعاطي الخمور وهم أنظف من اليهود عموماً ـ ستيوارت تاريخ الشرق الأوسط ص١٦٠).

كذلك كانت وجهة نظر لينش في عودة اليهود إلى فلسطين، وجهة مخالفة لرجال الدين، ذلك أن رأيه في العبرانيين القدامى لم يكن أفضل من رأيه في يهود طبريا، بل كان أشد قسوة حين استعار نصاً من قسٍ إنكليزي يقول:

(إن الإسرائيليين في عهد القضاة والأنبياء والملوك دفعوا بتقلبات مذهلة إلى مشهد عنيف توّج غدرهم بعمل وحشي جعل جرائمهم السابقة تبدو تافهة كبصيص شعلة أمام نار الجحيم، لقد اهتزت الطبيعة وهي تنظر إلى قتلة الإله وقد تلطّخت أيديهم بالدم الذي وجب أن يعبدوه). (المصدر السابق).

ومع أن شهود نتنياهو لم يقيموا مثلما أقام الباحث لينش (مدة عشرة أشهر كاملة مابين بحيرة طبريا والبحر الميت)، فإن لـ (لينش) أسبابه في تقاريره هو الآخر.. فالرجال الذين تركت قراراتهم أكبر الأثر في فلسطين (بالمرستون، بلفور، دزائيلي، روتشيلد وهرتزل... الخ) وفرضوا عليها مصيراً مخالفاً لتاريخها وواقعها، أمضوا في فلسطين وقتاً أقل من وقت الملازم لينش، حتى أن بعضهم لم يزرها أبداً، إذ من بين أعضاء مؤتمر بازل الأول المقدر عددهم بحوالي مئتي عضواً، لم يزر فلسطين منهم إلا بعدد أصابع اليد، أما هرتزل نفسه صاحب مقولة الأرض بلا شعب، فقد أقام فيها تسعة أيام من ٢٦ تشرين الأول إلى ٤ تشرين الثاني في العام ١٨٩٨ فكيف له أن يرى كل شعبها وأرضها؟!

وأما بالنسبة لفراغ فلسطين من السكان، فإنه يمثل أغرب ما في التاريخ من تحايل، ففي الوثائق الفرنسية التي تحتويها خزائن البحرية الفرنسية، تقول إحدى الوثائق المؤرخة في ٢٦ تشرين الثاني عام ١٧٩٨ (إن مجموعة من ضبّاط الاستكشاف في الجيش الفرنسي سبقت الجيش إلى فلسطين، وقد توصلت بعد إقامة مناسبة من الشمال إلى الجنوب، فيما يخص تعداد السكان إلى الأرقام التقريبية التالية:

ـ العرب المسلمون في جميع المدن والقرى يشكلون ٣٨٠ ألفاً من مجموع السكان.
ـ العرب المسيحيون في القدس وبيت لحم والجليل ٧٠ ألفاً.
ـ اليهود وهم أقلية لاتذكر إذ يبلغ تعدادهم زهاء ١٨٠٠ شخصاً منهم ١٣٥ شخصاً يسكنون مدينة القدس.

إن نتنياهو نفسه، يقدر عدد العرب واليهود (معاً) عام ١٨٧٥ برقم يقارب ٤٠٠ ألف نسمة، لكنه يسكت مع ذلك عن نسبة اليهود إلى العرب، لأن ذلك في غير صالحه(*)، ومع أن مساحة فلسطين لاتتجاوز (اقليمياً حسب تحديدات سايكس بيكو)، أكثر من ٢٧ ألف كيلو متراً مربعاً، فإن الكثافة البشرية تشير إلى أن فلسطين لم تكن خالية من السكان!.. وفي أرض الرسالات للفيلسوف الفرنسي روجيه غارودي ص٢٠٥، فإن غارودي يُشبّه كثافة السكان في فلسطين آنذاك بنفس كثافة السكان في فرنسا.. أو غيرها من دول العالم.

في العام ١٨٨٢ أي مع سنة احتلال الانكليز لمصر، فقد ارتفع، مع تنظيم أول هجرة جماعية يهودية إلى فلسطين بأموال روتشيلد، عدد اليهود في فلسطين إلى ٢٤ ألفاً.. وفي غضون عشر سنوات (١٨٩٢) بلغ عدد المستعمرات اليهودية ٢٠ مستعمرة موزعة على أراضي تبلغ مساحتها ٢٠٧٠٠ فدان تقريباً.. وهكذا بدأ عدّاد الأكثرية اليهودية يدور على أرض فلسطين.. وكخاتمة ليست وداعية، هدفها تحريض ذاكرة نتنياهو نحو التاريخ، فإننا نسوق له الواقعة التالية حيث تعبر عن المخيلة اليهودية التي كانت تجول في فضاء فلسطين الخاوي قبل الاحتلال بالهجرة، ثم الاحتلال بقوة النار..

بعد المؤتمر الصهيوني الأول في بازل، بدأ هرتزل بحركة نشيطة باتجاه المحور المصري، وقد جاء مصر محبطاً، حين كان يتعالى صراخ اليهود (بلا واقعية) العودة إلى فلسطين، وقد لاحظ ماكس نورداو صديقه، بأن هرتزل بدأ يتردد في قبول مشاريع بديلة، (في الأرجنتين أو أوغندا) ولم يكن نورداو نفسه أقل في التردد والاقتراب من المشاريع البديلة المطروحة. غير أن نورداو أراد أن يثبت شيئاً لنفسه والآخرين من الأوروبيين المترددين، فبعث باثنين من الحاخامات إلى فلسطين قبل انعقاد المؤتمر ليريانها رؤى العين ثم يعودان ليحدثا زملاءهما عن حقائق الأحوال، سواء بالنسبة لسكانها الأصليين أو بالنسبة للمستوطنين اليهود، وبالفعل فإن الحاخامَين سافرا إلى فلسطين لكن ما رأياه كان صدمة لهما، وكانت أول إشارة للصدمة برقية تلقاها نورداو منهما وهما بعد في فلسطين قالا فيها بالرمز:

(إن العروس جميلة جداً وهي مستوفية لجميع الشروط لكنها للأسف متزوجة فعلاً)، وفهم نورداو مضمون الرسالة، وأنَّ في فلسطين شعباً يسكنها وأنها ليست كما يقول هرتزل: (أرض بلا شعب لشعب بلا أرض). وبالفعل إذ ما أن عاد الحاخامان والتقيا نورداو في فينا، حتى أكدا على المضمون كما فهمه، وأضافا: إن شعباً فلسطينياً يسكن فلسطين منذ آلاف السنين، وهو يزرع

(*) إذ بلغ التعداد اليهودي آنذاك زهاء ٨ آلاف شخص، ومع الموافقة على التعداد العام لنتنياهو فإن نسبة اليهود للعرب هي ٨٠٠٠/٤٠٠٠٠٠ أي ٢ بالمئة.

أرضه بما يمتلك من قوة، ويعتبرها موطنه الأصلي، وبالتالي، فإن اليهود الراغبين بالذهاب إلى فلسطين والاستيطان فيها لابد أن تكون أمامهم معركة طويلة ودامية، مع الزوج الشرعي للعروس الجميلة...

هذا ما أورده الأستاذ هيكل في كتابه المفاوضات (صفحات ٧٢ و ٧٣)(*)، وفي المحصلة، فإن المصداقية لم تكن هي الرائدة فيما كتب العلماء والمؤرخون، فمنهم من أخذته العزة بالأسطورة فكتب عن فلسطين بمنطق أنهار اللبن والعسل، دون أن يرى فلسطين أو يسمع عنها، غير ما تلاه جدّه من سطور في العهد القديم، ومنهم مَن كان يكتب لتسمع فرنسا، وآخرون كي تسمع بريطانيا أو ألمانيا، ومنهم من كتب بهدف التنفير والتكفير، وهي حقيقة ماثلة لدى يهود الاعتراض على القومية والدولة قبل مجيء المسي المنتظر، ومنهم من كتب بغرض التحريض على شد الرحال إلى أرض الكرمة والخمرة إبعاداً عن القارة البيضاء.. وهناك مآرب شتى منذ قرون.. ولما كانت الممتلكات الشرقية في إحدى الحلقات هي أثمن ما في الجوائز من كنوز، وفي غمرة النزاع الدامي على نتائج القسمة العثمانية، فإن السير هنري مكماهون كان على حق حين صرخ جهاراً:

(لقد تحوّل علماء الآثار كلهم.. إلى ضباط مخابرات).

في الشق الثاني من توصيف مارك توين (لطبريا الحزينة.. وبيت لحم الخاوية..) فإنه يثبّت الوصف (أريحا الملعونة) كما هي بالنسبة لليهود، ويضيف (هذه الخربة المعلونة التي اسمها أريحا، مهدمة اليوم... تماماً كما تركها يشوع بن نون قبل مايزيد على ثلاثة آلاف عام).

ورغم أن الحفريات الأثرية الأركولوجية كانت قد كذبّت أسطورتي أريحا وعاي، من حيث أن المدينتين هُجرتا قبل ما يزيد على سبعمئة عام من تاريخ ابن نون المفترض(**)، إلا أن المناهج الدراسية في إسرائيل، ما زالت تعتبر سفر يشوع من الأسفار المقررة في المناهج التربوية، فالسِفر يُدرّس من الصف الرابع الابتدائي وحتى الثامن الاعدادي كما أن القصة هذه، تعتبر مادة من مواد التدريس في الكليات الحربية فضلاً عن توزيعها على أفراد الجيش الإسرائيلي.. وقد قام (البروفسور تاماران) وهو أستاذ التاريخ القديم في جامعة تل أبيب، بتوزيع استمارات على ألف طالب وطالبة، أما الاستمارة فتقول:

(*) لمن أراد الاستزادة عن الوثائق في هذه المرحلة، فإن كتاب الأستاذ محمد حسنين هيكل عن المفاوضات السرية بين العرب وإسرائيل اصدار دار الشروق، طافح بما هو مطلوب من الوثائق المسندة.

(**) إذا كان تاريخ ابن نون حسب بعض الفرضيات أو المسلمات المنشأة على أساس الاقتران بالتاريخ الفرعوني، يقع في القرن الثالث عشر قبل الميلاد، فإن البينات الأركولوجية، والايكولوجية (علم النقوش)، تشير إلى وقوع زلزال ضخم في العام ١٩٨٢ قبل الميلاد وهو ما يجمع عليه العلماء، وقد أسفر الزلزال عن نتائج كارثية بدءاً من جنوب فلسطين وحتى أوغاريت شمال سوريا، كما أن هناك ما يشبه الاجماع على التبدل المناخي باتجاه الجفاف والقسوة، اعتباراً من منتصف القرن الرابع عشر قبل الميلاد (اقرأ التاريخ القديم لإسرائيل تأليف الدكتور توماس تومسون ـ دار بيسان ـ ترجمة سوداح صفحات ١٤٩ ـ ١٥٦).

ـ أنت تعرف المقاطع التالية الواردة في سفر يشوع على النحو التالي: (توجَّهَ الشعبُ إلى مدينة أريحا واستولى عليها.. وقتل كل سكانها من رجال ونساء. وأطفال وشيوخ دون تمييز...) أجب على السؤالين التاليين:

آ ـ ماذا ترى في سلوك يشوع والاسرائيليين تجاه سكان أريحا، هل هو حَسَنٌ أم سيء؟..

ب ـ لنفترض الآن، أن الجيش الإسرائيلي قد احتل قرية عربية، هل من الواجب أن يحذو الجيش حذو يشوع مع السكان؟..

وكانت نتيجة البلبلة أن طرد الأستاذ تاماران من الجامعة.. وإثر اجتياح لبنان في العام ١٩٨٢ وبعد مذابح صبرا وشاتيلا، أصدرت الحكومة ثلاثة رسومات لطوابع جديدة، تخليداً لاحياء ذكرى يشوع بن نون، الرسم الأول يشير إلى عبور ابن نون لنهر الأردن، والثاني يشير إلى (الإبادة المقدسة) لأهل أريحا عدا العاهرة (رحاب) جاسوسة العبرانيين، والرسم الثالث، يشير إلى حركة من ابن نون لإيقاف الشمس من أجل استكمال المذبحة في ضوء النهار...

○○○

(٣)

في إرسالاته العنيفة ضد البلدانية الفلسطينية، يحاول نتنياهو من خلال العارض من آثاره التاريخية، أن يحذف (الآخر) من الوجود التاريخي كله، وقبل الانغماس في الموضوع، علينا أن نستمع إليه من جديد يقول:

(من بين المواقع التي لم يجر تبديلها على يد العرب، وجد الباحثون مدينة يرمياهو، عناثوت (عناتا) وميادين المعارك التي خاضها المكابيون في لبونة (لوبان) وفي بيت حورون (بيت عور) والحصن الأخير لباركوخفا (بيتار) وشيلو (سلوان) وعراد (تل عوريد) واشكلون (عسقلان) وبيرشيفع (بئر السبع) وبني براك (ابن ابريق) وبيت شآن (بيسان) وبيت شيمش (عين شمس) واستموع (السموع) ومئات المواقع الأخرى) ثم يتابع: (وفي حقيقة الأمر، فقد أقام العرب خلال ١٢٠٠ سنة من وجودهم على أرض إسرائيل مدينة واحدة هي الرملة)..

وإلى هنا.. هل يأذن السيد نتنياهو بتوجيه بعض الأسئلة:

ـ لماذا جاء نتنياهو على ذكر المواقع الهامشية في التاريخ العبري وترك الموقع الأهم، الذي هو جوهرة التاج في تاريخ إسرائيل كله.. وأعني مدينة أورشليم؟..

ـ ماذا يقول في الحقيقة التاريخية المقررة التي جاءت على لسان علماء أوروبا وليس غيرهم، من أن الحضارة بمجموعها في فلسطين، إنما هي حضارة كنعانية، ثم عربية إسلامية فيما بعد..

ـ لماذا سكت نتنياهو عن آثار المواقع ما قبل العبرانية وهي الآثار التي تشكل تاريخ فلسطين الرئيسي؟

ـ لماذا لم يأت على مشكلة اللفائف المكتشفة في دير قمران بالقرب من البحر الميت، حيث صادرتها إسرائيل بعد حرب حزيران من المتحف الوطني الفلسطيني في القدس، ولم تفرج إلا عن النذر اليسير بعد مطالبات دولية أمريكية وانكليزية وألمانية متكررة؟

ماذا تقول اللفائف، وبأية لغة، وإلى أي تاريخ تعود، ماهو وجه المقارنة بينها وبين ما كُتب في العهد القديم، ثم ماهو وجه الخلاف مابين اليهود الأسينيين من سكان قمران، وما بين اليهودية المكابية التي تريد تكوين شعب الله عن طريق السيف.. ألا يوجد فارق في الأسلوب الخلاصي، ما بين انتظار الوعد بظهور النبي الموعود، أو الخلاص عن طريق التدخل في مشيئة الله.. وهل هناك إجابات في لفائق قمران؟.. هل هناك إجابات مُعدّلة عن نشأة المسيحية الأولى من حيث أن اللفائف تعود إلى مئة سنة قبل وبعد الميلاد؟..

ماهو لغز التداخل اليهودي ـ المسيحي في التاريخ، ولماذا انتفض اليهود ضد (مسيح المحبة) لامسيح (السيف والنار) كما تخيلّوه من وحي يهوه إله الحرب المقاتل، وهل جاءت صورة المسيح على النقيض مما رسموه عنه قبل مجيئه؟..

ربما تجيب لفائف قمران عن شيء من هذا بعضه أو كله..

إننا نود أن نعلن للسيد نتنياهو منذ البداية، بأن تاريخنا لايلتزم بفنّ المونتاج الحديث، فهو غير قابل للتقطيع والوصل، فإذا لم يعترف بأن البابليين والآشوريين، وبابل حمورابي، والكنعانيين والآراميين والفينقيين والأنباط والتدمريين، وغساسنة غسان، ومناذرة منذر ولخميّ المناطق الجنوبية.. هم أقوام هذه المنطقة دون جدال، وأنهم من سلالات الأقوام المتعاقبة، وليسوا من عروق الأمم المختلفة، حيث الشاهد هو جذر اللغة ومنطقية تباين لهجاتها إلى درجة التبدّل مع القرون، إذن لماذا لايتحدث نتنياهو عن أصل اليهود قبل يشوع وداوود؟ أم أن التاريخ كله بدأ من هناك ليتوقف في تل أبيب اليوم؟!

ألا يقدم ميراثاً بيّناً عن تاريخ أجداده، وفيما إذا كان هؤلاء قد جاؤوا من أصلاب آرية، أو سلافية وليست سامية شرقية؟! هل يضمن نقاءه ونقاء أقرانه اليوم، بعد مرور عشرين قرناً على شتاتهم الأول؟...

ألا يكفيه ـ كي ينضم إلى الجوقة ـ ما كتبه ويكتبه الغرباء عن تاريخنا فيحجبون ما يحجبون، ويصدرّون، بما يخدم منافع حاضرهم، لا حقائق ماضينا كما كان، وما تمليه الأمانة فيما يجب أن يكون؟... إننا نُقرّ دون لجلجة، بأن الغرب هو كاشف تاريخنا الأول، فمن حجر الرشيد إلى شمرا فماري فايبلا وإلى تدمر فبلاد الرافدين، وعلماء الآثار من الغربيين ـ منذ القرن الثامن عشر أي موعد العالم مع الغزوات الاستعمارية ـ وهم يسوحون في بلادنا طولاً وعرضاً... ومن واجب الأمانة من جهة أخرى، أن نعترف للعديد منهم، بسمو المهمة التي صرفوا أعمارهم في سبيلها، ونبْل الهدف الذين عملوا من أجله، خدمةً للحضارة الإنسانية، وشرفاً في إنقاذ التاريخ من براثن الخرافة وجعله في مصاف العلوم الحقيقية الأخرى.

لقد سبق لكّهان نتنياهو وقبل مجيئه إلى هذا العالم بألفين وخمسمئة عام، أن استلبوا روائع

الكنوز من أساطير أجدادنا، فلماذا لايقرأ نتنياهو قصة الوجود والخلق في أساطير سومر وبابل وكنعان... ليقابل ما كتبه أسرى بابل في المحرّف من التوراة!.. لماذا لايطّلع على أسطورة البعث والقيامة في أساطير أجدادنا المصريين والسومريين والكنعانيين، ما هي حَسَنات الثواب والعقاب في تشريعات حمورابي وما الفارق بينها وبين التشريعات التي وضعها كُهان بابل من اليهود؟...

هل قرأ في الأسطورة الكنعانية والبابلية قصة آدم وحواء وشجرة المعرفة (والماء أصل الكون والأرض والطين..)، وهل سمع بقصة هابيل وقابيل في الملاحم السومرية، حيث الفلّاح والراعي يختصمّان ويتصالحان.. هل اطلع على قصة الطوفان في آداب المنطقة وكل آداب العالم، ألا تحاكي قصة أنوبيس وباتا في الأدب الفرعوني(*)، قصة يوسف كما ادعتها التوراة المنحولة.. ألا تحاكي قصة سرجون الأول ملك آكاد في ٢٣٨١ قبل الميلاد، حكاية ولادة موسى، وكيف أن أمه الطاهرة ألقته في النهر داخل صندوق خشبي مُحكم ليتلقاه مزارعو الجنوب فيما بين النهرين.. الخ فإذا ما تم التشابه بين شريعتين فلا بد إذن أن يكون معظمُه مُقتبساً من أقدمها...

وقبل نتنياهو بسبعة آلاف عام، ألم يستلب الغرب منا معجزة الأسطورة الإغريقية ليتم تنسيبها كاملة إلى الغرب في اليونان، كيلا يتم الاعتراف للشرق بشيء.. ألم ينهل الإغريقيون القدامى، من حضارة سومر (٥٠٠٠ سنة قبل الميلاد)، ما يكفي ويزيد أين كان يعيش أجداد الفلاسفة الإغريق قبل سقراط وأفلاطون، أين كان يقيم فلاسفةٌ عظام من أمثال تاليس وأنكسمين وبارمندس وهرقليطس.. وغيرهم من الذين ولدوا وعاشوا وماتوا في المنطقة المنداحة بين الهلال ومصر العليا... ألم تكن الأرقام ذات دلالات قدسية في الأديان القديمة، ولماذا اعترض اليهود على ديانة (التثليث) في المسيحية التي جاءت من اليونان (أي من مسيحية بطرس لا غيره..) وماذا كانت تعني الثلاثية والخماسية والسداسية والتطيّر والتفاؤل، في الأساطير منذ سومر وحتى اليوم... وبالتأكيد فإنه لا علاقة لنتنياهو بهذه الشكاوي العربية الموجعة، فهو كما يعلّمنا في كتابه، يضيق ذرعاً بالجدل القديم، أو بما يتعلق بحقائق الماضي من خلال آياته الملموسة، فلدى السؤال (الذي يوجهه لنفسه) عمّن استلب الأرض الفلسطينية، أهم العرب أم اليهود؟ يجيب مع نفاد الصبر (ماهي أهمية هذا الجدال، فقد مضى أكثر من ١٢٠٠ سنة... ومنذ ذلك الوقت فقد جاءت أمم وذهبت أخرى، ومع ذلك فإن التاريخ مستمر ـ ص٦٢). وكداعية من دعاة الواقعية (على طريقة امحاء الهنود الحمر من تاريخ أمريكا)، فإنه يستخدم ضمير الغائب لإبعاد اللوم (هناك مَن يدّعي بأنه لا معنى للمناقشة النظرية للحقوق التاريخية للشعوب، إذ هناك عناصر واقعية لنشوء الدول)، (فإذا كان المبدأ هو أن صاحب القوة هو صاحب الحق، فهذا يعني أن الممثل الأخير هو صاحب الحق.. وبناء عليه فإن إسرائيل هي صاحبة الحق في السيادة على أرض إسرائيل ـ ص٥٩).

(*) تروي هذه القصة بجمالية أخاذة، حكاية أخوين هما أنوبيس وباتا، الأول متزوج من امرأة حسناء والثاني لايزال يعيش حياة عزوبيته، وقد راق للحسناء أن تضاجع الأخ الصغير باتا، إذ هو يمتلك من الحُسن والأدب ما حكته الأسطورة عن يوسف، وبحكم رفض باتا لاغواء زوجة أخيه، ووشايتها المقلوبة عنه، سيتعرض للمطاردة طوال عمره..

هذا هو الأساس إذن.. فلماذا يستدرك نتنياهو ليقول:

(إن هذا ليس هو المقياس المناسب عندما يتعلق الأمر بنهضة اليهود القومية.. ففلسطين حق لليهود وليست صدقة تُزجى إليهم - الصفحة ذاتها).

ألا ينبثق حق نتنياهو هنا من عناصر القوة أيضاً، ومن غير أسلوب التهريف والتجديف، أين هي عناصر الحق في قضية بدون القوة، ألم تنشأ إسرائيل على القوة التي توسّلها أجداده من الغرب الكاره للشرق، ومن اللاسامية الكارهة السامية، ومن البروتستانتية - اليهودية الكارهة للمسيحية، ثم من الكاثوليكية التي أرادت إنقاذ (الصليب المسكين) من ظلم العرب المسلمين وظلامهم!.. ألم تلعب الصهيونية على وتر العداء بين الغرب المسيحي والشرق المسلم... ما هي عناصر الصهيونية - منذ ما قبل ولادتها - غير التسلّح بقوة المال ونفوذه؟! أهي حقائق الأسطورة في التاريخ، أم هو (المُقدّس) الذي استخدم كرافعة من أجل الاستئثار بكامل الطاقات الهائلة، التي تسكن في صدر المتدينين الأبرياء... فإذا كان صاحب القوة هو صاحب الحق في النهاية، فإننا نأمل ألا يكون السيد نتنياهو قد استخدم (حق قوّته) في شطب المواقع الأثرية للأقوام العربية في تاريخ فلسطين، ولذا فستعمل على إزالة الغّمة عن آثارنا التي تجاهلها نتنياهو دون أن يرف له جفن.

أولاً، دعونا نسأل نتنياهو لماذا اختار الباحثين من أمثال روبنسون (الأمريكي) وتوبلر (الألماني) وجرين (الفرنسي) ثم كلود كوندور (البريطاني) ولم يقترب من العلماء الذين احتكموا للعلم ففصلوا التاريخ عن الأسطورة بل وأطلقوا العنان لأوابدهم وآثارهم تتكلم من تلقاء نفسها، أمثال الأب دوفو الفرنسي والأدب ويدفر، وكاثيلين كينيون وآزيكو فرانكين.. ثم لماذا استبعد أيضاً علماء الآثار اليهود من أمثال بنيامين مازار وييغال يا دين وأهاروني وورث أميران وغيرهم؟!...

أمن أجل إظهار النزاهة مثلاً؟!..

من الطبيعي ألا يستعين نتنياهو بفلسطينيين أظهروا التفوق في العلم الأثري أمثال يوسف سعد وديمتري البرامكي وسالم الحسيني... إلا أن الآثار تبقى مع ذلك محايدة. فمنذ العهد البيزنطي والعصور الوسطى، فقد تملكت الأوروبيين رغبة في التعرف على تاريخ فلسطين، وعلى المواقع التي ورد ذكرها في الكتاب المقدس، ومع أن الأهداف والجنسيات كانت متباينة إلا أنه يمكن إيجازها على النحو التالي:

- فريق من العلماء كان يصبو لمعرفة التاريخ ما قبل الديانات السماوية.

- فريق آخر كان يحاول إجراء المقارنة بين تاريخ الشرق وتاريخ الغرب.

- فريق ثالث كان يرنو إلى استخراج الكنوز الحضارية والثقافية التي عاشها أهل فلسطين منذ أقدم العصور.

- فريق رابع، كان همّه الواحد والوحيد، اثبات ما ورد في التوراة من أماكن وأحداث وأشخاص... الخ..

- فريق خامس - وهو الأخطر الذي يستخدمه نتنياهو هنا - وقد حرص من خلال التاريخ وعلم

الآثار، على استخلاص الوثائق التي تثبت بأن فلسطين هي أرض الميعاد (التي وعد بها الرب شعبه المختار للعيش بسلام)..

ويمكن إحصاء أكثر من ثماني جمعيات أوروبية أثرية، كانت تعمل كل واحدة كفريق عمل متكامل في أرجاء فلسطين وذلك حتى العام ١٩٠٤ وهناك ست جامعات ومدارس ومعاهد أمريكية بدأت منذ العام ١٩١٩ باصدار حوّلياتها عن نتائج التنقيبات في فلسطين، وكانت أول حولية قد نشرت في مجلة بعنوان: (المدرسة الأمريكية للأبحاث الشرقية في القدس) وتلا هذه المدرسة، (المعهد الشرقي لجامعة شيكاغو) ثم فيلادلفيا، وبيتسبورغ والمحيط الهادئ ثم جامعة هارفارد...

إن نتنياهو يضع بعض المواقع الأثرية اليهودية على خارطة فلسطين ويذكر (مئات المواقع الأخرى) دون أن يشير إليها بالطبع ذلك أن هذه (اليقينية المدعاة) قد تجعله وجهاً لوجه مع عالم الأركولوجيا كما هو الآن مع عالم السياسة، وبعيداً عن التفاخر، فإنه نجد لزاماً علينا كعرب من فلسطين في الأساس، أن نعرض لآثار القديم في بلادنا، لا كأناس يودون لغاية مسبقة، وضع عربة التاريخ قبل حصانه، بل كأناسٍ متواضعين يرومون فهم التاريخ من خلال ترابط منطقِهِ الداخلي في ظل مؤثراته الخارجية سواء أكانت جواريّة أم طبيعيّة أم مناخيةٍ أو بشرية..

ولسوف نستميح القارئ عذراً، إذ لابد من وقفة مختصرة مع مدارس الغرب التاريخية (التي يستشهد نتنياهو ببعضها) على أساس ما قدمته الأركولوجيا الفلسطينية منذ مطلع هذا القرن، وما عطف عليه الدارسون المختصون، سواء لأسباب قَبليّة صاردة عن القناعة (بإثبات صحة العهد القديم)، أو لأسباب علمية محضة لا هدف لها سوى الوصول إلى نزاهة الحقائق التاريخية دون تبييت مسبق، وهو هدف نبيل لابد من الاعتراف به للعديد من العلماء الغربيين الذين عكفوا على استخراجه منذ قرن تقريباً، فقد استخلص عالم التاريخ الألماني ج. فيلهاوزن، بعدما يزيد على عقدين من الدراسات النقدية ـ التاريخية، فرضيةً أسماها (بالفرضية الوثائقية) لأصول الأسفار الخمسة في التوراة، كذلك الكتب الستة اللاحقة بها، وقد كانت أعمال فيلهاوزن تتجه بشكل حاسم نحو عملية تاريخية إيجابية لإعادة بناء تاريخ الديانة الإسرائيلية، وقد أدت مضامين الفرضية الوثائقية إلى نفي أيٍّ قبولٍ لتاريخية المراجع لروايات الأسفار الخمسة (التي تشتمل لا على روايات الخليقة فحسب، بمرجع التكوين ١ ـ ٢)، بل وعلى قصص الآباء (إبراهيم وإسحاق ويعقوب) كذلك قصص الخروج واجتياحات يشوع المألوفة، وقد ووجهت منهاجية فيلهوزن النقدية ـ التاريخية بعاصفة من القبول والرفض. لكن هذا العنصر قلما غاب عن الأبحاث التاريخية اللاحقة، فبنتيجة سيادة (الفرضية الوثائقية) فقد اكتسبت الدراسات التاريخية العديد من فرضياتها وتوجهاتها البالغة الأهمية، صفة البديهيات، مما أدى إلى نقلةٍ في الدراسات التاريخية، قذَفَت بمسارها بعيداً عن ضغوط التفكير الديني (ثيولوجي) لصالح تاريخية علمية بصورة متزايدة، ولا شك أن افتراضات فيلهوزن كانت نتاجاً لنجاح عصر التنوير... مما أدى إلى تبدلات أساسية في الدراسات التوراتية ـ التاريخية.

استند تلامذة فيلهوزن على تحليله الوثائقي واهتمامه الأوسع بالمظاهر الأنتروبولوجية (السكانية) في الثقافة الشرقية، إلا أن هؤلاء التلامذة على رأسهم الأستاذ ي. ماير أراد التوفيق بين ما كان معروفاً عن تاريخ وجغرافيا العالم القديم خاصة في كتابه (الاسرائيليون والقبائل المجاورة لهم) فتوصل إلى نتيجة مغايرة لمدرسة فيلهوزن حين قال: (إن المصادر التوراتية إلوهية، والأيلوهية والكهنوتية. أي مملكة داوود الموحدة ثم يهودا والسامرة ثم الفترة السابقة للنفي أيام يوشع... كانت وثائق مناطقية مستقلة، لأنها تفتقر بوضوح لأي هيكل منطقي جامع)...

لقد ارتأى ماير، أن التراث الذي استمدت منه المصادر الوثائقية كان في الأصل مرويات شفوية ومجموعات من القصص التي تألفت من الحكايات الشعبية والأساطير والملاحم، كما رأى أن حكايات سفر التكوين فيها القليل مما له علاقة بالتاريخ، بل هي تنتمي إلى عالم الخيال..

الشخصية الثالثة في تاريخ الإسرائيليات هو العالم الهولندي هـ. غونكيل، قال: لايمكن فهم تاريخ إسرائيل إلا على ضوء التاريخ العالمي والدراسات المقارنة بدلاً من الاقتصار على النقد المنطقي للمرويات، وقد شكل مع العالم هـ. غريسمان اتجاهاً واسع النطاق عرف بمدرسة تاريخ الأديان، ونشر غريسمان كتابه الشهير (نصوص الشرق القديم المتعلقة بالعهد القديم) الذي قدم مساهمة في مجال دراسات الأدب المقارن والأدب الشعبي، فيماأمل آخرون للتوصل عبر الدراسات الأركولوجية والأدب المقارن والقصص الشعبية إلى فهم المضمون السسيولوجي (الاجتماعي) كنطقة انطلاق في مجال الدراسات التوراتية.

لقد بيّنت هذه المدرسة، أن الوثائق الكتابية التي استخلصت منها الحكايات التوراتية تجد أصلها في أدب شعبي متناقل منذ مدة طويلة سابقة على تواريخ تأليفها، وقد وافقَت على أن المصادر اليهوهية والايلوهية ـ أي مملكة داوود ثم الانقسام إلى يهودا والسامرة، إنما كانت تعكس فترة حكم الملوك... غير أن الأستاذ أو. إيسفلت انتقد هذه الطريقة من حيث أن المرويات الشفوية المتناقلة لاتثبت كنص تاريخي أصيل، بل إن الخيالية لابد أن تلعب دوراً فيه (إن العهد القديم لم يكن تاريخاً تحوّل إلى خيال، بل خيالاً تحول إلى تاريخ)، وطالب إيسفلت بالبحث عن خلفية للمرويات التاريخية التوراتية، وهكذا إلى أن يهتدي المرء إلى منشأ هذه الروايات المعقدة، ولابد في النهاية من الوصل إلى (النواة التاريخية) التي كانت مخبوءة في جميع المرويات القديمة الهامة.

لقد وضع ايسفلت الأساس لدراسات أمريكية ـ ألمانية، تقول بأن اكتشاف النواة الأصلية للرواية يشكل اكتشافاً للواقعة التاريخية نفسها، والمفهوم المعاكس فإن أي وصف لعنصر ثانوي في الرواية يجعله بالضرورة غير تاريخي. وعلى جانب الأطلسي، حقق الأستاذان أولبرايت الأمريكي وآلت الألماني، مكاسب ضخمة لتاريخ إسرائيل، فقد أثرت الدراسات التاريخية للعالِمين المذكورَين في جمعهما بين نقد الشكل ونقد المصدر (الخط الذي ابتدأه إيسفلت) على أجيال الدارسين لمدة نصف قرن أو ينوف...

لقد اشترك كل من أولبرايت وآلت بهدف إعادة تشكيل تاريخ إسرائيل القديم على أساس

التقييم النقدي والتوفيق بين الدراسات التوراتية والأركولوجية المتعلقة بالشرق القديم.

بالنسبة لآلت الألماني، فإن التاريخ الشفهي القديم للنص يحمل أهمية بالغة في عملية إعادة البناء التاريخي.

أولبرايت من جهته، لم يحاول تقديم أي نقد هام لفرضية فيلهاوزن الوثائقية، بل اكتفى على طريقة آلت، بالإنتقال الشفوي للتدوين(*).

وإليكم خلاصة الآراء لأولبرايت وتلامذته من بعده:

ـ إن تمايز الإسرائيليين عن جيرانهم الكنعانيين سواء في المعتقدات أو الثقافة أو التقاليد، لا دليل أركولوجي عليها، ودعماً لنظرية أولبرايت، فقد استخلص مندنهال وغوتولد وغيرهما من مؤيديه، نظرية (النموذج الثوري) في تطور اسرائيل القديمة.

ـ لاتوجد دلائل أركولوجية تشير صراحة إلى إسرائيل موحدة (أي مملكة). ولا أية إشارات إلى غزوها لفلسطين، لكن أولبرايت استخلص ذلك من تدمير المدن الكنعانية في العهد البرونزي المتأخر (أي حوالي ١٢٥٠ قبل الميلاد).

ـ يقوم أولبرايت بتصحيح الروايات التوراتية فيقُدّم تواريخها بما يتفق مع عصور التاريخ، فمثلاً فإن مدينة عاي التي اكتسحها يشوع لم تكن مأهولة خلال العصر البرونزي الأول ولا العصر الحديدي الذي بعده، لذلك فقد اقترح فهَم قصة عاي الواردة في سفر يشوع كإشارة تاريخية لغزوة لاحقة هي غزوة (تيين)!. وهنا فإن أولبرايت يقوم إما بزحزحة تاريخية الحدث أو بزحزحة ما هو مفهوم جغرافي على أنه مفهوم قديم!..

ـ يقول أولبرايت بإمكان تحديد تاريخ النصوص على أساس أشكالها، وهي نقيض لمنهجية الدراسات النقدية، فالشعر عنده سابق على النثر تاريخياً، وهي المادة الأدبية التي يمكن أن تحفظ أكثر من غيرها، وعليه فإن أشعار (مريم ودبورة) اليهوديتين تحدد فترة يمكن أن تكون مجاورة أو قريبة من الأحداث، وأدى ذلك إلى انبثاق مفهوم غريب عن التاريخ، هو تاريخ الاستنتاج، فالروايات والأشعار والقصص في الشرق القديم، يمكن أن تتحول إلى أغاني، ولكنها لاتقدم شيئاً يتعلق لا بالتاريخ ولا بتسلسله الزمني، فالأشعار الأوغارتية أو الكنعانية التي اشتقت منها المزامير هي هي منذ ما ينوف على ألف عام قبل العصر البرونزي الأول، وفي ضوء قصور المصادر المتكاملة، فإن قِطَع النثر أو الشعر، لايمكن اعتمادها كأساس للتاريخ الشكلي أو الاستنتاجي.

ـ يتجاوز أولبرايت الترابط المنطقي لأصول الإسرائيليين الذين قدموا من سيناء إلى فلسطين، فهم كهجرة بدوية لايمكن أن تعارض بالهجرة العمورية أواسط العصر البرونزي، ورغم ما ورد في التوراة عن ميثاق سيناء وما يمكن أن يلعبه من دور موحّد للقبائل الإسرائيلية، إلا أن وضعهم

(*) ها هنا سراب الخداع في تجاوز المنهجية العلمية، فالمرويات الشفوية المتناقلة، جاءت لتسد فراغ الأركولوجيا الإسرائيلية، وبدلاً من أن يصنع التاريخ نصوصه وآثاره، فإن النصوص هنا، هي التي تصنع التاريخ... بالإستنتاج!.. إن الشفوي لايتحول إلى أركولوجي ومن هنا جاءت طريقة الانقاذ.

كلاجئين مشردين وتائهين في البريّة، لاتشجع على الاستنتاج بالتحول المفاجئ وإمكان مصارعة الشعوب المجاورة (على طريقة وحدة الجماعة الأولبرايتية)، بل بالعكس، فإن هذا الأسلوب حدا يبعض الدارسين إلى رفض أسطورة الخروج ووحدة القبائل كذلك أسطورة شكيم الواردة في سفر يشوع.

ـ بالإستناد إلى منهج تحليل التسلسل الزمني. فإنه ليس ثمة براهين أركولوجية نهائياً على غزو إسرائيلي للمدن الكنعانية، وقد فشلت الحفريات الكبرى في موقعي أريحا وعاي في إثبات تدمير المدن الكنعانية على يد الغزو الإسرائيلي، فطبقة العصر الحديدي لا تشير إلى هوية إسرائيلية، فيما طبقة العصر البرونزي تشير إلى هوية كنعانية صريحة، ومع ذلك فإن فترة الانتقال الغامضة التي يستخدمها أولبرايت كتحول بين عصرين، غير صالحة كدليل مستنبط من الذهن لزمن الوقائع الأثرية.

ـ لا أدلة أركولوجية، تثبت بأن الكنعانيين والإسرائيليين شعبان متمايزان إثنياً، فكيف يمكن قبلياً استنتاج التجاور بين عقيدتين إحداهما تقول بالتوحيد، والأخرى تقول بالتعدد، لقد عجزت الحفريات الأركولوجية في فلسطين، عن إثبات ما هو مُميّز بين كنعاني وإسرائيلي، ويعود ذلك ببساطة إلى أن الكنعاني كان موجوداً، فيما (الآخر) الذي يُراد تمييزه لا أصول ثابتة له.

ـ لقد انفصل الدارسون التاريخيون من أمثال أ. سوغين و ج. م. ميلر عن نتائج أبحاث أولبرايت بصورة مفجعة، وأقاموا حداً فاصلاً بين تاريخ الأركولوجيا وتاريخية التوراة، كما أن الدارس التاريخي ج. ج بيمسون استنتج بصراحة، أن القسم الأكبر من تأويلات المعلومات الأركولوجية والتسلسل الزمني التاريخي في فلسطين، وجوارها، كان قد تم ترتيبه على أساس الإجماع الافتراضي للدراسين، فكل شيء مُفترض، يجب التدقيق فيه مجدداً، وكل ما بُني في الأساس لايمكن اعتباره نقطة انطلاق تاريخية أو في حكم البدهية الموثوقة.

ـ خلال السبعينات من هذا القرن، فقد غمر العقد كله، طوفان من الدراسات التاريخية، أهمها دراسة د. م غون. عن قصة الملك داوود، ودراسة ج. ج فوكلمان عن قصص يعقوب وصموئيل، وكلها عززت الاتجاه القائل بضرورة الفصل بين قصص التوراة والتاريخ، إلا أن الاندفاع الأهم نحو تفكيك تاريخية التوراة، بلغ ذروته مع كتاب هانز ميلر في العام ١٩٧٧، وبعد أربع سنوات في العام ١٩٨١ نشر ج. و رامسي مراجعة شاملة (أطروحة) لمجمل آراء ميلر والآب دوفو وتومبسون، وإليك مختصر هذه الأطروحة:

١ ـ عدم نهائية أية محاولة كانت ترمي لإعادة بناء تاريخ إسرائيل إيجابياً.

٢ ـ رد فعل قوي، ضد تكييف التاريخ التقليدي مع العهد القديم، وخاصة دراسة القصص والأدب والأشعار.

٣ ـ ظهور رد فعل حاد في الدراسات الأركولوجية ضد الخضوع للدراسات التوراتية، أو الارتباط بها.

٤ ـ فشل التوفيق بين الأركولوجيا والدراسات التوراتية، في التاريخين الشكلي أو الاستنتاجي (مدرسة أولبرايت وآلت).

٥ ـ نشوب جدل صارخ حول العلاقة أصلاً ما بين قصص التوراة والتاريخ الفعلي للمنطقة.

٦ ـ مع كتاب غوتولد (قبائل يهوه) فقد عمّ الإضطراب مدارس المحافظة على (الأركولوجية التوراتية الموعودة!..) فقد أسس هذا الكتاب لبدائل سوسيولوجية وأنتروبولوجية (قبلية) مخالفة لما ورد في التوراة تماماً، فضلاً عن عنصر (النموذج الثوري) الذي يحاول عقد المقارنة أو التشبّه، بالقبائل الاغريقية القديمة.

٧ ـ نقد أسلوب التركيز المتواصل القائم على مناهج الروايات والتاريخ الاستنتاجي، وعدم مشروعيته لتضاربه مع المناهج العلمية الحديثة.

٨ ـ إن سمات الرواية في التوراة نفسها غير تاريخية، ولا يمكن افتراض تاريخيتها ولا حتى ملاءمتها لمجال البحث التاريخي، أما البيّنات الخارجية الأركولوجية فإنها لم تعد مجرد تَرف يمكن الاستغناء عنه لصالح اثبات الأسطورة، بل إنها ضرورة ماسة، بدونها لايمكن أساساً كتابة التاريخ أو التعرف عليه(*).

○○○

(٤)

لقد تحدثنا عما لم تستجب له الأركولوجيا الفلسطينية، فهل بقيت بيضاء فعلاً على الطرف الآخر من التاريخ؟! وعلى طريقة التقابل، مَن هم الذين استجابت لهم الأركولوجيا الفلسطينية دون حاجة إلى فرض (فلسفة لا متناهية) بحق التاريخ، من حيث أنه غالباً ما يقدم (مواده مباشرة) دون وسيط أو استنتاج.

لنفتح إذن، صفحات الأركولوجيا الفلسطينية ـ ثم لنجعلها مفتوحة هكذا، قابلة للتكيف والاستنطاق بصورة لامتناهية ـ منذ غابر العصور.

أولاً ـ العصور القديمة ويقدرها العلماء ما بين ٦٠ إلى ٨٠ ألف سنة:

ـ كهف الزطية (طبريا). بقايا من جماجم وهياكل الإنسان الأول.

ـ جبل الطابون (حيفا) متشابهات مع كهف الزطية.

(*) أنا مدين في هذه المقاطع عن تأثير المدارس التاريخية الغربية هنا، للكتاب الرائع الذي ألفه البروفسور توماس تومسون أستاذ علم الآثار في جامعة ميلووكي حيث كلّفته جرأته العلمية وظيفته في الجامعة على أيدي اللوبي الصهيوني. والكتاب من إصدارات بيسان للنشر في بيروت وترجمة الأستاذ صالح سوداح وتقديم الأستاذ يوسف كفروني.

ـ وادي خريطون (بيت لحم) هياكل وأدوات تعود للعصر نفسه.

ثانياً ـ المرحلة النطوفية (ويقدرها العلماء بعمر يزيد على عشرة آلاف سنة).

ـ مغارة شقبة في وادي النطوف (الرملة).

ـ مغارة الواد (حيفا) ـ تل سلطان (أريحا) ـ عين ملاحة (طبريا).

من آثار المرحلة: مناجل حجرية ـ حفارات برونزية مروسة ـ علامات زراعية..

ثالثاً ـ العصر الوسيط (سبعة آلاف قبل الميلاد) ومن آثاره: نقوش تنمّ عن المعتقدات الدينية في أريحا وعاي وسهيل الجيب.

رابعاً ـ العصر البرونزي الأول (ويقدر بخمسة آلاف عام قبل الميلاد).

من آثاره: مظاهر التجمعات القروية ـ امتداد الزراعة ـ صناعات بدائية فخارية ـ ارهاصات هندسية تجريبية.

ويلاحظ أن الآلهة هنا باتت ترمز للخصب كآلهة المطر ـ الرعد الشمس والأرض...

خامساً ـ العصر البرونزي الوسيط (ويقدر بثلاثة آلاف عام قبل الميلاد). تحققت الأركولوجيا من المواقع التالية.

ـ مجدو في الجليل بين مثلث الناصرة ـ طبريا ـ بيسان.

ـ تل أبو مطر (بئر السبع).

ـ بيسان.

ـ وادي غزة (أطلال قرى تبعد عن غزة حوالي ٢ كم).

ـ تل الفارعة (نابلس).

ـ تل الجزر (الرملة).

ـ تليلات غسّول (شمال البحر الميت).

وكلها ذات آثار كنعانية بدلالات الرسم والنقش والحرَف.

سادساً ـ العصر البرونزي المتقدم (ويقدر بـ ٢٠٠٠ عام قبل الميلاد). أطلال أريحا وعاي وتل بيت مرسيم في جبل الخليل ـ تل الدوير ـ بيسان ـ تل القصبة ـ أوروشالم.

وآثارها مشتركة بين كنعانية وعمورية وآرامية ويبوسية.

إن أقدم اسم لمدينة القدس هو أوروشالم ويعني مدينة إله السلام لدى الكنعانيين، فشالم (التي هي كنعانية منقلبة عن أمها العربية العاربة سالم) هو إله السلام لدى الكنعانيين ومن هنا فإن اسمها في المخفوظات الفرعونية (روشا ليموم) إذ يرجع تاريخ هذه المحفوظات إلى القرن التاسع عشر قبل الميلاد وهي تأتي في (نصوص اللعنة) على ذكر حكام القدس (روشا ليموم) من الكنعانيين والعموريين واليبوسيين.

غير أن تاريخ المدينة - على ما يبدو - يعود إلى الألف الثالث قبل الميلاد، ويدل علم الآثار في سهل الجيب والمستعمرة الرومانية شمال وجنوب القدس، إلى أن اليبوسيين وهم من بطون القبائل العربية التي خرجت من الجزيرة بالتزامن مع الخروج الكنعاني، هم أول من وضعوا حجراً في مركز القدس، وقد ظلت أورشالم مركزهم الرئيس وعاصمة ملكهم، ومن بين مراسلات تل العمارنة في مصر، هناك ست رسائل بعث بها الملك اليبوسي (عبد خيبا) إلى فرعون مصر (أخناتون) يطلب فيها إرسال المزيد من الحاميات المصرية لتأمين الحماية ضد إغارات البدو من العبيرو، أما أزمنة هذه الرسائل فتقع ما بين القرنين الرابع عشر والثالث عشر قبل الميلاد.

وفي واحدة من هذه الرسائل، يقول الملك عبد خيبا إلى أخناتون:

(إن هذه الأرض، أرض أورشالم، لم يعطني إياها أبي ولا أمي، لكن أيدي الملك القوية هي التي دعمتني في أرض آبائي وأجدادي، وقد منحتُ ملكية أرضي في أورشالم إلى الملك للأبد، فهو لايمكن أن يتركها نهباً للأعداء).

في الكتابات الهيروغليفية اللاحقة، فإن كلمة (يابيثي) أي (يبوس) فإنها كانت تعني دائماً مدينة القدس، أما في التوراة فقد وردت كما تلفظ بالعبرية (يروشالايم) كذلك وردت باسمها الحقيقي (مدينة اليبوسيين). وهي تشير إلى حقيقتها في التاريخ.

لقد أقام اليبوسيون فوق (أكمة أوفل) حصناً. للدفاع عن المدنية وجروا إليه الماء، وهناك تقديرات للدارسين، أن اليبوسيين هم الذين أطلقوا اسم (جبل صهيون) على هذه الأكمة، وقد استطاعت عالمة الآثار الشهيرة كاثيلين. م. كينيون عام ١٩٦١ أن تكتشف إثر تنقيبات مُجهدة، بقايا السور اليبوسي منذ العصر البرونزي، كما تمكنت من اكتشاف أسس الأبنية اليبوسية في المدينة، كذلك طريقة جرّ الماء التي تبعث على الدهشة، حيث يُسقى الحصن من عين جيحون (أي ينابيع العذراء) الواقعة على الطرف الآخر من الجبل، وقد نقّب اليبوسيون الجبل لإدخال الأقنية إلى موقع الحصن.

بالعودة إلى الإسرائيليات - ودون سند أركولوجي بالطبع - فإن التاريخ اليهودي لمدينة القدس يبدأ مع استيلاء الملك داوود عليها حوالي ١٠١٠ قبل الميلاد وهذا حسب المرويات والمقارنة مع أحداث الجوار، ولكن المدينة، على هذه الفرضية، كانت تودع عامها (الألفين) حيث باتت في عداد المدن الكهلة، أما علم الآثار فيقدم لوحات شتى عن الأحوال المضطربة للمنطقة قبل قرون، فمنذ الديانة التوحيدية لأخناتون (١٣٧٩ - ١٣٦٣ قبل الميلاد) وممالك الفرعون المصري في حالة هيجان وانقسام(*)، كما أن القوة الكبرى التي يُمثلها الحثّيون إلى الشمال، تعرضت إلى هزيمة منكرة على أيدي أقوام البحر من الفلستيين، وتبددت آمال الكنعانيين في الحصول على معونة من

(*) على ما يبدو فإن الديانة الفرعونية في القرن الرابع عشر قبل الميلاد، كانت قد وصلت إلى ذروة الفساد على أيدي الكهان، فقام أخناتون بالغاء عبادة الآلهة وعلى رأسها الإله الأكبر آمون، واستبدلها بإله موحّد هو آتون، وقد ثارت ثائرة أوساط البلاط ودوائر الكهّان في مصر مما أدى إلى إضطرابات أهلية أضعفت مصر على نحو خطير آنذاك.

مصر، الأمر الذي اضطرها للإنقسام والدخول في أحلاف مع الأمراء السوريين والفلستينيين والإسرائيليين..

في التاريخ الافتراضي لحكم الملك داوود ومن بعده ابنه الملك سليمان (ما بين ١٠١٠ ـ ٩٢٥ ق.م)، فإن التفسخ بدا يعتري أوصال المملكة الموحدة حين وصول ابن سليمان الملك رحيعام إلى عرش المُلك، وقد بلغ النزاع ذروته حول مبدأ الوراثة، الذي لاتُقرّه الشريعة اليهودية، وهناك نص توراتي على لسان النبي يوشع يقول: (إنهم ينصّبون ملوكاً ولكن دون رأيي)... ولما كان مبدأ الوراثة تقليداً كنعانياً استنّه الملك داوود من طقوس كنعان. فقد شكل ذلك من الناحية الفعلية، إلغاء تاماً لأدوار الأنبياء الذين يقومون على تعيين الملوك، وقد أسسّ ذلك لانقسام المملكتين يهودا في الجنوب والسامرة في الشمال، وتبعاً لهذا النزاع فقد بلغ الأمر أشده، حين تم الخلاف على مسائل لها مساس بالعقيدة نفسها، فجبل جرزيم مثلاً (نابلس) هو الجبل المقدس لدى السامريين، وليس جبل صهيون في القدس، هذا وستصل القطيعة إلى حد تحريم الزواج من بنات السامريين إذا كان طالب الزواج من أنصار مملكة يهودا!...

لا نعلم تماماً، أو بصورة جليّة، ما الذي تقوله الحفريات الفلسطينية عن عهد المملكة الموحدة هذه، وما هو واضح حتى الآن، هو تلك الحقبة الآشورية القويّة التي بدأت قرابة العام ٨٥٣ قبل الميلاد على يد الملك الآشوري شلمنصًر الثالث، حيث تشير الآثار إلى هزيمة محققة لحلف تشكل من أمراء سوريين وفلستيين وإسرائيليين، على يد آشور، كما أن هناك هزيمة أخرى لأمراء السامرة في العام ٧٢٢ قبل الميلاد على يد الملك الآشوري تغلات فلًصر الثالث، وبموجب هذه الهزيمة فقد حُذفت مملكة السامرة من التاريخ. أما بخصوص مملكة يهودا الجنوبية، فإن التاريخ الاستنتاجي يفترض، بأنها استمرت بحكم الاستسلام، فقد كانت المملكة الجنوبية تقوم بكل واجباتها المطلوبة للفاتح الجديد (آشور)، من دفع الضرائب إلى القبول بسياسات التهجير والتجنيد، حيث من المعروف أن الحقبة الآشورية هي من أقل الحقب انشغالاً بالعقائد..

في العام ٦٠٩ قبل الميلاد حسب الآثار الفرعونية، سيجتاح الفرعون نخاو بلاد سوريا (بما فيها فلسطين) حيث يضع حداً لنفوذ آشور، وبعد زهاء عقدين، ستتم هزيمة الفرعون المصري (عام) على يد نبوخذ نصر البابلي في العام ٥٨٦ قبل الميلاد، وستختفي مملكة يهودا بعد ذلك من الوجود، وهو ما اشتهر بتدمير القدس ثم السبي البابلي الأول...

وحسب السجلات البابلية، فإنه لايوجد حتى الآن، ما يشير إلى واقعة السبي اليهودي من قريب أو بعيد.. وهنا لا بد للتاريخ الافتراضي أن يعمل.

إذ يقول بعض الدارسين بأن واقعة السبي لاتوجد في سجلات بابل لاحتمالين: إما لأنها مفقودة حتى الآن... أو لأن واقعة أوروشالم لم تكن بتلك الأهمية التي درجت عليها معارك بابل الكبرى آنذاك، أما يهود بابل فهم الذين صنعوا كل هذه المعجزات حتى الآن!..

نعود إلى الاعتذار من القارئ، إذ فصّلنا في تاريخ القدس: أولاً، لأنها المدينة التي ستقصم ظهر بعير التسوية اليوم، وثانياً لأنها المدينة التي تصب فيها الديانات السماوية جميعاً، وثالثاً لأنها المدينة

العربية التي نالت من ضروب الخداع اليهودي ما لم تنله أية مدينة عربية أخرى.

فالإصرار على أن (يورشلايم) هي عاصمة إسرائيل الأبدية، إنما يشير إلى أصلها اليهودي في التاريخ، علماً بأن أحد الأسفار التوراتية يقول على لسان النبي حزقيال حين أراد مخاطبة أوروشالم (أصلك ومولدك من كنعان.. أبوك آموري (أي عموري) وأمّك حثيّة..).

أما ما يجري اليوم مع تاريخ هذه السطور(*)، من حفر للنفق تحت المسجد الأقصى بذريعة السياحة (إذ متى كانت السياحة بالإنفاق الصُنعية تحت الأرض!..) أو بذريعة خفيّة هي على الأدق لمواصلة التنقيب عن بقايا معبد سليمان، فإننا نستخلص بعد مغامرات نصف قرن من المحاولات والإخفاقات وإعادة المحاولات:

ـ بأن حائط المبكى الموجود وهماً بحذاء المسجد الأقصى ليس من بقايا معبد سليمان، بل إنه من بقايا معبد هوميروس، إذ من الواضح لكل ذي بصرٍ مقارن، أن طراز الحائط كله ومظهره ونقوشه، إنما تعود للنموذج الروماني في البناء، وليس هناك ما يبعث على تبكيت الضمير. إذ ثمّة قرابة جوار لنا اليوم مع روما والفاتيكان، فآثار تدمر وبصرى وطبريا (التي بناها الإمبراطور الروماني تيباريوس) وكلها في بلاد الشام، إنما هي نماذج رومانية في البناء، ومع ذلك فإن التعصب هو الذي يمنع اليهود من الاعتراف بما قدمته الإمبراطوريات الأخرى أثناء غزواتها للمنطقة..

ـ إن معبد سليمان على ما يؤكده علماء التاريخ، ليس عنصراً من عناصر التراث الثقافي اليهودي، فالتوراة ـ التي هي الشاهد الوحيد على هذا البناء في الأصل ـ تقول مع ذلك، بأن هذا المعبد بُني على أيدي البنّائين والصُنّاع، الذين أرسلهم حيرام ملك صور الكنعاني، كما أن التوراة تصف المعبد في سفر الملوك، بأوصاف تطابق تماماً، النماذج المعمارية الكنعانية، إذ لم يعرف اليهود في الأساس بناء المعابد، فتابوت العهد كان يوضع في خيمة، ثم إن التصاوير والتماثيل والزخارف داخل المعابد... كلها محرّمة لدى العبرانيين..

إن هذه الطريقة في قراءة التوراة على نمط مملكة يهودا، لم تعد مقبولة اليوم، لا لدى اليهودي ولا المسيحي أو المسلم على حد سواء...

إذن، هذه هي مدينة القدس التي قدّم لها الخليفة عمر بن الخطاب عهد الأمان باسم (إيلياء)، أما إيلياء هذه فهي الاسم الأول للإمبراطور الروماني هادريان الذي كان اسمه الكامل إيليا كابيتولينا هادريانوس، وقد دمّر هذا الإمبراطور مدينة القدس لقيام تمرد يهودي قاده باركوخبا في العام ١٣٣ ميلادية، وقد بنى إلى جانبها مستعمرة منع اليهود من دخولها، وما زالت حتى اليوم تُعرف بالمستعمرة الرومانية. هذا ويتبع مدينة القدس كقضاء ٦٩ قرية كبيرة وصغيرة بُنيت إما في العهود القديمة أو في العهد العربي الإسلامي(**).

(*) دمشق. أيلول. ١٩٩٦. وهو موعد الانتفاضة الفلسطينية الثانية خلال عقدين فقط. أما عنوان الانتفاضة فهو القدس الشريف.

(**) يرجى العودة إلى بلدانية فلسطين لدى الأستاذ الكبير مصطفى الدباغ أو في الموسوعة الفلسطينية، كذلك في كتاب قاموس القرى لمحمود برهوم ومراجع أخرى.

فإذا كانت (رملة) نتنياهو هي اليتيمة الوحيدة بعد الفتح العربي الإسلامي لفلسطين، فإن كل المدن الفلسطينية وما جاورها من القرى، هي إما كنعانية عربية أو آرامية عربية بحسب حفريات الآثار وقوة الأدلة التاريخية المادية المحسوسة وليس شيئاً آخر.

ـ فأريحا مدينة ملعونة وليس لتاريخ اليهود أي شأن فيها عدا أبواق يشوع التي ما زالت تدك أسوارها حتى الآن!...

ـ وبيت لحم كنعانية عمرها الآن أربعة آلاف عام (ببيت لاهاما).

ـ والخليل كنعانية وعمرها الآن خمسة آلاف عام واسمها (قرية أربع) وفيما بعد (حبرون) وسميت بالخليل نظراً لقدوم ابراهيم عليه السلام إليها في العام ١٨٠٥ قبل الميلاد، أي بعد بنائها. بألف ومئتي عام تقريباً حسب التاريخ الديني لفلسطين..

ـ رام الله مدينة عربية لم يكن لها شأن هام قبل الفتح العربي الإسلامي، وكان الشأن الأهم لمدينة البيرة بجوارها، ويعود تاريخ البيرة إلى الآراميين العرب بدلالة اسمها فالبيرة هي البئر ومن أهم مجموعة الآبار هذه بئر أو نبع الشيخ عمر، أما تاريخ رام الله فحافل بأسماء العشائر العربية الصريحة.

ـ نابلس مدينة من أقدم المدن الكنعانية وقد أسموها شكيم، وتعود نابلس إلى العصر البرونزي وقد ورد اسمها في رسائل تل العمارنة على نحو شاكيمي وهذه الرسائل تعود إلى ١٤٠٠ ق.م.

ـ جنين أقامها الكنعانيون بين مدن مجدو وبيت شآن ودوثان وهذه الأخيرة كلها مدن كنعانية بدلالة آثارها القديمة. وقد ورد اسم جنين لأول مرة في رسائل العمارنة كما كان يسميها بناتها الأوائل باسم (عين جنيم) وبعدها أطلق الرومانيون عليها اسم (جينا) ثم ما لبثت أن اتخذت اسمها الأخير بعد الفتح العربي الإسلامي لفلسطين.

ـ طولكرم: وتشير الوثائق التاريخية حتى الآن إلى استيطان الرومان لها منذ البداية، إلا أن ذلك لايجعلها رومانية بالطبع، فهي مدينة موغلة في القدم، حسب آثار قراها المجاورة مثل (بلعا وذنابة وزيتا) إذ هي تتصل بالتاريخ الآرامي لفلسطين، فطولكرم بالأساس منقبلة أو مُحرّفة عن طور كرم الآرامية، أي جبل الكرم، وبالفعل فإن كرمة العنب ما زالت شجرة الاخضرار في حياة المدينة الزراعية.

ـ الناصرة: وهي مدينة قديمة دلّت آثارها على أنها كانت مأهولة منذ العصر البرونزي الوسيط، فقد عُثر على قبور أثرية كانت توضع في الصخور المنقوبة أو في الكهوف، ويبدو أن المدينة لم تكن ذات شأن في العصور القديمة وهكذا إلى أن استمدت الناصرة مكانتها التاريخية من إقامة السيد المسيح فيها، وكما ورد في الإنجيل فإن جبرائيل بشرَّ السيدة العذراء بمقدم السيد المسيح في السنة الخامسة قبل الميلاد..هذا ولم يقطن اليهود مدينة الناصرة إلا بعد القرن الثاني للميلاد، حيث هربت جموعهم من القدس، إثر بطش الإمبراطور الروماني هادريان سنة ١٣٥ ميلادية بالطائفة اليهودية جنوب فلسطين.

ـ صفد: مدينة كنعانية قديمة اسمها (صفت) وهي كلمة كنعانية تعني الوثاق. وكانت عند نشأتها قرية صغيرة اكتسبت أهميتها من خلال موقعها الجغرافي كمدينة مشرفة على الجليل، ثم من خلال موقعها التجاري بين الشام وعكا..

كما اكتسبت المدينة أهمية إضافية أثناء الحروب الصليبية في فلسطين.

ـ طبريا: قامت المدينة أساساً على موقع (رقّة) الكنعاني وقد بُدئ ببناء المدينة تاريخياً في العام ٢٢ ميلادية، في عهد هيرودوس أنتيباس الروماني، أما الإمبراطور تيباريوس فأطلق عليها اسمه، هذا وتعتبر طبريا مع أريحا من أقدم المدن الفلسطينية التي سكنها إنسان العصر الجليدي الأول (يقدره العلماء بثمانين ألف سنة إلى الوراء) ففي كهف الزطية إلى جانب البحيرة من الطرف الغربي شمال طبريا (٨ كم تقريباً) عُثر على جماجم الإنسان النياتردالي في الكهوف.

جاء اليهود إلى طبريا عام ٧٠ ميلادية، أي مع الكارثة التي حلت بهم على يد تيتوس الروماني الذي أحرق مدينة القدس. هذا ومن المرجح أن التلمود اليهودي الأول، كان قد وضع على يد أحبار اليهود في طبريا عام ٢٠٠ ميلادية...

للمدينة أهمية تاريخية خاصة لدى العرب المسلمين، إذ اعتبرت قاعدة الانطلاق لمعركة سهل حطين، حيث السهل والبلدة من قضاء المدينة، فضلاً عن كونها المدينة العربية الأولى، التي حفظت (قرآن الخليفة عثمان) قبل نقله إلى عاصمة الدولة العثمانية.

ـ عكا: مدينة قديمة تعود إلى الألف الثالث قبل الميلاد، وقد أسسها الجرجاشيون العرب الذين هم فرع من كنعان، وكلمة عكا منقلبة عن (عكو) الكنعانية وهي تعني الرمل الحار، ومن الطريف أن عكا ظلت تتراوح تاريخياً بين أيدي القوات المصرية الفرعونية والقوات الكنعانية ـ الفينيقية في سوريا، ولا تشير آثار عكا إلى أي استيطان عبري لها في التاريخ...

وبعد اجتياح الاسكندر للمنطقة فقد خضعت عكا لخلفائه من السلوقيين، كذلك أيام الرومانيين في العام ٦٤ ق.م.

وفي الفتح العربي الإسلامي، كان القائد العربي شرحبيل بن حسنة أول مَن دخل إليها، وعندما أصبح معاوية بن أبي سفيان والياً على سوريا، بدأ بإنشاء أول أسطول بحري في أحواض السفن التي كانت قائمة منذ العهد البيزنطي، هذا وستتوالى على عكا تواريخ حافلة منذ الحروب الصليبية وحتى حصار نابليون الشهير لها.

ـ يافا: وهي تحريف لكلمة (يافي) الكنعانية وتعني الجميل، وقد وجد اسمها منقوشاً على واجهة معبد الكرنك في مصر بلفظة (يابو)، كذلك ورد اسم المدينة في رسائل تل العمارنة المصري، وبعد السبي البابلي أطلق عليها اليهود اسم (يافو)، هذا وسيستقرّ اسم المدينة في الغرب على (جافا)، وهو الاسم الذي أطلقه الصليبيون على المدينة.

إن تاريخ يافا حسب الحفريات، يعود إلى الألف الثالث قبل الميلاد، وكانت بحد ذاتها مع جوارها الأقرب تشكل مملكة كنعانية، وقد عثر من بين آثارها على قلعة وقصر للملك

الكنعاني مع أطلال تنم عن المعابد القديمة التي اشتهرت بها الممالك الكنعانية.

لقد جعل الفرعون تحوتمس الثالث من يافا قاعدة انطلاق بحرية لجنوده، ومنعت الجيوش الفرعونية مجموعات قبائل العبيرو البدوية من دخول المدينة، كذلك فإن يافا كانت قد ازدهرت في القرن ١٢٥٠ قبل الميلاد أي موعد انتصار رعمسيس الثاني على الحثيين، وبعد قرن أو يزيد، تفاقمت مواسم الجفاف في أرجاء فلسطين الداخلية الوسطى والجنوبية، مما أدى إلى نزوح هجرات نحو السهول الساحلية الخصبة نسبياً، هذا ومن المشكوك فيه أن تكون هذه الهجرات ذات الطابع الرعوي وشبه الزراعي، قد تكيفت مع سكان يافا المتحضرين نتيجة العلاقات المتشابكة مع أمراء الأسر الفرعونية وأقوام البحر القادمين من إيجة وجوارهما.

إن تاريخ يافا حافلٌ بما هو كنعاني ومصري ويوناني هيليني وروماني وعبري وآشوري وبابلي وفارسي وعربي ـ إسلامي... حتى النهاية، فالمدينة بصفتها بوابة الدخول على واجهة البحر إلى فلسطين، فإنها ظلت عرضة لهجمات القادمين من البحر والداخل على حد سواء، ولا تجد في فلسطين مدينة عربية تزاوج تاريخها مع جميع هذه المراحل، مثل تاريخ مدينة يافا على الإطلاق.

ـ الرملة: وهي المدينة التي تملأ نتنياهو بالغيظ، كونها المدينة التي بناها العرب بعد الفتح الإسلامي، غير أن موقع جازر الأثري (قرية أبو شوشة اليوم وهي تبعد ٨ كم جنوب الرملة) يشير إلى التاريخ الكنعاني حوالي المدينة، أما الرملة كما نعرفها اليوم، فقد اختط بناءها الأمير سليمان بن عبد الملك يوم كان والياً على فلسطين في عهد أخيه الوليد، وعندما أصبح سليمان هو الخليفة، نقل بعض السكان من مدينة اللد إليها، ثم أقام فيها طوال عامين من ٧١٥ ـ ٧١٧ هجرية... وقد أصبحت في عهده، حاضرة جند فلسطين.

ـ حيفا: تشهد آثار حيفا في جبل الكرمل (أي المثمر) على وجود أقوام بشرية منذ ما قبل التاريخ، وأول من أقام المدينة وسكنها هم الكنعانيون العرب، وهناك آثار في البلدة القديمة تدل على بقايا مدافن كنعانية، وهي مدافن بلحف (حوالي ٢ كم من حيفا)، وقد امتلك الفلستيون مدينة حيفا في العام ١١٩١ ق.م، أي بعد استيلاء الجيوش المصرية وعليها، ولم يرد ذكر حيفا في التوراة، لكنها وردت بعدها في التلمود على صورة (حيفة) وتاريخ المدينة شبيه بتاريخ مدينة يافا من حيث تقلّب العهود والأقوام في تاريخها، فمن الكنعانيين إلى المصريين إلى العبرانيين، ثم إلى الفلستيين والفينيقيين فالآشوريين فاليونانيين فالرومانيين فالفرس... ومن القبائل العربية الشهيرة التي استوطنت حيفا بعد الفتح العربي الإسلامي، بنو جذام بن عامر وبنو مخزوم وهي قبيلة خالد بن الوليد.

ـ غزة: يحيط بمركز غزة، سور قديم لم يبق منه سوى الأبواب (باب الدارون) التي تدل على كنعانية النشأة، وتتفرع من نواة المركز ممرات كالأشعة تتجه نحو أطراف السور الدائري الذي بناه الكنعانيون للدفاع عن المدينة، ومن الطبيعي أن يتداول تاريخ غزة كلٌ من الكنعانيين والمصريين والفرس والعبرانيين والعرب المسلمين.. وهناك آثار قديمة في مواقع غزّاوية متعددة تشير إلى قدم

الحياة في المنطقة، وأهم هذه المواقع: تل العجول، خربة أم التوت، تل الصنم، خربة الصدارة، تل سيحان، القيشاني، الرسم، خربة كوفية، تل الناصرة، تل الهوى والابلخية... أما ميناء غزة فقد بناه الإمبراطور الروماني قسطنطين الكبير عام ٣٣٢ ميلادية، بالقرب من مرفأ فينيقي قديم قبله، اما الاسم فهو منقلبٌ عن العربية إذ تجده في عَزَّة.

- أسدود: مدينة عربية قديمة بنيت في القرن السابع عشر قبل الميلاد، وقد بناها العناقيون من فروع كنعان على الساحل، وأسموها أشدود بمعنى الحصن أو السَّد، وفي القرن الثاني عشر نزل الفلستيون إلى الساحل وجعلوا من أسدود إحدى مدنهم الرئيسية الخمس، وكانت أسدود إحدى مدنهم الرئيسية المبكرة، وقد بنى الفلستيون معبداً في مركز المدينة، هو معبد الإله داجون، وهو إله فلستيّ يدل على العظمة، وبالفعل فقد دلت الحفريات الأثرية على جانب كبير من الحضارة والغنى في تاريخ المدينة، وقد أسماها الإمبراطور الروماني هيرودوس (مدينة سوريا الكبرى)، وفي مرحلة من الصراع على السلطة في روما، اهتبل المكابيون في العام ١٦٥ قبل الميلاد فرصة النزاع، وأغاروا على أسدود لاعتقادهم بأن الفلستيين الأوائل كانوا قد استولوا على تابوت العهد الذي يضع فيه اليهود شرائعهم منذ الملك داوود!.. لكن التاريخ الأثري يقول بأن الرومان عادوا للسيطرة على مدينة أسدود أيام القائد الروماني بومبي، ومن الطريف أن تُقدّم المدينة كهدية إلى هيرودوس الكبير، وقد وهبها هيرودوس بدوره إلى أخته سالومي، ثم عادت سالومي لتتنازل عنها إلى شقيقة القيصر اغسطس والتي اسمها ليڤيا.. ومنها إلى الإمبراطور الشاب تيباريوس أول مَن وضع مخططاً لمدينة طبريا.

أما أشدود الحالية، فهي مدينة يهودية حديثة بُنيت في العام ١٩٥٦، بعد أن تم تدمير أسدود الفلسطينية، وأشدود اليهودية هذه تقع على مبعدة ٥ كم غربي أسدود العربية.

- بئر السبع. إن أقدم مَن سكن هذه المنطقة هم (العماليق) وهم فرع من الهجرة الكنعانية، وباعتبار أن موقع المدينة يقع في آخر التخوم المأهولة إذ تشكل أقرب الحدود إلى نفوذ الفراعنة، فقد أقامت المجموعات الكنعانية زهاء ١٧ مدينة وقرية في المنطقة (طبعاً بمعيار ذلك الزمن)، كما أن اسم ديمونا هو كنعاني بالأساس، وهناك آثار واضحة لمدينتين عمورتين قديمتين أيضاً (في البادية الفلسطينية)، كذلك أقام الفلستيون الذين أصبحوا من مجموعات المنطقة المندمجين، مدينة جديدة بالقرب من بئر السبع (دلت عليها طرز بنائها وأماكن عبادتها المتماثلة مع أسدود)، وقد قُدّر عمر المدينة المذكورة بألف ومئة وخمسين سنة قبل الميلاد.

كانت بئر السبع (بير شيفع بالكنعانية حيث تعني موقع الآبار السبعة)، تشكل همزة الوصل بين فلسطين ومصر أيام العهد الهكسوسي، وفي القرن الخامس عشر قبل الميلاد امتد الأدوميّون العرب إلى المنطقة، وقبل هذا التاريخ بكثير، فقد حافظ العموريون ألدّ أعداء بني إسرائيل، على المنطقة، كذلك فعل الفلستيون في مراحل لاحقة، وفي القرن الرابع قبل الميلاد مدّ العرب الأنباط دولتهم العظمى من سيناء إلى بلاد الشام فالعراق الشمالي، وأما في العهود الرومانية القريبة، فقد جُعلت بئر السبع موقعاً عسكرياً للحاميات العسكرية الرومانية...

هذا هو باختصار شديد، جزء يسير من تاريخية البلدان الفلسطينية، التي يريد السيد نتنياهو أن يلتهمها بصفحتين سريعتين، فإذا ما أضفنا حسب آخر خريطة فلسطينية قبيل النكبة في العام ١٩٤٨، التعداد الحصري للقرى العربية التابعة في أرجاء فلسطين كلها، والبالغة (٨٤٦ قرية)(*)، فإننا نكون بموجب هذا البحث البعيد قد سددنا لنتنياهو شيئاً من حساب فلسطين التاريخي والبشري.. أما إذا كان على القناعة إياها، من أن الكنعانيين واليبوسيين والعموريين والآراميين.. إلى آخر السلسلة والفروع الأخرى، ليسوا من جذور أقوامنا العربية، فإن حَكَمنا هو اللغة، فإن لم يقبل، فإننا نقبل بالحكم الغربي حليفه وسنده، ولا طلب لنا غير النزاهة.. وأما إذا كان القصد من وراء (رملة) نتنياهو الوحيدة، هو إبراز الجانب المتخلف للحضارة العربية بعد الإسلام، إذن ليسأل أجداده ماذا كانوا يفعلون في الأندلس؟! ثم لماذا لايقتفي نتنياهو ذو النصف الروسي والنصف الأمريكي آثار أجدادنا في الشرق، من العلوم إلى الفلسفة فالأدب فالموسيقا وآيات الفنون العمرانية المدهشة، ألا يتساءل عن عشرات الملايين الذين يأمّون الأندلس سنوياً، طلباً للتأمل والوقوف على سر المعجزة العربية الخالدة في إسبانيا؟!..

فالحضارة ليست في جانبها التأسيسي فحسب، بل في جانبها التطويري أيضاً، وهناك آيات من المعجزات الخلّاقة في قصر الحير كما في رسائل اخوان الصفا، وفي المسجد الأموي كما في فلسفة المعتزلة، وفي قرطبة كما في مجال الطب والجبر، وفي القيروان، كما في علوم الاجتماع والأقوام والتاريخ. ثمَّ مَنْ هم الذين بنوا دمشق والقاهرة وبغداد؟..

إن مشكلة نتنياهو تنبع كعادته من استخدام القوة الغاشمة ضد الإنسان والتاريخ، فهو لايريد أن يرى فلسطين جزءاً من مجموعة جغرافية متسلسلة، وهو يرى في سيناء حد العزل بين الساميّة والحامية، وبذلك فإنه لايعود يرى سوى الأجناس والعروق والألوان... ومن حيث أن إله نتنياهو يطرد جميع شعوب الأرض من أمامه، فإن إسرائيل تنعم الآن بفراغ الطرد الموعود، وفي جميع الأحوال، فإن للمنتصر تاريخه، كما أن للمهزوم صمته، فإذا ما ظلّ النظام العربي يمتهن صناعة الركون إلى الضعة والاحتراب والهوان، فإن شيئاً من تاريخ نتنياهو الصُنعي لن يتوقف، فالآخر غير اليهودي عنده، عدم ولا وجود له، فإذا ما تسنّى لهذا (الآخر) أن يظهر على المسرح لأي سبب ما، فإن إله الإبادة المقدّسة يتكفل به، إذ أن القوة هي ممثلة الحق على الأرض في الجغرافيا لا في التاريخ، ومع ذلك، فإن النظام العربي بتجزئة ما لا يُجمع، مازال بعيداً عن الأخذ بناصيّة القوة التي هي بين يديه... ولا يعلم شيئاً عنها!..

إن شعب إسرائيل للأسف، أعطى صوته لنتنياهو في النهاية، والحال فإن يهودياً يمتلك قسطاً من النزاهة لايستطيع أن يفخر بذلك، غير أن جزءاً من (قبيلة إسرائيل) ما زال يجد

(*) إن أسماء هذه القرى مع مواقعها وتبعيتها وتواريخ ابتدائها، موجودة في الكتاب التربوي الفلسطيني، قاموس القرى الفلسطينية للكاتبين الأستاذين محمود برهوم ومحمد خروب، ومن المفيد الانتباه إلى الإشارات الأثرية التي قد ترد بخصوص النشأة الأولى وهي استكمال للعمل العظيم الذي قدّمه الأستاذ مصطفى الدباغ حول البلدانية الفلسطينية.

خلاصه في دم الآخرين، فألعاب القوة الغاشمة ليست خاضعة لقانون ثابت، والعرب هنا منذ آلاف السنين، ولطالما شهدوا الصعود والهبوط في تاريخهم الطويل، كذلك هي الشعوب الأخرى في التاريخ، فإذا ما تراءى لنتنياهو وناخبيه، أن التاريخ سينتهي هنا، فإن ضرباً من الغرور يكون قد أصابه، فالتاريخ لايتوقف، ولعلّ من أول مقذوفاته، تلك الشعوب التي عميت عن الحكمة.. بالغرور.

□□□

الفصل الثاني
في التخلي عن الصهيونية

يصعب علي أن أفهم، كيف يوفق الرئيس الأمريكي ويلسون بين تأيده للحركة الصهيونية، ومبدئه في حق تقرير المصير!..
آرثر بلفور

فجأة مع استدارة الفرجار، ومن غير إعلان مسبق، انقلب الغرب (التوراتي والأخلاقي) على وعوده اليهودية. في فرساي، لينحو منحىً لاسامياً في سان ريمو ١٩٢٠ (ففي إطار سياستها الجديدة، تراجعت بريطانيا عن التعهدات التي أخذتها على عاتقها بموجب وعد بلفور، إذ أصبح ما بدا في نظر البريطانيين حقائق أخلاقية ووعوداً قومية، سياسة لا واقعية الآن، أي بعد تسّلم بريطانيا الانتداب رسمياً على فلسطين ـ ص ٨٥).

وهكذا فإنه في غضون سنة واحدة بين فرساي (حزيران ١٩١٩)، وسان ريمو ١٩٢٠، يتحول الغرب بقلم نتنياهو نفسه، من ممثل عالمي للأخلاق، إلى عدوٍ لها، وليس كمثل نتنياهو مَن يضع الأسباب خلف ظهره، أما مركز المشكلة هنا، فيكمن في أنّ نتنياهو يتجاهل ما يعرفه بلفور عن نفسه، فبداهة أنَّ الحق اليهودي لم يكن رافعة فرساي الأخلاقية، كما أن الوعد جاء ليتجاهل حقيقة وجود ٩٢ بالمئة من السكان العرب في فلسطين، فضلاً عن أن الوعد جاء مجافياً لاتفاقية لاهاي (النص المتعلق بحقوق سكان الأراضي المُنتدبة)، كما أنه كان متعارضاً مع ميثاق عصبة الأمم نفسها: (فإذا كان أحد الأعضاء قد التزم قبل انتسابه إلى العصبة بالتزامات تخالف بنود ميثاق عصبة الأمم، فعليه أن يتخذ فوراً الإجراءات التي تحرره من تلك الالتزامات ـ المادة ٢٠ من الميثاق).

ولما كان آرثر بلفور يعرف كل ذلك وأكثر منه، فإنه كتب في مذكراته (شهر آب ١٩١٩) مايلي:

(إن القوى الكبرى الأربع ـ انكلترا، الولايات المتحدة، فرنسا وإيطاليا، قد وقفت جميعاً في صف الصهيونية، والصهيونية سواءً كانت على صواب أو ضلال، وسواء كانت خيراً أم شراً، فقد تأصّلت وتجذّرت عبر تقاليد قديمة، ومصالح راهنة، وآمال مستقبلية تفوق في أهميتها، رغبات وحقوق سبعمئة ألف عربي يقيمون اليوم في فلسطين).

أما حق نتنياهو الذي يَصمُ الغربَ بأنه حنَثَ به، فهو حق ٥٦ ألفاً من بين ٧٠٠ ألف في

فلسطين، وأما يهود العام ١٩١٨ فإنهم كانوا يملكون ٢ بالمئة من أراضي فلسطين(*).. وفي استهلاله مقدمة فصله الثاني، يصطف نتنياهو في طليعة القائلين بإسرائيل الكبرى، وها هو ينحي باللأمة على البريطانيين الذين سلخوا من الدولة العبرية ٨٠ بالمئة من أراضيها (حين انتزعت بريطانيا شرقي الأردن من منطقة الوطن القومي اليهودي بجرة قلم واحدة في العام ١٩٢٢، هذا وقد تم إغلاق شرق الأردن في وجه الاستيطان اليهودي حتى يومنا هذا ـ ص ٨٥).

لايأتي نتنياهو في كتابه على (المسألة الشرقية) إلا لُماماً، وكأن العالم في فرساي، كان بصدد (المسألة اليهودية) لا الشرقية، ومن هنا فإن العتبة التي ينطلق منها هي عتبة سرابية تصلح للخداع أكثر من صلاحها للتاريخ، فشرقي الأردن انتُزع من الدولة العربية الموعودة لا من الوطن القومي لليهود، ولسنا هنا بالطبع، بصدد الدخول في آيات التفاصيل لإنشاء الأمارة (شرقي النهر آنذاك) ولو أن نتنياهو يعلم حق العلم، بأن الأردن جاء كمملكة لتعويض خسارة سوريا التي كانت من حصّة الفرنسيين، وأما السبب الآخر، فيتصل بالنزاعات الهاشمية ـ السعودية التي اشتدّ أوراها آنذاك، فيما بريطانيا تسعى لاشعال الفتيل بين نجدٍ والحجاز، وإطفائه في سوريا، منطقة النزاع مع الفرنسيين، حيث ملامح اكتشاف النفط في الجزيرة العربية هناك... حتى لويد جورج نفسه، فإنه لم يكن ليقبل باتفاق القسمة الشهير في بادئ الأمر، فقد علق على اتفاق سايكس بيكو بما يلي:

(إنه من غير المعقول أن يقوم رجل يتمتع بمثل ذكاء السير سايكس الحاد بتوقيع إتفاق كهذا... إنه اتفاق سخيف).

أما اللورد كيرزون ممثل بريطانيا في فرساي وخليفة بلفور في وزارة الخارجية فإنه يقول: (لقد بدأ الاتفاق كسيناريو من صنع الخيال لمعالجة أمر لم يقع بعد... وهذا مايفسر الجهل المطبق في عملية رسم الحدود في المنطقة على هذا النحو).

لكن اللورد غراي وزير الخارجية الآخر بعد بلفور وكيرزون يقول:

(أنا مقتنع بأن التصريح بتعهداتنا في الشرق الأوسط والادعاء بأنها منسجمة، وهي ليست كذلك، ليس مسلكاً شريفاً، ولكن المسلك الأشرف يكون بنشر هذه التعهدات... وحينما نرى هذا التناقض لابد من الاعتراف بذلك، والبحث عن أسلوب صادق، كي نخرج من الطريق المسدود الذي حصرنا أنفسنا فيه).

لقد اضطر بلفور الذي يختبئ نتنياهو خلف (أخلاقياته وتلموده)، أن يفصح صراحة عن رأيه حين قام الجدل بينه وبين الرئيس الأمريكي ويلسون، حول الحق اليهودي في فلسطين: (يصعب عليّ يا سيادة الرئيس أن أفهم كيف توفقون بين تأييدكم للحق الصهيوني في فلسطين، وبين

(*) يدل احصاء السكان الفلسطيني عام ١٩١٨ على التوزع التالي:

٦٤٤٠٠٠ عربي مسلم ومسيحي و ٥٦ ألفاً من اليهود.

ثم تبدل الإحصاء في العام ١٩٣١ بعد الهجرة المكثفة ليصبح:

٨٥٠٠٠٠ عربي مسلم ومسيحي و ١٧٤ ألفاً من اليهود... وهكذا.

مبدئكم الشهير عن حرية تقرير المصير، فالواقع الذي ينطق في فلسطين اليوم، هو أن هناك ٥٦ ألف يهودي مقابل ٥٧٤ ألف عربي مسلم و ٧٠ ألف عربي مسيحي في البلاد المذكورة...)(*).

هذا... ويشتكي نتنياهو من موقف الجنرال اللنبي الذي رفض السماح بنشر إعلان وعد بلفور في (أرض إسرائيل) كذلك مستشاره السياسي البريجاديو جنرال جلبرت كلايتون الذي أعرب عن تحفظّه على وعد بلفور حيث أعلن أمام الجنرال اللنبي: (علينا أن ندرس ما إذا كان الوضع يستوجب حقاً دعماً غير محدود للحركة الصهيونية حتى لانثير ضدنا عداء العرب في هذه اللحظة الحرجة بالذات..).

ثم يتقدم خطوة أخرى باتجاه اتهام الجنرال آرثورموني الذي حل محل الجنرال اللنبي، بأنه كان يشتكي من أصدقاء لويد جورج اليهود، كما أنه أمر بطباعة الأوراق الرسمية الفلسطينية باللغتين الانكليزية والعربية، ورفض الوقوف أثناء عزف نشيد الهاتكفا الإسرائيلي... (كما أنه كان على علم بتصرّفات الحاكم العسكري لمنطقة يافا، اللفتنافت كولونيل هابرد، حينما سعى إلى تأسيس منظمات عربية مسلحة كوسيلةٍ لمحاربة الصهيونية... وأنه إذا قامت مظاهرات عربية ضد الاستيطان اليهودي فإنه لن يمنعها...).

لم يقدم تاريخ فلسطين الرسمي بعد الانتداب البريطاني، ما يفيد بوقوف إداريين بريطانيين إلى جانب العرب في فلسطين، ولو أن الصورة لايمكن نفيها تماماً من الوجهة الإنسانية ليس أكثر، فالإدارة البريطانية منذ وصول الجنرال اللنبي إلى فلسطين، كانت تعلم حق العلم، بمزايا الحفاظ على التحالف العربي في المعركة الطاحنة التي كانت تدور على مستوى العالم (بحيث مئات الأمتار مقابل آلاف الجثث). أما التقارير التي يقدمها نتنياهو عن وقوف بعض العسكريين البريطانيين إلى جانب العرب في فلسطين، فهي التقارير نفسها التي كان يقدمها رئيس فرع المخابرات البريطانية في الشرق الأوسط، الكولونيل ريتشارد ماينر تسهاجن، الذي كان يقف إلى جانب اليهود ضد العرب بدلالة خطابه الذي يستخدمه نتنياهو نفسه: (نحن الانكليز لايمكننا مصادقة العرب واليهود على حد سواء، لذا أقترح أن نصادق أولئك الذين يمكن أن يحافظوا على العهد، فعلى الرغم من أننا فعلنا الكثير من أجل العرب، إلا أنهم لايعرفون معنى الاعتراف بالجميل... أضف إلى ذلك أن اليهود أثبتوا قدرتهم على الحرب... أما العربي فهو مقاتل في مجالات السلب والتخريب والقتل فقط...).

لم يكن الكولونيل تسهاجن مؤيداً لليهود فحسب، بل ومعادياً عنصرياً لا سامياً ضد العرب أيضاً: (إذ يعترف نتنياهو بلا سامية تسهاجن في الأساس ـ ص٩٠).

وإليكم حقيقة الواقعة التي يشير إليها نتنياهو بعنوان (يوم الاضطرابات في القدس) (ص٩٢)، وكيف أن هذا اليوم كان من تدبير الإدارة البريطانية اللاسامية التي يمثلها حاكم القدس الجنرال ستورز ورئيس أركانه الجنرال ووترز تايلور...

(*) ـ وجيه غارودي. فلسطين أرض الرسالات ص٢١٢ ـ ٢١٣.

أما قصة نتنياهو فيرويها نقلاً عن ضابط المخابرات تساجهن الذي رفع التقرير السري بزملائه إلى الحكومة البريطانية، ومختصر القصة، أن الجنرال تايلور بتحريضٍ من الجنرال ستورز وبالتواطؤ مع الملك فيصل الأول، اجتمع مع الحاج أمين الحسيني، لتنظيم يوم عنفٍ عاصف في أرجاء فلسطين وبخاصة مدينة القدس، وقد تم تسليح جماعات عربية لهذا الهدف، وكان الجنرال بولز المدير العام للانتداب البريطاني على فلسطين، على علم بما يجري، وبالفعل فقد بُدئ بتنفيذ اليوم العاصف في مدينة القدس وكانت حصيلة الهيجان لثلاثة أيام متتالية مقتل ٥٦ يهودياً وجرح ٢١١ آخرين، أما الدافع لهذا العنف، فيكمن في رغبة الجنرالين اللنبي وبولز... اقناع الحكومة البريطانية للعدول عن فكرة الوطن القومي.. ودفعة واحدة، يتجاهل نتنياهو ثلاث حقائق تاريخية يسقطها من إنشاء روايته على طريقة المونتاج السينمائية:

ـ الحقيقة الأولى، هي أن فلسطين لم تكن داخلة في منطقة المملكة السورية التي تبوأها الملك فيصل الأول، وأنه لاصحة لقول نتنياهو (في سبيل خدمة الرواية) من أن (المستعربين البريطانيين توّجوا فيصل ملكاً على سوريا بما فيها أرض اسرائيل ـ ص٩١) فجنرالات بريطانيا (وعلى رأسهم لورنس) الذي يستخدمه نتنياهو كداعية لدولة عربية كبرى، كانوا يعرفون خطوط امبراطوريتهم الحمراء، فيما يمكن ولا يمكن، إذ جاء في النص: (يتولى فيصل حكم سوريا باستثناء فلسطين ولبنان... الخ)، ولايمكن مع هذه الخطوط الكبيرة أن يخطئ جنرالات كبار من عيار الجنرال بولز رئيس أركان اللنبي نفسه...

ـ الحقيقة الثانية، هي أن نتنياهو ترك الوقائع تجري بين عرب ويهود (محليين)، وهي أفظع ما في التضليل من خداع، فحتى ذلك اليوم، لم يكن السخط العربي موجهاً ضد الطائفة اليهودية التي كانت تعيش في فلسطين، وهناك شواهد يستخدمها نتنياهو على شكل زلة لسان (إن عرب فلسطين لتهاونهم وكسلهم، لم يحافظوا على البلاد التي سيطر عليها أجدادهم، شأنهم شأن عرب الأندلس في شبه الجزيرة الإيبرية) إذ ما معنى التهاون هنا، غير التعايش الطبيعي مع الطائفة اليهودية التي سكنت فلسطين منذ قديم الأزمان!..

غير أن العنف الفلسطيني كان مُنْصَباً في البداية ضد المستعمرات اليهودية التي باتت تمثل مشروع الدولة الصهيونية في المستقبل، ففي نيسان (٤ ـ ١٠ منه) من العام ١٩٢٠ أي موعد الثورة التي يتحدث عنها نتنياهو كمؤامرة بين البريطانيين والعرب.. كان السيل قد بلغ الزبى، إذ قبل نيسان بشهر واحد، هاجم المواطنون العرب مستعمرتي تل حامي والمطلّة بين طبريا والحولة، وقد أسفر الهجوم عن مقتل القائد الصهيوني جوزيف ترومبلدور وستة صهاينة آخرين، ومع نهاية آذار وبداية نيسان هاجم المواطنون تدعمهم قبائل عربية من شرق النهر، مستعمرات بالقرب من سمخ وبيسان، وأدى ذلك إلى استخدام الجيش البريطاني طيرانه الحربي ضد المهاجمين... أما (المؤامرة) التي يجمع فيها نتنياهو ما بين اللاساميين الانكليز والساميين العرب، فقد كانت في حقيتها احتفالاً بذكرى النبي موسى، وكان هذا الاحتفال يتكرر في كل عام في مدينة القدس منذ صلاح الدين الأيوبي..

وما جرى هو أن الصهيوني كريمر مندل، حاول اختراق صفوف المحتفلين لتمزيق العلم العربي، وعند هذه الواقعة بدأ الاصطدام وأخذ في الاتساع... ولم تكن صحيحة تلك الأرقام التي قدمها نتنياهو عن حصيلة المعركة (أي مقتل ٥٦ يهودياً وجرح ٢١١ آخرين مع اغتصاب فتاتين يهوديتين..) بل إن البلاغ الرسمي الذي أصدرته سلطة الانتداب أشار إلى مقتل أربعة من العرب وتسعة من اليهود و ٢٥٠ جريحاً من الطرفين. أما سلطات الانتداب فقد أصدرت أحكاماً متفاوتة بالحبس ضد ٢٣ شخصاً من العرب واليهود معاً، ومما أنكره نتنياهو بخصوص سجن جابوتنسكي، هو أنه فوق اشتراكه في الأحداث، فقد دأب في ظل الإدارة المنتدبة، على تدريب وحدات عسكرية فوق جبل الزيتون وداخل (مدرسة ليمل) جهاراً نهاراً...

وهكذا وصل المسافر إلى هدفه، ففي تموز من العام ١٩٢٠ شرعت الإدارة البريطانية الجديدة (هربرت صموئيل) الذي حل محل الجنرال بولز في الإشراف على الإنتداب (باستيراد ١٦٥٠٠ مهاجر يهودي جديد) إلى فلسطين، وهو ما سيلقي ببقعة الضوء على الحقيقة الثالثة التي ابتلعها نتنياهو بشهية كاملة.

فالحقيقة الثالثة، هي أن الجنرالات بولز وستورز وتايلور لم يكونوا مع العرب ولا ساميين في آن واحد، بل كانوا في الحقيقة مع بلدهم بريطانيا، ويُفَسر ذلك ما بعث به الجنرال بولز إلى حكومته في ربيع العام ١٩٢٠، من أن المجلس الصهيوني الذي أقيم في فلسطين، بات يتدخل بكل صغيرة وكبيرة مما له مساس بشؤون الإدارة المُنتدبة، وأما نص الرسالة بالحرف فهو كما يلي:

(لا أستطيع أن أطيق هذه الحالة، ليس هناك أي جدوى في أن نقول للعرب المسلمين والمسيحيين إننا ملتزمون بتصريحنا المتضمن المحافظة على الوضع الراهن، فالأحداث تشهد بعكس ذلك.. ولقد أقنع الصهاينة الجماعات غير اليهودية بأننا متحيّزون للصهيونية، زد على ذلك بأن المجلس الصهيوني يتهمني مع ضباطي بالعداء للسامية... إنها حالة لاتطاق، إنه لمن المستحيل تلبية رغبات أشخاص يعلنون رسمياً أنهم لايريدون وطناً قومياً، وإنما يريدون بل لايرضون إلا بدولة يهودية بكل ما فيها من مضامين حقوقية وسياسية)...

وكما أسلفنا فقد أُقيل الجنرال بولز من منصبه وحل محله السير هربرت صموئيل وهو صهيوني إلى درجة جعلت حاييم وايزمن زعيم المنظمة الصهيونية العالمية يقول: (كنتُ المسؤول الأول عن تعيين السير هربرت صموئيل في فلسطين، إنه صديقنا، وقد قبل هذا المنصب الصعب تلبية لرغبتنا... إنه صموئيلنا!..).

وإذن فإن النزاع بين شخصيات الإدارة البريطانية الحاكمة في فلسطين، لم يكن يدور بين بريطانيين عرب وبريطانيين صهاينة، بل بالضبط، بين بريطانيين لبريطانيا وبريطانيين لصهيون، وهكذا منذ أن تولى صموئيل، فإن التعداد اليهودي جراء الهجرة، انتقل من نسبة ٧ بالمئة إلى ١٧ بالمئة، كما انتقلت ملكية الأراضي من ٢ بالمئة إلى ٦ بالمئة من أفضل الأراضي المروية.. والخلاصة فإن أوامر سلطات الانتداب البريطانية لم يكن يُسمح لها بالخروج قبل المشاهدة والتصديق من قبل المجلس الصهيوني في فلسطين...

وبالرغم من ادعاء نتنياهو بأن بريطانيا إثر إصدارها لكتابها الأبيض قد خنقت الهجرة اليهودية إلى فلسطين، فإن ٥٦ ألفاً من يهود فلسطين في العام ١٩٢٢ أصبحوا في العام ١٩٣٠ زهاء ١٧٥ ألفاً وجلّهمُ من يهود أوروبا المهاجرين، حيث التزايد بالولادة لايشكل رقماً بالنسبة ليهود أوروبا على وجه العموم...

إن نتنياهو يجهد نفسه بالبحث عن أدوار كومبارسية لبعض الشخصيات الانكليزية الرسمية في تاريخ الانتداب على فلسطين، وكالباحث عن الإبرة في أكوام القش، فإنه يقدم (حكايات) أغلب شهودها باتوا من الموتى، أما الشاهد الوحيد إلى جانبه، فهو الكولونيل تسهاجن الذي لاتختلف صهيونيته عن صهيونية حاييم وايزمن نفسه، فإذا كان في القول مبالغة، فلنعقد المقارنة بين النصّين التاليين دون أية مؤثرات جانبية:

ـ النص الأول ويتّعلق بما يقوله وايزمن في مؤتمر فرساي (حزيران ١٩١٨) عن العرب:

(شعب ذكي وفطن لكن بشكل سطحي.. إنهم يعبدون شيئاً بعد الله وأحياناً قبله، ألا وهي القوة المسيطرة والمصحوبة بالنجاح، فالفلاح العربي متخلف بما لايقل عن أربعمئة سنة من أزمنتنا الحاضرة، والأفندي شخص شره قليل الوطنية ولا أمانة له... وعلى المدى الطويل لايمكن مقارنة الولاء المشكوك فيه، الذي يبديه العرب بالسياسة الموزونة التي تتبعها بريطانيا في فلسطين، مثلما سيفعل الشعب اليهودي).

ـ النص الثاني ويتعلق بما يقوله الكولونيل الانكليزي وريتشارد تسهاجن (رئيس فرع المخابرات البريطانية في فلسطين) عن العرب ربيع العام ١٩٢٠:

(رغم كل ما فعلنا من أجلهم ـ أي العرب ـ فإنهم لايعرفون معنى الاعتراف بالجميل... حتى أنهم سيكونون عبئاً علينا، في حين سيكون اليهود ذخراً لنا... إن اليهود أثبتوا مقدرة في القتال منذ أن احتل الرومان القدس، أما العربي فهو مقاتل وضيع، رغم أنه متطرف جداً في مجالات السلب والتخريب والقتل..).

فهل جرى هذا اللقاء مصادفةً بين فكرتين متماثلتين عن الموصوف نفسه. وإلى أي مدىً يمكن إطلاق التعميمات عن الشعوب، فإذا ما مسّ تسهاجن أو معلمه وايزمن، خبالٌ عنصري ضد الأمم الأخرى، فإنه خبال أوروبا المتماهي مع مقولة الشعب المختار، كان على نتنياهو أن يتمم ما بدأه وايزمن بخصوص الكولونيل ريتشارد تسهاجن فيقول: إنه ريتشاردنا أيضاً!...

لقد عدد نتنياهو مؤيدي العرب من (البريطانيين المستعربين)، الذين فُتنوا بسحر النموذج العربي... وخفايا الشرق، فعملوا على نصرة القضية العربية في مواجهة اليهود، وكان من بين هؤلاء المؤيدين الذين يضعهم نتنياهو في الطليعة، توماس ادوارد لورنس الملقب بلورنس العرب... ثم يضيف:

(كان لورنس قد اشتهر في بريطانيا وأمريكا، بفضل تمثيلية ناجحة، بالغَت في وصف معركة البريطانيين ضد العثمانيين وعرضت لورنس مع مجموعة من العرب كأبطال رئيسيين لهذه

المعركة... وفي الفترة ذاتها، ترأس وزارة المستعمرات وزير تنقصه الخبرة هو ونستون تشرشل، حيث استطاع موظفوه من أمثال شاكبرغ ولورنس، استغلال عدم خبرته، وجعله ينّفذ جميع سياستهم - ص٩٥).

فإذا كان الأمر كذلك، كيف يمكن لنتنياهو أن يوفق كلامه أعلاه، مع ما صرح به تشرشل إلى جريدة ساندي هارولد في ٤ شباط ١٩٢٠، أي في الفترة ذاتها التي تمكن فيها لورنس وشاكبرغ من استغلال عدم خبرة تشرشل وصرفه عن تأييده للصهيونية.

لنستمع إلى تصريح تشرشل الذي يستشهد به نتنياهو بعد سطرين فقط من تأثير (البريطانيين المستعربين) عليه:

(لقد أثار تشرشل الهلع في قلوب الموظفين البريطانيين الموالين للعرب عندما قال لصحيفة ساندي هارولد، بأنه يتنبأ بقيام دولة يهودية على ضفتي نهر الأردن، يعيش فيها ثلاثة أو أربعة ملايين يهودي - الصفحة ذاتها ٩٥).

إن آخر شيء لم يتوفر في لورنس، على الرغم من الأساطير، هو صداقة العرب، فقد كانت عاطفته المؤججة تتركز ضد الأتراك والفرنسيين على نحو متساو، وقد وجّه كل أعماله إلى ما رآه في مصلحة إمبراطوريته البريطانية، وكانت سياسته ذات أولويات، فالأولوية الأولى هي إخراج الأتراك من المنطقة، والثانية إبعاد الفرنسيين عنها، وقد ذهب إلى الحجاز ليشرف على الحركة العربية بعد تكوين فكرة عامة عن الداخل، وتقويم الشريف حسين وأبنائه الأربعة.

ومن خلال نظرة سريعة إلى هذا التقويم، نستطيع أن نُعقّب على الفكرة أو المهمة، التي نذر لورنس نفسه لها:

- الشريف حسين: قوى الشكيمة صلب الإرادة ليس من السهل عليه أن يتراجع.. ذلك وغيره يجعله غير صالح لأغراض بريطانيا...

- نجله البكر علي: رجل. لكنه لايتمتع بصفات القائد، سيّدٌ دمث لكنه مُعتّل الصحة وذو مزاج عصبي عالم بالفقه والدين إلى درجة التعصب، طبيعته النقيّة تجعله غير صالح لرؤية الدوافع المصلحية والسياسية....

- نجله الثاني عبد الله: ذو طموح واضح، أول من عرض الثورة العربية على كيتشنر، بعيد النظر وسياسي داهية، هدفه تأسيس دولة عربية يجعل إدارتها في أسرته، لايمكن الاقتناع دوماً بإخلاصه.

نجله الثالث فيصل: في الحادي والثلاثين من عمره، ثقافته متواضعة، يكره الإطالة في التفكير لأنه يعيق حبه للسرعة في العمل، طويل، رشيق ونشيط، يحمل بين كتفيه رأساً ذي هيبة مَلكية، إن جزءاً كبيراً من تعابيره يكون بالإيماءة والإشارة....

نجله الأصغر زيد: شاب خجول صغير السن، هادئ لايتحمس لأفكار الثورة العربية، ربما لأنه نشأ في أحضان أمه التركية، سيتزوج من رسّامة تركية قريباً.

وفي كانون الثاني من عام ١٩١٦ كتب وثيقة سريّة لم يطلع عليها إلا النجوم في الإدارة البريطانية، وبالطبع فإنه تم الإفراج عن هذه الوثيقة منذ سنوات، تقول الوثيقة:

(إن ثورة الحسين في الحجاز ستكون مفيدة لبريطانيا، لأنها تتمشى مع الأهداف الحالية: تحطيم الكتلة الإسلامية والتغلب على الإمبراطورية العثمانية وتمزيقها، أما الدول التي ستقام لتخلف الأتراك فستكون غير ضارة بنا كما كانت تركيا قبل أن تصبح أداة في يد الألمان، بل إن العرب عموماً أقل استقراراً من الأتراك، فإذا ما أحسنت طريقة التعامل معهم، ظلّوا في حالة من التفرق السياسي، ولايات صغيرة متحاسدة وعاجزة عن الاتحاد ـ دزموند ستيوارت ـ تاريخ الشرق الأوسط ص٢٠٤ ـ دار النهار).

لقد جاء كتاب لورنس بعد أن عمل مع الأمير فيصل مدة سنة كاملة بمثابة وحي بالنسبة لجيل من المستشارين البريطانيين بعده، أما الصورة الأخيرة التي رسمها عن فيصل فكانت إلى جانب تراجيدتها صحيحة كل الصحة:

(قائدٌ ملهم... إذا ما اقتنع بالفكرة، أطلق العنان للعمل حتى آخر مداه... لقد أعطى الصورة القوية لاندفاع الثورة العربية).

ثم يقول مُسدلاً الستارة على المشهد الحزين:

(مسكين فيصل، لقد أدرك متأخراً جداً، الفكرة التي قادته إلى زوبعة الصحراء، تلك الزوبعة التي سار في وسطها مُبجّلاً... ثم انتهى إلى آخرها وحيداً كئيباً...).

ها هم إذن، البريطانيون المستعربون الذين وقفوا ضد اليهود في فلسطين، فإذا كان على لورنس أن يكون مثل هربرت صموئيل كي يقتنع السيد نتنياهو، إذن لماذا لاتُجيّر بريطانيا نفسها لتصبح بديلاً عن وطن الوعد في فلسطين؟! إن واحداً مثل صموئيل الصهيوني ـ البريطاني بالفعل، قدّم في عقد من الزمن، إنجازات لخدمة الشعب اليهودي، ما لم تقدمه المنظمة الصهيونية لنفسها، ومن الناحية الواقعية ما الذي يمكن أن تقدمه سياسات فردية مبعثرة، إذا كانت السياسة الرسمية العليا لبريطانيا في فلسطين، محفوظة في صك الانتداب ووعد بلفور (أي إنشاء الوطن القومي لليهود) أما الصيغة الملتبسة في الحفاظ على حقوق الطوائف الأخرى غير اليهودية، وجمعها مع إنشاء الوطن القومي، فهي المسؤولة عن إثارة التناقض داخل السلك الانتدابي في فلسطين هذا فضلاً عن التجاوزات العملية التي زاولتها الوكالة اليهودية التي وضعت (كصيغة رسمية شريكة لحكومة الانتداب) من أجل البدء بإنشاء الوطن القومي اليهودي.

مع نتائج لجنة التحقيق الانكليزية إثر اضطرابات العام ١٩٢٠ فقد اضطر وزير المستعمرات ونستون تشرشل إلى إعطاء تصريح يقول:

(لقد طُرحت شعارات تقول إن فلسطين يجب أن تكون يهودية مثلما هي انكلترا انكليزية.... إن حكومة صاحب الجلالة تعتبر أن طرحاً كهذا أمر غير سائغ وهي إذ لاترى هذا الرأي، فإنها تلفت النظر إلى أن بريطانيا لاتنوي العمل على محو السكان العرب في فلسطين... وأن بلفور لم

يقصد تحويل فلسطين كلها إلى وطن قومي يهودي، بل إن النص صراحة يقول: إقامة وطن قومي لليهود في فلسطين).

في المحصلة فإن ثورة العام ١٩٢٠ لم تكن نتيجة مكيدة مُدبّرة بين العرب الفلسطينيين وإدارة الحكم الانتدابي في فلسطين، بل بالعكس تماماً، فالأحداث جاءت كرد قوي على وعد بلفور وإقدام بريطانيا على تنفيذه بالهجرة والاستيطان اليهوديين، كما أنها كانت التعبير عن الشعور بالخيبة إثر نكث الحلفاء لوعودهم التي قطعوها في سبيل استقلال العرب وبناء دولتهم القومية، فضلاً عن المخاطر الجسيمة التي باتت تحت بصر وسمع الفلسطينيين، ألا وهي إحداث التشكيلات العسكرية الصهيونية في المستوطنات، التي باتت كثكنات عسكرية لكل ذي بصرٍ وبصيرة.

يستخدم نتنياهو ثورة العام ١٩٢٩ في فلسطين، كرافعة للوصول إلى نظريته المفرطة (استعراب الانتداب لصالح العرب وضد اليهود) فهو إذ يتناول أحداث العام ١٩٢٩ الشهيرة، فإنه يتناولها مسلوخةً عن أسبابها ومقدماتها (ففي التاسع من آب عام ١٩٢٩ هاجم جمهور من العرب يهود الخليل والقدس وصفد... وظل العرب يمارسون هجماتهم طيلة ثمانية أيام... دون أن يردعهم أحد... وكانت النتيجة قتل ١١٣ يهودياً وجرح المئات، وتدمير ست مستوطنات يهودية... من بينها الطائفة اليهودية القديمة في الخليل... ومرة أخرى أحجم البريطانيون عن التدخل، لكنهم هذه المرة، كانوا أشد صرامة في مصادرة الأسلحة غير القانونية من يد اليهود ـ ص١٠٠).

فإذا كان التاريخ اليهودي القديم، قد كتب بيد نتنياهو وفق هذه الطريقة، فإن لقاءنا على الحاضر سيكون مستحيلاً، إذ ما الذي يفصل أيامنا هذه عن العقد الثالث من القرن الراهن، سوى نصف قرن أو ينوف، فلقد كان والد نتنياهو ووالد أي عربي فلسطيني (من مواليد نتنياهو ١٩٤٩) أحياء في حوادث العام ١٩٢٩، فإذا ما مرّ تاريخ الكذب على الأموات، فكيف به حين يفرض نفسه على الأحياء أيضاً؟!

إن ثورة العام ١٩٢٩ لم تسقط من فراغ، ولم تكن مسكونة بهاجس العنصرية الوحشية ضد اليهود هكذا، بل إن أسبابها كانت أعمق غوراً مما يريد نتنياهو أن يرمي به في البحر...

فمع العام ١٩٢٩ وصلت الهجرة اليهودية إلى فلسطين من الخارج، إلى ١١٢ ألف مهاجر جديد، كذلك منحت حكومة الانتداب البريطانية (المستعربة لصالح العرب!..) ٨٢ ألف دونم من أفضل الأراضي الأميرية (التي هي مُلك الدولة في الأساس) لصالح الشركات الصهيونية تحديداً، أما الشركات الاحتكارية الأخرى فقد حصلت على مزيد من الأراضي وفق ما يلي:

ـ ٧٥ ألف دونم لشركة البوتاس الصهيونية ـ الغربية.

ـ ١٨ ألف دونم لشركة كهرباء روتنبرغ الصهيونية ـ الغربية.

ـ امتياز طويل لتجفيف سهل الحولة تمهيداً لزراعته وهو يعادل ثلث الأراضي الخصبة في كامل فلسطين.

ـ احتكار الجزء الأعظم من جوانب النشاطين الصناعي والتجاري.

- رؤوس أموال يهودية - غربية متدفقة.

- خبرات فنيّة يهودية وعالمية عالية تصل إلى فلسطين.

وقد كان شعار النقابات الزراعية والصناعية اليهودية يقول: (إن العمل لليهودي فقط)...

أما شرارة الثورة المباشرة، فقد جاءت مع ذلك من اليهود لا من العرب، ففي المظاهرة اليهودية الحاشدة في تلك أبيب بمناسبة الاحتفال بذكرى تدمير هيكل سليمان (١٤ آب ١٩٢٩)، هتف اليهود ضد العروبة والإسلام، وفي اليوم الثاني حاولت مظاهرة يهودية أخرى الاقتراب من المسجد الأقصى للسيطرة على حائط المبكى (حائط البراق لدى العرب). ثم أنشدت المظاهرة نشيد الهاتكفا الإسرائيلي أمام جدران المسجد، وتصادف أن يوم الجمعة في ١٦ آب، المصادف لـ ١٢ ربيع الأول ١٣٤٨ هجرية، هو يوم الاحتفال بذكرى مولد الرسول العربي محمد ﷺ، فخرجت مظاهرة عربية بعد الفراغ من صلاة الجمعة، وحطّمت موجودات يهودية تُركت عمداً إلى جوار المسجد، ويوم الجمعة التالي ٢٣ آب، انتشرت شائعات مفادها أن اليهود ينوون احتلال المسجد القصى، ولم تكن الشائعات بعيدة عن واقع الحال، فقد نقلها عرب يعملون في تل أبيب (على أنهم يهود، ومن بينهم والدي بيتا الذي هو حُسين). وكانت شرارة الاصطدام الأولى في مدينة القدس، ثم انتقلت إلى الخليل فبيسان فصفد والمدن الفلسطينية الأخرى(*)..

وعلى الطريقة اليهودية في استدرار العطف الخارجي، فإن نتنياهو يشير إلى مقتل ١١٣ يهودياً وجرح المئات الآخرين، دون أن يأتي على ذكر القتلى والجرحى من العرب، بحيث يريد تصوير الأحداث، على أنها مجرد عدوان عربي وحشي مفاجئ ضد الآمنين من اليهود، غير أن السجلات الرسمية لحكومة الانتداب يومها تشير إلى أرقام أخرى:

(كانت حصيلة الأحداث - أي العام ١٩٢٩ - تشير إلى مقتل ١٣٣ يهودياً وجرح ٢٣٩ آخرين - وقد فقد العرب ١١٦ قتيلاً و ٢٣٢ جريحاً، فيما اضطرت السلطات إلى تدمير قريتي لَفتَة ودير ياسين العربيتين)..

أما عبارة نتنياهو (ولم يتدخّل أحد) حيث يريد اتهام الانتداب البريطاني بالوقوف مكتوف اليدين، فإنها تفتقر إلى أي سند حقيقي، فقد ساقت حكومة الانتداب إلى السجون زهاء ألف شخص، مئة يهودي وتسعمئة عربي، كما حكمت محاكمها العسكرية بإعدام ٢٦ شخصاً، يهودي واحد وخمسة وعشرين عربياً، أما الذين نُفّذ فيهم حكم الاعدام بالفعل، فهم ثلاثة شهداء عرب من مدينة صفد: عطا الزير ومحمد جمجوم وفؤاد حجازي... فكيف يمكن تصريف عبارته (لم يتدخل أحد) إذن؟!

سيستخدم نتنياهو تصريحات اللورد بانسفيلد وزير المستعمرات البريطاني في هذه الفترة، حين

(*) كيف يُعقل أن يهاجم (جمهور فلسطيني) يهود القدس فتلتهب الدنيا الفلسطينية هكذا دون أسباب كارثية؟ فثورة العام ١٩٢٩ شملت كل المدن الفلسطينية دون استثناء، وقد اضطرت بريطانيا العظمى نفسها لإنزال مئة ألف جندي إلى ميادين فلسطين لاستعادة النظام، غير أن كلمة (جمهور) هذه استُخدمت على عادة نتنياهو للتقليل من شأن الحدَث الخطير!....

أعلن بأن الهجرة اليهودية إلى فلسطين هي السبب الرئيسي للأحداث الدامية (أي أحداث العام ١٩٢٩)، ويستنتج من ذلك، أن بريطانيا شارفت على التخلي عن وعدها بإقامة وطن قومي لليهود، لكن نتنياهو لا يأتي على ذكر المندوب السامي السير تشانس لور في فلسطين أبداً، علماً بأن المندوب السامي رفع لوزير المستعمرات نفسه (اللورد بانسفيلد) تقريراً يدين فيه العرب بمسؤولية الأحداث، وأكثر من ذلك، فقد ضمّن تقريره بأن العرب مثّلوا بجثث اليهود في الخليل، وقد برهنت لجنة تحقيق طبية بريطانية عدم صحة إدعاءات المندوب السامي البريطاني، علماً بأنه قبل لجنة التحقيق البريطانية، وقبل حتى بريطانيا نفسها، فإن التمثيل بالجثث محرمٌ في الإسلام، فكيف بمدينة الخليل المحافظة والمسلمة بصورةٍ كليّة(*)..

يصف نتنياهو العام ١٩٣٦ (موعد فلسطين مع ثورتها العاصفة). بأنه عام المذبحة لليهود، وبعيداً عن المقدمات والأسباب والنتائج... فإنه يصوّر الحدَث وكأنه (جنون الفلسطيني المستيقظ من سباته ضد اليهودي الآخر)، وليس أفضل من بادئته المكرورة (شهرَ كذا، عام كذا، قام جمهور... أوأعلنت جماعةٌ...) للتعبير عن هشاشة الموقف الوطني الفلسطيني، أولا مشروعيته التاريخية... فالحدَث الضخم (أو لعله الأضخم في مجريات الثلاثينات من هذا القرن عالمياً والذي تمثل بثورة العام ١٩٣٦، حيث أضربت فلسطين كلّها مدة ستة أشهر كاملة) عند نتنياهو ليس أكثر من مذبحة ضد اليهود (٥٠٠ قتيل يهودي كما يقدر في كتابه صفحة ١٠٢)، أما بريطانيا العظمى التي اضطرت أن تدفع بسبعين ألف جندي نظامي وأربعين ألفاً من بوليس بريطانيا لمواجهة الثورة، فلا علاقة لها بالأحداث، بل بالعكس (فقد أبدى البريطانيون تعاوناً مع العرب الثائرين إذ لم يمنعوا الإضراب... فيما ظل الجيش البريطاني وقتاً طويلاً لا يتدخل، بل ويصادر السلاح من اليهود ص ١٠٢).

ـ لماذا أقالت بريطانيا القائد العام للقوات البريطانية في فلسطين، وعيّنت بدلاً عنه الجنرال ديل بعد أن قذفت له بقوات إضافية بواسطة البحر والجو والبر (من العراق والأردن ومصر)؟!...

ـ ثم لماذا في غضون أشهر، عادت فأقالت الجنرال ديل وعينت بدلاً عنه الجنرال الشهير ويفيل كقائد أعلى للقوات في فلسطين.

ـ ثم لماذا أقدمت بريطانيا ثالثةً على إقالة ويفيل وعينت بدلاً عنه الجنرال ريتشي بعد أن أمدتّه بقوات عسكرية إضافية؟!

ـ ثم مَن هو الذي خلَف الجنرال ريتشي في منصبه بعد أسابيع، أليس هو الجنرال ماكميلان، بعد أن فشل سلفَهُ بالمهمة؟!..

هذه التبديلات المتلاحقة في المناصب الخطيرة لدولة عظمى مثل بريطانيا، ألا تعني شيئاً بالنسبة لضابط احتياط مثل نتنياهو، ما هو المغزى الصادر عنها؟ لماذا كانت تجري بمثل هذه السرعة دون

(*) علماً بأن السير تشانس لور المندوب السامي الصهيوني ـ البريطاني، كان وقت وقوع الأحداث في لندن يقضي إجازته السنوية، وهو دليل إضافي على أنه استقى معلوماته من عناصر حكومته الانتدابية، أو من المصادر الصهيونية نفسها، فكيف يستقيم (الاستعراب البريطاني) مع هذه الوقائع؟!.. إذن.

تردد، وكيف يمكن تفسيرها، بأن الثورة الفلسطينية إنما نشبت ضد اليهود فقط، وليس ضد بريطانيا الدولة الاستعمارية التي تريد تجيير فلسطين لصالح اليهود...

إن الدم اليهودي عزيز على نتنياهو بالطبع، لكن دم الآخرين لا شأن له به، فإذا كان مقتل ٥٠٠ يهودي في الأحداث الملتهبة من العام ١٩٣٥ (موعد استشهاد عز الدين القسام في جنين)، إلى العام ١٩٣٩، يؤرقه لأنه يؤرق القلة اليهودية في فلسطين قياساً إلى التعداد العربي فيها، فإن مقتل ثلاثة آلاف عربي فلسطيني (خلال ثلاث سنوات من ١٩٣٦ إلى ١٩٣٩)، وخمسة آلاف من الجرحى، وستة آلاف من المعتقلين، إنما يمثلّون طريقة مثلى للتجاهل، أو لإعادة فلسطين إلى خوائها المطلوب، حين تكون طريقة العمل في أمريكا (اللاهندية)، هي إحكام الشعار: (ادفع دولاراً تقتل عربياً)...

ستثور ثائرة نتنياهو ضد الكتاب الأبيض الذي أصدرته حكومة تشامبرلن البريطانية في أيار من العام ١٩٣٩، وسيعتبر هذا الكتاب القاضي (بوقف الهجرة اليهودية بعد السماح لخمسة وسبعين ألفاً من المهاجرين الجدد بالدخول إلى فلسطين، حيث ستوقف بريطانيا الهجرة نهائياً، فيما ستعمل على إنشاء دولة فلسطينية ثنائية القومية عربية ويهودية)... بأنه غاية في الغدر البريطاني لليهود (كما غدّر تشامبرلين بالتشيك تماماً أمام هتلر)...

وفي الحقيقة فإنه بالرغم من رفض العرب لمضمون هذا الكتاب أصلاً، فإن رفض بعض اليهود له، لم يكن نتيجة الإحساس بعدم عدالته، بل نتيجة انحيازه الكامل للعرب... فاليهود أساساً، يريدون فلسطين كاملة وخالية من العرب، فكيف تحد الإدارة البريطانية (التي هي قاب قوسين أو أدنى من نذر الحرب العالمية الثانية) من الهجرة اليهودية؟ وكيف تجيز لنفسها منطق التقسيم بين عرب ويهود؟!

لايريد نتنياهو استخدام عبارات بن غورويون عن هذا الموضوع بالضبط، لكننا مع ذلك سنلقيها على مسمعه من جديد:

(ليس في بلدنا إسرائيل مكان إلا لليهود، وسنقول للعرب، انجوا بأنفسكم وإذا لم يذعنوا وراحوا يقاومون فلسوف نرمي بهم خارج البلاد بالقوة ـ تاريخ الهاغاناة ـ بن غوريون). أما مدير دائرة الاستعمار في الوكالة اليهودية يوسف مايتز فقد كتب يقول عشية حرب حزيران ١٩٦٧ مايلي:

(من الواضح لدينا ألا مكان في هذا البلد لكلا الشعبين، إن الحل الوحيد هو في تحقيق شعار إسرائيل أرض إسرائيل، دون عرب، وليس هناك من حل سوى أن يخرج عرب هذه البلاد خارج فلسطين إلى بلدان أشقائهم المجاورة).

إذن، فإن فلسطين كلها لانصفها، هي المطلوبة يهودياً بصرف النظر عن بلفور ووعده، وما يدينه نتنياهو في حكومة تشامبرلن، تلك النظرة المتوازنة التي وردت في كتابه الأبيض، وبسبب من هذا التوازن الذي ترتأيه مصالح بريطانيا العليا، فإن تشامبرلن كذلك جون شاكبرغ (رئيس دائرة الشرق الأوسط في وزارة المستعمرات) وكروزون وآخرين جميعهم (لم يعملوا من أجل

تدمير الوطن القومي اليهودي فحسب، بل أصبحوا شركاء في جريمة إبادة اليهود في أوروبا - ص ١٠٤ نتنياهو)..

بعد سلسلة من الإدانات المتلاحقة لتاريخ الانتداب البريطاني (المستعرب) في فلسطين، يوزع نتنياهو إدانة إضافية للخارجية الأمريكية (التي بَصَمت على كتاب تشامبرلن) وكانت نسبة الـ ٦٠ بالمئة من احتياط النفط العالمي المخزون في الأراضي العلربية، هو محرك التوجه الأمريكي آنذاك، نحو إرضاء العرب على حساب إسرائيل... وأخيراً لم يعد باستطاعة اليهود الانتظار أكثر من ذلك، ويتابع نتنياهو، (فقد زادت الحركات السرية اليهودية من نضالها في سبيل فتح أبواب البلاد المغلقة في وجه الناجين من الكارثة وإبعاد حكم بريطانيا عن أرض إسرائيل، فنفذت الهجمات العسكرية الحقيقية ضد الجيش البريطاني على يد مجموعات من المنظمة العسكرية القومية (ايتسل) بقيادة ميناحيم بيجن ومنظمة مقاتلي حرية إسرائيل (ليحي) بقيادة ضابط الارتباط إسحاق شامير... ثم انضمت إليهما منظمة (الهاغاناة) التي كانت تخضع لسلطة بن غورويون). ثم يستعرض نتنياهو ليلة الجسور الشهيرة (إذ قامت الهاغاناة بتفجير ١٢ جسراً رئيسياً في البلاد كما دمرت العديد من خطوط السكك الحديدية التي هي في خدمة الجيش البريطاني، كذلك تم الهجوم على سجن عكا وكان من نتائجه تحرير ٢٥١ معتقلاً إسرائيلياً..).

ثمة متسع من الوقت للحديث عن الإرهاب الذي يتجاوزه نتنياهو بمقاطع تقفز فوق الشهور بل والسنين، فقبل بطولات ايتسل وليحي والهاغاناة في وجه الانكليز، فإن حوادث شتى لا يريد أن يمر عليها قلم نتنياهو، ففي العام ١٩٤٤ قتل اليهود اللورد موين الانكليزي وهو أحد مسؤولي الإدارة البريطانية في مصر، لا لشيء وإنما لتصريح كان قد أدلى به في العام ١٩٤٢ يقول فيه: (إن يهود اليوم ليسوا احفاد العبرانيين القدامى، وأنه ليس لهم أي حق شرعي في المطالبة بالأرض المقدسة) هذا وسيطالب موين بالحد من الهجرة اليهودية إلى فلسطين لأنها السبب الرئيسي في الإضطرابات الدموية.

وهذا هو ونستون تشرتشل المتعقّل يخرج عن طوره ليقول:

(إذا كان الأمر قد وصل إلى حد تبديد أحلامنا وسط دخان مسدسات القتلة، وإذا لم تثمر جهودنا من أجل المستقبل إلا ولادة عصابة جديدة من الإرهابيين اللائقين بألمانيا النازية، فإن كثيرين مثلي سيعيدون النظر في ذلك الموقف الذي درجنا على تبنّيه فيما سبق، وإذا كان هناك أمل سلمي لحياة الصهيونية في المستقبل، فإن هذه النشاطات اللعينة يجب أن تتوقف، أما هؤلاء المسؤولون عن هذه الفعلة القذرة، فلا بد من استئصالهم بالقتل والشنق)...

في العام ١٩٤٦ أقدمت منظمة الأرغون التي يتزعمها بن غوريون على تفجير فندق الملك داوود في القدس(*)، حيث تقيم رئاسة الأركان البريطانية والحاكم العام البريطاني، وكانت حصيلة العملية الإرهابية مقتل مئة شخص بين انكليزي وعربي ويهودي على حد سواء.

(*) إن مناحيم بيجن هو مؤسس عصابة الأرغون تسفاي ليئومي بعد إبراهام تهومي إلا أن وقت التفجير كانت الأرغون تعمل تحت قيادة الهاغاناة التي يقودها في الأصل دافيد بن غوريون...

يقول بيجن مُعلّقاً على مقتل اليهود في حادث الفندق:

(نحن نقاتل إذن نحن موجودون... فإلى مزيد من النار والدماء والرماد.. وإلى نوع بشري جديد... نوع لم يعرفه العالم منذ ألفي سنة... إنه اليهودي المحارب... إلى مزيد من الدم والعَرَق والدمع... ليولد جيلٌ جديد شهم قوي وواثق بنفسه..).

لقد كانت واحدة من الهامات بن غوريون السياسي، استشرافه المبكر لمصدر القوة المقبلة في العالم، ذلك أن الحرب ستترك بريطانيا منهوكة القوى مهما كانت نتائجها، كذلك فقد أمضى فترة طويلة في الولايات المتحدة الأمريكية، وهو يسعى للحصول على تأييد الحكومة الأمريكية من أجل تشكيل جيش يهودي في فلسطين، كما أن جزءاً سخيّاً من وقته كان يقضيه بين الهيئات اليهودية الأمريكية لاقناع حكومة واشنطن بتأييد قيام الدولة العبرية في فلسطين.

لم يتوقف ديفيد غرين (دافيد بن غوريون) عن العمل في الولايات المتحدة وتوصّل إلى النتيجة نفسها التي توصل إليها وايزمن في انكلترا قبل ربع قرن، إلا أنه الآن أصبح (مقلوب وايزمن) في ضرورة البقاء على التحالف مع البريطانيين، فبالنسبة لوايزمن فإنه كان يزدري الغوغائية ويمجّد الحكمة والرويّة، أما بن غوريون فإنه لم يزدرِ شيئاً يمكن أن يحقق هدفه، وقد تأكد انتصاره على وايزمن في المؤتمر الذي عقد في أيار من العام ١٩٤٢ في فندق بلتمور في نيويورك. إذ في ذلك المؤتمر طلب بن غوريون من زعماء الصهيونية وأعيان اليهود الذين أحضرهم من كل أرجاء أمريكا، رفض السياسة البريطانية الرسمية كلياً وإعلان فلسطين دولة يهودية لها السيطرة على الهجرة اليهودية دون شراكة، كذلك دفع باتجاه مطالبة ألمانيا بدفع تعويضات مالية، لقاء المحرقة الهتلرية، أي بأثمان جثث اليهود، وأن تبادر ألمانيا أول ما تبادر بالتنازل عن ممتلكاتها في فلسطين لصالح اليهود..

لم تكن ألمانيا قد هُزمت بعد، إلا أن نهاية النازية باتت معروفة، وقد لقيت مطالب بن غوريون تأييداً عاطفياً مشوباً بروح الانتقام، ضد ألمانيا كلها سواء أكانت نازية أم معادية لها!..
إن اليهود في قرارهم محاربة بريطانيا (العجوز) لم يكونوا ليفعلوا سوى الشيء الذي حدث في مؤتمر بلتمور، فبريطانيا التي انتصرت اسمياً في الحرب، لاتلغي حقيقة ماثلة تقول، بأن بريطانيا كانت قد دُمّرت في معظمها، وأن الحرب لم تمس عصب القوة الأمريكية الصاعدة بسوء، وأن التهديد بمقاطعة البضائع الانكليزية ولو في مدينة نيويورك وحدها، سيزيد من تهشيم اقتصادها فوق ما هشمّته الحرب، وبالعكس تماماً، فإن تحسن أحوال بريطانيا الاقتصادية سيعتمد بعد الآن كلية على المعونات الأمريكية، وقد يساعد التمرد اليهودي في وجه بريطانيا في فلسطين، على اتخاذ موقف أمريكي ضد الكتاب الأبيض الانكليزي، وقد تعلم زعماء الصهيونية من الغرب، ملاحقة الهدف على عدة مستويات في آن واحد، فقد مثل وايزمن في الخارج اعتدال رجل الدولة الحكيم، وفي فلسطين أظهر بن غوريون عدم الاعتدال المدروس، وعملت منظمة الهاغاناة العسكرية مع الوكالة اليهودية وكانت مسؤولة عن الأعمال الحربية، بينما تُركت عصابتا الأرغون وشتيرن لتقدما أعمالاً ضد بريطانيا (التي أصبحت دفاعية) كذلك ضد

المواطنين العرب كيفما كانوا، ومن اجل السجل، فقد أدانت الوكالة اليهودية مثل هذه الأعمال!...

إن السيناريو الذي يضعه نتنياهو عن بطولات اليهود ضد الجيش البريطاني في فلسطين لا أساس له، ويمكن للمرء أن يصل إلى استنتاج بسيط، حين يتساءل ماذا كانت ردة الفعل البريطانية حين أقدم اليهود على شنق رقيبين من الجيش البريطاني في فلسطين (أكثر من الاتهام بالجحود)، وبدءاً من اللورد مويل الذي اغتيل في القاهرة وانتهاء بالكونت برنادوت الذي اغتيل في فلسطين... ما الذي فعلته إدارة الانتداب غير التردد؟. لقد قام اليهود المختبئون خلف بن غوريون بأعمال عدائية ضد بريطانيا وذلك مع اقتراب نتائج الحرب العالمية الثانية، أي مع شيخوخة الأسد البريطاني وصعود النجم الأمريكي الساطع، وما أن وضعت الحرب أوزارها، حتى كانت بريطانيا تعلن عن تجيير الانتداب لصالح عصبة الأمم التي تسيطر عليها الولايات المتحدة وبسبب من نفوذها الطاغي (حيث معظم بلدان العالم الثالث ومعه دول أمريكا اللاتينية تقع تحت الانتداب الوصائي)، فإن الولايات المتحدة عبر الجمعية العمومية، شكلت لجنة خاصة سُميّت باللجنة الخاصة للأمم المتحدة بشأن فلسطين (اختصاراً إنسكوب) وكانت مهمتها (تحري الحقائق والتأكيد من صحتها وتسجيلها مع جمع كل ما يمكن ويتعلق بالوضع الحالي لفلسطين، وبعد رفع التقرير، تحولت الجمعية العمومية كلها إلى (لجنة خاصة) بنفوذ أمريكا وتأثيرها.

بالعودة إلى نتنياهو، فإنه بعد أن يستعرض آيات النضال السري اليهودي ضد بريطانيا، فإنه ينتقل على طريقته المباغتة إلى (ولادة مشروع التقسيم بعد أن أعلنت بريطانيا عزمها على الخروج من أرض إسرائيل... وهكذا ولد قرار التقسيم رقم ١٨١ يوم ٢٩ تشرين الثاني من العام ١٩٤٧) ويعترض نتنياهو إذ يقول (لقد قضى هذا القرار بتخصيص حوالي ١٠ بالمئة من مساحة أرض إسرائيل الانتدابية وأعطى الباقي للعرب ص ١١١).

ولما كان نتنياهو يريد أن يصل على طريقة الأدب الرمزي، لخاتمة التقسيم على أنها من صنع أبطال النضال السري اليهودي، فإنه في أسلوبه يضطر إلى القفز بأكثر من أسلوب الإيماء لقاعدة الأدب الرمزي في الرواية، فهو يتحدث عن أخطر قرار في تاريخ فلسطين المعاصر، كمن يتحدث عن فيلم بسرعة السينما الضاحكة اليوم، وهو إذ يفعل ذلك، فإنه يتقصّد الهرب من مجموعة النشاطات اللاأخلاقية (التي طالما تحدث عنها)، والتي مورست مع الدول التي كانت تعتمد الوقوف ضد مشروع التقسيم، ففي وصفه للنشاطات المحمومة التي قامت بها الحركة الصهيونية بدعم من الرئيس الأمريكي ترومان، يكتب الكاتب الصهيوني دافيد هوروفتس، فيقول عن أربعة الأيامَ ما قبل التصويت (٢٥ و ٢٦ و ٢٧ و ٢٨) من تشرين الثاني ما يلي:

(بقيَت فينا روحُ الكفاح ثابتة، اجتمعنا في مكتب الوكالة وتشاورنا في الطرق والوسائل الكفيلة بتغيير مجرى الأحداث، ثم بدأ الصراع في الدقائق والساعات من جديد، دُقّت أجراس الهواتف بشكل محموم أُرسلت البرقيات إلى كافة أرجاء العالم، أيقظنا أناس في منتصف الليالي من نومهم، ثم أرسلناهم في مهام غريبة، والأغرب من كل هذا، أنه ما من يهودي ذي نفوذ، سواء

أكان صهيونياً أم لا، إلا وقدَّم لنا يد العون، فقد وضع الجميع، وعلى رأسهم بلد الحرية أمريكا، ثِقَلهم كله خدمةً للمحاولات اليائسة من أجل ترجيح كفتنا)..

وإليكم بعض الأنشطة (الأخلاقية جداً) مع دولٍ أمريكية لاتينية على سبيل المثال:

كوستاريكا: ـ لقد ثبت أن رئيس جمهورية كورستاريكا السابق المدعو جوسي فيجويرس وهو من أصل يهودي، أعطى لمسؤولي وزارة الخارجية في بلاده دفتر شيكات على بياض كي لا يتوانوا أثناء التصويت على التقسيم في الجمعية العمومية..

الفيلبين ـ ليبريا ـ هاييتي ـ كوبا: تلقى زوجات ممثلي هذه الدول هدايا ثمينة من نوع الألماس ومعاطف الفرو الباهظة، وقد أعاد ممثل كوبا معطف الفرو الذي قُدّم لزوجته ورفض أي اقتراح للتحدث عن المشكلة الإنسانية لليهود...

ـ تلقت هاييتي وعداً من ممثل الحكومة الأمريكية لديها بواسطة أدولف بيرل، بأن مساعدات اقتصادية كبرى سوف تقدم لهاييتي لو غيّرت موقفها وعدلت عن رفض التقسيم، وبالفعل فقد صرح مندوب هاييتي علناً، بأنه تلقى أمراً من رئيس بلاده للتصويت إلى جانب التقسيم لأسباب اقتصادية..

ـ تلقت ليبريا انذاراً من شركة فايرستون الأمريكية ذات العلاقة بأضخم مشاريع المطاط في البلاد، بوقف أي مشروع إن لم تلتزم ليبريا بقرار التقسيم.

ـ انسحب مندوب كوبا جراء الضغوطات الأمريكية الهائلة التي مورست معه، وأوصى بقية الوفد الذي بقي في الجلسة أن يصوّت ضد التقسيم، إلا أن هاتفاً من الرئيس الكوبي نفسه، كان قد أعاد الأمور إلى نصابها!..

ـ هدد روبرت ناثان رجل الأعمال الأمريكي ـ اليهودي، جمهورية غواتيمالا إن وقفت ضد مشرلاوع التقسيم، وكان للمذكور نشاطات اقتصادية أمريكية هامة في غواتيمالا.

ـ سحبت الهيئة المشرفة على الجمعية العمومية أوراق اعتماد سفير سيام من الجلسة فوراً، بحجة أن انقلاباً عسكرياً وقع في سيام قبل ليلةٍ واحدة فقط!... أما السبب الحقيقي فيعزى إلى أن مندوب سيام كان قد صرح جهاراً بنيّته الوقوف ضد مشروع التقسيم.

ـ اعترف الرئيس الأمريكي هاري ترومان في مذكراته، بدور بلاده في (شراء) أصوات البلدان التي أيّدت التقسيم.

ـ قال وزير الخارجية سمنر ويلز (بأمر مباشر من البيت الأبيض فرض المسؤولون الأمريكيون كل نوع من أنواع الضغوط، بطريقة مباشرة أو غير مباشرة، خاصة مع تلك الدول المترددة أو المعارضة للتقسيم، ولم يتوان البيت الأبيض عن استخدام الوسطاء والوكلاء في سبيل ضمان الأكثرية اللازمة للتصويت).

ـ كتب وكيل وزارة الخارجية الأمريكية السيد روبرت لوفيت عن دور البيت الأبيض مايلي: (إنني لم أتعرض في حياتي قط، لمثل ما تعرضت له من ضغوط قبيل مشروع التقسيم، خاصة تلك

الأيام التي سبقته من صباح الخميس وحتى مساء يوم السبت لمثل ما تعرضت له من ضغوط قبيل مشروع التقسيم، خاصة تلك الأيام الثلاثة التي سبقته من صباح يوم الخميس وحتى مساء يوم السبت) وأضاف: (لقد حملتني الخارجية عن طريق السادة هربرت بايرُد سوب، وروبرت ناثان، ما جعلني نادماً طوال حياتي)...

فهل هذه هي (أخلاق فُرساي) التي وعدنا بها نتنياهو طوال فصله الأول؟!..

مع ذلك فإن نتنياهو لا يقبل بحصيلة التقسيم، فهو يشتكي أن القرار (١٨١) القاضي بالتقسيم، لايمنح اليهود أكثر من ١٠ بالمئة من مساحة أرض إسرائيل الانتدابية، وبالرجوع إلى خارطة التقسيم تحديداً، فإن ٥٦ بالمئة من أفضل الأراضي الفلسطينية البالغة ٢٧ ألف كيلو متراً مربعاً، كان القرار قد أعطاها للدولة اليهودية، وبهذا الحساب، فإن ١٥١٢٠ كم[٢] (حصة اليهود في التقسيم)، لاتعادل عند نتنياهو سوى ١٠ بالمئة من أرض إسرائيل الانتدابية، إذن فإن الباقي في ذمّة العرب لنتنياهو، مساحة إضافية تقدر بـ ١٤٦٠٨٠ كم[٢] ومع (المساحات اليهودية) غير الانتدابية، فإن نتنياهو يستطيع أن يضع نجمة داوود السداسية في عَلَمه بين خطيّه الأزرقين، اللذين هما في واقع الحال: النيل والفرات..

لقد دلّت الإحصائيات الثابتة أن عدد سكان فلسطين من العرب حتى يوم التقسيم كان قد بلغ بحسب تقرير اللجنة الخاصة المذكورة أعلاه (أي لجنة الأمم المتحدة) ١,٢٣٧,٣٧٤ نسمة، وأن عدد اليهود (مع التسامح) بلغ ٦٠٢,٢٢٥ نسمة، وأن العرب يملكون ٨٦ بالمئة من أرض فلسطين وأن نسبة ٥٦ بالمئة من مساحة فلسطين المخصصة للدولة العبرية، كان يسكنها أصلاً، نصفان متوازيان من العرب واليهود، حيث يقول الاحصاء نفسه (إن عدد السكان العرب في الدولة اليهودية المقترحة يبلغ ٤٩٧ ألفاً وأن عدد اليهود فيها يساوي ٤٩٨ ألفاً لاغير).. غير أن وعد بلفور وصك الانتداب وأحابيل الهجرة وأساطير التوراة وقرار التقسيم، وسياسات العنف المتبعة ضد المدنيين من كل سن وجنس.. أمكن لها في النهاية من طرد السكان الأصليين في سبيل تأسيس المشروع المتمدّن!.. لمجموعة المُثل الأخلاقية ولجهابذة فُرساي ومن بعدهم سان ريمو: (إن سور الدفاع عن الحضارة الأوربية، ينشأ في وجه البربرية ـ هرتزل)...

وهكذا وصل المسافر إلى الهدف، وها هنا صفحة جديدة من صفحات البطولة الخارقة، تلك التي تجلّت في دخول إسرائيل حرب الاستقلال ضد جيوش العرب المجتمعة على الحدود...

يقول نتنياهو (في ١٤ أيار ١٩٤٨ ومع خروج آخر جندي بريطاني. كانت حرب الاستقلال ضد الغزاة العرب في ذروتها.. وكان الرأي الشائع، أن المسألة إنما هي مسألة وقت فقط، ولن يطول هذا الوقت حتى تُباد إسرائيل... لقد دخلت إسرائيل حرب الاستقلال في أسوأ الظروف، فبريطانيا التي سبق لها أن قلّصت الاستيطان وخفّضت أعداد المهاجرين، قامت بمنع اليهود من التسليح، في حين سمحت بتدفق كميات كبيرة من الأسلحة للعرب، كما لم يمنعوا تعزيز الفلسطينيين بقوات من الدول المجاورة.. وهكذا دون طائرات ولا دبابات ولا مدافع، وقفت القوات الإسرائيلية القليلة لتواجه قوةً تفوقها بعدة أضعاف في العدد والعدة ـ ص١١٢).

باديءَ ذي بدء، فإننا نعترف بأن للمنتصر حقّه في كتابة التاريخ على هواه، وعلى ما يبدو فإن نتنياهو يعرف هذه الحقيقة أكثر من غيره، لذلك فهو يصّور (الغزاة العرب) بجيوشهم الخمسة.. وقد انهزموا مع الفلسطينيين أمام جيش داوود حيث التفوق لصالح العرب بالعدة والعدد.. وكان ينقصه أن يضع النسبة والتناسب لتقابل القوى والسلاح.. لكنه لم يفعل.

لن نقف طويلاً أمام فخار نتنياهو بتاريخه عن حرب الاستقلال، فقد درجت إسرائيل حتى قبل أن يولد نتنياهو على ترداد بكائها أمام الغرب جراء هذه الملايين العربية التي تحيط بها من كل جانب تمهيداً لقذفها في البحر، ولما كان ميزان القوة الحقيقي لايكمن في الأكثرية والأقلية، فقد فهم الغرب الرسمي (تانغو إسرائيل الحزين) عن تجسيم الضخامة العددية للعرب.. فيما ظل هذا الهاجس يسكن فؤاد الغربي العادي حتى وقت متأخر من بحر البقر وكارثة حزيران!..

ولما كان الرد هنا، لايتعلق بشخص نتنياهو أو بتاريخه، بل بشخوصنا وتاريخنا، أو بصورة أدق، بنشوء الأنظمة العربية بعد سايكس بيكو من العراق إلى مصر، فإنه لا مجال للحديث مع نتنياهو بشأن لايخصّه، ولو أنه على سبيل الاستنتاج، نقدّر أن نتنياهو يعرف أكثر مما نعرف، بأن فلسطين ضاعت بسبب الضعف العربي لا بسبب البطولات الإسرائيلية..

وهنا لابد من إيراد الواقعة الشخصية على طريقة نتنياهو في كتابه، حين يستخدم أسلوب الثنائيات الشخصية في الرواية.. فقد لخصّ لي أحد أقاربي في الأرض المحتلة، آراء يوري أفنيري في جلسة مشتركة كان عنوانها: الأسباب الكامنة وراء نجاحات إسرائيل واخفاقات العرب على النحو التالي:

- إسرائيل في بنيتها الفاعلة، هي كيان غربي متقدّم، وهذا الكيان يحارب مجتمعات شرقية محكومة بأساليب لاديمقراطية وهي على درجة مخيفة من التخلّف عن العصر.

- إن انتصارات إسرائيل الحربية، كانت تقوم على الطنين والخداع، بأكثر منها استراتيجيات حربية بين قوىً متكافئة، فانتصارات إسرائيل قبل حرب تشرين، كانت مكافئ الأخطاء القاتلة التي كانت ترتكبها القيادات السياسية والعسكرية العربية، إنني أستطيع التأكيد (والقول لأفنيري) بأن إسرائيل في حربها الأولى - كادت تتعرض في بعض المراحل - إلى هزيمة محققة.. كذلك الأمر في حرب تشرين.. لكنني أجهل حتى الآن، لماذا كان يتوقف العرب عن متابعة نشاطاتهم الحربية؟!

- لاصحة للمزاعم القائلة بوجود تماسك مجتمعي يهودي داخلي، فاليهودي - أيام السلم - يمكن أن يكره اليهودي الآخر إلى درجة الحقد، غير أن هذه الكراهية يمكن أن تختفي مؤقتاً أمام الخطر العربي الداهم، فإسرائيل كالطيار، تخطئ مرة واحدة. فتزول إلى الأبد، أما العرب فلا يسكنهم هذا الهاجس نهائياً، إنهم يستطيعون تكرار الأخطاء عشرات المرات دون أن يكون مصيرهم المحتوم كمصير إسرائيل جراء الخطأ الواحد...

إن الخوف من الموت، هو الذي يولّد جنون الشجاعة أحياناً... وعودة إلى مقتطف نتنياهو عن تاريخ حرب استقلاله، فإسرائيل لم تدخل حرب استقلالها في ظل أسوأ الظروف، بل أفضلها على الأرجح، فإذا قُيِّمت النسبية الظرفية لكلا الفريقين المتصارعين، فإن ظروف العرب هي الأسوأ بما

لايقاس... ويكفينا أن نتخذ من قوات الهاغاناة (وهي القوة المقاتلة الرئيسية لتأسيس إسرائيل) مَثَلاً على ذلك، فمن أفواه القادة الإسرائيليين أنفسهم، فإن الفيلق اليهودي الذي خدم في ظل قيادات الحلفاء العسكرية، هو نواة الجيش الإسرائيلي، وقد تخرّج من هذا الفيلق مالا يقل عن أربعين ألف مقاتل يهودي كانوا بانتظار دقات الساعة في منتصف ليل الخامس عشر من أيار، وبالطبع فإن هذا الفيلق كان يشتمل على ضباط كبار من أمثال ناحوم جولان، وموشي كارميلي، وشمعون أفيدان واسحاق صادح... بحيث بدا دايان أمامهم نجمة صغيرة لاتضيء... هذا ويعلق الباحث العسكري الأمريكي الضابط تريغور دوبوي في كتابه الحروب العربية ـ الإسرائيلية، على هذا الفيلق بما يلي:

(لقد غذّى الفيلق اليهودي الذي شارك في الحرب العالمية الثانية، المؤسسة العسكرية الإسرائيلية المسماة هاغاناة، بخبرات لاتقدر بثمن، وكان الضباط الأوائل منه، الذين غالباً ما سميت ألوية الجيش وأسلحته بأسمائهم.. هم البناة الحقيقيون لدولة إسرائيل الحديثة..).

ويقول سير مايلز لامبسون، سفير بريطانيا المتغطرس إلى القاهرة في العام ١٩٤٢ مايلي: (حتى مع وصول رومل إلى العلمين، فقد كنا نحاذر فتح مستودعات الأسلحة لاحتياجات الجيش المصري، فقد حفظنا عن خبرائنا السابقين مضمون تقاريرهم حين أكدوا بأن العرب لايصلحون إلا لحرب الغوار، وأن الجنرال اللنبي نفسه، كان يخصص أثناء الثورة العربية، بندقيّة واحدة لكل خمسة من المحاربين العرب).. وتلك هي صورة تسليح بريطانيا للعرب، كما يذهب نتنياهو بعكس حقائق التاريخ، أما أحمد حمروش الضابط في الجيش المصري فإنه يقول: (كانت أول كتيبة مشاة مصرية دخلت أرض فلسطين، محمولة بعربات أوتوبيس مدنية، استأجرها أحد المقاولين المصريين لحساب الجيش!..).

حتى في العديد البشري، فإن القوات الإسرائيلية كانت موازية لجيوش ٣٠ مليوناً من عرب المواجهة آنذاك، إن لم تكن متفوقة عليها أيضاً، وحسب إحصائيات أصبحت شائعة فإن تعداد الجيوش العربية التي قاتلت في فلسطين عام ١٩٤٨ كانت موزعة على النحو التالي:

ـ ٧ آلاف جندي وضابط من سوريا.

ـ ٣ آلاف جندي وضابط من لبنان.

ـ ٧ آلاف جندي وضابط من الأردن.

ـ ٥ آلاف جندي وضابط من العراق.

ـ ١٥ ألف جندي وضابط مصري في المعارك الأخيرة من الحرب.

وهكذا فإن المجموع العددي لايتجاوز ٣٧ ألفاً لجميع القوات العربية المسلحة في فلسطين، امامها بالمقابل ٤٠ ألفاً من جنود وضباط الهاغاناة (مذكرات بن غوريون)، كذلك فإن القاء نظرة على القادة المختصين والعاملين في فروع الجيش الإسرائيلي يمكن أن تعطي تقديراً تقريبياً عن العدد والعدة الحربيتين...

- فرع التدريب العسكري ٣٩٨ عسكرياً نصفهم من الضباط.
- أفراد القوات الجوية العاملة ٦٧٥ عسكرياً بين طياريّن وملاّحين ومهندسين..
- قادة فروع سلاح المدفعية ٦٥٠ ضابطاً وصف ضابط.
- قادة تشكيلات فرع الهندسة العسكرية ١٥٠ عسكرياً.
- قادة فروع الشرطة العسكرية ١٦٨ ضابطاً.
- وحدات النقل العسكرية ١٠٠٠ عامل.
- كتيبة مغاوير على عربات الجيب بيد رئيس الأركان ٢٠٠٠ ضابط وعسكري ثم أعمال الدفاع المدني ومعظمه من المجندات العاملات في الجيش الإسرائيلي ويُقدّر العاملون في مجاله بعشرة آلاف عسكري.

أما المؤشرات التقريبية للعتاد والسلاح فتقول:

- ٣٣ ألف قطعة سلاح من نوع البنادق والمسدسات.
- ١٥٠٠ رشاش متوسط وخفيف موزعة بين صناعتين بريطانية وفرنسية.
- ٩٠٠ مدفع هاون من صنع بريطاني.
- ١١٦ مدفعاً مضاداً للدروع.
- ١٥ مدفع هاوتزر أمريكي الصنع.
- ٨٠ دبابة موزعة بين متوسطة وخفيفة.
- الشؤون الخلفية للجيش (ذخائر، عربات اسعاف، عربات إصلاح، وقود، طعام...) مؤمّنة وموزعة على المستعمرات حسب الجبهات.. وهذا كلّه قبل الهدنة الأولى فيما يقدر الخبراء، أن إسرائيل حصلت في الجولة الثانية من الحرب على مدافع ميدانية حديثة وكذلك طائرات مقاتلة وقاذفة بأضعاف أعدادها السابقة. على الطرف المقابل فقد كان هناك أسلحة ومدافع وطيران.. وعلى سبيل المثال، فإن الطائرات الحربية المصرية أو العراقية، كانت بأسرابها القليلة العاملة بقيادة طيّارين انكليز، فضلاً عن أن تحليقها غير ممكن دون إذن مسبق من القيادة العسكرية البريطانية التي مازالت في السويس أو الحبانية، أما الطيران الإسرائيلي فلا يقيّده أحد.

هذه الصورة وسواها يمكن أن تقدم منظراً أولياً لتقابلٍ ثابت، إلا أن التكافؤ عادة لايقاس بالأرقام الصماء فهناك جيوش بالملايين في هذا العالم، وقد يكون الجيش الأمريكي أقلها تعداداً، ومع ذلك فإن الولايات المتحدة هي سيدة العالم الحربي دون منازع، أما الجيوش العربية الخارجة لتوها من الانتداب الذي منع عنها كل شيء، إلى الاستقلال الغض، فقد كانت بعيدة بقوة الواقع والظروف، عن عالم التدريب وتنظيم المعارك، ولم يكن قادتها إلا نادراً، يعرفون نظام التشكيلات في التنسيق والتوزيع والتجميع وغيرها من فنون المناورة والالتفاف والخداع.. حيث غدت الحروب علماً استراتيجياً قائماً بحاله، أما توزع الجيوش تحت قيادات محلية تعمل بموجب مواجهات

جبهوية لا رابط بينها، فإن ذلك حرمها من أهم قاعدة ذهبية من قواعد الحرب الحديثة، التنسيق، فإذا ما أضفنا دور الغرب في تحريض الأنظمة العربية بعضها ضد بعض ـ حتى أثناء قتالها في فلسطين ـ فإن ذلك هو ـ أسوأ الظروف ـ في قاموس المعارك، حيث كانت من نصيب العرب لا اليهود...

قال نابليون بونابرت أثناء حملته على مصر (إن جندياً مملوكياً واحداً، يستطيع الحاق الهزيمة بأربعة جنود فرنسيين في مواجهة واحدة، لكن كتيبة فرنسية واحدة، تستطيع الحاق الهزيمة بالجيش المملوكي كله)...

وفيما تبقى من فصله الثاني، فإن نتنياهو يستخدم وقائع الحروب (حرب العام ١٩٥٦ والعام ١٩٦٧) للوصول نتائج تلائم بحثه، أكثر من ملائمتها للحقائق القريبة، إذ بعد حرب إسرائيل في سيناء (العام ١٩٥٦) تناسى العالم، كما يقول ص١١٥، حقيقة أن إسرائيل استولت على الأراضي التي كانت منطلقاً للهجوم عليها، وأن العرب كانوا هم المبادرين إلى الحرب، خارقين بذلك اتفاقيات الهدنة مع إسرائيل) كما يمدّ هذه الذرائع إلى حرب حزيران في العام ١٩٦٧.

ويواصل كلامه (ظلّت لدى الرأي العام العالمي حقيقة واحدة قائمة، هي أن إسرائيل تحتفظ بأراض واسعة كانت تسكنها جماهير عربية، أي أن إسرائيل تحتل أراض عربية، وكان هذا الاعتقاد كافياً لتخليص العرب من تهمة التسبب باندلاع الحرب والقائها على عاتق إسرائيل.. وأدرك العرب أن ليس بمقدورهم الحاق الهزيمة بإسرائيل بضربة عسكرية بعد حرب الأيام الستة... لذلك وجدوا أن أفضل السبل للقضاء على إسرائيل، هي تقليص حجمها وإعادتها إلى الخطوط التي بدأت الحرب منها.. أي في إعادتها إلى خطوط العام ١٩٤٩).

ومن هنا جاء التحول إلى طلب التأييد الأمريكي، ويستذكر نتنياهو أن المؤيدين الأمريكيين للعرب، هم الذين أثروا على الرئيس الأمريكي دوايت أيزنهاور، حين وجه انذاره بضرورة انسحاب إسرائيل من منطقة سيناء وغزة وإعادة الوضع إلى ما كان عليه قبل اندلاع الحرب في العام ١٩٥٦، ومن غرائب نتنياهو أن يتحدث عن حرب العام ١٩٥٦ دون الاتيان على ذكر العدوان الثلاثي، علماً بأن بريطانيا وفرنسا تتحدثان عنه بصورة لا مواربة فيها، أما البادئ بالحرب، فيعرفه كلّ مَن ليس له علاقة الحد الأدنى بالتاريخ، فإذا كانت مصر هي البادئة في حرب العام ١٩٥٦، لماذا إذن ترد عليها الطائرات الانكليزية والفرنسية، هل لأن مصر أغارت على لندن أو باريس؟!

يقول موشي دايان في كتابه الفاشية ـ دار المسيرة ص١٧١ كانت أهم الوصايا للوفد العسكري المسافر إلى باريس هي (مايتعلق باقتسام الغنائم بعد حملة السويس، فقد جرى التأكيد على السماح لإسرائيل بتعديل حدودها في سيناء وشرم الشيخ وأبو عجيلة ورفح.. وأن حرية الملاحة الإسرائيلية في أيلات ستكون مضمونة).

ويقول دايان أيضاً (المصدر السابق):

إن الوفد الإسرائيلي في باريس، غضب غضباً شديداً، عندما تناهى إلى أسماعه، أن بريطانيا

لاتريد تلطيخ سمعتها جراء اقحام إسرائيل في الحملة، فيما كان الفرنسيون يؤيدون ذلك كل التأييد، فبحسب سياسة متوارثة، فإن بريطانيا ظلّت مستعدة لاستغلال حرب تقع بين إسرائيل والعرب، وليس العكس، أما أن يأتي بن غوريون ليستثمر نزاعاً بين بريطانيا والعرب.. فتلك إذن آخر أيام بريطانيا في المنطقة..

فهل يريد نتنياهو شاهداً آخر هو بن غوريون نفسه، أو خصيمه اليوم شمعون بيريس، حيث كان من أكثر أعضاء الوفد الإسرائيلي فعّالية، حين تخطى حدود الجلسات المخصّصة للحملة وطالبَ بإنشاء مفاعل نووي إسرائيلي في اجتماع ببلدة سيفر القريبة من باريس؟!...

لدينا حوار كامل قبل اليوم (ي) (أي يوم الهجوم على مصر المصادف في ٢٩ تشرين الأول ١٩٥٦، حيث (س) هي الساعة الخامسة صباحاً بتوقيت إسرائيل)(*) وكان هذا الحوار يدور في مكتب بن غوريون مع النخبة من مختصّي أركان الجيش الإسرائيلي، ولابد أن واحداً مثل نتنياهو كان قد قرأه بالطبع، وهو يقع على وجه التحديد يوم ٢٤ تشرين الأول. الساعة التاسعة صباحاً.. وما يجول في هذا المحضر اختصاراً، يثبت خطة التآمر الثلاثية ضد مصر، أما النتائج فتلغي الحاجة إلى الاستنتاج!.. فإلى أي مدىً يريد أن يقذف بنا إلى الوراء!.. كي نعود إلى البرهنة على ما تم البرهان عليه من قبل الخصيم والصديق بآن واحد. وهل بقي إلى اليوم، ثمّة مَن يقول بأن مصر هي التي ابتدأت الحرب عام ١٩٥٦ وأنها هي نفسها التي استهلتها يوم حزيران في العام ١٩٦٧؟!

إن خطة اصطياد الفهد الأفريقي (جمال عبد الناصر)، باتت معروفة أمام أعين قارئ التاريخ، ففي حرب الأيام الستة، لم تكن مصر هي البادئة بالهجوم، ولا حتى سوريا أو الأردن، وإلا لما كانت الطائرات العربية تعرضت لمصيرها المعروف، وهناك مكتبات كاملة تشمل تفاصيل ما جرى يوم الخامس من حزيران، وحتى المصادر اليهودية نفسها، تؤكد بأن خطة الحرب كانت مقررة سلفاً منذ أوائل أيار من العام من نفسه، وتمّ التصديق عليها مع الأيام الأخيرة من الشهر، وبهذه المناسبة يصف دايان (قصة حياتي) أشكول رئيس الوزارة الإسرائيلية آنذاك (بأنه كان عكس بن غوريون تماماً، فهو لايحب حتى لفظة الحرب، لكنه في اليوم المخصص للمصادقة على الخطة، كان قد اقتنع بالتعامل مع الوضع القائم حين قال: ربما نكون قد خدمنا إسرائيل أكثر، إذا ما تحركنا بعيداً عن انتظار نتائج الدبلوماسية).. وهذا معناه أن المشجب الذي عُلقت عليه أزمة الحرب (وهي إبعاد قوات الطوارئ وإغلاق مضيق تيران)، وهي بالضبط ما يعتبرها نتنياهو بدء الحرب، كانت تنتظر حلاً دبلوماسياً من الدول الكبرى، ولما كان الجنرال ديغول، يعرف بخفايا النوايا الإسرائيلية المبيتة فقد اضطر لمصارحة آبا إيبان وزير الخارجية يومها بقوله (إن فرنسا ستتعامل مع الموقف انطلاقاً من البادئ بفتح النار، سنوقف عنكم السلاح، لا لشيء، وإنما لنجنبكم غواية فتح ملف

(*) يبدأ الهجوم الإسرائيلي على قطاع غزة وعبر سيناء الساعة الخامسة صباحاً من يوم ٢٩ تشرين الأول ١٩٥٦، ويصادف ذلك يوم الاثنين، بعد ذلك بيومين أي يوم الأربعاء الواقع في ٣١ تشرين الأول، يبدأ الغزو العسكري الثنائي الانكليزي، الفرنسي على القناة، أما بقية التفاصيل فموجودة بين مئات الكتب.

الحرب من جديد). وبالفعل فإن فرنسا ما عتمت أن اتخذت أشد المواقف قسوة حيال إسرائيل، بعد انقشاع ضباب حزيران..

فهل يحتاج التلميذ النجيب لاسحاق شامير، ومن قبله ميناحيم بيجن إلى فتح دفاتر حزيران من جديد، أم أنه يتناساها كيما يتقدم في خطّه المتصاعد نحو اتهام العرب بالوحشية والعدوان، فإذا كان ما يؤسس له، هو الوصول إلى هدف الاتهام المشبع بروح الإرهاب، فسوف نرى ذلك في حينه، لكن علينا قبل ذلك أن ندق أبواب الجمعية العمومية في الأمم المتحدة، كي نقف على ما آثار حنق نتنياهو، حين أجمع العالم على وصم الصهيونية بالعنصرية، وهو القرار (رقم ٣٣٧٩) المتخذ عام ١٩٧٥.. يقول نتنياهو بغيظٍ مسرحي (حيث قرارات مجلس الأمن لا تهمّه فكيف بقرارات الجمعية العمومية التي لاتلزم أحداً) مايلي:

(إن اتهام الصهيونية الكاذب بالعنصرية الذي يؤكده أبناء العالم العربي، هذا العالم الذي ما زال حتى اليوم يحتفظ بالعبيد السود في دول خليجه، والذي كان رائداً في مجال تجارة العبيد على طول الساحل الأفريقي، والذي يتحمل وزر أعمال القتل الفظيعة لمئات الألوف من السود جنوب السودان على أيدي الأكثرية العربية، هذا الاتهام للصهيونية بالعنصرية يجب ألا يتعدى كونه نكتة تافهة، لكن العالم لم ينظر إليه هكذا، فالقوة المشتركة للعرب والسوفييت منحتهم السيطرة الكاملة على الأمم المتحدة، كذلك الاستغلال اللامحدود لوسائل الإعلام التابعة لها، والحقيقة هي أنه لولا حملة الأكاذيب ضد إسرائيل التي شهدتها أروقة الأمم المتحدة، فإن هذه المؤسسة ليست مؤهلة لإصدار حكم في موضوع أخلاقي.. إذ ماذا فَعلت هذه الجمعية ضد العدوان السوفييتي على أفغانستان، ماذا فعَلت طيلة سبع سنوات من الحروب والدماء بين إيران والعراق، ماذا فعَلت إزاء أعمال القتل الناشئة في شعب كمبوديا..والأعمال الفظيعة التي حدثت في أوروبا ومقتل مئات الآلاف في أوغندا، أما عجز الأمم المتحدة في الصومال فأكبر شاهد على عجزها ـ ص ١١٩ ـ ١٢٠).

وتتصاعد التراجيديا مع نتنياهو حين سماعه بالعنصرية الصهيونية، دون أن يأتي على حقيقة تاريخية واحدة، من حقائق جذور العنصرية في التاريخ اليهودي سواء الديني منه أو السياسي.

لنبدأ مع الفيلسوف الفرنسي جان جاك روسو، الذي غالباً ما يحبُّ نتنياهو أن يقتطف المفيد من أقواله، إذ ماذا يعلق على نظرة اليهود لشعوب الجنس البشري:

(إن ربكم ليس ربنا، لأن الذي يختار لنفسه شعباً واحداً، ويبعد عنه سائر أبناء الجنس البشري، لايمكن أن يكون الأب المشترك لجميع الناس)(*).

لقد بلوّر نبيُّ اليهود عزرا، اتجاه التعصب العنصري حين نادى بمحاربة الزواج المختلط، وتطليق الأغيار (من غير اليهود)، وشدّدَ على نقاء العنصر بدءاً من عالم الحيوان والنبات إلى عالم الإنسان، وفي القرون الوسطى، جعل الحاخاميون حداً بين اليهودي وغير اليهودي بشرح مفهوم الله عن

(*) أورده برنار غرانوتييه، في كتابه إسرائيل سبب محتمل لحرب عالمية ثالثة.

الشعب المختار، وأشار الشاعر اليهودي الأندلسي يهودا بن هاليفي في القرن الثاني عشر ميلادي، في كتابه المعنون بـ (الخزري)، إلى النواحي الجسدية التي يتمتع بها اليهود كذلك إلى (الدم المفضّل) الذي يجري في عروقهم.. أما الزواج المختلط فسيلقى عقوبته في الأولاد والأحفاد.. وقد نادى هاليفي بالخلاص اليهودي من الشتات والعودة إلى فلسطين أرض الأجداد... وقد كان لأفكار بن هاليفي دور الرافعة بالنسبة لحركة هرتزل الصهيونية، كما كان لها تأثيرها على كتابات المفكر الصهيوني مارتن بوبر.

في الحركة الصهيونية نفسها، نشأ اتجاهان متعارضان، وقد نادى الأول بالإيمان والأخوة والمساواة وخلق عالم متماثل تعيش فيه البشرية كأسرة واحدة.. فيما واظب الاتجاه الثاني على المناداة بالنقاء العنصري والتمايز على أساس الأعراق، وقد اختلف المنظرّون العنصريون في نظرتهم للتطورات العلمية في القرن التاسع عشر، ولاسيما إلى نظرية داروين حول فكرة تنازع البقاء وبقاء الأصلح، فأعطوا العنصرية مظاهر وتفسيرات علمية جعلتها مقبولة لدى كبار فلاسفة القرن ومفكريه، وأصبحت هي الفكرة الرائجة في عالم الاجتماع والسياسة، ونشأ ما يُسمى بالصحة العرقية التي دعا أصحابها إلى المحافظة على نقاء العنصر بالفصل.

استعاض المفكر الصهيوني مارتن بوبر في تنظيره الخاص عن الشخصيات التيوتونية الأوروبية (المتطهرون) بشخصيات أبنياء التوراة، والتقط من الداروينية فكرة البقاء للأصلح (أو الأقوى)، وحذف منها فكرة التطور إلى الأرقى (أو إلى الأفضل)..

الدكتور آثر روبين مسؤول الاستيطان الزراعي في فلسطين، أعرب في تفسيره للداروينية وقوانين الوراثة، عن اعتقاده بتفوّق اليهود الأوروبيين لا اليهود الشرقيين، وكانت حجتّه أن الأوروبيين من اليهود حرصوا على الزواج من بنات الحاخاميين وفقهاء التلمود واللاهوت... (مما أدى إلى تركيز الذكاء وتفوق العرق اليهودي على أعراق المجتمعات الأخرى) فيما لم يفعل الشرقيون من اليهود ذلك... في الجامعات الألمانية قبل ظهور النازية بقليل، نشأ تيار البروسيين بقيادة الفيلسوف ڤون تروتشكه، وقد حرص هذا التيار على تأكيد الفروق العرقية بين البشر، كما أكد على تخلف الزنوج والنساء والأقوام الملوّنة، وانتشرت نتيجة هذه الأفكار حركات الشبيبة الألمانية المسماة (فاندد فوغل) وانتمى الشبان اليهود من الألمان بحماسة إلى (الفاندد فوغل) بصفتهم يشكلون قومية خاصة مستقلة (فولكيّه).

أسهبت موسوعة (الفون هالفالد) العنصرية في تفسير العداء لليهود كنوع من الشعور الغريزي إزاء شعب متميز، ورأى فيختة أن تغير اليهودي أمر مستحيل، والحل الوحيد هو إبعادهم إلى فلسطين، وقد عجّ الأدب العنصري الأوروبي، بعبارات (اليهودي التائه... والمنعزل... والغيتوي... واللامندمج الأبدي...) ووافقت الصهيونية على ذلك كله، حيث اعتبرت هذه التعابير، رافعة خلاص لليهودي من أوروبا... ناحوم سوكولوف وموسى هس، مفكرا الصهيونية الأبرز، قالا بنقاء العرق اليهودي الذي لاتشوبه شائبة (حتى لو اعتنق اليهودي ديناً آخر فإن ذلك لن يغيّر من شعره الأسود ولن يصلح أنفه المعقوف ـ موسى هس).

كذلك كتب القاضي اليهودي - الأمريكي برانديز وهو شديد الميل للصهيونية شديد العداء للعرب، مايلي:

(إن الدم اليهودي الذي يجري في عروق بني إسرائيل، يحمل تفوقاً معنوياً وفكرياً، وتلك هي عبقرية خاصة باليهود، وحتى لو تخلوا عن ديانتهم اليهودية أمثال ماركس ودزرائيلي وسبينوزا).

ولم تكتف الصهيونية بادعاء نقاء العنصر اليهودي، وإنما مضت خطوات على الطريق باتجاه تحقق الإيمان من فكرة توراتية تقول بشعب الله المختار... إنَّ من أبرز الرواد الأوائل الذين تأثروا بأفكار نيتشه مَثلاً هم: آحاد هاعام ريتودور هرتزل وماكس نورداو وحاييم وايزمن... خاصة تلك النظرية النيتشوية القائلة بانقلاب القيم، فقد تمت الدعوة إلى نبذ التعاليم التقليدية وأسلوب الخنوع والتقيّة والرجوع إلى حياة البطولات القديمة التي ألهمت العبرانيين الأوائل..

فآحاد هاعام دعا إلى (مقلوب) النتشوية لتناسب التراث اليهودي، بحيث تحلّ شخصية (الزاهد، الصادق، المتمسك بالورع اليهودي). محل شخصية البطل السوبرماني الذي تغنى به نيتشه، فيما على الأخلاق التوراتية أن تحل محل فضائل القوة الآرية، بما يعطي اليهود ميزة الارتقاء فتجعلهم قبلة أنظار العالم. وقد وافق آحاد هاعام على رأي نيتشه القائل بحل المشكلة اليهودية عن طريق إبعادهم عن أوروبا إلى فلسطين، وذلك لإعطائهم فرصة أخرى للإضطلاع برسالتهم بصفتهم الشعب الأرقى، كما أكد هاعام على ضرورة التفاضل بين الشعوب.

بالنسبة إلى ماكس نورداو توأم هرتزل في بناء الصهيونية، فقد عبّر في كتابه الانحطاط عن ميول نيتشوية صريحة، حين شنّ هجومه العنيف ضد الكتّاب الإنسانيين والتقدميين أمثال زولا وبلزاك وهوبتمان... كما لم يوفّر تولستوي وإبسن، للمكانة التي أعطياها للمرأة في أدبهما (إذ أن المرأة غالباً ما تحظى بمكانة ثانوية لدى العنصريين). كما هاجم نورداو (الواقعية)، كتيار لابد أن يؤول إلى الانحاطاط وتدمير كيان الأصحّاء...

أما هرتزل فإن يومياته تكشف عن شغفٍ عميق بأفكار نيتشه رغم انكاره لها، فكم من المرات اعتبر هرتزل بأن الديمقراطية هراء، وأن الدبلوماسية الناجحة هي الدبلوماسية السرية بعيداً عن مماحكات البرلمانات أو الرأي العام، وقد ركّز على اتباع أسلوب القوة (لأن القوة هي التي تصنع الحق)، كما ألحّ على ضرورة عسكرة إسرائيل في المستقبل، وعدم الاكتراث بالالتزامات أو الأخلاق الدولية، وفي مناسبات شخصية فقد أعرب هرتزل عن ازدراءٍ عنصري لليهود الملوّنين...

وعن جناح التصحيحيين في الحركة الصهيونية الذي تزعّمه جابوتنسكي ومن بعده بيجن فشامير... إلى أن وصل لنتنياهو اليوم، فإن فاشيّة الحزب النازي هي المستوحاة، وقد سار التصحيحيون الصهاينة على خط مواز لتعاليم تروتشكه (صاحب نظرية تمايز الأعراق) في ألمانيا، فأخذوا عنه جميع الصور الاستخفافية بالمجتمع الدولي والمواثيق والأعراف... كما ضمنّوا خططهم الجهنّمية بتلاوين من الإرهاب والابتزاز من جهة، والافساد عن طريق الرشوة واستخدام عنصر النساء في المهمات السرية من جهة أخرى (حيث الضرورات تبيح المحظورات)، إنها مجموع الأفكار التي تنظر (للآخر) نظرة احتقار واستخفاف.

إن الصورة الفاضحة للعنصرية الصهيونية ـ التي يغضب نتنياهو لسيرتها ـ كانت قد تجلّت بموضوعين رئيسين لا يمكن لأي إسرائيلي إنكارهما:

أولاً ـ ما أتى عليه تشريع قانون العودة الإسرائيلي.

ثانيا ـ ما نصَّت عليه قوانين العمل الإسرائيلية مع بداية تأسيس الدولة. واختصاراً، فإن قانون العودة مشحون بالأساس العنصري الذي يقوم عليه، فلليهودي حق المجيء إلى فلسطين من أية بقعة من بقاع العالم، ولكن ليس أي يهودي، ومن هنا نشب سؤال أثار النزاع في المجتمع الإسرائيلي نفسه، فقد جاء في التعريف حول مَن هو اليهودي؟ وكان الجواب عملياً يقول: (إن السلطات الإسرائيلية تشدد على موضوع الوراثة ورابطة الدم التي تعود إلى أربعة أجيال من أمهات يهوديات) لكن الصحافة من أجل السجل، آثرت الاختصار فقالت بأن اليهودي هو المولود من أم يهودية... وفي قانون العودة أيضاً ما يشير صراحة إلى رفض عودة العربي الذي ولد في فلسطين وحاز على هوية فلسطينية حتى لو أثبت بأن له ممتلكاته الشرعية في فلسطين.

بالنسبة للعربي الذي يعيش داخل فلسطين المحتلة (١٩٤٨)، ففي البداية، مُنع العربي من العمل في أي نشاط زراعي أو صناعي أو خدماتي تقوم عليه مؤسسات يهودية، كما مُنع من الانتساب إلى نقابات العمال (الهستدروت)، وفي جميع الأحوال فإن حقوقه أدنى من حقوق العامل اليهودي... وقد قطعت وزارة الزراعة الإسرائيلية (شباط ١٩٧٦) الماء عن بعض المستعمرات اليهودية، لما نُمي إليها بأن عمالاً عرب يعملون في هذه المستعمرات..

أما تعبير (العمل الأسود) في إسرائيل، فإنه يعني أدنى الأجور لأدنى الأعمال، علماً بأن القائمين على (الكناسة) في أوروبا يتقاضون رواتب عالية إذا ما قورنت بمداخيل الوظائف الكلاسيكية الوسطى..

ومن الغريب أنه في العام ١٩٧١ أجرت صحيفة عبرية استفتاء حول الفوارق بين العربي واليهودي، فكانت النسب التالية:

- ٧٤ بالمئة من يهود إسرائيل يعتقدون بأن العربي أقل ذكاء.
- ٨٠ بالمئة من يهود إسرائيل يعتقدون بأن العربي أقل شجاعة.
- ٦٧ بالمئة من يهود إسرائيل يعتقدون بأن العربي أقل إنسانية.

الا تدل هذه النتائج على انعكاس التربية الصهيونية، ذات الجذور الضاربة في المجتمع الإسرائيلي؟!

لايتوقف التمييز العنصري بالنسبة للأشكناز عموماً (يهود أوروبا) على العرب وحدهم، إذ هناك تمييز آخر ضد يهود السفارديم (اليهود الشرقيين)، كذلك ضد الملّونين من اليهود..

ويعزو يهود أوروبا ذلك إلى التخلّف، فحتى العام ١٩٧٠ كان هناك مايربو على ربع مليون يهودي شرقي لايجيدون القراءة أو الكتابة، وبالرغم من أن نسبة اليهود الشرقيين إلى الغربيين تزيد على ٦٠ بالمئة من مجموع التعداد البشري اليهودي في إسرائيل، ومع ذلك فإن

عدد المتخرجيّن من الجامعات اليهودية (العام نفسه)، لم يرتفع فوق نسبة ٢ بالمئة من مجموع الخريجين..

أما نسبة الشرقيين إلى الغربيين في الوظائف العليا، خاصة مناصب الجيش والأمن، فشيء يدعو إلى الرثاء، وقد لاقى أهارون أبو حصيرة، وزير الشؤون الدينية، أشد أنواع العنت من يهود الأشكناز لا لشيء وإنما لأصله المغربي...

وقد دوّت فضيحة أبو حصيرة في أرجاء إسرائيل كلها، فعمد يهود المغرب إلى رفع صورة الملك محمد الخامس في مظاهراتهم وبيوتهم، كما خرج إلى الوجود حركات سياسية تنم عن التحزب لليهود الشرقيين، وكان من أشهرها حركة الفهود السود التي اتبعت أسلوباً صدامياً مع متغطرسي الاشكناز، كذلك حزب (التامي) وهو اختصار لاسم حركة التقاليد الإسرائيلية الذي يمثل اليهود الشرقيين فقط، وقد أصبت الأوساط الرسمية الإسرائيلية بالهلع، نتيجة شعورها بتبلور انقسام عنصري في البلاد. لقد أدت العقيدة الصهيونية في أسسها ومفاهيمها وممارساتها إلى اقتناع العالم بأن (الصهيونية شكل من أشكال العنصرية والتمييز العنصري). ووفق تعريف الأمم المتحدة للتمييز العنصري، فإن جنوب أفريقيا وإسرائيل، كانتا في مقدمة الدول التي يطالها هذا التعريف(*).

لم يكن قرار الجمعية العمومية للأمم المتحدة، الذي قرن الصهيونية بالعنصرية، هو الأول من نوعه في العالم، بل لعل القرار نفسه كان نتاج مؤتمرات عالمية سبقته، إذ هناك مؤتمر وزراء خارجية الدول الإسلامية الذي انعقد في العام ١٩٧٠ في جدة، وهو يمثل زهاء ثلاثمئة مليون مسلم في هذا العالم.

كما أن هناك إعلان المكسيك الذي أصدره المؤتمر العالمي للسنة الدولية للمرأة (حيث نادى بإزالة كافة أشكال الاستعمار، والاستعمار الجديد والاحتلال والصهيونية والتمييز العنصري..) وقد انعقد المؤتمر في الشهر السادس من العام ١٩٧٥ في العاصمة المكسيكية.

هناك قرار منظمة الوحدة الأفريقية الذي انعقد في العام ١٩٧٥ الشهر السابع منه، وقد أدانت المنظمة في كامبالا عاصمة أوغندا (النظام العنصري الحاكم في فلسطين المحتلة). وهناك الإعلان السياسي لمؤتمر وزراء خارجية الدول غير المنحازة الذي انعقد في ليما عاصمة البيرو في الشهر الثامن من العام ١٩٧٥ ودان الصهيونية بصفتها تحمل في ثناياها أيديولوجية عنصرية. وبعد اتخاذ القرار ٣٣٧٩ من قبل الجمعية العمومية انعقدت في طرابلس ـ ليبيا ندوة ضمّت ثمانين دولة عالمية وكان من بين المشاركين اليهود الكاتب الشهير ألفرد لينتتال و ج. نوبيرغر العضو في منظمة (ناطوري كرتا) اليهودية، كذلك الصحفي البريطاني مايك أشلي، ومثّل السيد نصير عارودي اليهود الشرقيين في الندوة. أما الأبحاث الهامة والجديّة، فقد قدمها كبار الكتاب من الولايات المتحدة الأمريكية وغيرها على النحو التالي:

(*) إن التمييز العنصري هو كل تمييز أو استثناء أو تقييد أو تفضيل يقوم على أساس العرق أو اللون أو النسب أو الأصل القومي أو الديني، ويستهدف أو يستتبع تعطيل أو عرقلة الإعتراف بحقوق الإنسان والحريات أو التمتع بها وممارستها على قدم المساواة في جميع ميادين الحياة العامة ـ الأمم المتحدة.

١ ـ بحث بعنوان الصهيونية والعنصرية ـ أبعاد وتصورات متباينة للكاتب همفري وولتز (الولايات المتحدة).

٢ ـ بحث بعنوان الصهيونية واليهود واليهودية للكاتب جوزيف ريان (الولايات المتحدة).

٣ ـ بحث بعنوان إسرائيل وأفريقيا للكاتب ريتشارد ستيغنز، (الولايات المتحدة).

٤ ـ الصهيونية السياسية ـ نقدٌ يهودي بقلم الكاتب غاري سميت، (الولايات المتحدة).

٥ ـ العنصرية مبدأ أساسي في الصهونية، للكاتب البلغاري أستاذ التاريخ في أكاديمية العلوم ـ صوفيا. الدكتور ستيفان غورانوف.

٦ ـ الصندوق القومي اليهودي ـ أداة للتفرقة. للكاتب الأمريكي لولترليهن. الأستاذ في جامعة بيرزيت.

٧ ـ طرد الشعب الفلسطيني للكاتب الانكليزي آ. س. فورست.

٨ ـ الصهيونية والإمبريالية. لأستاذ التاريخ في الجامعة الكاثوليكية في بلجيكا الدكتور لغاي باجوا.

٩ ـ دور إسرائيل في خدمة الإمبريالية. للكاتب التركي توركايا آتوف أستاذ الحقوق في جامعة أنقرة.

وفي ندوة بغداد تحت عنوان (الصهيونية كظاهرة عنصرية) بتاريخ من ٨ ـ ١٢ عام ١٩٧٦، شاركت ٤٦ دولة في تقديم الأبحاث الغنية بالشواهد والأرقام، وكان من أبرز الأبحاث:

١ ـ الإيديولوجية العنصرية وتطابقها مع المفاهيم الصهيونية، للكاتبة الروسية هيلينا مودر جستكايا.

٢ ـ التطورات المعتدلة الأولى للصهيونية وأفولها أمام السياسات الواقعية للمنظمة الصهيونية. للكاتب الأمريكي آلن تايلر.

٣ ـ الصهيونية في الممارسة. للكاتب الإنكليزي مايكل آدامز.

٤ ـ التعاون بين العنصريتين: جنوب أفريقيا وإسرائيل للكاتب الإنكليزي بيتر هالر.

٥ ـ دراسة مقارنة لنظامي روديسيا وتل أبيب للكاتب الأمريكي ريتشارد ستيفنز.

وقد أشاد بيان الندوة في الختام، باليهود المعادين للعنصرية من أي منشأ كان، ودعا العرب منهم إلى العودةإلى مواطنهم الأولى، حيث ولدوا في بغداد أو دمشق أو الاسكندرية أو الرباط أو تونس..

لم يعد أمامنا في نهاية المطاف، سوى الإصغاء لصوت الحكمة، الذي أطلقه الأستاذ ماغنس رئيس الجامعة العبرية في القدس، حين قال: (إن صوت اليهود الجديد ينطلق الآن من أفواه البنادق، لكأننا أمام توراة جديدة على أرض إسرائيل، لقد حَكَمَ جنون القوة هذا العالم، فلتحمنا السماء من أن تحكم اليهودية وشعب إسرائيل بهذا الجنون نفسه، إنها يهودية وثنية تلك التي تسيطر على

معظم يهود الشتات، لقد فكرنا أيام الصهيونية الرومانسية بأن صهيون يجب أن يُقتدى بالعدل والإنصاف، إن يهود أمريكا هم المسؤولون عن هذا الخطأ البشع، عن هذا التحول عن جوهر العقيدة الإنسانية... حتى أولئك الذين لايوافقون على تصرفات قيادتنا الوثنية، نراهم لا حول لهم ولا قوة، لقد تخدّر الحسّ الأخلاقي حتى أصيب) بالشلل.

○○○

(٢)

يرسم نتنياهو في فصله الثالث تحت عنوان حقيقة القضية الفلسطينية لوحة قاتمة عن تاريخ المنطقة عدا إسرائيل بالطبع، ورغم أن الفصل يقع ـ بعد ترجمته إلى اللغة العربية بالطبع ـ في حدود أربعين صفحة من القطع الكبير، إلا أن الفكرة الرئيسية التي يتمحور حولها واحدة، وهي أن الصراع العربي الإسرائيلي ليس هو القضية المركزية في المنطقة، وكحاطب ليل، يهوي نتنياهو بفأسه على أشجار المنطقة من المحيط إلى الخليج، حيث الانسجام والتسلسل الزمني للأحداث يتلاشى في خضم التنقل المتسارع للأحداث، في الوقت الذي توضع فيه حرب الخليج الثانية في العام ١٩٩١ قبل إعدام حسني الزعيم في العام ١٩٤٩، وفي الوقت الذي توضع فيه أحداث اليمن في العام ١٩٦٦ قبل إعدامات الإخوان المسلمين في مصر في العام ١٩٥٤ مثلاً.. وهكذا.

إلا أن نتنياهو يعود إلى التكرار في كل حين بأسلوب مغاير، وعلى مايبدو فإن هذا الأسلوب الديماغوجي أو الاستخفافي في الكتابة، يساعد على بلبلة القارئ العادي، بحيث أن هذه الجلبة كلها تريد أن تذهب إلى استنتاج واحد: لا علاقة لإسرائيل بصراعات المنطقة من قريب أو بعيد.

ما علينا.. ففي مثل هذه الحالة ليس لنا سوى أن نسير مع تعرجّات أسلوبه حتى نهاية الشوط، فنتنياهو يريد لنا أن نضيع، وما أظن أننا سنستجيب لذلك، غير أنه ثمة إشارة نجد من واجبنا أن نفصح عنها منذ البداية: إننا ننطلق في ردّنا من مواقع الشعب لا من مواقع الحكّام، فإذا ماقيل بأن استمرار الحكام على هذا النحو، هو انعكاس لرضى الشعوب، فإننا نقول بأن استمرار الشتات اليهودي لمدة ألفي سنة في التاريخ، هو انعكاس لرضى اليهود بالشتات.. وهكذا.

إن أول ما يمكن إدانته في أسلوب نتنياهو، هو أنه يدين الأمة العربية، من خلال إدانته لأنظمتها، علماً بأن مجمل الصراعات العربية التي جاء عليها نتنياهو في فصله، إنما تتعلق بشقاء واحد، هو كرسي الحكم، الذي كرّس الغرب كل جهوده لتأجيجه، فيما هو علّة تاريخية موروثة لدينا عن الرومان أو بيزنطة في المنطقة، ومع ذلك منذ بداية الشوط، فإننا نُعلن(*)، لو أن هذه

(*) إنني أعلن باسم الشعب العربي، فأنا ابنٌ لوالد من فلسطين، ووالدة من شرق نهر الأردن، ووالد جدي لأبي من الحجاز، ووالد جدتي لأمي من شمال العراق، وبحسب لقبه الآغا، فإن من المحتمل أن يكون من الأكراد... الا تكفي هذه السلالة للحديث باسم الأمة؟!...

الأنظمة السياسية كانت انعكاساً لرضى الشعب وقبوله، لما تسنى لنتنياهو أن يولد في تل أبيب، بل لكان عليه أن يولد في موطن أجداده الحقيقيين خارج فلسطين بآلاف الأميال.

لسنا سعداء بالدفاع عن تاريخ ونشوء أنظمتنا السياسية في المنطقة، فهي بشكل أو بآخر، كانت من إنتاج الغرب، فيما سيقوم الغرب نفسه، في مرحلة لاحقة بإنتاج إسرائيل على خط مواز.

لماذا يسرد نتنياهو كل هذه التفاصيل عن اقتتال الأمة مع نفسها أو جوارها، ولا يأتي بكلمة واحدة عن أهمية المنطقة وطمع الغرب بها وعدوانه عليها ليس منذ الحملات الصليبية الأولى فحسب، ولا حملة نابليون واحتلال بريطانيا لمصر فقط، بل وخلق إسرائيل على يد الغرب أيضاً.

لماذا لم يأت نتنياهو على قرصنات البرتغال وهولندا وإسبانيا في البحار العربية، وما احتوت خلفها من أسرار الكنوز، ويكتفي بالإتيان على نتائج الصراعات العربية الداخلية دون الاتيان على أسبابها المولِّدة العميقة والتاريخية...

كيف يريد نتنياهو لمنطقةٍ منداحةٍ تتجاوز مساحتها مساحة قارة بأسرها (هناك مع تركيا وإيران بصفتهما شريكين في الأحداث، مساحة قارة تقارب ١٤ مليون كم٢ بتعداد يقارب ٢٥٠ مليون عربي ومسلم)، أن تخلو هكذا لوجه الله، من الصراعات والعنف، وهي لاتهدأ لو لجيل واحد نتيجة وطأة قدوم الغرباء إليها أو عليها؟ ووطأة النهب لخيراتها ومستقبلها. ألم يسمع بكلمات كيسنجر التي ألقاها على مسمع من الجنرال ديغول، قبيل حرب حزيران بقليل (سيدي الجنرال، لقد أمكن بالفعل استقلال الجزائر، كذلك فيتنام.. لكن المنطقة التي لايمكن لنا أن نراهن على مستقبلها هي هناك في الشرق الأوسط)...

كيف يمكن لمنطقةٍ بهذا الاتساع وهذه الكثافة أن تخلو لمدة نصف قرن كما يريد نتنياهو من الصدامات الداخلية أو الجواريّة سواء على الحدود الإقليمية (كما رسمها وغذّاها الغرب بقلمه وسلاحه) أو على الحدود الدولية مع الجوار غير العربي سواءً على الأرض (اسكندرون ـ عربستان) أو على المياه (الدجلة والفرات)؟ وشطّ العرب، وحقول النفط... الخ.

هل يريد نتنياهو للعرب، أن يتركواأجزاء من وطنهم بيد الآخر، أو أجزاء من حقّهم في المياه، أو السيادة، كي تنعم المنطقة بما فيها إسرائيل، بنعيم السكون والإزدهار والاستقرار؟..

ومع نتنياهو عن صراعات المنطقة خلال نصف قرن، ألم يعثر على المقاربة بين نصف قرن من أحداث الشرق الأوسط، وربع قرن من أحداث أوروبا قبل قليل؟

ألم تنشب حربان عالميتان في غضون ربع قرن فقط (الأولى عام ١٩١٤ والثانية عام ١٩٣٩)، كانت عشرات الأمتار فيها مقابل ألوف الجثث، فيما تؤكد السجلات العالمية على سقوط ما لايقل عن خمسٍ وخمسين مليوناً من الضحايا بل وأكثر في الحربين معاً.

لماذا الشرق دائماً وليس الغرب الذي لايتناوله نتنياهو بكلمة واحدة؟

يريد نتنياهو أن يجعل من قصة الكويت بادئة فصله ونهايته، وما بين البادئة والختام تدور

محاور نتنياهو التفصيلية حول غزارة الاقتتال العربي ـ العربي أو العربي ـ الجواري على النحو التالي:

ـ الحرب الطاحنة بين إيران والعراق (مليون قتيل).

ـ الغزو المصري لليمن (٢٥٠ ألف قتيل).

ـ الحرب الأهلية في الجزائر (مليون قتيل)!..

ـ الحرب الأهلية في لبنان (١٥٠ ألف قتيل).

ـ الحرب الأهلية في السودان (نصف مليون قتيل).

ـ حرب الخليج الثانية (أكثر من ١٠٠ ألف قتيل).

ومع ذلك ـ يقول نتنياهو ص١٣٩ ـ فإن ضحايا النزاع العربي ـ الإسرائيلي لم يزد عن سبعين ألف ضحية خلال نصف قرن من النزاع..

ومن أمثلة النزاعات العربية الداخلية التي يستخدمها نتنياهو للإتيان على تخفيض قيمة النزاع العربي ـ الإسرائيلي مثلاً:

ـ فرض الحكم المصري على سوريا في العام ١٩٥٨ (أي الوحدة السورية ـ المصرية).

ـ الصراع بين شمال اليمن وجنوبه.

ـ الصراع بين مصر والسودان.

ـ الصراع بين العراق وسوريا.

ـ الصراع بين ليبيا ومصر أيام السادات.

ـ الصراع بين ليبيا وتونس.

ـ الصراع بين الجزائر والمغرب..

ـ النزاعات الداخلية في العديد من دول الخليج واقتتال الأخوة، والآباء مع الأبناء، أو أبناء العمومة على مقعد السلطة...

ثم يخلص إلى القول:

(إن الحقيقة التي لاتغيّر الصورة البشعة لأنظمة الحكم الديكتاتورية، هي ما يجب التعرف عليها، فكي نبلّور رأياً متزناً عن السياسة في الشرق الأوسط العربي، فإنه يجب النظر إلى ظاهرة العنف التي تقوم عليها مجمل الحياة السياسية في كل الدول العربية، وهو الأسلوب الرئيسي لتصفية الخصوم الداخليين عرباً وغير عرب معاً. إنني لم أتطرق حتى الان، لذكر النزاع العربي ـ الإسرائيلي، لسبب بسيط، وهو أن هذا النزاع لا علاقة له بالنزاعات التي ذكرتها، ورغم ذلك تتركز كل المباحثات الجارية اليوم، على النزاع العربي الإسرائيلي، وهذه نتيجة مباشرة لحملة دعائية عربية تستهدف صرف الأنظار عن الأسباب الحقيقية للعنف والنزاعات المستمرة في منطقتنا، وترسيخ نظرية تفيد بأن مصدر الإضطراب في المنطقة واحد فقط، وهو ينبع من القضية الفلسطينية ـ ص١٣٦).

إن نتنياهو يحاول أن يمسكنا من المفصل الذي يؤلمنا حقاً، ولكن سنعيد التذكير بأننا سننطلق في المماحكة من موقع شعبي لاحكومي(*)، فهل ترى في جميع هذه الصراعات مايعكس نزوع الشعب التحتي؟.. بمعنى آخر، هل هناك جوهر شعبي يذهب إلى حد الموافقة على أي اقتتال عربي ـ عربي، وبسؤال ثالث، هل يوافق اليمني الشمالي على قتال أخيه الجنوبي حتى بُصرف القبيلة التي أتي عليها نتنياهو؟.

هل يحب المصري أن يقاتل شقيقة ابن صنعاء أو تعز؟...

هل ثمة ما يوحي بأن السوداني مغرم بقتال المصري أو السوداني الآخر في الجنوب.. هكذا... لمجرد الاقتتال؟

ماذا يفعل نتنياهو إذا حاولت بئر السبع أن تنفصل عن تل أبيب؟ سيقول أن هذا غير ممكن في الحياة الديمقراطية الإسرائيلية، لماذا إذن تطالب أكثرية في الشمال الإيطالي اليوم بالانفصال عن جنوبها (بما فيها الفاتيكان أيضاً)؟... هل لأن إيطاليا غير ديمقراطية في عالم الغرب أم ماذا؟..

هل ثمة نزوع حقيقي لقتال المسلم مع المسلم أي لقتال العراقي مع الإيراني... هكذا دون أسباب خارجية أو حتى (مفهومية) لوقوعها بين مفهومين متعارضين في الذهن أكثر من تعارضهما في الواقع؟. ثم هل تغمر الشعب سعادة محلية، حين يرى أبناءه وهم يقتلون على يد الحرب الأهلية الداخلية، لسبب إثني أو خارجي (وهو الأرجح على الدوام)؟

ماذا فعل بن غوريون بأصولية بيجن اليهودية عندما أراد أن يتحدى الدولة بنظامين وجيشين في إسرائيل الوليدة؟

ألم يقم بإغراق باخرة تابعة لمنظمة بيجن قبالة ساحل حيفا دون أن يسأل عن النتائج؟..

في المحصلة فإن ما نريد أن نتحقق منه، هو أن هذه الأحداث الدامية التي يجردها نتنياهو بحقيقة أحادية، لم تكن من صنع الشعب أو حتى بموافقته، علماً بأن الأحداث كلها ليست من نسيج واحد، فنتنياهو على طريقته يضع في سلة واحدة، كل الأحداث على أنها من نسق واحد، أو بدوافع واحدة، فالوحدة السورية ـ المصرية ليست على وجه التأكيد، محاولة من نظام عبد الناصر فرض نفسه على سوريا، إذ بالعكس تماماً، فإن الشعب في سوريا أولاً وبدرجة أقل في مصر ثانياً. هو الذي دفع بالأحداث باتجاه وجهها الإيجابي، فالوحدة القومية هي مطلب جماهيري واسع، ولا يقتصر ذلك على المسلم العربي، بل والمسيحي العربي أيضاً، كما أن اقتتال جنوب اليمن مع شماله هو من مخلفات السياسة الإنكليزية في المنطقة، كذلك يجري التماثل في اقتتالات جنوب السودان وشماله، أما لورنس الذي يستشهد به نتنياهو (الآن) إيجابياً، بعد أن

(*) الأفضل أن نشير إلى الأنظمة الرسمية العربية وليس الحكومات، ذلك لأن الفرق بيّنٌ جداً، فالحكومة غالباً ما تكون في النظام الرسمي العربي، أداة تنفيذ لتوجيهات أعلى، وليست هي حكومات تمسك بالمبادرة والمسؤولية الكاملة على غرار الجمهوريات أو الملكيات الغربية..

وصمه بموقف اللاسامية في فصل سابق (إذ هو على رأس المستعربين الإنكليز) فإن في كلامه ما يوحي تماماً، بطبيعة الزرع الذي أنبتته بريطانيا في المنطقة(*).

لقد وصلنا إلى نقطة لابد معها من طرح السؤال الأساس: ـ ماهو الصراع الذي استمر قائماً مئة سنة كاملة (من ١٨٩٦ ـ ١٩٦٦) وربما إلى ما بعد هذا القرن أيضاً؟..

لماذا يستمر الصراع العربي ـ الإسرائيلي عبر مئة سنة، فيما مجموع الصراعات التي جيء عليها، قد أصبحت من منسيات التاريخ، حيث ذاكرة التاريخ لاتحتفظ بما هو عرضي بصورة دائمة.. أليس لأن الصراع العربي ـ الإسرائيلي هو بالفعل مركز المشكلة العربية في المنطقة، وما نتج عن هذا الصراع من تفاعلات، تطايرت شظاياها إلى قلب المجتمعات المحلية والحروب الأهلية وحتى صراعات الجوار؟.

ألم ينتقل هذا الصراع مثلاً إلى الحرب الأهلية الدامية في لبنان، لماذا تحتج إسرائيل على دخول سوريا إلى لبنان، ولاتحتج على دخولها، وهي الغريبة في الأساس ـ إلى الأراضي اللبنانية؟..

ثم ماذا لو قلنا بسوريا الكبرى وبالهلال الخصيب أيضاً؟ أحرام علينا في عُرف نتنياهو أن نتوّحدَ ونحن الأمة الواحدة، باللغة والتاريخ والجغرافيا... فيما إسرائيل موازييك العالم، من كل أمةٍ ولون.. (حيث معك من الخزر إلى الفلاشا إلى يهود نيويورك إلى اليمن فالمغرب ففرنسا) وتقول عن نفسها بأنها أمة واحدة؟..

ولعل من الأرجح أن إخفاقنا نحن العرب في تحقيق وحدتنا حتى الآن (طبعاً بمساعي الغرب وإسرائيل) هو الذي حدا بنا للذهاب إلى حد القبول بالبسماركية، إن لم تأت الديمقراطية بخيرٍ وحدوي، ولعل هذا هو السبب المضمر للموافقة الإجماعية على الضم بالإرادة أو حتى بالقوة في أحيان أخرى... فالتجزئة في عُرفنا، هي سبب التخلّف ونتيجته بآن واحد، والتجزئة والتخلّف هما القاعدتان الأساسيتان لنكوصنا نحو التراجع والضعف والانحطاط، ونحن نلاحظ على سلّم تطورنا، اقتران المزيد من التجزية، مع تفاقم المزيد من الاستلام، فكيف يريدنا نتنياهو ـ وقد منعنا الغرب من تجاوز معضلاتنا الأساسية ـ أن نرفل بحلّة غربية قشيبة من الديمقراطية؟ ومع ذلك، فإن نقيصة فقدان الديمقراطية ليست عيباً تُرمى به الشعوب لذاتها، فالديمقراطية بحد ذاتها، هي انتصار معركة التطور الشامل في الحياة الاقتصادية والاجتماعية والإنسانية، ضد أسباب التجزئة والتخلّف والفقر، وخلال نصف قرن من الزمن، أو بصورة أدق، خلال قرن من الزمن، فقد فشل عالمنا العربي من بلوغ مرحلة الديمقراطية، لا لعلّة فيه فحسب، بل لأن المنطقة في منظور الغرب سابقاً، وفي منظور الولايات المتحدة لاحقاً، لاتسمح بقبول الرهان على مستقبلها!..

يقول جان بيير شوفنمان، وزير الدفاع الفرنسي المستقيل عشية العدوان على العراق (العام ١٩٩١) مايلي:

(*) يقول نتنياهو على لسان لورنس: إن معظم الأنظمة العربية ستكون ديكتاتورية لا ديمقراطية فيها.. وسيمر وقت طويل قبل أن تصل دولتان فقط إلى الوحدة المُغنّاة..

(لثلاث مرات في غضون قرن واحد، ابتداءً من محمد علي ومروراً بعبد الناصر وانتهاء بصدام حسين، يُحطِّم الغرب بوحشية السلاح حلم نهضة عربية، ودخولاً عريضاً إلى خط صناعة التاريخ العالمي المعاصر).

لقد انحازت الولايات المتحدة ظهير إسرائيل وسندها الأول، طوال أجيال إلى جانب الطغيان والظلم في الشرق الأوسط، ونحن نتحدّى مَن يشير إلى دعم الولايات المتحدة، لأي نضال في سبيل الديمقراطية، لأي تحرك من أجل حقوق المرأة، لأية دعوة علمانية أو مطالبة بحقوق الأقليات، وبدلاً عن ذلك، فقد قامت بمساندة وكلاء طيّعين وغير شرعيين، وأدارت الظهر لجهود الشعوب المكافحة في سبيل التحرر من الاحتلال، وموّلت أعداءهم بكل أسباب القوة والمال، وأول ما أطلقت، فقد أطلقت نزعات العسكرة في إسرائيل، ثم في إيران الشاه، وفي تركيا... وانخرطت في مبيعات أسلحة ضخمة على نطاق المنطقة بأسرها، وغذّت الحرب العراقية ـ الإيرانية مدة ثماني سنوات كاملة، ولولا ذلك، فإن هذه الحرب، كان يمكن لها أن تقف منذ سنتها الأولى، ونحن نتصور بعد حرب الخليج الثانية، وقد سيطر على العالم العربي حكّامٌ عاملون في نطاق السلم الأمريكي، بعد أن تم لها (لأمريكا) الوقوف المباشر على جميع خطوط النفط في المنطقة، مع تأمين رافعةٍ نفطية مباشرة للتأثير على أوروبا واليابان، مع وضع جدول أعمال للعالم الجديد.

لقد وقف الغرب بكل شراسته ضد تطوير أسس الديمقراطية في المنطقة، إذ أن غياب التقليد الديمقراطي لم يسقط من فراغ، فهو امتداد طويل لحياة مليئة بالمعاناة والإفقار، ظلّ الغرب يعمل لها طوال عقود بل قرون، وللتاريخ، فإن أمريكا هي المسؤول التاريخي الأول في عالم الإمبريالية الحديثة، عن تشجيع الحركات العسكرية الدكتاتورية بدءاً من أمريكا اللاتينية وحتى البحر العربي، مروراً بأفريقيا وآسيا..

فقد تمّ اقران الديمقراطية هنا، كتجربة لم تبلغ سنَّ الفطام، بكل ما هو سلبي، برجعية الأنظمة السياسية المسؤولة عن الفقر والمرض والأمية، بضياع الوحدة القومية، وخسران فلسطين، فمن باشوات أنظمة التابعين اللاحقين في أسرة محمد علي باشا، إلى الباشا الآخرفي ببغداد (نوري السعيد)، إلى الشيوخ والقبائل والسلالات في الداي والباي لشعب مولع بالحسب والنسب.. حتى لكأن المواطن العربي بات يراهن على أن هذه المظاهر جميعها، إنما كانت بسبب هذه الديمقراطية المنحولة، فظاهرية الديمقراطية، التي كان في باطنها السوء والعذاب، هي التي قُدّمت على طبق غربي خبيث، ومعنى هذا، أن الديمقراطية التي أُريد الإجهاز عليها، كمضمون ـ من قبل الغرب، ظلّت تقترن بآيات شتى، من التراجع إلى التراجع، ومن الإحباط إلى الإحباط... فالديمقراطية الحقيقية لاتتناسب مع أطماع الغرب، إذ أنها العدو الأول لمصالحه، أما ديمقراطية إسرائيل فهي أمنيّة قبل أي اعتبار آخر مما سنجده في بحث قادم..

يأسف نتنياهو على انعدام الشرعية السياسية في البلاد العربية، حيث الحاكم أصبح معنياً (باستغلال أجهزة الدولة لتأمين حياة مُرّفهة له وللمقربين منه، وأحياناً بمساعدات سخية من الأجانب المغيبين ببيقاء حكمه، أما تنكر العرب لملوكهم ودولهم وحدودهم، فهو على أية حال،

نتيجة لأزمة عامة ناجمة عن انعدام الشرعية السياسية.. وبما أن الجمهور العربي سَلّمَ ظاهرياً، بوجود الحكومات المفروضة عليه من الأوروبيين، ولما كثرت المطالبة باستبدال أنظمة الحكم الخائنة، بأنظمة عادلة أخرى، اعتقد الحكام العرب، أنه بالقوة فقط، يمكن قمع هذه المطالبات، الأمر الذي أنشأ معه وضعاً مزمناً من عدم الاستقرار ـ ص١٤١).

إنها أوروبا الأخلاقية أيها السيد نتنياهو، أوروبا فرساي التمدّن والقيم، أوروبا الثقافة والذكاء وسايكس ـ بيكو ووعد بلفور..

إن السيد نتنياهو يعترف إذن (بوجود الحكومات المفروضة على شعبنا من قبل الأوربيين).. فهل هذا يكفي؟.

فمنذ العام ١٩٢٠ أمدَّت الحكومة البريطانية ـ بعد يأسها من الشريف حسين ـ الحركة السعودية بالمال والسلاح، وهكذا انقسمت الجزيرة العربية أوّل ما انقسمت إلى شرعيتين:

الشرعية السعودية في نجد والشرعية الهاشمية في الحجاز، وفي مرحلة لاحقة، قررت بريطانيا توحيد مملكة النفط تحت راية واحدة، وهو قرار نفطي في جميع المقاييس، وهكذا صارت الجزيرة العربية كلها، هي المملكة العربية السعودية.

هذا وستتزامن الشرعية السياسية السعودية، مع إخراج الملك فيصل الأول من سوريا ليصار إلى تتويجه في العراق، (شرعية آفلة في سورية وشرعية مُنشأة في العراق)، وقد ظلّت بريطانيا وفرنسا، تطارد الشرعيات السياسية في المنطقة حتى وقت متأخر من سقوط فلسطين، وها هو حسني الزعيم الذي يستشهد بمقتله نتنياهو (إذ أن ذلك عنده يندرج من جملة الأعمال الإرهابية!..) يجيئ إلى السلطة السياسية (بعد إسقاط الشرعية السياسية قبله)، على جوادٍ أمريكي صريح... لنستمع مايقوله مايلز كوبلاند مسؤول المخابرات الأمريكية في كتابه لعبة الأمم ـ ص٧٣:

(بخصوص سوريا فقد انتهينا إلى نتيجتين، فهي مقبلة إما على ثورة يقودها الاشتراكيون ـ أكرم الحوراني ـ أو حركة عسكرية بدعم سري من جهازنا، وبالطبع كنا مع خيارنا، لقد كان انقلاب حسني الزعيم من إعدادنا وتخطيطنا، وقد حافظ الانقلاب كما رسمنا له على صبغةٍ سورية بحتة أمام الجميع)..

لقد نُزعت شرعية دستورية يقودها السيد شكري القوتلي، لتحلّ محلها (شرعية عسكرية) مجلوبة على يد الولايات المتحدة.

تابعت الولايات المتحدة بالطبع، اتفاقية التابلاين وترسيم خطوط الهدنة مع إسرائيل على يد الزعيم، إلا أن بريطانيا كانت ما زالت بعيدة عن شيخوختها، فآثرت انقلاباً آخر يأتي بالعراق إلى سوريا، وهكذا كان انقلاب العقيد سامي الحناوي..

يكتب القنصل الأمريكي في دمشق بعد وقوع انقلاب الحناوي مايلي:

(إن ثمة معارضة قوية هنا للرأي القائل بالتقارب مع العراق، فأعداء هذا الخط يعتبرون الخطوة

بأنها خطوة استعمارية بريطانية وإن هدفها وضع سوريا على مدار النفوذ البريطاني ـ الأرشيف القومي الأمريكي ٨ تشرين الأول ١٩٤٩ ـ المجموعة ٤/٨٩٠ ـ ١٠ ـ ٨٤٩).

وهكذا، (شرعية عسكرية وراء شرعية أخرى) بتدبير من الغرب والولايات المتحدة..

عام ١٩٥٤ موعد رحيل الشيشكلي من سوريا وحتى العام ١٩٥٨ فقد عاشت سوريا مرحلتها الديمقراطية القائمة على أساس الحياة النيابية البرلمانية ذات المحتوى التعددي، ومن الطبيعي أن تتعايش أحزاب شتى من اليمين إلى اليسار في ظل الدستور الذي على الجميع واجب احترامه، وخلال أربع السنوات المذكورة تعرضت سوريا إلى مؤامرات حلف بغداد (مؤامرة هيوارد ستون الشهيرة ومؤامرة الداغستاني والعقيد محمد صفا) ومؤامرات نظريات الفراغ الأمريكية كذلك الحشود التركية على الحدود الشمالية للبلاد.

عام ١٩٥٨ نزلت قوات البحرية الأمريكية ـ يؤازرها الأسطول السادس إلى الأراضي اللبنانية، ومع ثورة تموز في العراق، أصبحت بيروت قاعدة عسكرية إضافة في المنطقة أيام شرعية شمعون.

عام ١٩٧٠، ولأول مرة في تاريخها، تُنزع أغطية الرؤوس النووية الأمريكية بذريعة تحريض السوفييت ودخول السوريين إلى الأردن، ولم يكن ليفصل بين ساعات الاعداد وساعة الصفر لصدام سوري ـ إسرائيلي فوق أراضي الأردن سوى ساعات على الخط الأحمر بين موسكو وواشنطن..

في المحصلة، فإن الغرب هو المسؤول الأول عن عدم استقرار المنطقة، فقد عمد إلى ضرب مصر في العام ١٩٦٧، ثم ضرب العراق في العام ١٩٩١، لمجرد الإحساس (الكاذب) بالاقتراب من السعودية وبحار النفط العربي، وهكذا بعد الآلام على طريق الإمبراطورية إلى الهند، جاءت السويس، وبعد السويس التهب النفط في سماء المنطقة، ثم لتنتهي تراجيديا المنطقة بخلق إسرائيل، أما أن الصراع العربي ـ الإسرائيلي، لا علاقة له بما تفجّر في المنطقة من اضطرابات وصراعات فإنما هو قول يجري على عواهنه، ولا نصيب له من نزاهة التحليل، فمنذ أربعة عقود أو أكثر، والمنطقة تمور بأحداثها الداخلية والخارجية كنتيجة منطقية لزرع الكيان الإسرائيلي فيها، ويكفي أن الانقلابات العسكرية في مصر وسوريا والعراق والسودان وليبيا، ومشاريع الإنقلابات الأخرى التي لم تحظ بالنجاح، كلها كانت بسبب فلسطين، أو لنقل تجاوزاً بذريعة فلسطين، وأما أحكام الطوارئ وتعليق العمل بالدستور وانتفاء الحياة الديمقراطية وإلى آخر ما تعيشه الحياة السياسية العربية اليوم، فإنه تابع من مفهوم حالة الحرب مع إسرائيل، ومع أنّه لم يبق من حالة الحرب غير الطوارئ، فإن متطلبات هذه الحالة كانت مشروعة في البداية، وأن إسرائيل في التحليل النهائي كانت وراءها.

إن الأحداث التي يأتي عليها نتنياهو، على أنها لا علاقة لها بالصراع بين العرب وإسرائيل، تقع في صلب الاهتمامات الإسرائيلية السياسية والحربية، ولو أنها لا علاقة لها بالنزاع مع إسرائيل، إذن لماذا لم تكن الحكومات الإسرائيلية لتعرف النوم إبان وقوعها؟!...

فالحرب العراقية ـ الإيرانية كما يشير إليها نتنياهو مراراً، كانت في عمق التحليل. من مُخلفات

سياسات الشاه حليف إسرائيل على الدوام، وأكثر من هذا فإن العراق مُنع من أن يمارس كفاحه كاملاً ضد إسرائيل، بسببٍ من تهديدات الشاه للعراق، وقد قال كيسنجر بصراحة، إن أهم ميزة للمشكلة الكردية شمال العراق، هي أنها تمنع بغداد من إرسال قواتها إلى الحرب مع إسرائيل.. ولاينسى نتنياهو بأن إسرائيل نفسها كان لها أدوار في حربي الخليج الأولى والثانية، ومع أن بوش منع إسرائيل من التدخل بقوّة (أثناء حرب الخليج الثانية) إلا أن الحكومة الإسرائيلية بقيت في حالة انتظار للمكافأة:

- صواريخ باتريوت - ضمانات بعشرة مليارات دولار، ثم المكافأة الأهم، مؤتمر مدريد!.

فإذا نالت إسرائيل مثل هذه الجوائز وغيرها، إذن كيف لاتكون لها علاقة بما جرى، أما النزاع الليبي - المصري فكان ابتداؤه من إسرائيل أيضاً، عندما حطّت طائرة السادات في مطار بن غوريون في إسرائيل... وأما حرب السودان مع جنوبه فهي حرب ضد الانفصال، الذي غذّته دوائر الغرب الاستعمارية ومازالت تغذّيه حتى الآن، وحتى لو بَعُدت حرب الشمال والجنوب في السودان عن إسرائيل جغرافياً، إلا أنها تظل قريبة سياسياً، فنتنياهو يعرف، كما عرف الطاقم الإسرائيلي قبله، ماهي كميات المساعدة التي يتلقّاها قادة الحملة الانفصالية جنوب السودان من الغرب، وإسرائيل تعرف أين تضع قدمها في هذا النزاع، وبالرغم أننا لانمتلك الإحصاءات الدقيقة عن المساعدات المادية التي ترسلها إسرائيل عبر بعض الدول الأفريقية إلى جنوب السودان، إلا أن التماثل مع الغرب في الأهداف قائمٌ لا حاجة للدليل عليه، فقد سبق لإسرائيل أن فعلت الشيء ذاته شمال العراق منذ أن حطّ الرهط الإسرائيلي الاستخباراتي فوق أراضي الشمال عن طريق تركيا، أو فوق أراضي الجنوب عن طريق إيران، وما تاريخ ساسون وكمحي وأجهزة الموساد التي دقّت الأسافين وزرعت الفتن بخافيةٍ على أحد..

لقد كتب العديد من مسؤولي الدولة العبرية أو أجهزة الأمن التاريخيين مذكرات كاملة عن تاريخ نشاطاتهم التفصيلية في إيران الشاه وتركيا اينونو وعراق السعيد ومصر فاروق ولبنان شمعون... الخ، وأوضحوا أن تاريخ المخابرات الإسرائيلية - الغربية، هو تاريخ طويل ومُعقّد، فمنذ اللحظة التي قتلت فيها شتيرن اللورد الانكليزي موين في مصر (١٩٤٤) ومنذ اللحظة التي تمّ فيها اغتيال الكونت برنادوت ومنذ اللحظة التي فاحت فيها روائح فضيحة لافون، ومنذ اللحظة التي قدّم فيها ديفيد كمحي (وعد بلفور) الإسرائيلي إلى الأكراد شمال العراق، ومنذ اللحظة التي قتلت فيها إسرائيل، قادة المقاومة في فُردان (بيروت)، ثم قادة المقاومة في تونس، إلى اللحظة التي قتلت فيها العالم الكندي بول في بروكسل، وعالم الذرة المصري الدكتور المِشّد في باريس، مروراً بكوهين في سوريا، وشبكات التجسس المعقدة في الاسكندرية والقاهرة والخرطوم وعمان وبيروت... حتى الدار البيضاء على المحيط الأطلسي... ومسلسل العلاقة بالصراع العربي - الإسرائيلي قائم لاينام لا في الليل أو النهار...

إن كل صراع في المنطقة العربية، خاصة المنطقة الواقعة على واجهة إسرائيل، حتى ولو لم يتعلق بالصراع المباشرة مع إسرائيل، لابد أن يلقى نفسه وجهاً لوجه مع هذا الصراع سواءً أكان

هذا اللقاء يحمل طابعاً سلبياً أو إيجابياً، ونحن نتمنّى ألا تكون لهذه الصراعات علاقة بالصراع مع إسرائيل، إلا أن إسرائيل نفسها ترفض ألا يكون لها علاقة بكل تفاصيل ما يدور في المنطقة، فهي من عادتها المتأصلة، ألا تترك صراعاً يمر دون أن تطلّ برأسها إلى ميدان تفاعله، فلو قام الدكتور مُصدّق بتحرير نفط إيران لصالح إيران، كانت هي مع الشاه ضده، ولو قامت ثورة الآيات الإسلامية ضد الشاه، كانت هي مع الشاه وضد الآيات الإسلامية دون تردد، ولو اندلعت الحرب الإيرانية ـ العراقية لمدة ثماني سنوات، عملت على إطالة أمد الصراع حتى يأتي على الطرفين معاً، وفي هجوم العراق على الكويت كانت إسرائيل ضد العراق مباشرة، دون أن تكون بالضرورة مع الكويت، وفي حرب شمال اليمن وجنوبه، ظلت إسرائيل مع تنمية أسباب الانفصال إلى مالانهاية، وعندما نشب الصراع بين ليبيا ومصر السادات، كانت إسرائيل ضد ليبيا، دون أن تكون مع مصر بالطبع، فهي مع جنوب السودان الانفصالي ضد شماله، وهي مع انفصال أي شيء عن أي شيء آخر، وهي مع كل ما يعمل على تقطيع أوصال هذه الأمة، وإطالة أمد معاناتها بالتقسيم والتنازع والإفقار.

إن أشكال التدخل في الصراعات الدولية عديدة لاتُحصى، ولما كان طابع السريّة هو قاسمها المشترك الأعظم، فإن نتنياهو يحجم عن تبيان علاقة الصراع العربي ـ الإسرائيلي، مع كافة أشكال الصراعات الجانبية الأخرى، وبالعكس، فإنه ينكرها تماماً، لا لشيء، وإنما للبرهنة على أن المنطقة لطبيعتها الوحشية والفظّة فإنها مليئة بالدامي من الصراعات، خارج الصراع مع إسرائيل، وإذ أن القضية الفلسطينية لا علاقة لها بالقضية العربية، فإن الصراع بين الفلسطينيين والإسرائيليين هو صراع جزئي، بل هو أقل الصراعات شأناً في المنطقة(*).

ليست الحقيقة التاريخية بصفتها إنسانية ـ اجتماعية هي أبيض على أسود بالضرورة، فالخير كله النابع من فريق واحد، والشرّ كلّه الصادر عن فريق آخر، إنما هما مفهومان صادران عن مدرسة العنصرية في التاريخ، فقد علّمنا الإسلام فيما علّمنا من الفضائل، أن نحترم التهذيب والتواضع، وأن نردّ على العدوان دون إفراط (فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى ـ قرآن كريم). كما علّمنا أن نعترف بالخطأ حال وقوعه (فالاعتراف بالخطأ فضيلة)، وقد يكون في تاريخنا شأننا شأن الشعوب جميعاً، ما يدعو للإستنكار والرفض بصوت الأكثرية الجامعة، لكن أن يُساق شعبٌ بأسره إلى دائرة الاتهام، فإن التعميمية في الإدانة هنا، لاتصدر إلا عن روحٍ فاشية بل وعدوانية أيضاً، إذ ما كان لفرد أو أفراد أن يضَعوا الشعوب في قفص الاتهام، وليس من الضروري الإتيان بهذا الصدد، على تفاصيل المفارقة بين إرهاب الدولة وإرهاب الأفراد، مع إيراد النتائج الكارثية الناجمة عنهما، فإذا ما قُدّر لنا ان نفعل، فسوف تكون إسرائيل (باعتراف قضاتها وكتّابها تحقيق حول مجزرة مثلاً ـ آمنون كابليوك) سيّدة الإرهاب المشين في هذا العالم، إننا ندعو السيد نتنياهو أن يكفّ عن عقد مثل هذه المقارنات، إذ أن ذلك ليس في صالحه، فإن لم يقتنع، فما عليه سوى

(*) إن غرابة أطوار نتنياهو بادية للعيان مع استنتاجاته السياسية، فالفلسطينيون عرب إذا أريد لهم التوطين، وهم ليسوا كذلك إذا كان الصراع بينهم وبين إسرائيل.

أن يعود إلى محاضر الكنيست الإسرائيلي خلال شهري أيلول وتشرين من العام ١٩٨٢ حين تقاذف ليكوده مع حزب العمل، أبشع الشتائم جراء مسؤولية إسرائيل عن مجزرة صبرا وشاتيلا، فهل هذه المجزرة (زهاء ٣٥٠٠ ضحية) لا علاقة لها بالصراع العربي - الإسرائيلي أيضاً(*)؟

إن مجزرة واحدة، مثل مجزرة دير ياسين (٢٦٠ قتيلاً جُلّهم من النساء والأطفال والشيوخ) أو مجزرة أحدث مثل مجزرة قانا، تعادل كل ما أخطأ به الفلسطينيون، حين جنحوا لأسباب تتصل بسياسات القهر والإذلال والإفقار الممارسة ضدهم، إلى خطف الطائرات المدنية في هذا العالم، فإذا ما احتسبنا عدد ضحايا الطائرات المختطفة (حيث الاختطاف غالباً لإعلان الاحتجاج لا لممارسة القتل) إلى عدد ضحايا مجزرة قانا وحدها، لكان مجموع ضحايا الاختطاف إلى مجموع ضحايا مجزرة قانا، يُمثّل نسبة واحد إلى عشرة لصالح الإرهاب الإسرائيلي... فكيف إذا أضفنا مجموع الكوارث في دير ياسين وقبية ونحالين والسموع وبحر البقر.. إلى آخر السجل الطافح بالدم العربي، على يد آلة الحرب الوحشية لدولة إسرائيل؟

سيستخرج نتنياهو من برمجة كومبيوتره الحديث، قائمةً بأعمال العنف في الشرق الأوسط لشهر نيسان فقط من العام ١٩٨٥، لابد من إيرادها كما هي على نحو ما خطّه في كتابه:

١ نيسان - اكتشفت مصر مؤامرة ليبية ضدها، كما خطفت منظمة أمل طائرة لبنانية.

٢ نيسان - مقتل قس هولندي في لبنان - ومقتل ١٢٠ جندياً مغربياً في الصحراء الغربية.

٣ نيسان - مقتل ٥٤ شخصاً في معارك وقعت في صيدا - كما قصف العراق بطائراته مدينة طهران.

٤ نيسان - مهاجمة طائرة أردنية في أثينا من قبل منظمة أيلول الأسود. كما أن العراق أسقط طائرتين إيرانيتين، كما أن عملاء سوريا هاجموا السفارة الأردنية في روما.

٦ نيسان - انقلاب في السودان.

١٢ نيسان - مقتل ١٢ شخصاً بانفجار قنبلة وضعها رجال الجهاد الإسلامي في مطعم بمدريد.

١٣ نيسان - محاولة اغتيال إمام لبناني.

١٦ نيسان - نجاة وزير نفط الإمارات من محاولة لاغتياله - كما أن العراق أسقط طائرة إيرانية.

١٧ نيسان - منظمة أمل تحاصر مخيمات الفلسطينيين في لبنان.

١٨ نيسان - تدمير مقر قيادة (المرابطون) في طرابلس.

(*) لقد لطّخ آرييل شارون وأمير دروري وجنرالات آخرون غيرهما، سمعة إسرائيل بالوحل، حيث دارت أحداث المجزرة البشعة تحت سمع وبصر بل مؤازرة هؤلاء الجنرالات.. فيردّ شارون على المُعارِضِ شمعون بيريز آنذاك:

- أنت يا سيد بيريز، عندما كنت وزيراً للدفاع، أين كان ضباط جيش الدفاع حين وقوع مذابح تل الزعتر، أتحداك أن تقول أين كانوا، وماذا كانوا يفعلون هناك؟ - الكنيست الإسرائيلي - خريف العام ١٩٨٢.

٢٣ نيسان ـ أسقط العراق ثلاث طائرات إيرانية.

٣٠ نيسان ـ اكتشاف مؤامرة عراقية لمهاجمة سفارتي سوريا وليبيا. ويعلق نتنياهو (منذ عشرات السنين والشرق الأوسط هو المنطقة الأكثر عنفاً على وجه الكرة الأرضية)..

ولدى إحصاء عدد الضحايا حسب قائمة نتنياهو الممتدة من مدريد إلى طهران فمدينة صيدا في لبنان، فإن الحاصل الجمعي هو ١٨٧ ضحيّة، ومع افتراض أن العدد الآخر الذي لم يستطع نتنياهو جمعه أو إيراده عن عمد، نتيجة قصف الطائرات العراقية لمدينة طهران، أو نتيجة صراع أمل مع المخيمات الفلسطينية... الخ هو ألف ضحية أخرى، فإن ضحايا أعمال العنف خلال شهر نيسان سيكون افتراضياً زهاء ١٢٠٠ ضحيّة.. فما رأي نتنياهو بشهر مماثل سقط خلاله ثلاثة آلاف قتيل وتسعة آلاف جريح، على يد إسرائيل؟ إنه شهر حزيران من العام ١٩٨٢، أما المحصلة النهائية بعد ثمانين يوماً من الغزو المسمى بخطة (سلامة الجليل) فقد كانت دامية:

- ١٨٠٠٠ قتيل بين فلسطيني ولبناني وسوري.
- ٣٠٠٠٠ جريح خرجوا من الحياة الكريمة للإنسان إلى حياة الكآبة والاستعفاء والتقاعد..

أما المصادر الإسرائيلية فقدّمت ٣٥٠ من القتلي وقرابة ٢٠٠٠ من الجرحى الإسرائيليين وكل هذا العنف في الشرق الأوسط، جرى في غضون أقل من ثلاثة شهور، فيما لايتحدث نتنياهو عن مجريات هذا العنف ولا عن أسبابه والمبادرين إليه.. سيقول نتنياهو بالتأكيد، ولكنها الحرب، حرب الحملة الوقائية للدفاع عن أمن إسرائيل، لكنه يتجاهل الأمن والأمان لكل شعوب المنطقة على التوازي، وفي جميع الأحوال، أليست الحرب بمعناها النهائي هي العنف الأشد شراسة من أي عنف فردي آخر، وغير ذرائع لبنان، مَن هو الذي بادر إلى الحرب في العام ١٩٥٦، مَن هو الذي خرج إليها في العام ١٩٦٧ وكذلك في العام ١٩٨٢، أليس هو (جيش الدفاع الإسرائيلي) الذي ما كان مدافعاً بل مهاجماً معتدياً في جميع المراحل... بالعودة إلى قائمة نتنياهو الكومبيوترية (عن شهر نيسان عام ١٩٨٥)، فإننا نلاحظ بأنه يختار حدَثاً ما، من مكان يمتد من الدنيا إلى آخر الدنيا الأخرى ليضعه على فاتورة الشرق الأوسط، فهو في قائمته لايوفر الصحراء المغربية، ولابغداد أو طهران، ولا أثينا أو روما فمدريد، ولا بيروت أو طرابلس أو صيدا فالخرطوم، فإذا كان الأمر كذلك، إذن لماذا لانختار بدورنا حوادث العنف التي جرت في إسرائيل وحدها، وعلى يد إسرائيليين ـ لاغيرهم ـ حسب اعتراف نشرة: (الرسالة الإخبارية اليهودية ـ نيويورك، المجلد الثالث عشر ـ العدد الثامن بتاريخ ١٥ نيسان ١٩٥٧).

إليكم ما تقوله هذه النشرة: ـ

١ ـ في العام ١٩٤٨ أغتيل الكونت برنادوت.

٢ ـ في العام ١٩٥٠ أقدم شبان على إحراق مسرح رامات جان.

٣ ـ في العام ١٩٥٢ وضعت قنبلة في مكتب الوزير بنكس.

٤ ـ في العام ١٩٥٢ وضعت قنبلة في السفارة التشيكية.

٥ ـ في العام ١٩٥٢ وضع الشاب اليهودي دون شلانسكي حسب اعترافه قنبلة في وزارة الخارجية الإسرائيلية.

٦ ـ في العام ١٩٥٢ اكتُشفت قنابل موقوتة في مقر صحيفة أوليم هيس.

٧ ـ في العام ١٩٥٣ وجدت مجموعة كبيرة من الألغام في ميناء يافا وتبيّن أن الفعلة هم من الشبان اليهود.

٨ ـ بعد شهر من الحادث أعلاه (ميناء يافا)، اعتقل شاب يهودي يحمل كيساً من القنابل في ميناء حيفا.

٩ ـ في العام ١٩٥٣ ألقي القبض على شابين يحاولان زرع ألغام تحت مبنى وزارة التربية اليهودية.

١٠ ـ عام ١٩٥٣ أحرق شبان يهود سيارة السفير السوفييتي في تل أبيب.

١١ ـ بعد شهر واحد من إحراق سيارة السفير السوفييتي، تم إلقاء قنابل على مبنى السفارة السوفيتية نفسها.

١٢ ـ في العام ١٩٥٣ اعتدت مجموعة من الشبان اليهود، على الموسيقار اليهودي جاشا حيفظ، وحاولت المجموعة كسر أصابع الموسيقار لأنه عزف قطعاً موسيقية ألمانية لبيتهوفن.

١٣ ـ عام ١٩٥٥ انفجرت ألغام تحت مطبعة جريدة إسرائيل، وقد اعتُقل الفاعلون وقدّموا إلى المحاكمة وكانوا من الشبيبة اليهودية.

١٤ ـ عام ١٩٥٧ أوقفت محاولة في نهاية إعدادها لتفجير مقر المنظمة الصهيونية الأمريكية، كذلك وضعت قنبلة في حديقة منزل رئيس بلدية تل أبيب.

١٥ ـ عام ١٩٥٧ تمّ اغتيال الدكتور كاستنر بتهمة تواطئه مع النازية خلال الحرب الثانية.

١٦ ـ تشرين الأول ١٩٥٧، ألقيت قنبلة على الكنيست الإسرائيلي من قبل شبان متطرفين (يهود)، مما أدى إلى إصابة بن غوريون وعدد آخر من الوزراء بجراح.

وهكذا يجد نتنياهو أن العنف في الشرق الأوسط ليس مقصوراً على العرب، بل له ميادين شتى غير عربية، ولعل أهم ميدان سببي وتسبيبي لانتشاره هو إسرائيل نفسها لا غيرها.. أما الأرقام التي يقدمها نتنياهو عن ضحايا النزاع العربي ـ الإسرائيلي خلال خمسين عاماً من قيامها، فهي كالعادة مضغوطة بملزمة تاريخ إسرائيل، وكما الصراع العربي ـ الإسرائيلي أقل الصراعات شأناً في المنطقة، فإن ضحايا هذا الصراع، يجب أن يتماهوا مع ضآلته بل وضآلة النتائج المترتبة عليه، (وهكذا فإن الصراع قد أودى بحياة سبعين ألفاً خلال خمسين عاماً، فيما يتجاهل العالم نزاعات دامية في الشرق الأوسط أودت بحياة الملايين من الأشخاص ـ ١٣٩).

يمكن الاكتفاء هنا بثلاث جبهات تتوافر الحقائق الكافية عن حجم تضحياتها، إذ ما بين بداية المقاومة على أرض فلسطين وحتى العام ١٩٩٣ قدّم الشعب الفلسطيني:

٢٦١٠٠٠ شهيد و ١٨٦٠٠٠ جريح و ١٦١٠٠٠ معوق.

كما أن قرابة مليونين من الفلسطينيين اضطروا إلى الخروج من فلسطين، وتحوّلوا مع عائلاتهم إلى لاجئين، أمّا الذين خرجوا وأُخرجوا، فأصبحوا الآن خمسة ملايين، وبالضبط خمسة ملايين وأربعمئة ألف نسمة في أرجاء العالم.

ومابين العام ١٩٤٨ وحتى العام ١٩٩٣ كانت التكاليف فادحة على أصغر بلد عربي هو لبنان، فقد وصلت به مضاعفات الصراع العربي ـ الإسرائيلي إلى حد الحرب الأهلية وخرج منها بعد أن قدّم: ٩٠٠٠٠ شهيد و ١١٥٠٠٠ جريح و ٩٦٢٧ معوق، واضطر ٨٧٥٠٠٠ من مواطنيه إلى الهجرة خارج بلدهم..

ومابين العام ١٩٤٨ وحتى العام ١٩٧٣ فإن أكبر البلاد العربية مصر، وهو الذي تحمّل قيادة الجهد العربي قدّم:

٤٩٠٠٠ شهيد و ٧٣٠٠٠ جريح و ٦١٠٠٠ معوق.

ثم إن أكثر من مليوني مواطن مصري من منطقة قناة السويس، اضطروا إلى الهجرة من بيوتهم، وإن بقيت هجرتهم داخل وطنهم مرتين عام ١٩٥٦ وعام ١٩٦٧.

(وهناك بالتأكيد تكاليف كبيرة وقعت على بلاد عربية أخرى مثل سوريا والعراق، لكن الأرقام الدقيقة ليست متوفرة، وربما أن التكاليف المعروفة بالنسبة لفلسطين بؤرة الصراع، ولبنان أصغر البلدان ومصر أكبرها، تعطي على نحو ما، فكرة يُقاس عليها حيث لا تتوافر المعلومات...

وكانت هناك تكاليف أخرى للموقف من المقدّسات والمحرّمات ومع ذلك فإن تكاليف الدم تبقى أغلى في كل الأحوال من أي تكاليف يكون حسابها بالوقت والأعصاب والأموال ـ هيكل ـ المفاوضات السرية ـ دار الشروق ص٢٦).

□ □ □

الفصل الثالث
عن قلب الحقيقة وحصان طروادة.

حين الحديث عن التوطين، فإن الفلسطينيين عربٌ بكل المعاني، وإذا دار الحديث عن النزاعات العربية ـ العربية، فإن الصراع الفلسطيني ـ الإسرائيلي لا علاقة له بكل ما يدور.

يخوض نتنياهو حرباً لا خصم له فيها، ومثلما المنطقة العربية ظلّت مستباحة لحروبه ومشاريعه، والتي هي حروب الغرب ومشاريعه، فإن أدواته تجري في التاريخ كجريان السكين في الزبدة، فطالما أن القوة هي صانعة الحقائق النهائية على الأرض، فما على التاريخ إلا أن يصدع لهذه المشيئة ولا شيء آخر..

فنتنياهو المتورّم من تاريخ بريطانيا مع الحركة الصهيونية(*)، ومن لا ساميّة الانكليزي وسخريته، فإنه مع ذلك يستعير سخرية الانكليزي نفسه، حين يصف بأن الدعاية العربية العالمية، (وكأن للعرب دعاية موحدة وفاعلة في عالم الغرب) تمكّنت في يوم، من قبل حقيقة السبب والمسبب إذ حوّلت (جالوت العربي إلى داوود الفلسطيني وداوود الإسرائيلي إلى داوود الصهيوني ـ الفصل الرابع ص١٦٣) وحيث أن للمنتصر سخريته أيضاً، فإننا نقبل هذه السخرية باتجاه محاكمة غير ساخرة، فإذا كان جالوت عربياً، فنحن إذن إزاء تاريخ عربي سابق في فلسطين، وإذا كان داوود فلسطينياً، فإن محلّيته الفلسطينيةَ لا تتعارض مع (عربية) جالوت الكنعانية أو العمالقّية، حتى ولو كان الصراع يجري على الإيمان بين التوحيد والشرك، فقريش مثلاً، لم تؤمن كلها بالإسلام، وكان من عتاة الرافضين للإسلام، أقارب للرسول ﷺ، لكن ذلك لم يمنع قريشاً، في توحيدها وشركها، من أن تكون عربية، بل هي حسب الإسلام، رأس العرب وعزّة مجدهم، أما أن يتهكم نتنياهو على داوود الإسرائيلي الذي انقلب ـ على يد الدعاية العربية ـ إلى داوود صهيوني، فهذا مالا مسرح له، فإما أن يكون العرض كوميدياً ساخرة أو أن يكون تراجيديا دامعة، فإذا ما تمّ الخلط، فإن الكوميديا هنا هي التراجيديا نفسها، بظاهريةٍ ضاحكة لكن بقلبٍ مكلوم، وعلى سبيل

(*) مع ذلك فهو ادعاء المدلل المصطنع، فنتنياهو يعلم قبل غيره، بأنه لولا بريطانيا، عاصمة الصهيونية لهرتزل ومن بعده وايزمن، لما كان للصهيونية أن توجد في فلسطين، لا بقوة الشعب المختار، ولا بقوة الصهيونية الذاتية، وفي العمق فإن بريطانيا هي خالقة إسرائيل دون غيرها.

المثال غير الساخر، أما تحولت بعض اليهودية، أو بصورة أدق أكثريتها، من دين إلى عرق، ومن رسالة إلى عصبية، ومن عالمية شمولية إلى قومية شوفينية فيها من (فرويد) أكثر مافيها من السماء (انظر فرويد: موسى والتوحيد)..

ألم يعرب اليهود الألمان (عام ١٩١٩ وليس عام هتلر) عن سخطهم ضد الاستفزازات الصهيونية حين قالوا:

(نحن ألمان ديننا اليهودية، وإن الجرمانية تعني لدينا انتماء إلى أمة وشعب، وأما اليهودية فتعني لدينا ديناً وملة، نحن لسنا أمة يهودية بحسب الصهيونية، وإنما طائفة تدين باليهودية).

ثم ألم يوجّه مؤتمر الحاخامات في بستبرغ عام ١٨٨٥ النداء التالي إلى كل يهود العالم؛ (نحن لا نعتبر أنفسنا أمة وإنما نحن طائفة دينية، نحن لانتنظر العودة إلى فلسطين ولانمارس شعائر التضحية التقليدية ولانعمل على إحياء أي تشريع يخص إقامة دولة يهودية في هذا العالم).

فهل ما زال نتنياهو على رأيه من أن اليهودية هي الصهيونية، وأن هذه التقسيمات من صنع (الدعاية العربية) وأن يهود (الخوف والاستكانة) هم الذين أدلوا بذلك في التاريخ. ما رأي نتنياهو بيهودٍ لايخافون مثل سبينوزا ومندلسون وهايني وآينشتاين، حين رفضوا بدورهم تحويل اليهودية إلى قومية أو إلى دولة، ألم يقل باروخ سبينوزا عن هولندا (وطنه المختار)، إن هولندا هذه، هي النموذج الأكمل لنزعة الانفتاح والشمولية في اليهودية!.

ويتابع نتنياهو حربه التاريخية على هواه، حين يضع في جملة قلب الحقائق - حسبما يضعه على مشجب الدعاية العربية - حقيقة أخرى أقدمَ العرب على قلبها، وهذه الحقيقة المقلوبة تتمثل في قولهم: (لم يهاجم العرب إسرائيل، إنما إسرائيل هي التي هاجمت العرب وبدقة أكثر الفلسطينيين.. وقد برز هذا الادعاء البراق، بعد حرب الاستقلال، وفي أعقاب انتصار إسرائيل في حرب الأيام الستة، وانتشر بسرعة فائقة حتى بداية السبعينات - ص ١٦٢)، ويسوق جملة من الاستعراضات والتهكمات يثبت فيها أن العرب هم البادئون دوماً.

ففي لعبة الأحاجي الإسرائيلية التي باتت ممجوجةً حتى الملل، فقد درجت العادة - في إسرائيل - على تسمية العدوان بالحرب الوقائية، علماً بأن الحرب الوقائية عادة ما تكون ردة فعل مسبقة ضد فعل متوقَع، لكن السجل الحربي الإسرائيلي يشير دائماً إلى سنوات إعدادٍ سابقة قبل التحايل بتصدير الحروب الوقائية، وهناك تعبير لموشي دايان يعترف بما معناه، أن الطيّارين الإسرائيليين، ظلوا يتدرّبون على أهداف مماثلة للمطارات الحربية العربية طوال سنوات قبل حرب حزيران، وكانت هذه الأهداف أقرب ما تكون إلى الواقع الحقيقي للقتال، خاصة تلك الأهداف التي تتعلق بمصر، ولاشك أن التهيؤ لمنازلة الخصم مستقبلاً، من القواعد العسكرية الذهبية التي لايمكن إنكارها على أحد، غير أن الدفاع (الذي تتبجح به إسرائيل المسَالِمة) شيء والهجوم شيء آخر، فالحرب الوقائية هي هجوم (دفاعي مسبق) ضد هجوم مُحضّر، وما نظن أن التاريخ يوافق نتنياهو بأن المصريين مثلاً هم المحضّرون لحرب العدوان الثلاثي عام ١٩٥٦، كذلك لحرب العام ١٩٦٧، حتى لو تعمّد نتنياهو تشبيه إغلاق مضائق تيران بمثابة شن الحرب ضد إسرائيل، أو أن الحرب اندلعت كواقع، إثر

إرسال مصر لثمانين ألف جندي إلى سيناء، فالقيادة العسكرية الإسرائيلية يومها (موشي دايان، اسحاق رابين، بارليف، اليعازار) كانت تعرف جيداً أن القوات المصرية المتوجهة إلى سيناء، (بحجمها وآلياتها وعددها وعديدها حتى بما فوقها من الطيران المصري) لم تكن قادرة على اجتياح الحدود الدولية نحو فلسطين، هذا فضلاً عن أنها ظلت متمركزة هكذا في سيناء بانتظار نتائج الوفد المفاوض برئاسة زكريا محي الدين إلى الولايات المتحدة قبل أيام من اندلاع القتال، وقد صرح دين راسك وزير الخارجية الأمريكية يومها بالحرف (ربما ساعدنا إسرائيل في الضغط على الزناد حين قمنا بإبلاغها عن موعد زيارة السيد زكريا محي الدين إلى واشنطن)، وهذا معناه عملياً، أن إسرائيل لاتريد الحل عن طريق المفاوضات، ولا حتى المفاوضات كلها، بعد أن أصبح الوصول إلى أفريقيا قضية وقت لا أكثر..

لقد سجلت مهزلة الحرب الوقائية الإسرائيلية أدنى مستوى لها في حرب حزيران، رغم النجاحات على الأرض، وقد أصبحت هذه المهزلة بتكرارها، معروفة أمام سمع وبصر العالم، بل والأمم المتحدة نفسها، فهناك قوائم رسمية بأرقام البيانات التي أدلى بها أعضاءٌ في مجلس الأمن وبعض موظفي الأمم المتحدة من (الولايات المتحدة وبريطانيا وفرنسا والاتحاد السوفييتي وبلجيكا والصين والبرازيل ورومانيا وفنزويلا.. الخ) وكلها تثبت تدبير الاعتداءات من قبل إسرائيل ضد العرب.

وقد جمع الأستاذ إبراهيم العابد في كتابه العنف والسلام ـ دراسة في الاستراتيجية الصهيونية ـ دراسات فلسطينية، من تاريخ ١٨ تشرين الأول من العام ١٩٤٨ وحتى ٦ نيسان من العام ١٩٦٢ فقط، ماهو عدده حصراً (واحداً وخمسين تقريراً) عن أعمال عدوانية عسكرية إسرائيلية. وهذه التقارير موجودة في أرشيف الأمم المتحدة، ولدينا مراجعها الأرشيفية بالكود، والساعة، واليوم، والسنة. أما الاعتداءات الواقعة والتي اعتبرت من أسباب التوتر فإنها بحسب المصدر السابق، تبدأ من ١٨ تشرين الأول في العام ١٩٤٨ (تأريخ مقتل الكونت برنادوت على يد اليهود)، إلى الخامس من نيسان ١٩٦٢، فخلال هذه الفترة، قدّم الوسيط الدولي وكبار المراقبين التابعين للأمم المتحدة، كذلك مندوبو بريطانيا والولايات المتحدة وبلجيكا وفرنسا واستراليا والصين الوطنية وإيران وباكستان... الخ، ماهو بالعدّ الحصري أيضاً (سبعة وثلاثين تقريراً) عن سبعة وثلاثين عدواناً إسرائيلياً، زادت من تفاقم الوضع، وتصاعدَ التوتر والمجابهات على الحدود العربية في المنطقة بسببها.

حتى حرب العام ١٩٤٨ فإن نتنياهو يصورها كعدوان واقع من خمسة جيوش عربية ضد بلد صغير هو إسرائيل، لكن نتنياهو لايستعرض (الخطة دالت والخطة يهو شواع، وخطة شهر أيار ١٩٤٦... الخ) وكل ذلك، قبل دخول الجيوش العربية إلى فلسطين بسنوات.. فالجزء اليهودي في قرار التقسيم، كان قد احتّل من قبل الهاغاناة دايسل وليحي (شتيرن والأرغون)، على يد تسع ألوية عسكرية إسرائيلية جاهزة قبل الحرب النظامية مع الجيوش العربية، وبموجب عدوان مُدبّر، مُنظّم ومدروس، فقد سقطت معظم المدن الفلسطينية قبل الخامس عشر من أيار،

وقد شملت هذه المدن، طبريا وصفد وبيسان وسمخ وحيفا وعكا ويافا وأجزاء من القدس حتى النقب(*)....

ويستخدم نتنياهو في تاريخه عن عدوانية العرب تجاه إسرائيل، شواهد إضافية مستقاة من أرشيف الاشتباكات الحدودية بين العرب وإسرائيل، فيفتتح سجلّ غزة بداية الخمسينات، دون أن يحفل بمخيّمات اللاجئين الذين هُجّروا بعمليات عنف من القسم الجنوبي من فلسطين، حيث بات القطاع من اختصاص الإدارة العسكرية المصرية، كذلك يتناول سجّلاً آخر في الستينات، ألا هو سجل الجولان، وبالطبع فإنه لايوّفر الحوادث على الحدود الطويلة مع الأردن.

ودون حاجةٍ للسؤال عن الجذور العميقة للمعاناة، فإنه يتهّم الكفاح الوطني الفدائي، بأنه كان من أعمال الإرهاب... فحيثما تطلق إسرائيل النار، فهو عمل أخلاقي، نظامي، لايُقصد منه سوى الدفاع المشروع عن النفس، وحيثما ينظر (اليافاوي) من غزة إلى بيّارة أبيه في يافا، أو (الطبراني) من الشاطئ الشرقي لبحيرة طبريا (الجانب السوري) إلى بستان جدّه أو بيت أبيه في طبريا، فإن هذا الحنين مقدمة لأعمال إرهابية(**)، فمن العام ١٩٤٨ وحتى أواسط الخمسينات، فقد (ظلت إسرائيل هدفاً للهجوم من كل جانب، وخاصة من قواعد الفدائيين التي أقيمت في قطاع غزة الذي يشرف عليه المصريون، وكان الهدف الرئيسي لحملة (قادش) عام ١٩٥٦ وضع نهاية للغارات التي شنّها الفدائيون في قلب إسرائيل، وأدت تلك الحملة إلى تصفية قواعد الإرهاب في قطاع غزة، واستولت إسرائيل على شبه جزيرة سيناء ـ ص١٦٤) ويقول:

(في مطلع الستينات استؤنفت الهجمات ضد إسرائيل من هضبة الجولان السورية، حيث كانت ظاهرة يومية، وعام ١٩٦٦ بدأت منظمة التحرير الفلسطينية بتنفيذ عمليات إرهابية كثيرة من مناطق الضفة الغربية... وفي تشرين الثاني من العام ١٩٦٦ هاجم الجيش الإسرائيلي قرية السّموع الأردنية ودمّر قواعد الإرهابيين هناك.. وفي نيسان عام ١٩٦٦ أسقط سلاح الجو الإسرائيلي طائرات حربية سورية فوق بحيرة طبريا ص١٦٤).

كل هذا قام به العرب، ومع ذلك فإن إسرائيل قائمة لاتتزحزح، فما أجمل أساطير الأجداد، وقصص الأحفاد عند نتنياهو!. ألا يوجد شيء على الطرف الإسرائيلي منذ العام ١٩٤٨ وحتى العام ١٩٦٦؟

ما رأي نتنياهو بالمذابح الإسرائيلية التالية:

(*) لامانع من التذكير بأسماء الألوية العسكرية الإسرائيلية التي أنشأتها القيادة الصهيونية في ظل الانتداب البريطاني قبل الجيوش العربية، وهي: ـ اللواء غولاني، كرميلي، الكسندروني، كرياتي، جنعاتي، عتسيوني، بالماخ هرئيل، بالماخ يفتاح وبالماخ النقب.

(**) كنتُ في العام ١٩٦١ مُدّرساً في مدرسةٍ بقرية الكرسي السورية الواقعة تماماً على مياه البحيرة من الجانب الشرقي، ولطالما كنت أستعير المنظار المكبر من أحد أصدقائي في الحرس الوطني، كي أجيل النظر في الموقع الأخاذ للمقهى الرصيفي الجميل القائم على الشاطئ الغربي لبحيرة طبريا (الجانب الفلسطيني)، إنه مقهى والدي.. وكانت كل زاوية من زوايا المشهد، تذهبُ النفس عليها حسَرات.

قرية دير ياسين (١٩٤٨/٤/٩) وناصر الدين (١٩٤٨/٤/١٣) وقرية القبو (١٩٤٨/٥/٣) وبيت دراس (١٩٤٨/٥/٣) وبيت الخوري في (١٩٤٨/٥/٥) والزيتون في (١٩٤٨/٥/٦). وكل هذا، قبل قطاع غزة وهضبة الجولان، أي قبل أن تنشب حتى الحرب العربية ـ الإسرائيلية في أيار ١٩٤٨.

ثم ما رأيه بقائمة الاعتداءات التالية بعد أن أصبحت إسرائيل دولة، وقبل أن تصبح مصر ثورة، في تموز ١٩٥٢؟ لنستمع إلى ما تقوله تقارير الأمم المتحدة رسمياً:

○ قامت القوات الإسرائيلية في ١٩٥٠/٥/٣١ بهجوم على وادي عربة أدى إلى مقتل ثلاثين عربياً.

○ احتلت القوات الإسرائيلية صبيحة ١٩٥٠/٩/١٠ المنطقة المجردة على الحدود الأردنية عند تقاطع نهري اليرموك والأردن.

○ هاجمت القوات الإسرائيلية قرى شرفات في ١٩٥١/٢/٧ وقَلَمة في ١٩٥١/٢/٩ وخربة النجار في ١٩٥١/٧/١١ وغور الصافي في ١٩٥١/٧/١٥ وكانت محصلة القتلى في هذه القرى زهاء ثمانين ضحية عربية.

○ قامت القوات الإسرائيلية بهجوم على بيت جالا في الضفة الغربية في ١٩٥٢/١/٧ وارتبكت جرائم بشعة كما قامت بهجوم آخر على قرية كريمان في الأردن (تقرير هاتشسون من كبار المراقبين الدوليين ص١٦ تاريخ ١٩٥٢/١/١٢).

○ هجَّرت القوات الإسرائيلية قرى عرب الساني إلى الأردن بتاريخ ١٩٥٢/٩/١٩ ويبلغ تعداد المُهجّرين بالضبط ٤٠٧١ شخصاً. (تقرير هاتشسون ص٣٠ إلى ٣٨ منه).

○ قامت إسرائيل باعتداء وحشي على قرية قبية في الأردن في ١٩٥٣/١٠/١٤ وقد دان مجلس الأمن إسرائيل لعدوانها الذي أدى إلى قتل وجرح العشرات من سكان القرية.

مابين نجاح ثورة تموز في مصر عام ١٩٥٢ ومجيء منظمة التحرير الفلسطينية عام ١٩٦٥ إليكم قائمة أخرى:

○ اعتداءات بالجملة على قرى فَلَمة ورانتس وأَضَنة وصيروف مابين ١٩٥٣/١/٢٩ و ١١/١٩٥٣/٨

○ اعتداء على المنطقة المجردة قرب غزة وإقامة مستعمرة جديدة هي كتزويت في ٩/٢٨/١٩٥٣.

○ في ١٩٥٤/٣/٢٨ قامت القوات الإسرائيلية بهجوم على قرية نحالين الأردنية وذهب العشرات ما بين قتيل وجريح.

○ بعد سلسلة من الهجمات العدوانية على الواجهة الأردنية والسورية (وادي الغار والعزون في الأردن وسكوفيا وفيق في سوريا) مابين ١٩٥٤/٣/٤ و ١٩٥٤/١١/٢، شنّت القوات الإسرائيلية أكبر هجماتها العدوانية ضد قطاع غزة في ١٩٥٥/٢/٢٨ وأدى ذلك إلى مقتل ٣٨ وجرح ٣١ آخرين من العرب. وحسب الوثيقة رقم ٣٣٧٣ في أرشيف الأمم المتحدة، فقد دان مجلس الأمن هذا الاعتداء الوحشي وحمّل إسرائيل تبعات مسؤوليته.

○ في ١٩٥٥/٥/٣١ شنّت القوات الإسرائيلية هجوماً على خان يونس أدى إلى مقتل ٢٠ عربياً وجرح عشرين آخرين.. فهل يود نتنياهو قوائم أخرى؟

وهكذا يمكن الإشارة إلى أنه ما بين العام ١٩٤٨ والعام ١٩٦٧ قبل عدوان حزيران بشهرين.. فإن إحصاء عدد الهجمات العدوانية على القرى الفلسطينية الداخلية أو القرى العربية الواقعة على خطوط المواجهة بمعدل عقدي كما يلي:

- العقد من العام ١٩٤٨ إلى العام ١٩٥٧ (ناقصاً اشتراك إسرائيل في العدوان الثلاثي عام ١٩٥٦) فإن عدد الاعتداءات (الهامة فقط) هو ٧٩ عدواناً دون زيادة أو نقصان.

- العقد من العام ١٩٥٧ إلى العام ١٩٦٧ (ناقصاً عدوان حزيران) فإن العدد الحصري للإعتداءات هو مئة وخمسة نال منها العام ١٩٦٥ وحده أربعين عدواناً على كافة الجبهات العربية(*).

ومن أجل عَظَمة الشعب المختار، فإن نتنياهو يحتسب تقابل القوى في الخامس من حزيران وفق اللوحة التالية:

الصنف	نسبة القوة للعرب	نسبة القوة لإسرائيل
العديد البشري	٥	١
المدافع	٥	١
الطائرات	٢,٤	١
الدبابات	٢,٣	١

ورغم هذا التفوق الكاسح فقد انتصرت إسرائيل فمرحى للأسطورة. وعلى ما يبدو فإن نتنياهو على طريقة حكام إسرائيل دون استثناء، يضع جداول المعهد الاستراتيجي في لندن، حيث تكون المقابلة الصّماء في القوى شاملة للعديد العربي من المغرب إلى البصرة، كذلك هو الأمر بالنسبة لطائرات الجزائر وعربات الكويت ومشاة السودان ودبابات المغرب ومدافع اليمن..

إن ما يهمنا في هذا التقابل، هو نسبة القوى الحقيقية المتواجدة فوق أرض المعركة، مع كل آليات القيادة لخوض معركة حديثة، مع عناصر المبادهة والمفاجأة والتكتيكات الأخرى..

وعلى سبيل المثال لا الحصر، فإن العديد البشري العربي نفسه، (وهو الميزة النظرية لتفوق العرب) كان في حزيران أقل بكثير من العديد البشري الذي دفعته إسرائيل إلى أرض المعركة، ففي حين قدّمت مصر بالرقم ٨٠٦٥٠ جندياً وفي حين قدّمت سوريا ٦٠٠٠٠ من جنودها، وما يعادل هذا الرقم على صعيد الأردن والعراق معاً، إضافة إلى الوحدات الجزائرية والسعودية والسودانية الأخرى، فإن المجموع (المشتت)، كله، لم يتجاوز ٢١٨ ألف عسكري عربي على كل

(*) لدينا تواريخ جميع هذه الاعتداءات باليوم والشهر والسنة، كذلك تواريخ مناقشاتها في مجلس الأمن مع أرقام القرارات الصادرة بحق إسرائيل.. لكن المجال هنا لايتسع.. إن تاريخ إسرائيل وُلد مع العدوان، أما تاريخنا بعد فلسطين فقد وُلد مع الشكوى.. وتلك هي المسألة.

الجبهات، بينما كانت إسرائيل تحارب في ميادين القتال بقوة جيش بلغ تعداده ربع مليون جندي، وهذا غير مئات الألوف العاملين على خدمة الجبهات القتالية، في الجبهة الداخلية، فهناك على سبيل المثال فقط، زهاء خمسين ألف عامل وعاملة، في جهاز الدفاع المدني والطبي والخدمي داخل إسرائيل.

كذلك هو الحال في التقابل على صعيد الطائرات والدبابات والمدافع... فلماذا الأسطورة دائماً؟!

لقد هاجمت إسرائيل قبل أن يتدخل العالم لفضّ النزاع على الممرات المائية سلمياً، وهذا معناه أن إسرائيل كانت قد أسست للحرب بانتظار الذريعة فقط، وساعد على ذلك سحب قوات الطوارئ نهائياً (بتأثير أمريكا على الأمم المتحدة)، فيما كان القرار من القاهرة أن تتراجع القوات، إلى ماوراء خطوط الاحتكاك ليس إلا، ولم يخف الأخوان روستو في الإدارة الأمريكية فرحتهما لسرعة إنجاز ترحيل القوات الدولية من شرم الشيخ.

ويقول دايان: (إن مَن يدفع بثمانين ألف جندي وستمئة دبابة إلى سيناء، لايبتغي في العمق محاربة إسرائيل، لكنها الفرصة التي يجب اغتنامها)(*).

كما يقول رودلف ونستون تشرشل الصحفي البريطاني الشهير الذي قابل الرئيس عبد الناصر مراراً قبل الحرب: (ليست هناك من أسباب واهية توضح لنا فعلاً، بأن عبد الناصر يسعى إلى نزاع مسلح يعلم نتائجه على الأرجح).

لقد بدا بالفعل، لا بتأثير خداع نتنياهو، أن إسرائيل دولة عدوانية وتوسعية، وأن لها قفزة في كل عشرة سنوات تقريباً، وأنّ ما تستحوزه يتهودّ بالهجرة، وأن سياسة القضم حسب شريعة التوراة المنحولة، مسألة حقيقية لا تهديدية، وأن صحراء سيناء كانت جائزة إسرائيل للسلام مع مصر، وأن يهودا والسامرة والأهم منهما القدس، هي جائزة التوراة لإسرائيل، وأن موضوع الجولان هو حجر الزاوية للقضاء على احتمالات قيام الجبهة الشرقية، التي كانت التعويض الوحيد لخروج مصر من الصراع..

مع ذلك فإن نتنياهو يَمُنُّ علينا بأنه أعطانا سيناء، (إذ مَن هو الطرف المُنتصر في التاريخ الذي يمكنه أن يتنازل عن مصادر نفطه ليصبح مرتبطاً باستيراد الوقود في سبيل تحقيق السلام فقط.. أية أمة يمكنها أن تتنازل عن مليارات الدولارات لتطوير شبه جزيرة سيناء، من أجل السلام ولا شيء غيره - ص١٧٣).

إنني أعترض على (مصادر نفطه) كذلك على (من أجل السلام فقط).. لحيثيات تدركها فصاحة نتنياهو قبل غيره، فخروج مصر من معادلة الصراع مع إسرائيل، كان يساوي في عيون

(*) حتى مع وصول الدبابات المصرية يومها إلى ما يقارب ٩٠٠ دبابة، فإن القوات بمجموعها غير كافية إطلاقاً للهجوم، فإسرائيل تستطيع تجنيد ربع مليون جندي وضابط احتياطي فضلاً عن جيشها النظامي العامل والبالغ ستين ألفاً، كما كان بمقدورها أن تدفع إلى الجبهة الجنوبية فقط زهاء ألف وخمسمئة دبابة عدا الطيران.

إسرائيل، كل تاريخ اليهودية وكنوزها منذ سنوات التيه، وحتى بيجن معلم نتنياهو نفسه!. وهذا هو مركز الحقيقية ولا شيء آخر.

سيتباهى نتنياهو باكتشاف مفهوم جديد لمعنى الاستيلاء على الأراضي (إذ أن استيلاء إسرائيل على الأراضي بعد حرب حزيران كان بدافع الدفاع عن النفس (في جوارٍ مسكون بهستريا إبادة إسرائيل)، وأن إسرائيل أرغمت على خوض حروبها الدفاعية إرغاماً، وأن الأراضي التي احتلتها كانت مناطق حشد وتعبئة للإنقضاض على إسرائيل.. هذا عدا قواعد الإرهاب المنتشرة... فكيف تغامر إسرائيل بإعادة المسدس إلى اليد التي كانت تحاول إطلاق الرصاص منه على رأسها ـ ص١٧٢)؟.

ها هنا إذن مفهوم مختلف لمعنى الاستيلاء، فهو لايشبه مثلاً، الاستيلاء الأمريكي على الأراضي التي كانت للهنود الحمر، كذلك الأراضي التي انتزعها الأمريكيون من المكسيك.

ثم يضرب مَثلاً باستشهادين، استشهاد يتعلق باحتلال الأمريكيين لجزيرة أوكيناوا اليابانية والاحتفاظ بها مدة ثلاثين عاماً (رغم أنها تبعد عن شواطئ كاليفورنيا زهاء ١٣ ألف كيلو متر)، أما الاستشهاد الثاني فيتعلق بسيطرة السوفييت على أراضي شرق أوروبا طوال المدة منذ الحرب العالمية الثانية وحتى موعد انتهاء الحرب الباردة..

إن أهمية هذه الاستشهادات بالنسبة لنتنياهو تضع المقدمة لنظريته الأمنية والتي يعتبرها فوق السلام في جميع المقاييس. وقد يكون من المبكر التعرض لسلام نتنياهو الداعي للإحتفاظ بالأراضي المحتلة كإجراء وقائي (أي السلام مقابل السلام فقط ـ شامير). إلا أن ثمة ملاحظات هنا:

تقول حكمة قديمة (إنك لن تسبح بذات النهر مرتين)، وهذا معناه أن النهر يتبدّل كذلك السابح فيه، فإذا كان التبدّل قائماً بين ثنائية نهر ـ إنسان فقط، فكيف لايكون بين: أطراف، وتواريخ، وحوادث، وتناقضات، وأسباب ونتائج، فمثال أوكيناوا غير صالح للأراضي العربية المحتلة، إذ لا يتشابه معها في شيء، وكمفارقات نظرية على الأقل، هناك أمريكا واليابان، وهنا عرب وإسرائيل، وهناك تواريخ خاصة بأسباب الصراع، وهنا تواريخ أخرى لأسباب الصراع، هناك حرب عالمية ثانية، نتج عنها تبدّل في المواقع والمواقف على صعيد العالم أجمع، بحيث بات الخصيم حليفاً، والحليف منافساً، إلى آخر مفارقات التطورات المدهشة التي طرأت على أوضاع الأطراف اللاعبين على مسرح حرب دامية، وهناك إمبراطوريات أفَلَت، وهناك إمبراطوريات بزغ شمسها، ثم إن العالم كله، أدرك عقم الاتكاء على قوّة السلاح، فتحوّل إلى قوة أدهى، هي قوة الاقتصاد، وكانت اليابان أول من تعلّم عبقرية الانتقال من قوة السلاح إلى قوّة الاقتصاد، فكمنَت طوال الحرب الباردة، تعمل وتنسخ وتنقل، وتحصد وتطوّر نتائج التطبيقات العلمية لعالم الاختراع كله، وكان ذلك قد جرى خلف المحرمات الدولية القائلة بعدم عودة اليابان إلى عالم السلاح، وفيما ظلت اليابان تهتبل فرصتها في الذهاب إلى عالم الصناعة والاقتصاد والتكنولوجيا، بقي الغرب يصرف كنوز خيراته ـ وخيرات غيره ـ على

عالم غاشم أبكم وعقيم، هو عالم صناعة السلاح، ولو أن تجارته رابحة إلى حين.

أما أوكيناوا، فكانت تندرج في سياق المفهوم نفسه، فلا اليابان ـ حتى اليوم ـ ولا أوكيناوا بعدها، تريد من الأمريكيين أن يرحلوا، فقد خرجت اليابان الجديدة من رأس جوبيتر الأمريكي، من مليارات وصناعات وتكنولوجيا الولايات المتحدة، وقبل أن تأخذ مقعدها على المنصة الاقتصادية العالمية، كانت أوكيناوا جزءاً من مشروعها الرامي للخروج من خراب الحرب العالمية إلى إشادة البنية التحتية على هدير آلات فورد وهدسون، ونفط تكساس، وماكينات جنرال موتورز، ومحركات دوغلاس، وأنغام القاعات المخملية للوول ستريت، وشيكات تشيس مانهاتن وسيتي بانك، وسندات الخزانة الأمريكية التي بمقدورها منح غطاء للعالم أجمع.

قبل هذا المشروع الفلكي بسنوات، كان (الهاريكاري) الياباني يغير على بيرل هاربر ليغرق معظم قطع الأسطول السادس الأمريكي في المحيط، وكانت أمريكا تنوح كلها، على وقع هذه الكارثة المدوّية، رغم أن الإدارة الأمريكية وقتها، كانت على علم بالهجوم ولم تقدم أي تهديد علني للحيلولة دونه، فكي مايتم تجريب القنابل النووية لأول مرة على عالم الإنسان، كانت بيرل هاربر، ثم كانت ناغازاكي وهيروشيما، حيث قُتل ربع مليون إنسان أو ينوف، بطلقة واحدة!.

ونعود إلى السؤال، مَن هو الذي أقدم على (بيرل هاربر) مع إسرائيل؟.. وهل ثمّة مَن ألقى قنابل نووية على إسرائيل كي تحتفظ (بأوكيناوا العرب) في أيديها تفادياً لهجمات عرب اليابان؟..
أما الصورة الأخرى عن سيطرة الاتحاد السوفييتي على بلدان أوروبا الشرقية، فليست دلالة على التشبيه بل التشبّه، فأوروبا الشرقيّة رغم سكوتها، لم تكن راضية عن استلاب سيادتها بثمن الماركسية أو الشيوعية، ولا حتى بأي ثمن آخر، كذلك هو الشعب العربي على طرفي النزاع مع إسرائيل، حتى ولو طال أمد هذا النزاع، فالشعب قبل حُكامه، هو الذي يريد القدس والضفة والدولة والجولان، لأنها في عُرفه، وحقائق تاريخها، مناطق عربية لايمكن التنازل عنها بخداع السلام الذي هو هنا الاستسلام وليس غيره.

في المحصلة وبعد نصف قرن أو أكثر، خرجَ الاتحاد السوفييتي من أوروبا الشرقية، وخرجت روسيا من الاتحاد السوفييتي، كما أن أمريكا كانت قد سبقت للخروج من أوكيناوا، فهل يأذن السيد نتنياهو بالخروج إذا قصد التشبيه لا التشبّه بمُثُل السيطرة الاستعمارية (والاستيطانية) ضد شعوب العالم الآخر، تماماً مثلما فعلت بريطانيا حين انسحبت من مستعمراتها، ومثلما فعلت أمريكا حين انسحبت من أوكيناوا وفيتنام، ومثلما فعلت فرنسا حين انسحبت من الجزائر، ومثلما فعل السوفييت حين انسحبوا من أوروبا الشرقية... أم أنه مازال أمام نتنياهو فسحة من الزمن الدامي، كيلا يفعل هذا الآن؟

إنها حكاية الأرض في قلب حقيقة السبب والمسبب عند نتنياهو، أما الحكاية الثانية في فصله، فهي حكاية اللاجئين الفلسطينيين، (إذ لا يزال العرب يلصقون بإسرائيل تهمة استمرار بقاء مشكلة اللاجئين الفلسطينيين، التي تُستخدم سلاحاً سياسياً ضدها ـ ص١٧٦).

يأتي نتنياهو على مأساة اللاجئين الفلسطينيين وفق تعليلات تؤدي بسياقها التدرجي والتاريخي إلى إعفاء إسرائيل من المشكلة على النحو التالي:

السيناريو الأول: لايجوز أبداً وصف خروج الأغلبية من عرب فلسطين بأنه جاء نتيجة لأعمال الطرد الإسرائيلية، إن الدول العربية هي التي شجعت سكان فلسطين من العرب على مغادرة بيوتهم لوقت ما، كيلا يعيقوا تقدم الجيوش العربية. (ص١٧٤).

السيناريو الثاني: إن زعماء العرب هم الذين حمّلوا إسرائيل وزر المشكلة، في الوقت الذي تمنع فيها الحكومات العربية، كذلك زعماء منظمة التحرير عرب فلسطين من التوطين (ص١٧٥).

السيناريو الثالث: إن مشكلة اللاجئين الفلسطينيين هي الأسهل من بين كل مشاكل اللاجئين في العالم، فهؤلاء لايختلفون بشيء عن سكان مُضيفيهم لا من حيث الدين أو اللغة أو العنصر (ص١٧٥).

السيناريو الرابع: إن الوضع الخطير والحقيقي المتمثل في عدم وجود مأوى للفلسطينيين نشأ بعد حرب الخليج بالذات، بعد أن طردت الكويت الفلسطينيين من أراضيها كرد على تعاونهم مع المحتلّين العراقيين إذ طرد حوالي ٣٠٠ ألف وهي أكبر عملية ترحيل إجبارية في تاريخ العرب الفلسطينيين (ص١٧٦) تلك هي أهم السيناريوهات التي يعرضها نتنياهو كعوامل أدّت إلى اللجوء الفلسطيني، وها هي إسرائيل بريئة من هذا الموضوع، براءة الذئب من دم يعقوب!.

غير أن التاريخ لايكتب بطريقة الاصطياد في الماء العكر، إذ أن خروج الفلسطينيين لم يكن يتوقف على نداءات عربية بالأساس، وذلك بدليل أنه حدَث بشكل متفاوت في المراحل، وهناك أشهر ثقيلة، بين رحيل مدن الجليل (طبريا، صفد، الطابغة وبيسان) ورحيل المدن الجنوبية (يافا، أشدود، عسقلان وبئر السبع)، كما أن هناك فواصل زمنية أكبر بين رحيل السكان بعد الهدنة الأولى والهدنة الثانية، اللد والرملة مثلاً، إن الترحيل استمر حتى العام ١٩٥٦، كذلك حدث ترحيل جزئي بعد العام ١٩٦٧، وتاريخ إسرائيل ماضٍ على أساس الترحيل إذ كيف يفسر السيد نتنياهو مسألة الهجرات اليهودية دون ترحيل العرب الفلسطينيين؟.. فمن بابٍ أولى أن يتم الترحيل الذي هو التفريغ (إيجاد الشاغر بالقوة)، كيما يُفسح في المجال لليهود القادمين باستمرار.

ثم أين هم الفلسطينيون الذين يمكن أن يعيقوا تقدّم الجيوش العربية، فإذا ما درس نتنياهو خرائط القتال العربية ـ الإسرائيلية عام ١٩٤٨، فإنه سيجد بأن إسرائيل أخذت حصتها من التقسيم (وحتى نصف القدس)، قبل أن تتحرك الجيوش العربية آنذاك، وبالتالي فإن هذه الحصة اليهودية هي ما أجبرت الفلسطينيين على الرحيل (وليست نداءات الزعماء العرب)، إنّ سكان مدن الجليل الساقطة عسكرياً منذ أوائل نيسان وأيار من العام ١٩٤٨ هم الذين ملأوا مخيمات الأردن وسوريا ولبنان، ثم مالبث سكان مدن الوسط والجنوب، أن ملأوا مخيمات قطاع غزة فيما بعد.

لقد كان الفلسطينيون الذين يخوضون القتال ضد الوجود الصهيوني في فلسطين منذ العشرينات، أكثر وعياً لمسألة الخروج من سواهم، فها هي الهيئة العربية العليا (القيادة الوطنية الفلسطينية) تطبع الإعلان تلو الإعلان، لتحرّض الأهالي على الثبات في مواقعهم وأماكن سكناهم، وكان ذلك منذ العام ١٩٤٧، لكن أساليب الدعاية الصهيونية المتمكنة، مع مارافقها من مذابح وحشية على الأرض، والإحساس العام بعدم القدرة على تأمين الحماية للسكان، خاصة النساء والشيوخ والأطفال، هو ماكسّر ظهر الفلسطينيين وأرغمهم على الرحيل، وفي مراحل مشينة من التاريخ الإرهابي الصهيوني، تكررت دير ياسين، كأسلوب (نموذجي) للطرد أو الترحيل في كل آن وأوان. وإليكم الواقعة المخزية التالية، كما يرويها السيد جاك دي راينير ممثل الصليب الأحمر في القدس عام ١٩٤٨.

يقول راينير: (بتاريخ ١٠ أبريل - نيسان - عام ١٩٤٨، زرت قرية دير ياسين وهي قرية صغيرة على مقربة من المدينة المقدسة، فاكتشفتُ في الزيارة الأولى وثلاث زيارات لاحقة خلال يومين جثث مائتين وأربعة وخمسين شيخاً وامرأة وطفلاً من المدنيين ملقاة في آبار القرية أو على مقربة منها، وكان بين الباقين على قيد الحياة أربعون طفلاً أخذتهم امرأة يهودية مُحسنة إلى بيت آنا سبافورد) للأطفال في القدس، وكانت هذه السيدة اليهودية - غير الصهيونية - هي المسؤولية عن هذا البيت، فلما اقتربت من أحد الأطفال تريد تهدئته، صرخ قائلاً: (اهربوا إنها واحدة منهم) وظل يصرخ هكذا دون وعي، حتى أصابته نوبة قلبية أودت بحياته...).

ومع ذلك، فإن بن غوريون أرسل ببرقية إلى الملك عبد الله، يعرب فيها عن أسفه لما حدث في دير ياسين، وهو من أجل السجّل أيضاً.

يقول ديزموند سيتوارت في كتابه تاريخ الشرق الأوسط ص ٢٩٧ - ٢٩٨:

(إن وجود أكثرية عربية كان دوماً عقبة كأداء في وجه الدولة اليهودية، فقبل أن ترسل الدول العربية جندياً واحداً إلى فلسطين، كان أربعمئة ألف فلسطيني قد هُجّروا من بيوتهم، وقد وصف حاييم وايزمن أول رئيس لإسرائيل الأمر الواقع بأنه إخلاء مُعجز للأراض وتسهيل ممتاز لمهمة إسرائيل).

ثم يضيف: (لقد أصبح الجيل المولود بعد العام ١٩٤٤ كارهاً لبيغن، تماماً مثلما كان بيغن نفسه، من تلاميذ أوروبا النازية الكارهين لها).

لم يكن قد مضى على صاحب أسود بقعة في السجل اليهودي، كما يقول الكاتب اليهودي جون كيمشي، سوى ست سنوات في فلسطين قبل دير ياسين، ثم بعدها، قفز اسم بيغن إلى قائمة بناة إسرائيل.

وهكذا بعد أن فرغ نتنياهو من (توجيه الدعوة) للفلسطينيين إلى (مآدب الزعماء العرب)، فإنه يدير هوائي جهاز تلفازه إلى الأقنية الخاصة بالتوطين، فإن لم ينفع الادعاء الأول (دعوة العرب للخروج من فلسطين) فها هو ادعاء ثان وثالث أيضاً:

(إن زعماء العرب هم الذين يختتمون مأساة اللاجئين برفضهم التوطين، كذلك يفعل زعماء منظمة التحرير الفلسطينية علماً بأن مشكلة اللاجئين الفلسطينيين ـ حسب السيناريو الثالث ـ هي الأسهل من بين كل مشاكل اللاجئين في العالم).

رفضٌ وسهولة بآن واحد، وفي الحالتين لايسأل نتنياهو ماهو رأي الشعب الفلسطيني صاحب العلاقة نفسه.. فالرفض قائم من فضاء الزعامة العربية، والسهولة آتية ـ كما يقول نتنياهو نفسه ص١٧٥ ـ من الاستناد على ما قاله الدكتور آلفن ريس المستشار العام لشؤون اللاجئين التابع لمجلس الكنائس العالمي.. مابين الرفض والسهولة، أين يقع شعب فلسطين في الشتات، ماهو موقفه، ولماذا يتجاهل نتنياهو ـ الديمقراطي ـ هذا الموقف.. لاشك أن نتنياهو مازال يأخذ بنظرية جدّته غولدامائير عن النسيان، وملخص هذه النظرية، بأن الفلسطينيين جيلاً بعد جيل، ستتلاشى فلسطين من ذاكرتهم الجمعية، وسوف يأتي اليوم ـ كما تؤكد غولدا ـ الذي تصبح فيه فلسطين من منسيات أجيالها المولودة في الشتات، هذا إن لم تتحول إلى أثر من أوابد التاريخ القديم...

ومع أسفنا، فإن ما يجري في المخيلة، غير ماظل يجري في الواقع، فأطفال الحجارة، هم أحفاد الأبناء، لجيل فلسطين الشبابي زمن الكارثة، كذلك هم تماماً، أطفال اليرموك في دمشق وعين الحلوة في الجنوب اللبناني، كذلك هم أنفسهم مع أجدادهم في التشيلي وجامعات أوهايو وأكسفورد وجورج واشنطن وهارفارد.. كما في مدن كندا واستراليا فضلاً عن أوروبا والبلدان الاسكندنافية... إضافةً إلى هذا، فإننا نود تطمين السيد نتنياهو، بأنهم جميعاً يتحدثون باللهجة الفلسطينية (مش، ومفش، وإسّا، وجاي) وليست بأية لهجة أخرى.

إن رفض التوطين هو مفخرة الشعب الفلسطيني عبر الأجيال، ولايمنع أن الفلسطيني اليوم، قد يحمل هوية أمريكية أو جواز سفر كندي... فازدواج الهوية نابعٌ عن الضرورة الحياتية، والهوية الأخرى لاتعني بالنسبة للفلسطيني إلا سهولة القائها في البحر حين يأزف يوم الرجوع إلى فلسطين، فإذا كان السيد نتنياهو يستكثر علينا أحلامنا، لوجود علّة التقادم أو الاستحالة، فلماذا ظل يُشرّع، لأحلام أجداده عبر ألفي عام من قِدم التاريخ؟...

أما الاستحالة، فنموذجها القريب، هو سقوط الاتحاد السوفييتي صاحب آلاف الرؤوس النووية، إذ مَن كان يَفكر، أو يجرؤ على التفكير... فإلى ماقبل عشر سنوات فقط، كان العالم يلقي بمن يتفوّه عن مثل هذا الاحتمال إلى مستشفى الأمراض العقلية دون تردد.

لم يسأل السيد نتنياهو نفسه عن مشروع دالس في التاريخ القريب، أي بعد ولادته بست سنوات فقط (٢٦ آب ١٩٥٥)، كما أنه لم يسأل نفسه عن مشاريع التوطين إلى كندا وأوستراليا قبل ولادته أو معها، ومنذ ذلك التاريخ فقد جرت مياه كثيرة في أنهار العالم، لكن الفلسطيني الذي لايسأله نتنياهو عن رأيه، ظل مع فلسطينيه، بعقله وروحه، على الدوام، رغم الإغواءات التي انهمرت عليه كزخ المطر من جميع أنحاء العالم.

في السيناريو الأخير له عن قضية اللاجئين الفلسطينيين، فإن نتنياهو يستخدم فزّاعة الكويت

التي أقدمت (على أكبر عملية طرد للفلسطينيين الذين استجابوا للعدوان العراقي على الكويت، وقد وصل عدد المبْعدين إلى ما يربو على ثلاثمئة ألف فلسطيني).

ورغم أن هذا السيناريو لا علاقة له منهجياً، بالسيناريوهات التي سبقته، فإنه صحيح من الناحية التاريخية، لكن السؤال هو: ما علاقة هذا الطرد الجماعي للفلسطينيين بقضية اللاجئين الفلسطينيين نفسها، إلا التأكيد بأن الفلسطينيين منبوذون حتى عندَ بعض أقاربهم من جاهلية العرب الأولى.. وعلى أية حال، فإنه ليس أفضل من اليهودي على شاكلة السيد نتنياهو في هذا العالم، كأداةٍ للتحريض، فأن تطرد دولة عربية اللاجئين الفلسطينيين لدعاوى سياسية أو أمنية، «يُشّكل أساساً نموذجياً لمناقشة وضع اللاجئين، بل هو دعوة للتشبّه، فإسرائيل لم تكن وحدها هي التي طردت عرب فلسطين، وها هي دولة عربية تفعل ذلك دون أن تسأل عن مآلهم ومأواهم بعد الطرد..».

وفي الحقيقة، فإن الكويت لم تكن هي التي طردت الفلسطينيين من أراضيها، بل الولايات المتحدة الأمريكية، وقد جرى طرد آخر لغير الفلسطينيين في منطقة غير قابلة للرهان في أي شيء... فإذا ما كانت الدمى السياسية تتحرك على مسرح العرائس في دنيا العرب، فإن نتنياهو ـ دون قصد منه ـ يكون قد وصل إلى هدفه، فإجماع نصف مليون فلسطيني في الخليج، ونفس العدد بالنسبة لليمنيين، في أن يكونوا جميعهم مع العراق، أمر قد يرد ولايرد بآن واحد، ومع ذلك، متى كانت عقوبة الطرد على (الميْل والهوى) هي القرار الأمثل، إلا لدى أنظمة الحكم الأمريكية في الخليج وغير الخليج؟

إن الطرد هنا، لايتعلق بقضية اللاجئين من قريب أو بعيد، بل بديموغرافية أرض النفط في النهاية، فسكان الخليج من أقل السكان كثافة في العالم العربي، وقد طغت جماهيرية فلسطين وسوريا ولبنان والأردن ومصر.. في أرض الكنوز النفطية، ولما كانت هذه الجماهيرية، بمثابة قنبلة موقوتة في مستقبل الخليج، فإنه يحسن استجلاب رجال الهندسة الأمريكية لانتزاعها، وهو ما يُفسّر استيراد الأيدي العاملة من الباكستان وإيران وسيرلانكا وغيرها من بلاد جنوب شرقي آسيا، بدلاً من تأمينها من البلدان العربية.

إن ديمغرافية الخليج تثير قلق الولايات المتحدة باستمرار، تماماً مثل أن ديمغرافية إسرائيل مُعرّضة للسقوط على أرض الولادات الخصبة لشعب فلسطين، وهنا تتمركز عملية الطرد الكويتية برمتها..

بعد أن يفيض نتنياهو في قلب حقيقة السبب والمسبب، بالنسبة للأرض واللاجئين، فإنه يحقق قفزته الآن، باتجاه مبدأ تقرير المصير.

هاهو يقول: (لقد حدث للإدعاءات العربية مثل الأراضي السليبة، واللاجئين المشردين، حيث تبين أنها لاتصمد دائماً أمام الاختبارات العملية في الرأي العام الغربي، بأن تحولت إلى تبرير ثالث هو مبدأ تقرير المصير..

فتقرير المصير، والحقوق المشروعة، أصبحت عملة متداولة بعد هزيمة العرب عام ١٩٦٧ فقط ص١٧٦).

وفي سياق لاحق (ص١٧٨) فإنه يستنكر (أن تولد أمة جديدة في هذا العالم، بنفس السرعة التي خُلقت فيها الخاصيّة القومية للفلسطينيين، فيما تحتاج شعوب أخرى مئات السنين لاكتسابها، مع ذلك، أين يوجد هذا الوطن القومي ومن هو الشعب الفلسطيني الذي سيسكنه؟..).

وكي يؤكد على صدق دعواه، بأن الفلسطينيين هم مواطنو شرق النهر وأن الأردن هو دولتهم دون حاجة شكلية للتسمية.. فإنه يورد شواهد شتى منها مثلاً، أنَّ الملك حسين صرّح مراراً، (بأن فلسطين هي الأردن وأن الأردن هو فلسطين، فالشعب هنا واحد، والأرض واحدة والتاريخ واحد والهدف واحد).

منظمة التحرير من جهتها قالت: (مع الاحترام لشعار تحرير فلسطين، فإن الثورة لاتقصد التفريق أبداً بين شرق النهر وغربه).. الملك عبد الله من جهة ثالثة كان ينوي تسمية المملكة (بالمملكة الفلسطينية الهاشمية).

ويتابع نتنياهو (إن الأردن يمتد على أربعة أخماس المنطقة التي خصصتها عصبة الأمم في حينه، وطناً قومياً لليهود.. ففي الضفة الغربية وشرقي القدس التي هي موطن النزاع، يعيش ١١٥٠٠٠٠ عربي و ٢٥٠٠٠٠ يهودي بالإضافة إلى ٧٥٠ ألف عربي في قطاع غزة.. فمطالبة الفلسطينيين بحق تقرير المصير هي مطالبة كاذبة، إذ أن سكان الأردن (وجميعهم من عرب فلسطين) هم الذين يشكلون أغلبية مطلقة من السكان.. وأن العديد منهم يفضلّون هذه التسوية، على أساس استمرار حكم العائلة الهاشمية، دون الحاجة إلى تحويل الأردن إلى دولة فلسطينية) (ص١٨٠).

ومُلخّص كل هذه الالتفافات تؤدي إلى معنى واحد، هو أن هناك دولة فلسطينية ناجزة، حتى ولو لم يعلم بها الفلسطينيون، وهذه الدولة هي المملكة الأردنية، وأنهم في فلسطين أقلية ولايحق لهم المناداة بمبدأ تقرير المصير.. وأن المعركة التي أدارها العرب ضد إسرائيل (هي التي خلَقَت ما أنا مستعد لتسميته بالمبدأ الفلسطيني - نتنياهو ص١٨١).

هذا، وسيترجم نتنياهو المبدأ الفلسطيني الذي اخترعه، وفق نماذج عالمية قديمة وحديثة على النحو التالي:

النموذج القديم: وهو النموذج التشيكي قبل الحرب العالمية الثانية، فسلسلة مرتفعات السوديت التشيكية كانت ذات أكثرية محلية ألمانية (ثلاثة ملايين ألماني في السوديت وتشيكوسلوفاكيا إلى سبعة ملايين عدد السكان في تشيكوسلوفاكيا آنذاك، أي بمعدل النصف تقريباً)، وقد غذّت الهتلرية مطالب السوديت في حق تقرير المصير، ولما كانت هذه المرتفعات هي سياج الحماية لتشيكوسلوفاكيا فقد رفضت براغ تحقيق هذه المطالب، لأن معنى ذلك هو تسليم المنطقة إلى ألمانيا، ونتيجةً للضغط الغربي على تشيكوسلوفاكيا، في سبيل حماية السلام العالمي، فقد اضُطرت براغ في النهاية، بعد مؤتمر السلام الدولي في ميونيخ إلى تسليم إقليم السوديت، فاقدة درع حمايتها الوحيد..غير أن هتلر لم يكتف باستلام هذا الإقليم، فبعد أن ضمّه إلى ألمانيا، عاد ليقدّم قائمة طلبات جديدة، ثم ما لبث أن وجّه اتهاماً لحكومة براغ بقمع الأقلية الألمانية، وبعد أسابيع

أي في ١٥ آذار ١٩٣٩ سحقت آلة الحرب الألمانية استقلال تشيكوسلوفياكيا، عندما احتلت البلاد من أقصاها إلى أقصاها.

النموذج الحديث: ويتعلق بأقلية مكسيكية تعيش في الولايات المتحدة، إلا أنها تشكل أكثرية محلية في جنوب غربي الولايات المتحدة، هي الأكثرية الهسبانية (حيث قَدِمَ هؤلاء المهاجرين من المكسيك) وعلى الرغم من أن مناطق سكناهم المكسيكية سبّق للولايات المتحدة أن ضمتها عام ١٩٤٨ فإنه من المحتمل ـ على طريقة المبدأ الفلسطيني ـ أن يطالب (الهسبانيون) بتطبيق مبدأ تقرير المصير، لكن مُفترض الرد الأمريكي سيكون: لكن توجدِ لكم دولة خاصة بكم هي المكسيك ومن غير المسموح لكم إقامة مكسيك ثانية هنا، فإما المساواة في المواطنة... أو الرحيل إلى المكسيك (ص١٨٣).

ليس للفلسطينيين مكسيك خاصة كي يرحلوا إليها، فباعتراف نتنياهو قبل قليل، فإن الكويت وهي من أصغر البلدان العربية، طردت في ليلة واحدة ما يعادل ثلث سكان الضفة الغربية، دون أن تسأل عن وجهتهم ومصيرهم، وبمقدور نتنياهو أن يذهب إلى الحدود المصرية مع ليبيا، كي يتفحّص مأساة مئة فلسطيني يتعرضون للموت في صحراء السلّوم لأن ليبيا طردتهم ومصر لاتستقبلهم... إنني أتحدى نتنياهو بأن مطاراً واحداً، لا في الدول العربية ولا في العالم، يستقبل (الإنسان العادي) من أهل فلسطين، وهناك كوارث إنسانية يعجز عن وصفها قلم دستويفسكي، تحدثُ كل يوم في مطارات عربية وليست أجنبية أوإسرائيلية فأين إذن هي (مكسيك) الفلسطينيين إلا على ورق نتنياهو؟.

بمقدور الهسباني أن يعود إلى المكسيك، هذا صحيح، رغم ألا أحد بمقدوره أن يسأله لماذا عدت... وماذا تفعل في وطنك؟ إلا أنه لا الحكومة المكسيكية ولا الشعب المكسيكي بصدد المطالبة باسترداد الأراضي ذات الأصل المكسيكي، ذلك أن الولايات المتحدة، سبق لها وأن اشترتها بملايين الدولارات والمعونات، التي أغدقتها على حكومات المكسيك درءاً للشيوعية أو طمعاً بمشاريع... أما اليوم، فإن المكسيكيين (العديد منهم طبعاً)، بصدد الهجرة إلى أمريكا وليس بصدد العودة منها أو الانفصال عنها، وهناك إحصائيات تقول، بأن واحدة من أكبر الأزمات الأمريكية، هي أزمة الحدود مع المكسيك، فالهجرة المتسربة وغير المشروعة، هي هاجس أمريكا ضد المكسيك وليس العكس.. وما افتراض نتنياهو النظري لمشكلة اسمها الهسبانية في جنوب غربي الولايات المتحدة، إلا محاولة للتملّق والمداهنة.

أما نموذج تشيكوسلوفاكيا ـ السوديت، فإنه يُظهر سلفاً عدم صلاحيته للمقارنة في جميع المقاييس، إذ لم تحظ المنطقة العربية بهتلر عربي، رغم الاتهامات الشنيعة من الغرب، التي غالباً ما كانت مقدمة للعدوان، فالمنطقة لم تشهد (هتلريين على الطريقة الغربية في حياتها، ولن تشهد، لا لشيء، وإنما ببساطة لأن الهتلرية هي الوجه الآخر للغرب سواءً بسواء، (فصناعة هتلر) تمّت في الغرب وليس في أي مكان آخر سواه، وقد انفصل هتلر بعد أن استشعر القوة الذاتية لألمانيا، ومع ذلك فإن الغرب ظلّ في موقف الحاضن لطلباته ومتطلّباته حتى وقت متأخر من انعقاد مؤتمر

السلام في ميونيخ، ولم تكن السوديت أكثر من تفصيلٍ صغير من تفاصيل الخارطة العالمية في مخيّلة زعيم الرايخ، إذ فوق تمزيق ڤرساي واحتلال دانزنغ البولونية ومنطقة الراين البروسية، فإن الرايخ كان يرى لألمانيا دوراً عالمياً يجب أن تؤديه، وكان من المفهوم أن ألمانيا تريد الدخول كشريك كامل الحصة في مناطق النفوذ الاستعمارية، باسم ما أطلق عليه هتلر المجال الحيوي لألمانيا، أما أن تُعطى منطقة كاملة بأكثرية جامعة، حق تقرير المصير، (إن هي أرادت وطالبَت) فمنطق لا غبار على عدالته، فألمان السوديت أكثرية، وهم يمثّلون ما يزيد على ثلث الشعب التشيكي بأكمله، وها هي تشيكيا تنفصل عن سلافيا اليوم، دون أن يصرخ أحد، بل دون أن يُحسب حساب المرتفعات والمنخفضات والمواقع والخنادق على الحدود... والسوديت باقية الآن في حوزة تشيكيا بعد أن انتقل اسم مركزها من (كارل سباد - أي حمامات الملك كارل) إلى (كارلو ڤيڤاري) التشيكية، ولو أن الألمان عادوا لاحتلالها (بالمارك)، بدلاً من احتلالها بقوة المدفع!...

إن منح حرية المصير للسوديت ثمّ تسليمها لألمانيا سلمياً فيما بعد، لم يكن هو السبب في سقوط تشيكوسلوفاكيا على يد الآلة النازية الجبارة آنذاك، فمرتفعات السوديت لم تكن هي درع الأمان الأخير لتشيكوسلوفاكيا، فقد سبق لهتلر أن اجتاح موانع أكثر أهمية من الوجهة الاستراتيجية، وهذا معناه أن المشروع الهتلري كان أضخم بما لا يقاس من الحديث عن السوديت ومجرد الأكثرية والأقلية، وقد قدمّت خرائط الحرب العالمية الثانية، مواقع بعد السوديت، تمتد من ڤينا إلى دنكرك، ومن بلغراد إلى ستالينغراد، ومن أثينا إلى العلمين، حيث مساحة هتلر هي العالم كله.. مع ذلك، فإن هتلر كان وليد المعونات الغربية في كل شيء، فقد مثّلت ألمانيا في عهده أكبر مخزون للقوة في العالم، وما محاربته للعالم شرقه وغربه، إلا انعكاساً للجنون والمخزون بآن معاً، أما أن يتم التشبيه بسوديت جديدة في الضفة الغربية اليوم، فهو ليس أكثر من محاولة إضافية للإحتفاظ بالأراضي المحتلة، لا لشيء، وإنما لأن نتنياهو يعرف ببساطة، بأن المنطقة العربية اليوم، لاتمثل ألمانيا الأمس، وأن أياً من زعمائها لايمثل هتلر الديكتاتوري ولا حتى كول الديمقراطي، وأن التشابيه مختلّة في جميع المقاييس، بل وفي النوايا.

سيعيدنا نتنياهو إلى أيام الصخب حين كانت تشتد حرارة النقاش حول تعريف الأمة، ورغم أن التعريف أصبح واضحاً، وضوح علم الأمواج الصوتية، إلا أنه مع ذلك، مازال يعتبر (الفلسطينية قومية) أو كما قال بالضبط (حين اكتسب الفلسطينيون الخاصية القومية فجأة.. ص١٧٨)، وأن (الفلسطينيين أمة) حين قال (وكأن أمة فلسطينية قد خُلقت فجأة من العدم - ص١٧٧) ثم يسترسل دون حاجة للإسترسال ليتحدث عن مخاطر (دولة ثالثة مصطنعة بين إسرائيل والأردن - ص١٨٠) (وأن هذه الدولة بحكم تطبيق المبدأ الفلسطيني ليست تهديداً لوجود إسرائيل، أو خطراً، على السلام والاستقرار في الشرق الأوسط فحسب، بل إنها ستعمل على زيادة المطالب بالإستقلال، من جانب أقليات قومية في أنحاء العالم كله - ص١٨٤).

سنتفق مع نتنياهو بادئ ذي بدء على التحديدات للمفهوم أولاً، فالدولة الوطنية حسب

مصطلحنا نحن العرب، هي غير الدولة القومية، بل إن الدولة الوطنية بالتحديد، (بعد صناعة سايكس بيكو) هي الدولة القطرية، وإنّ الدولة الوطنية أو القطريّة هي فرع من أصل، وأما الأصل فهو في الوعاء الأكبر للدولة العربية الواحدة، أي الدولة القومية المشتملة على الدويلات الوطنية - الإقليمية أو القطرية. من هنا جاء الإضطراب في المقدمات والاستنتاجات التي يبني عليها نتنياهو، فالعرب عند نتنياهو هم اثنان وعشرون دولة، ومن عربستان إلى الدار البيضاء، فإنه لا جامع غير العواطف، وإنه طبقاً (للمبدأ الإسرائيلي) لا الفلسطيني، فإن سوريا أمة، والعراق أمة، والأردن أمة ومصر أمة وليبيا أمة... وهكذا حتى يكتمل العدّ معه إلى رقم اثنين وعشرين أمة في اثنين وعشرين دولة، ومن هنا تصبح الدولة هي خالقة الأمة وليس العكس... وهو صحيح عموماً بالنسبة لإسرائيل وحدها فقط.

إن نتنياهو لا يلاحظ مثلاً، أن وضع العرب قد يسري على معظم الشعوب في العالم الثالث من حيث التجزئة، فقد كان شعار بريطانيا في العالم كله يقول: (لكي تسود عليك أن تفرّق.. أو فرّق تسد)، وقد كان الاستثناء الوحيد في الجزيرة العربية أو المملكة العربية السعودية، لا من أجل توحيد الجزيرة بل ضبطها، إذ من المعلوم أن الجزيرة العربية قارة بأسرها، فإذا ما انتشرت فيها دول القبائل، فإن جيش بريطانيا بأسره، لايستطيع ضبط المنطقة التي تمور بالكنوز.

ليس ثمة أي فصيل فلسطيني عاملٌ في الساحة الوطنية، سواء أكان في الداخل أم الخارج، يطلق على نفسه، اسم (الفصيل القومي)، بل إن الأسماء كلها تجول بين الوطني أو التحرري أو العربي، وأن الوطنية هي سمة النضال التحرري الفلسطيني القطري، وأن القومية هي سمة النضال العربي من أجل فلسطين، أو بناء الدولة الواحدة، وغيرها من الشعارات في الفضاء القومي الأكبر..

أما الفارق بين الدولة والأمة، فإنه ينشأ عادة من فرق النشوء في التاريخ، فالدولة لاتستطيع أن تتحقق دون أمة، لكن الأمة متحققة بدونها في الأصل، وعلى هذا فإن الدولة لاحقة، نتيجة، انعكاس للتباين الاجتماعي أو الضرورة الحياتية للأمة(*).

إن الأمة خالقة الدولة وليس العكس، والفلسطينيين بصفتهم جزءاً من الأمة (وليس هم الأمة بحد ذاتهم)، فقد كانوا تحت خيمة دولة واحدة، لا منذ دولة أمية أو العباس فحسب، بل والدول الإقليمية الإسلامية الكبرى، مثل دول الفاطميين والأيوبيين والحمدانيين والمملوكيين والعثمانيين ودولة محمد علي باشا.. وحتى آخر التمزقات العربية على يد سايكس بيكو ومؤتمر سان ريمو من بعد.

من الواضح أيضاً، أن الدولة لاتصنع الأمة، فسويسرا مثلاً، ليست أمة وفق تحديدات المفهوم

(*) ها هنا يكمن الفارق بين نشوء الدولة عموماً، وبين نشوئها وفق نمط الإنتاج الآسيوي، فقد لاحظ أساتذة التاريخ وعلم الاجتماع، أن الدولة نشأت أول ما نشأت في التاريخ، إثر انقسام المجتمع إلى طبقات، وهو النشوء التاريخي - الاجتماعي للدول - أما الدولة على نمط الإنتاج الآسيوي (الهند ومصر... مثلاً) فتجلّت جراء الحاجة الحياتية لتنظيم مفرزات الطبيعة بالدرجة الأولى.

التاريخي لنشوء الأمم، بل هي شعوب مجتمعة على الرضى والقبول لنظام فيدرالي ذي ميزات حضارية وثقافية مشتركة، أما الدولة المركزية في سويسرا، فإنها للتعاطي مع الخارج على العموم، وما زالت سويسرا مستقرة على ثلاث لغات معاً، هي الألمانية والفرنسية والإيطالية، ومع ذلك فإن ندرة النموذج السويسري تجعله وحيداً في هذا العالم.

وطبقاً للتحديدات الآنفة، فإن إسرائيل ليست أمة هي الأخرى، ولو أنها تمتلك دولة واحدة وقوية، فإسرائيل دولة تريد أن تصنع أمة خارج التحديدات الكونية للأمم، ومن الواضح أن نتنياهو يعلم جيداً بأن اليهودية دين وليست أمة، كذلك هو الإسلام والمسيحية، ولاتنطبق تحديدات أمة في العالم، مثلما تنطبق على العرب، ولو أنهم جاؤوا بمئة دولة عربية إضافية، فالعروبة عبر آلاف السنين، انبثقت من تاريخ مشترك ولغة واحدة وأديان ثلاثة متواترة، وعادات وتقاليد متشابهة، واقتصاد متطابق مع كل مرحلة بمرحلتها، وبأمزجة متقاربة أو أمنيات مشتركة، وما ينطبق على الأمة العربية كأصل، ينطبق على الفلسطينيين كفرع، والدولة الوطنية الفلسطينية هي جزء من تحديدات سايكس بيكو ووعد بلفور على غرار الدول الإقليمية القائمة في المنطقة، وفي المحصلة، فإن الدولة الفلسطينية (ليست قومية فلسطينية) وأن شعب هذه الدولة ليس هو الأمة بل جزء منها، وأن المملكة الأردنية ليست بالقطع هي الوطن الفلسطيني (رغم التلاعب في الكلمات في سيناريو نتنياهو)، وأن الضفة والقطاع ليسا سوديت الألمان لدى التشيك، وأن أكثرية الشعب الفلسطيني في دولته المقترحة لاتحتاج إلى جدال، بل ولا حتى إلى اللجوء إلى مبدأ تقرير المصير، فالمصير يتقرر يومياً بمزيد من الدماء، والمظاهرات الشاملة التي تندلع من رفح وحتى جنين، هي صوت الفلسطيني في حاضره ومستقبله.

أما عن تمسّك السوريين بولايتهم الجنوبية، وأن فلسطين لم تكن دولة خاصة في عمرها التاريخي قط، فهو قول لايجافي الحقائق التاريخية، لكن القول نفسه، يمكن تمديده ليشمل جميع الأوضاع القطرية العربية، فالأردن لم يكن وحده هكذا دولة في التاريخ، كذلك سوريا في جغرافيتها اليوم، والدول القطرية العربية القائمة حالياً، هي من مخلوقات سايكس بيكو، وليست من مخلوقات التاريخ الطبيعي للمنطقة، **ولولا إسرائيل لما طالب الفلسطينيون بدولة وطنية خاصة بهم، بل إن الشعب الفلسطيني نَظَر إلى نفسه دائماً، على أنه الولاية الجنوبية الطبيعية لسوريا، تماماً مثلما أنّ حلب هي الولاية الشمالية لها.**

* * *

بعد أن يدور نتنياهو دورة كاملة، حول الأراضي واللاجئين وتقرير المصير، ينتقل إلى الانتفاضة الفلسطينية التي هي (عمل من أعمال الإرهاب، قامت عليه ورعته منظمة التحرير، فيما لم تشأ حركة حماس التأخر خلف المنظمة، وهكذا تنافست المنظمتان الإرهابيتان على دفع الجمهور الفلسطيني لسفك الدماء ـ ص١٩٥) ويتناول نتنياهو في صفحات لاحقة، قصة الانتفاضة على أنها ردة فعل على حادث طُرق أدى إلى دهس أربعة فلسطينيين بواسطة شاحنة إسرائيلية كانت في طريقها إلى غزّة، فما أكثر حوادث الطرق في إسرائيل!..

يعود نتنياهو ليسلّط بقعة الضوء على الانتفاضة وفق المنطق الإسرائيلي ـ دون الاتيان على مفخرة تكسير الأيدي بالعصي ـ وذلك كما يلي(*):

ـ قام أعضاء اللجان الضاربة بإشعال النار بحوانيت العرب الذين خرقوا أوامر الإضراب... كما اقتحموا المدارس لإخراج التلاميذ من مدارسهم إلى الشوارع للتظاهر، وبذلك ارتفع عدد الأولاد الذين دفعوا حياتهم ثمناً في اضطرابات الانتفاضة ـ ص١٩٥.

ـ هاجم أعضاء اللجان الجنود الإسرائيليين الذين كُلّفوا باسترداد الأمن بواسطة الحجارة والزجاجات الحارقة والفؤوس وقد حظوا بالشهرة والتقدير الدوليين ـ ص١٩٦.

ـ هاجم رجال الانتفاضة جيرانهم اليهود في الضفة الغربية، ودعوا أشقاءهم العرب إلى المساندة من أجل حرق الأرض تحت أقدام اليهود ـ ص ١٩٦.

ـ بلغ عدد القتلى من الفلسطينيين على يد الانتفاضة لاتهامهم بالتعامل مع إسرائيل ٧٥٠ قتيلاً، وهو ما يساوي العدد نفسه من القتلى على يد سلطات الأمن الإسرائيلية ـ ص١٩٧.

ـ لم يُنشر الكثير عن طابع الانتفاضة المعادي للمسيحية، إذ هناك الكثير من أعمال العنف والابتزاز، كانت موجهة ضد المسيحيين في الضفة الغربية ص ١٩٧.

* * *

لايتوقع المرء من إنسانٍ مثل نتنياهو أن يقيّم الانتفاضة بأقلّ مما فعل، فالانتفاضة حسب منطقه إذن:

ـ ردّة فعل على حادث سير غير مقصود.

ـ تسبّبَت في قتل الأطفال الفلسطينيين.

ـ قتلت ٧٥٠ فلسطينياً لاتهامهم بالتعامل مع إسرائيل.

ـ وهي موجهة ضد المسيحيين في فلسطين.

تلك هي أسباب الانتفاضة ونتائجها، أما المخزون الحبيس في صدر الشعب الفلسطيني بعد عشرين عاماً من الاحتلال والطرد والإبعاد والاستعباد فلا علاقة له بالانتفاضة وهذا هو المنطق برمته.

لقد بدأت الانتفاضة بشرارة حادث السير الإسرائيلي (٩ كانون الأول ١٩٨٧) سواء كان متعمداً أو غير مُتعمّد، فشعب فلسطين لم يذهب إلى (محاكم السير) في إسرائيل، كي يقف على حقيقة الحادث، ولو أن (باروخ) قاتل المُصلّين في الحرم الإبراهيمي، والذي أسقط ثلاثين فلسطينياً

(*) يستخرج نتنياهو من أكياس حقائقه كُلّ ما خُلق من سلبيات فيحيلها على كاهل الانتفاضة، وقد سبق لوكالات العالم أن ألقت القبض على إسرائيل بالجرم المشهود، حين عمدت دوريات الجيش الإسرائيلي إلى تكسير أيادي بعض شبان الانتفاضة بالعصي والحجارة، تحت سمع الصحفيين وعدسات كاميراتهم... هذه المفخرة لا يأتي عليها صاحب سيف الحقيقة أبداً.

بالإطلاق عليهم من الخلف، لم يكن هو الآخر بحاجة إلى (سيّارة الذريعة) للقتل، مثلما حدث في غزة.

إن ردود الفعل عادة، لاتحتاج إلى السنين الطوال، كي تهدأ، فعمر الانتفاضة منذ ولادتها على يد حادث غزة وحتى موعد الحكم الذاتي، كان قد تجاوز ثمانية أعوام، وهي أعوام مليئة بالبطولات الجماعية والدماء من غزة إلى جنين فالناصرة فالأرض المحتلة عام ١٩٤٨، فكيف يمكن تفسيرها بحادث سير منفرد؟ وبعيد؟.

كان على نتنياهو لو كان يعلم حين وضعه لكتابه، بأنه سيصبح رئيساً لوزارة إسرائيل، أن يكون مسؤولاً ومنصفاً، ولو أن النزاهة لاتتصالح دائماً مع البروفيلات الشخصية للمسؤولين، فالانتفاضة لم تكن لتبزغ من مخيلة الشر الإرهابي لمجموع الشعب، إنها الامتداد المتواتر منذ ثورة العام ١٩٢٠ وحتى الآن، والانتفاضة لم تكن جهالة أطفال، كي تقتلهم إسرائيل وتضع دماءهم في عنق ذويهم من رجال الانتفاضة، فأمر هذا التحايل في تحميل المسؤولية ليس هو الأول في سجل اسرائيل، والانتفاضة لم تقم لقتل أبنائها، (بل النادر من الخونة)، وهو قانون وطني مشروع في جميع أوطان العالم، وحتى الديمقراطيات الغربية ممن تعرف أحكام الصعقة الكهربائية أو أحكام المؤبد (لامتناع الاعدام)، فإنها ظلت تفعل الشيء نفسه بالنسبة للجواسيس من مواطنيها، ولو أن العديد من الحالات، كانت غير قابلة للنشر والانتشار، فقد مُلئت شوارع فرنسا بعد فيشي بجثث عملاء النازية من الفرنسيين. وفي ڤيتنام وربما في الجزائر، كان يتم قتل الخائن لتُنشر صوره في المنشورات على أنه سقط في ساحات القتال ضد المستعمرين، والانتفاضة شأنها شأن أي ثورة في التاريخ، لها تاريخ خلفي، قد يخطئ ويصيب، إلا أنها لم تكن ولايمكن أن تكون إلا مع نفسها وهدفها، فهي لاتتبّع العنف مع نصف جسدها من المسيحيين، ومن سوء طالع نتنياهو، أن فلسطين عبر تاريخها السماوي كله، لم تكن يوماً بصدد الطائفية الدينية ضد أيٍّ من أهل الكتاب، وقد نظر الفلسطينيون إلى أنفسهم وبلادهم باعتزاز حين اختارتها السماء كي تكون ملاذ أبينا إبراهيم وموطن سيدنا المسيح، وإسراء نبينا محمد، وعَهدُ إيلياء العمري باقٍ في التاريخ والجغرافيا، وما مآذن الأقصى وأجراس القيامة إلا نفحةٌ إيمانية ـ حضارية من تاريخ سلامها على مر الدهور.

يروي إميل الغوري، نائب الحاج أمين الحسيني قائد الكفاح الوطني في فلسطين، الواقعة التاريخية التالية:

(في نهاية العشرينات ومع اندلاع ثورة العام ١٩٢٩ تواردت الأنباء عن تنظيم هجوم يهودي يستهدف المسجد الأقصى وقد رأت الحركة الوطنية تطويع أربعين شاباً لحراسة المسجد ليل نهار، وحين جاءت قوائم التطوع، وجدنا أن الأكثرية من المئة المتطوعين، كانوا من إخوتنا المسيحيين ـ إميل الغوري ـ (خمسون عاماً من أجل فلسطين)..

هذا وسيستدعي نتنياهو شواهد من القسوة العالمية ضد الإضطرابات حتى في بلدان الديمقراطية الغربية، فها هي لوس أنجلوس ونيويورك وديترويت... بل وفي ١٢٥ مدينة أمريكية، تنشب اضطرابات يكون من نتائجها اعتقال عشرات الألوف، والحكم بالسجن على بعض قاذفي

الحجارة لمدة خمسمئة عام في ولاية ميرلاند الأمريكية، ويتباهى نتنياهو بأن إسرائيل (لم تكن تحكم على قاذفي الحجارة بأكثر من غرامات مالية فقط ـ ص١٩٩).

ما ألطف ما يتمتع به الفلسطينيون في ظل عدالة إسرائيل، لنستمع إلى نتنياهو ثانية: (إن إسرائيل لاتحاكم وفقاً لمعايير دولية مألوفة إذ لدينا هنا، معايير ليست ثنائية الوجه بل ثلاثية الوجه، هناك معيار للأنظمة الاستبدادية العربية، ومعيار ثان للدول الديمقراطية، ومعيار ثالث خاص بإسرائيل... إن المعيار الذي يحكم تصرفات إسرائيل يكلفها الكثير ـ ص١٩٩).

يحب نتنياهو التشبه دائماً بسياسات الحد الأعلى في استخدام القوة، ففي الولايات المتحدة، وهو مثاله المفضل، تم اعتقال واحداً وعشرين ألفاً من المواطنين في اضطرابات لوس أنجلوس، وفي ولاية ميرلاند حُكم على شابين من قاذفي الحجارة بالسجن المؤبد لمدة خمسمئة عام لقيامهم (بهجوم متعمد للقتل، وإحداث عاهة في طفلة، وتدمير ممتلكات)، ولدى الأنظمة الاستبدادية العربية، فإن آخر مايسمح المواطن لنفسه أن يتمادى به هو الحريّة، وإن المعتقلات السياسية جاهزة دوماً، لاستقبال المئات بل والآلاف من المعارضين، بقضاء وغير قضاء، وإن دماء الأصوليين في العديد من الأقطار العربية شاهدة على ذلك..

ومن هنا، فإن المنّة التي يَمُنُّ علينا بها نتنياهو، هي أن إسرائيل لاتفعل ذلك مع الفلسطينيين، غير أنه في (الديالوج) النفسي الداخلي ما يبعث على التهديد، (فالأنا) الخفية الساكنة في صدر نتنياهو تتجاوز (المحرّم) في ظاهرية الديمقراطية الإسرائيلية تجاه الفلسطينيين، لتذهب إلى اقرار سياسة الحد الأقصى المتبعة في ميرلاند، أو في أي عاصمة من عواصم الاستبداد العربي، فإذا ما اقتضت الظروف السلمية بالتظاهر بعدم التمييز، فإن في حالة مثل حالة الانتفاضة، يمكن بل يجب، الخروج من جلد الثعلب الديمقراطي، لإيقاع أقصى القصاص في المخيلة الخالقة للإرهاب.

لقد دان حزب الليكود مراراً، سياسات حزب العمل المُتبعة تجاه معالجات الانتفاضة، وقد طالب دائماً باتباع سياسة الحد الأقصى في استخدام القوة ضد عناصر الشغب في الضفة والقطاع، ووصلت السخرية الخبيثة بأحد نواب الليكود للقول: إذا أردنا للإنتفاضة أن تهدأ في أسبوع، فعلينا تجييرها لأي حاكم عربي في المنطقة!.

لكن النزاع بين الليكود والعمل لم يكن أكثر من دعاية انتخابية برّاقة أمام الناخب الإسرائيلي، فالعمل لم يكن أقل قسوة مع الفلسطينيين، فمنذ ١٩٦٧/٩/٢٣ يوم أن أبعَد العملُ الشيخ عبد الحميد السائح وكمال ناصر وإبراهيم بكر وياسر عمرو وروحي الخطيب وكمال الدجاني.. ومازالت القائمة مفتوحة، فقد طال الإبعاد (مع الدكتورين: حمزة النتشة وعبد العزيز أحمد، والسادة غازي السعدي وعمر سلامة... حتى الشهر الخامس من العام ١٩٧٧) تسعمئة وتسع وثلاثين شخصية فلسطينية من جميع شرائح المجتمع، (ولدنيا ملف كامل بأسماء الجميع وتواريخ ابعادهم، باليوم والشهر والسنة أيضاً)..

وفي غضون أشهر بعد حرب العام ١٩٦٧، نسف الإسرائيليون في قطاع غزة وحده، بدءاً من منزل الحاج خليل أبو العون ونعمان أديب، وعصام العَلَمي، وغالب الرّبّ، وخميس حسان...

وإلى منزل نبيل منصور وحسين الأبيض وخليل عبد العال، ما عدده ١٧٧ منزلاً فلسطينياً، وهذا في قطاع غزة وحده... فأين إذن معيار نتنياهو الثالث الخاص بإسرائيل؟! قد يكون هذا المعيار في (التحسن الكبير الذي شهدته الضفة في ارتفاع مستوى الحياة، بحيث أقيمت الجامعات والمستشفيات وشُقت الطرق الجديدة، وبحيث في العام ١٩٨٥ كان قد وصل عدد المشتركين في خدمة الهاتف أربعة أضعاف ما كان عليه الوضع عام ١٩٦٧، كما تضاعف عدد مالكي السيارات خمس مرات، وزاد حجم البناء عشرة أضعاف، ووصل التيار الكهربائي إلى ٩١ بالمئة من المنازل مقابل ٢٣ بالمئة عام ١٩٦٧، وفي عام ١٩٨٧ أصبح الفلسطينيون سكان الضفة والقطاع من أكثر المثقفين اطلاعاً في العالم العربي، وفي إطار زيارات استطلاعية مُنح الفلسطينيون فرصة المقارنة بين حياتهم تحت الاحتلال الإسرائيلي وحياة المواطنين العرب في ظل حكوماتهم العربية، وتبيّن أن الغالبية العظمى قررت أن حياتهم في الضفة أفضل بكثير... - ص١٩٣ نتنياهو).

إننا نقر تماماً بأن إسرائيل دولة غير عادية لا في المنطقة فحسب، بل وفي العالم أيضاً. لكن البحث يبقى دوماً كونها غير عادية، فجميعنا يتذكر مشروع مارشال الأمريكي في أوروبا الغربية بعد الحرب العالمية الثانية، وقد سبق أن خُصّص لتنفيذ هذا المشروع القارّي، مبلغاً وقدره ١٣ مليار دولار، ولإدراك ما تعنيه أرقام التمويل الخارجي لإسرائيل فإنه يكفي القول بأن ما تلقته إسرائيل حتى العام ١٩٧٧ من الولايات المتحدة يعادل نصف المقرر لمشروع مارشال كله، وهذا معناه أيضاً، أن مليونين من الإسرائيليين آنذاك، كانوا قد حصلوا على نصف ما حصل عليه مائتا مليون أوروبي، وهو ما يزيد على مئة ضعف عما حصل عليه الأوروبي حليف أمريكا في الحرب.. وهناك ميدان آخر للمقارنة أيضاً، فما بين الفترة ١٩٥١ - ١٩٥٩، ظلّت البلدان النامية تتلقى مساعدات سنوية قدرها (٣١٦٤ مليون دولار) حصة إسرائيل منها ٤٠٠ مليون دولار، وفي العام ١٩٥٩ كان عدد سكان إسرائيل ١,٧ مليون نسمة، لكن عدد سكان البلدان النامية في العالم الثالث كان يبلغ مليارين آنذاك، وهذا معناه أيضاً أن كل فرد في إسرائيل تلقى مبلغاً من المساعدات أكبر بمئة ضعف مما تلقاه الفرد في العالم الثالث.

وفي مثال ثالث أكثر وضوحاً، فقد حصلت إسرائيل خلال ثمانية عشر عاماً على (هبات فقط) بلغت ٧ مليار دولار، ويمثل هذا المبلغ ما هو أكبر من مجموع الدخل القومي السنوي للبلدان العربية المجاورة مجتمعةً وهي (مصر وسوريا ولبنان والأردن) حيث قدر دخلها السنوي بستة مليارات.

أما المساهمة الأمريكية وحدها فقد أعطت في الفترة ما بين ١٩٤٨ و ١٩٦٧ لكل إسرائيلي ٤٣٥ دولاراً ولكل عربي ٣٦ دولاراً أي أن ٢,٥ بالمئة من سكان المنطقة، يختطفون ٣٠ بالمئة من المساعدات المخصصة لـ ٩٧,٥ من سكانها.

إن حصة المواطن الإسرائيلي من المساعدات السنوية الخارجية اليوم تبلغ ما بين ١٢٠٠ إلى ١٨٠٠ دولار، وإن حصته من الدين الإسرائيلي هي نحو ٣٠٠٠ دولار، وهو ما يضعه في مصاف الدخول الأولى في العالم.

أما عن تطوير البنية التحتية للضفة (وليس القطاع)، فله علاقة في سياسة إسرائيل الاستيطانية بالدرجة الأولى، فغير ما يقارب مئة وستين مستوطنة في الضفة و ٣٥ في الجولان و١٦ في غزة، هناك سياسات المستقبل التي تُعنى بالهجرة اليهودية، وقد دأب كبار المسؤولين في الدولة الإسرائيلية وآخرهم رئيس الدولة السيد عازر وايزمن، على الترداد بأن سكان إسرائيل من اليهود، لايعادل ثلث اليهود في العالم، وأن إسرائيل ماضية في سياسات استيطانية من شأنها أن تمهد السبيل لقدوم الغالبية العظمى من يهود العالم إلى إسرائيل، وهنا يكمن سر رفع مستوى البنية التحتية في الضفة وشرقي القدس، فيما تم إهمال (القطاع المجدب) في غزة، ويؤكد ذلك كلام نتنياهو نفسه حين يقول: (مع مرور الوقت فقد قرر حوالي ٣٢٥ ألف إسرائيلي العودة لممارسة حقهم في الاستيطان في شرق القدس والضفة الغربية وقطاع غزة، ويشمل هذا الرقم ١٤٠ ألف مستوطن في الضفة الغربية و ١٨٠ ألفاً في القدس القديمة وضواحيها و ٥٠٠٠ في قطاع غزة ـ ص٢٠٣).

ومن الواضح أن أكثر من ٩٢ بالمئة من المستوطنين أصبحوا في الضفة ومدينة القدس، فيما يعود إهمال غزة لأسبابٍ تتصل بمشاريع التسوية منذ زمن بعيد.

لايعاني نتنياهو كيهودي ممتاز، من المطالبة والإعادة والتكرار ثم العودة إلى الموضوع نفسه دون يأس أو ملل، إذ من حق اليهودي أن يستوطن أنى شاء في أرض إسرائيل التوراتية، فهنا عاش الأجداد منذ غابر القرون وفي سلوان (اسم منطقة في مركز القدس)، التي هي بقعة النبع والبركة، (والتي هي (شيلوح المكرائية)، حيث زودت القدس بالمياه كما ورد في التناخ منذ عهد الهيكل الأول، وحيث بنى الملك داوود عاصمته وحصنه حول هذا الموقع المقدّس والذي اسمه ـ كتيف هشلوّح ـ هذا الموقع هو بالذات مدينة داوود، وهنا على بعد ٢٠٠ متر من حائط المبكى يريدون منع الإسرائيليين من الاستيطان ـ ص٢٠٦) مع ذلك، فإن نتنياهو يتحدث عن (كتيف هشلوّح) بثقةٍ لا يسع المرء معها، إلا أن يتصور تاريخاً عمره ٣٢٠٠ سنة، وقد استُجلب الآن لتلتقطه كاميرات الـ C.N.N أو الـ M.P.C بكل تفاصيل خرائط بلدياته ومناطقه وشوارعه حتى أماكن سكن الناس فيه، وبحيث لم ينقص نتنياهو سوى أن يزوّد إنسان كتيف هشلوّح قبل ثلاثة آلاف ومئتي سنة، بالكود الرمزي لمدينته وشارعه وبنائه، كذلك ربما برقم هاتفه وصندوقه البريدي!.

إننا نمتلك ما هو مضاد لتاريخ إسرائيل التوراتي والمكرائي والتناخي كما دوّنه الكهنة عبر العصور، ونحن لنا تاريخنا أيضاً، لكنه ليس بالتاريخ الرمزي الموازي للعروق، ففكرة (المكان المسكون بالروح) أساساً، هي فكرة جرمانية تتصل بالعرق، وقد تحدث الفلاسفة الألمان (فيخته وهيغل وشليغل ونوفاليس) بمفاهيم عنصرية وغيبية عن الأمة (إن الأمة ليست إلا صدىً لإرادة السماء التي تحدد لها رسالة عالمية شاملة ـ فيخته).

وأما نوفاليس ابن الرومانسية الألمانية، فقد صاغ المعنى ذاته حين تساءل: (أليست الطبيعة شأنها شأن الإنسان ذات تاريخ وروح؟!).

وها هو ذا تيودور هرتزل المفعم بالثقافة الألمانية يربط بين أطروحتي الأرض والعرق في كتابه (الدولة اليهودية) بشكلٍ لايحتاج إلى تأويل.. (إن اسم فلسطين هو صرخة استنفار تاريخية ستعمل على تجميع شعبنا..) (إننا لاننظر إلى أنفسنا على أننا من عرق واحد إلا بفعل عقيدة آبائنا..).

فقضية العودة لدى الشعب الفلسطيني لاترتبط بأي مفهوم عرقي، كما يرتبط مفهوم العودة لدى الصهيونيين، وإنما هي عودة مشروعة إلى أرض سبق أن طُردوا منها بالأمس القريب، فيما ظل أجدادهم يزرعونها دون انقطاع منذ أربعة آلاف عام. وأما الأماكن المقدسة في فلسطين، فينظر إليها الفلسطينيون بل والعرب والمسلمون، نظرة تسامح لا مثيل لها، فهي عزيزة لأنها بُنيت بيد أجدادهم دون تمييز، وحضورها شاهد على وثيقة تاريخها، وقد سبق للديانات الثلاث أن تعايشت معاً طوال مراحل الإمبراطوريات العربية ـ الإسلامية العظمى، حيث كان بمقدورها أن تفعل ما تريد، وما المكان المسكون بالروح إلا نظرية مرفوضة في الإسلام (فخير القبور هي الدوارس)، وهي المستوية مع الأرض، دون تمجيد أو تفاخر، فالأرض لله، والروح عند بارئها في السماء.

في النهايات الأخيرة من فصله الرابع، تتصاعد أصوات الموسيقى الجنائزية في بيت نتنياهو، فقد مات أخوه يوني في سبيل أرض إسرائيل (هذه الأرض التي ذرف شعب إسرائيل في سبيلها بحراً من الدموع عبر التاريخ، هذه الأرض التي مع فقدانها، حلّت باليهود المصائب والكوارث والشتات والقتل الجماعي، هذه الأرض التي حارب اليهود من أجلها ببطولة وإصرار نادرَين ـ ص٢١٠).

ثم يستعيد ذكريات الأيام الخوالي، بعد بضعة أسابيع من حرب حزيران فيقول: (لقد عبّر موشي دايان عن هذه المشاعر بالكلمة التي ألقاها على جبل الزيتون خلال حفلٍ أقيم لنقل رفاة قتلى معركة القدس في العام ١٩٤٨، حين قال:

اخواننا الذين سقطتم في حرب التحرير، لم نتخلّ عن حلمكم، ولم ننس دوركم، عدنا إلى الجبل، إلى مهد تاريخ شعبنا، إلى تركة آبائنا، أرض القضاة ومعقل ممالك داوُود، عدنا إلى الخليل ونابلس وبيت لحم وعنتوت وأريحا ونهر الأردن..).

وغير دايان، يقول نتنياهو، فقد عبر كل يهودي في تلك الأيام عن مشاعره الخاصة بطريقته، كما يسترسل نتنياهو (مازلت أذكر تلك الأيام حين توقفنا نحن الشُبّان أمام منحدر بيت حورون، حيث تغلبٌ المكابيون على اليونانيين.. وأمام قلعة بتيار حيث قمع فيها تمرد باركوخبا على أيدي الجيوش الرومانية...).

بعد سبع سنوات من تركه لوزارة الدفاع، أي في الأيام الأخيرة من حياته، يوم يحين الاستحقاق عادة، كتب موشي دايان كلماتٍ ما، في الفصل الأخير من كتابه قصة حياتي، وكانت الكلمات رجع صدى لرحلة أثرية ساقته إلى التاريخ في الأودية والكهوف في بئر السبع الكنعانية، وها هو إذ يتدلى بوثاق حبله مع حافة الوادي السحيق، يطلق كلمات احتفالية وربما وداعية، تبعث على الدهشة، مثلما تبعث على التأمل، فدعونا نتفحّص ما يقول:

(حاولت أن أعرف أكثر عن جماعة هذا الكهف القديم، وأن أسترجع نمط حياتهم اليومي، كان السكون بداخله يتحطم أحياناً بأصوات هدير المقاتلات المحلقة فوق الرؤوس تفحّصتُ عظام الحيوانات المتروكة من آخر وجبة لهم..

ورأيت بَصَمات الخزّاف على الأواني... إن سكان هذا الكهف عاشوا هناك قبل ألفي سنة من بطريركنا ابراهام. لم تتمكن جماعة الكهف من القراءة والكتابة، لكنهم كانوا ينقشون على الصخر والحجر ويزيّنون الفخّار بخطوط حمراء عميقة..

هذا كان وطنهم ومركز حياتهم... ومن هنا كانوا يخرجون للصيد إلى سيناء والنقب... لقد خبروا كل واد وكل تلّة بل وكل طيّة من طيات الأرض... إنها أرضهم مكان مولدهم، وكان يجب عليهم أن يحبّوها، وعندما كانوا يتعرّضون للهجوم، فإنهم كانوا يقاتلون من أجلها. وها أنا الآن في نهاية الحبل أزحف عبر الفتحة على جانب المنحدر إلى عتبة الباب داخل بيتهم... لقد كان شعوراً جيّاشاً حين تأثّرتُ بالموقد القديم، فقد كانت النار مثل لو أنها أُطفئت الآن.. لا أحتاج إلى أن أُغمض عيني كي أستحضر امرأة المنزل وهي منحنية تشعل الجَمَرات لتحضير وجبة الغداء، لعائلتها.. لعائلتي..)(*).

تُرى مَن أولئك الذين سكنوا البلاد قبل ألفي سنة من سيّدنا إبراهيم عليه السلام؟!.

○ ○ ○

(٣)

لايقلل من أهمية العروض السياسية للأحداث الراهنة وما قبلها، كون نتنياهو يستلهم العبرة من التاريخ، ففي فصله الخامس المعنون بحصان طروادة، يصبح الفلسطينيون عنده اليوم، يونانيّي

(*) نثبت هنا النص الأصلي كما كتبه دايان ـ ص٧٦٥:

As I tried to learn more about this ancient cave community and recapture their daily pattern of living, the quiet within was occasionally shattered by the ultramodern sound of jet fighters roaring overhead. I examined the animal bones left over from ther last meal, saw the fingerprints of the potters on the vessels they had molded. These cave dwellers had lived here some two thousand years before our Patriarch Abraham. They could neither read nor write, but they occasionally drew and painted on rock and stone and decorated their pottery with deep-red stripes. This was their home, the center familiar with every wadi, every hill, every fold in the ground. This was their land, their birthplace, and they must have loved it. When they were attacked, they fought for it. And now here was I < at the end of a rope, having crawled through an opening in a cliffside across their threshold and inside their home. It was an extraordinary sensation. I crouched by the ancient hearth. It was as through the fire had only just died down, and I did not need to close my eyes to conjure up the woman of the house bending over to spark its embers into flame as she prepared the meal for her family. My family.

الأمس، فيما تمثل إسرائيل (طروادة الصغيرة) المدافعة عن نفسها، ضد اليونانييّن، أقصد الفلسطينيين الغرباء عنها!...

ولكي يستقيم قَلب التاريخ مع نتنياهو، فإنه يستحضر الميثاق الوطني الفلسطيني على النحو التالي:

ـ البند رقم ١٥ ويقول: تحرير فلسطين واجب وطني من أجل طرد الغزو الصهيوني والإمبريالي من الوطن العربي.

ـ البند رقم ١٩ ويقول: قرارات تقسيم الأمم المتحدة لفلسطين عام ١٩٤٧ وإقامة إسرائيل، باطلة من أساسها.

ـ البند رقم ٢٠ ويقول: إن الإدعاءات المتعلّقة بوجود علاقة تاريخية أو روحانية بين اليهود وفلسطين تاريخياً، لاتنسجم مع الحقائق التاريخية نفسها.

ـ البند رقم ٢١ يقول: إن الشعب الفلسطيني الذي يعبر عن نفسه بواسطة الثورة الفلسطينية المسلحة، يرفض كافة الحلول التي تأتي بديلاً لتحرير فلسطين كاملة.

ثم يتابع: ويُستّشف من هذا الميثاق أن الخلاف بين منظمة التحرير وإسرائيل لايتعلق بالأرض إنما بوجود إسرائيل كدولة بالذات.

لقد تعلّم الفلسطينيون في مدرسة القسوة والظلم الصهيونَيين (فضائلَ) التطرف أيضاً، فمنذ عقدين قبل الميثاق أو أكثر، كانت إسرائيل تتمسك بلاءاتها الفعليّة لا اللفظية ضد الفلسطينيين سواء كانوا في الداخل أو الشتات:

ـ ليس لهم حق في حريّة تقرير المصير.

ـ ليس لهم حق في تشكيل دولة.

ـ ليس لهم حق في العودة.

ـ ليس لهم حق في اختيار ممثليهم.

ولم يكُذّب أيٌّ من مسؤولي إسرائيل هذه اللاءات بل جرى السباق على المزايدة عليها، وإليكم بعض المقتطفات الزاخرة من التاريخ الرسمي لإسرائيل منذ البداية:

ـ لامكان للفلسطينيين في أرض إسرائيل، فإن لم يخرجوا عن طواعية فستجبرهم على ذلك بالقوة. هذا ما يقوله بن غوريون. (وفي حينه كان الشعار الصهيوني لا استقلال ذاتي ولا مواطنة)، وكانت الأرغون قد مهدّت السبيل لعروضها الغنيّة في دير ياسين وقبية ونحالين...

ـ إن نشيج مولود فلسطيني جديد في إسرائيل، يسرق النوم من عيوني لساعات طوال... لماذا لايذهب الفلسطينيون كلهم إلى سوريا طالما أنهم يعتقدون بأنهم الجزء الجنوبي منها. (جوالدا مائير).

ـ ليس هناك ما يُسمى بشعب فلسطين. إن إسرائيل هي فلسطين وشعب إسرائيل هو شعب فلسطين ولا شيء آخر (جولدا مائير).

ـ إن سرحان سرحان قاتل روبيرت كيندي هو فلسطيني من القدس، إنهم يفعلون الشيء ذاته

في أرض إسرائيل. وهذا كلام المعتدل آبا إيبان!..

لايستطيع نتنياهو أن يتحدث عن رفض الفلسطينيين للقرارات الصادرة عن الأمم المتحدة مثل قرار التقسيم، فمع زمن صدور الميثاق، كانت إسرائيل قد خلّفت وراء ظهرها العشرات بل المئات من القرارات الدولية الصادرة عن مجلس الأمن أو الجمعية العمومية للأمم المتحدة، ففي كل مرة كان يصدر فيها قرار عن مجلس الأمن أو الجمعية العامة، ويتصل بالقضية الفلسطينية أو بشؤون اللاجئين، كانت إسرائيل ترفضه جهاراً نهاراً وعلى الملأ العالمي كله، وفي الحقيقة فإن القرار الوحيد الذي أخذ طريقه للتنفيذ بقوّة الولايات المتحدة لابقوة هيئة الأمم المتحدة، كان القرار رقم ٦٧٨ الموجّه لتدمير دولة عربية، أما جملة القرارات الدولية التي ظلّت إسرائيل ترفضها عنوة، فلم تكن تنل أكثر من ابتسامة الرضى لأبٍ مأخوذٍ بتصرفات ابنه الخرقاء، وهو بالضبط ما سلكه الغرب ومن بعده الولايات المتحدة حيال إسرائيل.

ما الذي يتوقعه نتنياهو إذن، من فلسطيني خارج لتوّه من قبور الحياة حيث داهمه الصراع فجعله بين خيارين من خياراته، إما مجاراة الصراع من أجل البقاء أو الموت. فقد أذنت الليالي الحالكات بعد مضي سبعة عشر عاماً يومها (أي في العام ١٩٦٥) من العيش داخل الأسلاك والمهانة، أن يشقّ الوضع الحبيس غلاف المشيمة ليرى المولود الجديد بنفسه نور مصيره، وليندفع من أجل نزع الوصاية الرسمية عنه وانتزاع حقوقه بنفسه.

مع ذلك... فإنه لابد من الإشارة إلى أن الميثاق لم يصدر عن أي تمييز ديني أو عرقي وأن المادة الثانية منه، تلك التي سكت عنها نتنياهو تقول (بأن اليهود الذين عاشوا في فلسطين على نحو دائم حتى بداية الاحتلال الصهيوني لفلسطيني، سيعتبرون فلسطينيّين بكل ما تشتمل عليها حقوق المواطنة الكاملة).

كذلك هناك نص يقول (إن الفلسطينيين مسيحيين ومسلمين، لا يقاتلون ديناً أو شعباً بعينه، بل يقاتلون اضطهاداً استعمارياً ويناضلون ضد الأيديولوجية السياسية التي تحاول تبرير تصرفات الصهيونية السياسية)، وفي العام ١٩٧٤ وقف ياسر عرفات في الأمم المتحدة يوجّه نداء إلى اليهود يقول فيه:

(إننا نوجه إليكم هذا النداء النبيل لكي نعيش معاً في ظل سلام عادل في فلسطين علمانية وديمقراطية، وأنا أعلن لكم أننا لانرغب أبداً في إراقة نقطة دم واحدة من دم العرب أو اليهود، وإننا لانهدف إلى استمرار الحرب لحظة واحدة حينما نصل إلى سلام عادل).

ينتقل نتنياهو بعد صبيب قذائفه ضد الميثاق الفلسطيني، إلى محطة أخرى من محطات تأسيس منظمة التحرير الفلسطينية في العام ١٩٦٤ فيقول (لقد أقام الرئيس المصري جمال عبد الناصر منظمة التحرير كي تكون أداةً لمواصلة حربه الفاشلة ضد إسرائيل، كذلك لزعزعة الاستقرار في الأردن، وبما أن هاتين الدولتين تحتفظان بكامل أرض إسرائيل الانتدابية، فإن مبدأ تحرير كل أرض فلسطين الوارد في ميثاق المنظمة، يعني تحريرها من كلتا الدولتين معاً ـ ص٢١٤).

وهنا لابد من القول، بأن نتنياهو إما أنه يجهل الوقائع أو يتجاهلها على الأرجح، فموعد القاهرة مع مؤتمر القمة الأول، الذي نتج عنه فيما نتج: منظمة التحرير، لم يكن بصدد المنظمة

أساساً ولا بصدد تأسيسها، بل إن الموضوع الرئيسي والأهم الذي انعقد من أجله، كان تحويل مجرى نهر الأردن، الذي كانت إسرائيل بصدد الإقدام عليه.

يجهل نتنياهو أو يتجاهل أيضاً، الفرق بين ولادتين تاريخيتين منفصلتين في التاريخ القريب، ولادة منظمة التحرير على أيدي الرسمية العربية، وولادة المقاومة الفلسطينية (الثورةالفلسطينية) على يد أبنائها في المنافي أو الداخل، وما بين العام ١٩٦٤ والعام ١٩٦٥، فقد جرت مياه غزيرة في النيل وبردى والأردن بتيارات متعارضة ما بين الرسمية العربية والذاتية الفلسطينية، فقد كان واضحاً، أن الذاتية الفلسطينية قررت رحلة الخروج من الإسار الرسمي المضروب حولها، ثم أخذت تطور زخمها الخاص بها، ومع لمعان نجم المقاومة الفلسطينية، فقد أخذ الرئيس عبد الناصر في عين الاعتبار، خط الصعود الذاتي الفلسطيني، وما يمكن أن ينجم عنه، فقد كان يشعر بأن بؤر الانفجار في العالم العربي تناثرت بشكل يدعو إلى القلق، (وقد كان في أعماق نفسه يحسُّ بأن المسائل يجب ألا تنفلت، رغم كل الآمال الحبيسة أو مظاهر الإحباط - هيكل، الإنفجار ص٧٦٩).

كان أحمد بن بلا، هو الرئيس العربي الأول الذي فتح صدره لاستقبال الشباب من الثوار الفلسطينيين واستمع إليهم، كذلك فعلَت سوريا منذ مطلع الستينات وقبل ولادة المنظمة أو حتى المقاومة الفلسطينية.. وفي السفارة الجزائرية في القاهرة، وقف صلاح خلف في الشهر الأخير من العام ١٩٦٧ ليقول:

(إن الفلسطينيين منذ الآن، لن يكونوا أدوات بيد أي نظام عربي مهما كان أو يكون..).

ومن أجل إحكام حلقته، فإن نتنياهو يعود ليضع وزر الدماء كلها على كاهل الشعب الفلسطيني دون حرج، (فمنذ مطلع القرن الحالي... منذ العشرينات والثلاثينات... فقد شنت عصابات عربية هجمات دامية ضد المستوطنين اليهود... وذهب في هذه الحرب الوحشية مئات اليهود... علماً بأنه في تلك الفترة لم يكن هناك لاجئون ولا مناطق محتلة أو حدود.. ولم يكن مطروحاً مبدأ تقرير المصير الفلسطيني.. لم يكن النزاع يتغّذى من تلك العناصر، بل من الرفض العربي لأي وجود يهودي في إسرائيل - صفحات ٢١٥ و ٢١٦).

لماذا يركز نتنياهو على مقتل مئات اليهود، ولا يأتي على ذكر آلاف العرب الذين قتلوا بالمقابل؟ أم أن الأرقام الأخرى لضحايا الشعوب لاتعني شيئاً عنده؟..

واستطراداً لماذا كان يقاتل الفلسطينيون منذ مطلع القرن إذن؟.. هل القتال مجرد هواية لديهم؟ أم ماذا؟

فإذا كان نتنياهو لايصدّق بأن الهجرات اليهودية الغربية إلى فلسطين، والمستعمرات اليهودية الناشئة على أراضي العرب، والاستيلاء على الأراضي بالمال أو بالقوة، من بين الأسباب الموجبة لنشوب الثورات والقتال والدماء.. إذن ماذا يقول في هذه الأرقام المختصرة:

- من العام ١٨٨٢ إلى العام ١٩٠٣ هاجر إلى فلسطين من رومانيا وروسيا ٢٥ ألف يهودي لايعرفون شيئاً عن فلسطين.

ـ في الفترة ذاتها، قامت السلطات البريطانية بمساعدة ٥٠٠ يهودي يمني للهجرة إلى فلسطين.

ـ مع نهاية العام ١٩٠٣ كان بحوزة المستوطنين اليهود مايقارب ٣٥٠ ألف دونم من مشتريات أحباء صهيون أو أسرة روتشيلد أو أراضي المشاع العائدة للدولة العثمانية، أي للشعب الفلسطيني.

ـ من العام ١٩٠٤ ـ ١٩١٨ هبط إلى أرض فلسطين أربعون ألفاً من الشباب المُفلس والمغامر، وكانوا في غالبيتهم إما من يهود روسيا أو رومانيا أيضاً.

ـ خلال الفترة نفسها، ساعد البريطانيون ١٥٠٠ يهودياً يمنياً من أجل الرحيل إلى فلسطين، وكان ذلك في العامين ١٩١١ و ١٩١٢.

ـ من العام ١٩١٩ إلى العام ١٩٢٣ هاجرت إلى فلسطين موجةٌ ثالثة من رومانيا وروسيا وبولونيا، وبلغ التعداد في هذه الهجرة ما يقارب ٣٥ ألفاً من اليهود الجدد.

ـ من العام ١٩٢٤ إلى العام ١٩٣٢ بلغت الموجة الرابعة حدّها الأعظمي المتمثل بهجرة ٨٩ ألف يهودي معظمهم من البلدان الأوروبية الشرقية، ومع نهاية العام ١٩٣٢ كان اليهود من المهاجرين قد بلغ تعدادهم ١٧٥ ألفاً في عموم فلسطين.

ـ من العام ١٩٣٣ إلى العام ١٩٣٩ بلغت هذه الموجة أعلى مستوى لها عندما وصل تعداد المهاجرين فيها إلى ٢١٥ ألف يهودي منهم ٤٥ ألفاً من ألمانية النازية وحدها.

ـ من العام ١٩٤٠ إلى العام ١٩٤٨ وهي الموجة الأخيرة حتى قيام إسرائيل وقد زاد تعداد المهاجرين الشرعيين وغير الشرعيين على ١٢٠ ألف مهاجر يهودي جديد، وهكذا مع انتهاء فترة الانتداب البريطاني كان التعداد العام للمهاجرين اليهود قد وصل إلى ٦٢٥ ألف نسمة، أو ما يعادل ثلث سكان البلاد، ونستطيع أن نرسم جدولاً إجمالياً لليهود القادمين (بموجب باسبورت التوراة إلى أرض التوراة الموعودة) أيام الانتداب البريطاني فقط، حسب مواطنهم الأصلية كما يلي:

البلد الأصلي	عدد المهاجرين
بولونيا	١٧٠,١٢٧
رومانيا	٤١,١٠٥
ألمانيا	٥٢,٩٥١
روسيا	٣٤,٨٠٦
تشيكوسلوفاكيا	١٦,٩٧٤
هنغاريا	١٠,٣٤٢
تركيا	٨,٢٧٧
بلغاريا	١٧,٠٧٧
اليمن والمغرب	١٥,٥٩٠
المجموع	**٣٦٧,٠٦٩**

ثم توالت الهجرات إلى يومنا هذا...

ومن تاريخ منظمة التحرير الفلسطينية، يعود نتنياهو القهقرى، ليجد خلفيّة عرفات في مفتي فلسطين الحاج أمين الحسيني (الذي عيّنه الانكليز بمنصب المفتي الأكبر عام ١٩٢١ أي بعد أن أُدين بالتحريض على قتل اليهود في القدس القديمة..) ويتابع:

(عندما تسلم هتلر السلطة عام ١٩٣٣ توجّه المفتي لأول مرة في حياته إلى القنصل الألماني في القدس، وسرعان ما أُكتشف التشابه الكبير بين حركة القومية النازية والحركة العربية. لقد وجد الحسيني في النازية الألمانية والفاشية الإيطالية، القوّة التي كان يبحث عنها... وعندما اندلعت الحرب العالمية الثانية، كان المفتي يقيم في العراق، وقد أجرى هناك اتصالات مع قوات المحور، وحاول جمع التأييد لثورة موالية للنازيين في العراق وسوريا، واستعان بصلاح البيطار وميشيل عفلق من مؤسسي حزب البعث... وفي عام ١٩٤١ أطاح النظام الجديد الذي كان حليفاً للمفتي بالنظام الملكي الهاشمي وأعلن الحرب على الحلفاء، وأخيراً أعاد الجيش البريطاني ملك العراق إلى عرشه - ص٢١٨). لانعلم تماماً من أين يأتي نتنياهو بمعلوماته التاريخيّة الخاصة، لكن التضارب يبقى سيّد الموقف على أي حال، ففيما يُعين الانكليز الحاج أمين الحسيني، في منصب الإفتاء الأول، يصبح على حين غرّة نازياً متآمراً ضد الحلفاء، وفيما يُقدّم الانكليز للحاج أمين كلّ عون محتمل انطلاقاً من لاساميّة إدارة الانتداب ضد اليهود، يُمسي الحاج أمين طريداً شريداً في منافي الخارج هرباً من سلطة الانتداب نفسها!...

فلماذا لايعتمد نتنياهو حقيقة واحدة يظّل عليها؟!

لم يأت الحاج أمين الحسيني من فراغ التاريخ السابق عليه، فهو سليل عائلة ظلّت من أرفع العائلات الفلسطينية شأناً في المنزلة الدينيّة والوطنية والاجتماعية، وما بين العامين ١٩٢٠ و ١٩٢٨ كان ابن عمه موسى كاظم الحسيني بمثابة الأب الجليل للحركة الوطنية الفلسطينية، وفي عام ١٩٣٣ قاد موسى الحسيني المظاهرات الشعبية اللاهبة في القدس وقد أُصيب أثناءها بجراح نُقل على أثرها إلى المستشفى ثم توفي في السنة التالية ودفن في المدرسة الخاتونية بباب الحديد غرب الحرم، حيث سيلتحق ابنه الشهيد عبد القادر الحسيني بطل القسطل والمعارك الوطنية في فلسطين والعراق... أما الحاج أمين الحسيني، فقد كانأول رئيس لمنظمة سياسية عرفتها فلسطين هي (النادي العربي)، وقد اعتقل الانكليز الحاج أمين في مدينة الخليل قبل وصول لجنة الاستفتاء الأمريكية (كينغ - كراين) إلى فلسطين بأيام. ثم اعتقله الانكليز ثانية أثناء اندلاع ثورة العام ١٩٢٠ وقد تمكن من الإفلات بمساعدة رجال الحركة الوطنية الفلسطينية، فاضُطر للجوء إلى الكرك ثم إلى دمشق، وبعدها أصدرت المحكمة الانكليزية - العسكرية في فلسطين، حكماً غيابياً ضدّه بالسجن خمسة عشر عاماً، إلا أن هياج البلاد أدى إلى إصدار العفو عنه..

مع العام ١٩٢١ وبشغور منصب الإفتاء بالقدس، نظراً لوفاة شقيق الحاج أمين (المفتي السابق كامل الحسيني)، فإن الحاج أمين رشحّ نفسه لهذا المركز، وكان النظام المتّبع أن ينعقد لهذه الغاية مجلس يضمُّ كبار رجال الدين والفقهاء وقادة العمل الوطني ووجهاء المناطق المعروفين لانتخاب

المفتي (فيما بعد سيصبح المجلس الإسلامي الأعلى)، وقد فاز الحاج أمين بمركز الاستفتاء الأول في معركة انتخابية حامية رغم تدخل الانكليز لاسقاطه..

ومن يوم مولده وحتى وفاته (١٨٩٥ ـ ١٩٧٤) فقد ظلَّ الحاج أمين الحسيني ابن الأسرة الحسينية وطالب (كلية الفرير) بالقدس، وخريج الجامع الأزهر في القاهرة، والمعاهد العليا في استامبول، والكلية العسكرية حيث تخرج كضابط في الجيش العثماني، ثم كمرافق خاص للحاكم البريطاني العام في فلسطين (أثناء الثورة العربية الكبرى)، حيث استقال بعد أن علم بخفايا المؤامرة البريطانية ضد فلسطين وضد أهداف الثورة العربية، ومن حينه فقد ظل هو القائد الوطني الأول للحركة الوطنية الفلسطينية دون منازع.

لقد بحث الحاج أمين كما يفعل أي زعيم آخر، عن مخرج بل عن مخارج لانقاذ بلده من الوقوع في الهاوية، ولعله كان الأول في استشراف مستقبلِ المخاطر القاتلة جراء الهجرات اليهودية إلى فلسطين، وكان هو أول من استخدم عبارة (تهويد فلسطين)، ولطالما صحّت نبوءاته حيث غفا الغافلون ونامت النواطير، في الوقت الذي ظل فيه يجوب الدنيا بحثاً عن نصيرٍ أو معين.

وكان من الطبيعي أن يجدَ حلفاءَه العالميين في خصوم بريطانيا أولاً، والأصدقاء عموماً، وكانت عبارة تشرشل مالئة الدنيا وشاغلة الناس (سأتحالف مع الشيطان ضد ألمانيا)، هاديةَ الجميع عن طريق المقارنة لا الاقتران (فالحاج) لايمكن أن يكون نازياً بالعقيدة، فقبل بضعة سنوات من طلَبه حيّاً أو ميتاً في العراق(*). ولجوئه إلى طهران فصوفيا فروما فبرلين... كان الحاج أمين قبل لقائه بهتلر النازي، يُصّلي نحو الكعبة مع خلائط شتى من الأمم والأجناس والأعراق والألوان، وكان رجع الصدى لبلال الحبشي يرّن في الأرجاء، فكيف به وقد أصبح فجأة موالياً لأيديولوجية النازية الآرية، وهو (الحاج) و(الشرقي) و(المسلم) بآن معاً؟!.

لم يكن الحاج أمين في جميع الأحوال بحاجة إلى معونة الانكليز كي يصبح مُفتياً ونازياً بجمع مالا يجمع عند نتنياهو، ثم إن هناك أخطاءً مشينة في تأريخ نتنياهو حين يصم ثورة الكيلاني بالنازية، فقد مرّت مياه غزيرة في دجلة، مع التهاب الاضطرابات الجياشة في العراق طوال عقد الثلاثينات من وجود الاستعمار البريطاني فيه.. فمن وزارات نوري السعيد، إلى مشكلة الآشوريين التي أججّ نارها الانكليز، إلى وزارات جميل المدفعي وجودت الأيوبي، إلى الانتخابات المُزيّفة، إلى وزارة الهاشمي، فوزارة الثنائي حكمت سليمان ـ بكر صدقي التي فرضها الجيش بأسنّة حرابه، وإلى مقتل بكر صدقي وعودة نوري السعيد، فمقتل الملك غازي نفسه، ثم إلى نُذر الحرب العالمية الثانية... والأوضاع في العراق لاتهدأ، فإذا كانت الأحداث تتقدم من وجهها السيء مع وصول رشيد عالي الكيلاني إلى رئاسة الوزارة من جديد، فإن الثورة هي منتهاها..

(*) بعد انهيار ثورة رشيد عالي الكيلاني في ربيع العام ١٩٤١، ظلت القوات البريطانية التي أعادت نوري السعيد والوصي إلى عرش العراق، تبحث عن الحاج أمين الحسيني بسبب تأليبه الشعب والجيش ضد الاستعمار البريطاني، وقد اعتبرت لندن الحاج أمين من كبار المحرضين على الثورة.

إنه لمن دواعي الأسف أن يخطئ رئيس وزراء إسرائيل (ملك إسرائيل) هذه الأخطاء التاريخية الفاحشة إذ:

ـ لم يكن ميشيل عفلق ولا صلاح البيطار من الموالين للنازية في شبابهما، بل كانوا أشد قرباً إلى الرومانسية الماركسية الفرنسية حيث الأساتذة: أندريه جيد، ورومان، ورولان وتولستوي، ودستويفسكي، وفاغنر وشتراوس وموتسارت..

ـ كانت المسألة المطروحة في سوريا هي نصرةُ العراق ضد الإنكليز وليس الانضمام إلى ألمانيا هتلرية..

ـ من هذه الوجهة فقد التحق شباب عربي من سوريا ولبنان ومصر وفلسطين والأردن بالثورة العراقية ١٩٤١ أمثال: فوزي القاوقجي وعبد القادر الحسيني وعثمان الحوراني وفقهاء الدستور المصري الأساتذة الكبار: السنهوري وعزام ومبارك، كذلك قاد أكرم الحوراني عُصبةً من الرجال في سبيل الالتحاق بالثورة ضد الإنكليز.

ـ لم يتحالف رشيد عالي الكيلاني مع ألمانيا النازية ـ كما يزعم نتنياهو ـ وكل ما في الأمر، وكما تكسر القشّة ظهر البعير، أنَّ الانكليز طلبواإلى حكومة الكيلاني أن تقطع علاقاتها الدبلوماسية مع برلين، وأن تُعلن الحرب على ألمانيا مع الحلفاء، وقد رفض الكيلاني هذه المطالب من أساسها، لا لشيء، وإنما ببساطة لأنها تتعارض مع مبدأ السيادة الوطني..

ـ بضغط من الحلفاء بعد سقوط النازية، لم تقبل دولة واحدة ـ حتى سويسرا ـ حق اللجوء السياسي للحاج أمين الحسيني، فاعتقله الفرنسيون من الجهة الخاضعة لهم من ألمانيا، ثم أودعوه السجن دون محاكمة لسنةٍ أو ينوف.. ويرد السؤال الآن، لماذا سكت نتنياهو عن التحالف الذي أبرمته منظماتٌ صهيونية مع هتلر؟!. وما هو فحوى هذا التحالف ومرماه؟.

حين غادر الحاخام يعقوب برينز عام ١٩٣٧ برلين إلى الولايات المتحدة، نشر المذكرة الموجهة من الاتحاد الصهيوني الألماني إلى الحزب النازي... وإليكم بعض المقاطع من هذه المذكرة:

(يعلم الجميع في ألمانيا أن الصهاينة هم القادرون وحدهم أن يمثلوا اليهود في المفاوضات مع الحكومة النازية.. إن انبعاث الحياة القومية كما تجلّت في ألمانيا حينما تبنّت القيم الدينية والقومية لابد أن يحدث كذلك لدى الطائفة اليهودية.. وإنَّ بعض الدعوات الحاضرة الرامية إلى مقاطعة ألمانيا لاتتفق في جوهرها مع الصهيونية).

هذا وسينجح الاتحاد الصهيوني الألماني وأكثريته في جمهورية ڤيمار، بمساعدة النازيين في الحصول على امتياز تمثيل اليهود في الرايخ الثالث، رغم القوانين العرقية التي اتخذها هتلر في نورمبورغ، وقد صفّى الاتحاد الصهيوني في ألمانيا تدريجياً الجناح اليهودي الذي كان يعادي هتلر.. وهكذا كان التماثل بين أهداف النازية وأهداف الصهيونية يسمح للقادة الصهاينة بأن يلعبوا دور الموجّه القائد بين جميع اليهود الألمان.

هذا وقد جاء في تقرير للشرطة الألمانية السرّية في حزيران من العام ١٩٣٥، أن المنظمات

الصهيونية تقوم بتنظيم أعضائها أمام أعين السلطات المسؤولة في (مقاطعة باڤيير) كما أنها تقوم بحملات تبرع بغية تشجيع الهجرة وشراء الأراضي في فلسطين.. وكان رد قيادة الشرطة السرّية: لا مانع طالما أن الأموال المجبية ستسهل الوصول إلى حل عملي لمشكلة اليهود في العالم.

وتقول الكاتبة اليهودية حنّه آرنت في أطروحتها حول المسؤولية الحقيقية للقادة الصهاينة في الكارثة النازية ما يلي:

(إن سياسة التعاون مع النازيين بنتائجها المفجعة التي أصابت كل يهود أوروبا لايمكن أن تعزى إلى أخطاء شخصية أو عجز فردي لدى بعض القادة الصهاينة الذين استسلموا لهذا التعاون..) ومما له دلالة حين يكون الكلام موجهاً لشخصيةٍ لها مكانتها في الحكومة الصهيونية مثل نتنياهو، أن المتهمين بالتعاون مع هتلر من أمثال كاستنر قد بُرئت ساحتهم من قبل المحكمة العليا في إسرائيل، علماً بأن المحاكم البدائية كانت قد دانتهم من قبل، إذ ليس من المعقول أن يُحاسب هؤلاء وقد طبقوا سياسة ثابتة رسمها القادة الصهاينة الذين أصبحوا فيما بعد حكاماً لدولة إسرائيل.

عام ١٩٣٥ أيضاً كتب ف.. هايدريخ أحد قادة النازية مايلي:

(علينا أن نميز صنفين من اليهود: الصهاينة، والمناصرين للإندماج، نحن مع الصهيانية الذين يتبنّون مفهوماً عرقياً بحتاً، إننا نُمحّض مشروعهم أقوى تأييدنا..).

أما المثال التاريخي الأهم، فيتبدى في تعاون عصابة شتيرن التي كان يتزعمها اسحاق شامير مع حكومة هتلر، وقد بدأت هذه العصابة اتصالاتها الأولى مع القنصل الإيطالي في القدس، لكنها على مايبدو لم تثمر، حينئذ توجهت عصابة شتيرن على الفور إلى ألمانيا النازية، وكان أول رسول بعث به شامير إلى ڤون هنتغ رئيس المخابرات الألمانية السرية في دمشق، أما اللقاء الثاني فكان يشرف عليه رسول آخر من شامير اسمه ناتان يالين مور.. وفي الرابع من شباط عام ١٩٨٣ نشرت جريدة يديعوت أحرونوت مقالةً وثائقية تؤكد فيها اتصالات شتيرن بالنازية العالمية، كما نشرت المقالة حديثاً لأحد القادة التاريخيين لمنظمة شتيرن أكد فيها بأن زملاءه في المنظمة شرحوا للقادة النازيين (مسألة التماثل بين النظام النازي الجديد المتوقع في أوروبا ومطامح الشعب اليهودي في فلسطين).

في التاسع عشر من آب عام ١٩٨٣ نشرت الجريدة نفسها، مقالة للنقابي الإسرائيلي المعروف اليعازار هاليڤي، وقد أورد في المقالة نصاً لوثيقة سرية لم تنشر، كان اسحاق شامير وابراهام شتيرن قد سلمّاها إلى السفارة الألمانية في أنقرة، ففيما الحرب على أشدها في العالم والعلمين، وماكينات العالم الإعلامية تهدر عن مذابح وحشية ضد اليهود في ألمانيا، كانت رسالة شامير وشتيرن تقول: (نحن متماثلون في وجهات النظر.. وبيننا مصالح مشتركة بل ومتطابقة.. فلماذا لا نتعاون؟..).

لقد عرضت المنظمة العسكرية القومية حيث نتنياهو واحداً من تلامذة قادتها، على ألمانيا النازية الوقوف إلى جانبها رسمياً في الحرب، شريطة أن تعترف حكومة هتلر بالمطامح القومية لحركة العاملين من أجل الحرية (حيروت) في إسرائيل.

في كانون الأول من العام ١٩٤١ تمكن الانكليز من إلقاء القبض على إسحاق شامير، وقد جاء في قرار اتهامه بأنه:

(إرهابي ويعمل مع العدو النازي).

بالنسبة إلى ميناحيم بيغن البولوني، فقد ظلّ يتدرب مع خمسة وعشرين آخرين من أعضاء منظمته الأرغون في جبال التاترا على جميع فنون التفجير والتدمير والتخريب، تحت قيادة مدرّبين بولونيين تغذّيهم الحكومة اللاسامية الصريحة آنذاك.. ومع دخول النازيين إلى بولونيا، هرب الجزء الأعظم من قادة المنظمة الصهيونية وعلى رأسهم بيغن، ولم يكن هذا هو الأسلوب النموذجي للدفاع عن بولونيا في مواجهة القوات الغازية. وقد نشرت الصحف البولونية في العام ١٩٤٢ قصة انتحار أحد القادة الصهيونيين المتعاونين مع النازية السرّية، بعد أن رأى ما رأى من قتل ما ينوف على ٣٠٠ ألف يهودي على يد نازية هتلر في بولونيا. وهنا تعود إلى السؤال، إذ لماذا يُقذف بالاتهام في وجه الحاج أمين الحسيني (الذي وقف ضد إنقاذ اليهود من هنغاريا ورومانيا وبولونيا وكرواتيا.. كما يكتب نتنياهو في الصفحة ٢١٩ من كتابه) فيما يهرب أحد أكبر قادة الحركة الصهيونية من معركة الانقاذ هذه؟!

ومن بيغن إلى شامير إلى شتيرن على طريق مدرسة جابوتنسكي ينتقل نتنياهو ليملأ ما تبقى من صفحات فصله (حيث تجاوزت أربعين صفحة كاملة) بقصص الإرهاب الفلسطيني في المنطقة والعالم.

(كانت حرب الإرهاب التي شنتها المنظمة موجهة لاحتجاز رهائن مقابل الإفراج عن مخربين مسجونين في إسرائيل، وقد بدأت المعركة في الجو باختطاف طائرة العال واقتيادها إلى الجزائر في العام ١٩٦٨.. ثم طائرة أخرى في طريقها إلى لندن.. وثالثة هوجمت على أرض المطار في زوريخ..

كما هاجم مخربون يابانيون مطار اللد وأدى ذلك إلى مقتل عشرات السياح.. ثم طوّرت المنظمة الفلسطينية أساليب عملياتها، فانتقلت إلى مهاجمة شركات الطيران غير الإسرائيلية، فنسفت طائرة أمريكية في الأردن، واختطفت في العام ١٩٧٢ طائرة بلجيكية كانت متجهة إلى إسرائيل، وفي العام ١٩٧٦ نجح المخربون باختطاف طائرة ركاب فرنسية وأرغموها على التوجه إلى عينتيبة.. ص٢٢٨) ثم يروي نتنياهو قصة (عملية لا مثيل لها في التاريخ العسكري، حين أقلعت قوّة جوية عسكرية إسرائيلية لمسافة ٣٠٠٠ كم وتمكّنت من تحرير الرهائن على أرض بلد معاد هي أوغندا، وقد قتل في المعركة جميع المخربين وثلاث رهائن وأخي يوني قائد القوة المهاجمة - ص٢٢٨ مكان تحت الشمس أو مكان بين الأمم).

ثم يعدد نتنياهو مجموعة المنظمات الدولية التي عملت بالتعاون مع المنظمة فيقول (جميع المخربين في العالم مرّوا عبر معسكرات التدريب التابعة لمنظمة التحرير الفلسطينية في صور وصيدا ومنها الألوية الحمراء الإيطالية، عصابات بادر ماينهوف الألمانية، الجيش الجمهوري الإيرلندي، الجيش الأحمر الياباني، العمل المباشر الفرنسي، جيش التحرير التركي، جماعة أصالة الأرمنية،

حراس الثورة الإيرانية، إرهابيون من أمريكا اللاتينية، ونازيون جدد من ألمانيا.. وجميعهم كانوا هناك في المنظمة الفلسطينية - ص٢٣٠).

ثم يتابع (من عش الدبور هذا، التابع لمنظمة التحرير الفلسطينية انتشر فيروس الإرهاب إلى جميع أنحاء العالم الغربي، وبمساعدة حكومات عربية وشيوعية.. ولكن ما مدى الضرر الذي أصاب إسرائيل نتيجة هذه الأعمال؟!.. إنه لايتجاوز بعض الخسائر الهامشية، فعلى صعيد الأرواح قُتل بضع مئات من الإسرائيليين على يد الإرهاب، مقابل ١٩ ألفاً قُتلوا في الحروب مع العرب خلال ثلاثين عاماً من الصراع - ص٢٣٠).

* * *

لسنا هنا بصدد المتاجرة بالكلمات أو إظهار المفاخر العسكرية الإسرائيلية.. فإذا كان ثمّة مَن هو إرهابي فلسطيني فقد تعلّم ذلك من تاريخ مدرسة القسوة الصهيونية وطغيانها.. إذ أين كانت كل هذه (الإرهابية الفلسطينية) مخبأة قبل قدوم الصهيونية إلى فلسطين؟!...

لماذا يطيح نتنياهو بكل دوافع الإرهاب القَبليّة قبل أن يصل الإنسان العالمي من ألمانيا وإيطاليا وأمريكا اللاتينية.. إلى موضوع الإرهاب نفسه، هل هي مَرضَية سادّية في بعض الشعوب دون الأخرى، وإلى متى إذن، يتم التمييز العرقي ما بين شعوب سادّية وأخرى متمدنة وحضارية؟

لماذا يخلط نتنياهو الحابل بالنابل ما بين الإرهاب والكفاح الوطني للشعوب؟

ثم لماذا لايأتي في كل صفحاته (عن الإرهاب الفلسطيني)، بكلمة حق واحدة، هي الكفاح الوطني المشروع لشعب فلسطين؟ كيف يمكنه تفسير هذا التطاول التاريخي من الحاج أمين إلى عرفات فعشراوي؟ لقد تفادى نتنياهو كلّ ما له علاقة بالكفاح الوطني الفلسطيني منذ مطلع هذا القرن حيث سيخرج من كيس تاريخه كل شهداء فلسطين بدءاً من القسّام وجمجوم والحجازي وعبد القادر الحسيني ومئات الألوف الآخرين.. بأنهم جميعهم كانوا من الإرهابيين؟..

إنه ليس هو الأسلوب المثالي للنزاهة... إذ لماذا لم يتحدث نتنياهو عن الفرق الشاسع بين إرهاب الدول وإرهاب الأفراد أيضاً؟ أيهما أشد فداحةً في القتل..

لا خيار أمامنا فنتنياهو يُكرهنا على إعادة فتح السّجل الصهيوني من جديد:

هناك قاعدة تاريخية تقول، إذا تواتر نصّان عن حَدث تاريخي واحد، فإن الأفضلية تعطى للنص الأقدم.. وتلك هي حكاية الفلسطينيّين مع الإرهاب الصهيوني الأسبق..

أيُّ حُكم يمكن إطلاقه على السجل الإرهابي الصهيوني - الإسرائيلي الذي أدى إلى مأساة شعب فلسطيّن؟ إن الأحكام التي أطلقت حتى الآن ليست بالقليلة، ولو أن أفضلها هنا ما ليس عربياً، بل ما يدين إسرائيل من إسرائيل ذاتها، وهذا هو موشي دايان في العام ١٩٥٦ يقول في رثاء صديق له اسمه روي روتنبرغ قُتل في مصادمات مع العرب: (لنتوقف اليوم عن قذف الذين قَتلوا بالاتهامات، مَن نحن لنناقش أحقادهم، ها قد انقضت ثمانية أعوام حتى الآن، وهم يجلسون في مخيماتهم المبعثرة، وفي غزة يتم تحت عيونهم وأبصارهم كيف نحوّل إلى ممتلكاتنا الأراضي

والقرى التي عاش فيها آباؤهم وأجدادهم، نحن جيل من المستوطنين، لولا الخوذة الفولاذية والمدفع لانستطيع أن نزرع شجرة أو نبني بيتاً).

الفيلسوف الإسرائيلي مارتن بوبر في كتابه إسرائيل والعالم، يعلق على مذبحة دير ياسين بقوله (هنا كانت الجريمة جريمتنا، أو جريمتي أنا بالذات، جريمة اليهود ضد الروح والإنسان، إنني حتى اليوم لا أفكر بما وقع دون أن أشعر في قرارة نفسي بأنني مذنب).

إن أمام الباحث في شأن الإرهاب الصهيوني فرصة نادرة لا يمكن أن تتاح لأي باحث في الإرهاب مهما كان اتجاهه أو جنسيته، ذلك أن قادة الإرهاب الصهيوني نشروا مؤلفات ضخمة بحثوا فيها بإسهاب وتفصيلٍ دقيقين، مختلف المنظمات الإرهابية التي كانوا ينتمون إليها والعقائد الأساسية التي قامت عليها، ونشوئها وتنظيمها وأهدافها، ووصفوا بدقة نادرة مختلف الجرائم التي ارتكبوها، أو التمثيل الذي عمدوا إليه بكل صراحة دون خجل أو خوف أو تردد، وليس من المبالغة القول، بأنه لايسع المرء أن يجد في أي تراث عسكري سياسي لأي شعب من شعوب العالم مثل هذا التراث الأسطوري عن الإرهاب الصهيوني، إن مجرد الكشف عن هذه الحقائق من قبل قادة الإرهاب الصهيوني ونفر من الذين ارتكبوا أبشع الجرائم التي لايمكن أن يقترفها بشر ضد بشر، بل يهود ضد يهود عندما كانت المصلحة الصهيونية تقتضي ذلك، هو بحد ذاته تحد للعقل والضمير الإنسانيين.

فالقرار العقلي الذي تم بموجبه تجريد شعب كامل من تاريخه وحقوقه قبل القضاء عليه، هو بصورة مؤكدة أول مصدر من مصادر العنف الإرهابي بل وأسبق من أي مصدر آخر، ففي الوقت الذي لم يتجاوز فيه عدد اليهود في فلسطين عشرين الفاً، كتب مؤسس الحركة هرتزل يقول: (سنحاول أن نخرج السكان المُعدمين عبر الحدود بأن نجد لهم مأوىً في البلدان التي نطردهم إليها، إننا ننكر عليهم أي عمل في بلدنا).

ويتابع قائلاً: (إذا انتقلنا إلى منطقة توجد فيها حيوانات مفترسة، فسنلقي بالسكان البدائيين للقضاء عليها قبل طردهم خلف الحدود - الدولة اليهودية. هرتزل ١٨٩٦).

إن عبارة (السكان البدائيين) هي أول خطوة على طريق العنف الاستعماري الغربي، خاصةً إذا تعلقت الحقوق بالأسياد. أما الخطوة التالية فجاءت على لسان خَلفه وايزمن، عندما رسم خارطة الحد الأدنى لدولة اليهود المقبلة حسب مذكرته المؤرخة في ١٩١٩/٢/٣ وفق ما يلي:

(كل فلسطين غرب وشهر النهر، مع أقسام من جنوب سوريا حتى حدود ولاية دمشق، ولبنان حتى بيروت، وخط حديد الحجاز حتى معان ومنابع نهر الأردن وسفوح جبل الشيخ).

كتب موشي مينوحين الذي نشأ صهيونياً ثم ما لبث أن ارتد عنها يقول: (نحن أوائل المُتخرجين من المعبد المقدس للقومية اليهودية السياسية نذرنا أنفسنا وارتسمنا لننقذ الوطن اليهودي بأي ثمن كان، ولنُطهّر فلسطين من كل مَن لم يكن يهودياً، أعرف من أي مصدر أتكلم، فقد اتبعتُ أعمال عصابتي خلال هذه السنوات كلها، واحتجت إلى حياة كاملة كي أنفصل عن هذه الفلسفة البدائية العاصفة، إنني أراها شكلاً مَرَضياً من الأنانية الجماعية.. إذ ما هذه القومية التي

تعتبر نفسها (مُطلقاً) يدين لها العالم بكل شيء ولا تدين لأحدٍ بأي شيء؟!..)

الشخصية الرابعة في قيادة الحركة الصهيونية جابوتنسكي يقول مخاطباً الصهيوني: (كل إنسان آخر على خطأ، وأنت وحدك على صواب، لاتحاول أن تجد أعذاراً لغيرك، فهي غير ضرورية وهي غير صحيحة، وليس بوسعك أن تعتقد بأي شيء في العالم إذا اعترفت ولو لمرة واحدة، لاتوجد في العالم حقيقة واحدة إلا وكانت مُلكك أنت).

وفي هذا الإطار من المعقول واللامعقول يقول أيضاً:

(إن ابني يعمل لصالح الهجرة اللاشرعية لإيصال اليهود إلى فلسطين، إنه شرف لايحق لي مناقشته...)

شاب آخر تخرّج من مدرسة جابوتنسكي السياسية وبات يعمل في إحدى المستوطنات الصهيونية في فلسطين يجيب على السؤال:

كيف ترى المشكلة الفلسطينية لعرب إسرائيل؟ ويجيب على الفور: أراها من فوهة هذه البندقية..

بيغن. تلميذ جابوتنسكي الحميم: (لكي نتمكن من المحافظة على باب مفتوح مع حركتنا السريّة نحتاج إلى شيء أكثر من مجرد استخدام الأسماء الملفقة، إن أكثر الأمور ضرورة هو الشعور الداخلي القوي، الذي يحوّل ما هو شرعي إلى غير شرعي، وما هو غير شرعي إلى شرعي مبرر، لقد كنا مُقتنعين دائماً، بالشرعية المطلقة لأعمالنا غير الشرعية).

وهناك قائمة صهيونية طويلة لايمكن الإتيان عليها كلها.. إن المنطلقات الإيديولوجية التي تشكل بمجموعها ما يمكن أن يسمى بفلسفة الإسرائيلي تشكل العقلية الخلفية للعقيدة الصهيونية التي لم تتغير، كذلك فإن النفسية الإرهابية لايمكن أن تتغير بتغيّر الأسماء، فتغيير أسماء الهاغاناة والبالماخ والأرغون وشتيرن إلى جيش الدفاع الإسرائيلي، وتغيير أسماء قادة إسرائيل، من ديڤيد غرين إلى داڤيد بن غوريون، ومن شرتوك إلى شاريت ومن أودري إيڤان إلى آبا ايبان ومن جولدا مايرسون إلى جولدا مائير... لايعني مطلقاً أن تركيبتهم التاريخية والنفسية تجاه العلاقات الإنسانية والموقف من الفلسطينيين قد تغيرت..

وتلك هي أسماء المنظمات الصهيونية الأولى التي ساهمت في الأعمال الإرهابية ضد شعب فلسطين منذ أوائل هذا القرن:

١ ـ منظمة الهاغاناة. بن غوريون. بيغال يادين. ودايان.

٢ ـ الهاشومير (فرق الحراس): شكّلها حزب بوعالي صهيون.

٣ ـ فرق العمل. شكّلها المتطرف الصهيوني يوسف ترمبلدور.

٤ ـ البالماخ. اسحاق ساده، دايان، رابين، وبارليف.

٥ ـ الأرغون. المتطرف الإرهابي الشهير ميناحيم بيغن.

٦ ـ ليحي أوشترن. المتطرف الإرهابي الشهير ابراهام شتيرن (حيث لم يعجبه تطرف يغن نفسه) ثم شامير.

في يوم ١٩٤٦/٧/٢٤ أصدرت الحكومة البريطانية وثيقة رسمية تحت رقم ٦٨٧٣ تؤكد فيها مايلي:

(إن منظمة الأرغون وعصابة شتيرن تعملان منذ خريف العام ١٩٤٥ بالتعاون التام مع قيادة الهاغاناة في تنفيذ العمليات المشتركة، كما أن محطة الإذاعة المسماة بصوت إسرائيل، والتي تعمل بتمويل وتوجيه الوكالة اليهودية، هي في خدمة جميع المنظمات الصهيونية في فلسطين).

أما على صعيد الأعمال الإرهابية الميدانية، فيكفي أن نقول (فوق ما أوردناه من مقاطع فكرية، في الصفحات السابقة)، بأن عدد ضحايا الفلسطينيين من إرهاب الدولة العبرية يفوق مئات الألوف منذ مطلع هذا القرن، وأن الإرهاب الفلسطيني كما يؤرخ له نتنياهو منذ البداية في العام ١٩٦٨، لم يترتب عليه كما يعترف نتنياهو سوى بضع مئات من القتلى اليهود، وهذا هو الفارق بين إرهاب الدولة وإرهاب الأفراد، علماً بأن القتل المادي ليس هو القتل الوحيد في عالم الإنسان، وإن أفظع ما في الطغيان، كما يقول الفيلسوف الإسرائيلي مارتن بوبر، هو قتل روح الإنسان وليس جسده..

إن شبكة الدعاية الصهيونية العالمية، وتشويه الوقائع عبر الهيمنة على الوسائل الرئيسية للإعلام في الولايات المتحدة والغرب، قد بلغت حداً متفوقاً من التنظيم والمركزية والقوة بحيث صارت الصحافة والإذاعات ومحطات التلفزة وعالم السينما.. تجعل من الأسود أبيض في نظر الرأي العام الأوروبي، وتجعل من أهون أعمال بعض الفلسطينيين عملاً إرهابياً مروعاً، أما الإرهاب الدولي للصهيونية واعتداءاتها فتجعل منها عملاً مشروعاً من أعمال الدفاع عن النفس..

يقول روجيه غارودي في كتابه فلسطين أرض الرسالات ص٣٢٦:

(لقد كانت نسبة الضحايا منذ قيام دولة إسرائيل مئة ضحية عربية مقابل ضحية إسرائيلية واحدة، ومع ذلك فإن الرأي العام الغربي الذي توجّهه الدعاية الصهيونية يسمي الفلسطينيين إرهابيين).

لا مصلحة لنتنياهو في أن يقيم التمييز، رغم معرفته بأدق الفروق، بين الكفاح الوطني للشعوب والإرهاب، إذ لم يأت في كتابه كله، على كلمة واحدة من هذا القبيل، وكان واضحاً، أنه لايريد استثارة الفكر نحو موضوع مضاد، حتى أن الانتفاضة الفلسطينية التي كان عمادها الأطفال، وسلاحها الحجارة، كانت بالنسبة له عملاً من أعمال الإرهاب.

لم يكن نتنياهو هو الأول المستفيد من هذا الخلط، فمنذ القرن التاسع عشر مع ظهور الاستعمار الأوروبي في العالم، فإن (الإرهاب) كان وصمة الفعل الوطني في عالم المستعمرات، ولم يكن أنجح من دهاقنة بريطانيا، بالمرستون ولويد جورج ودزرائيلي ثم تشرشل، في مخططات دمج (إجرام القتل) بـ (كفاح القتال)، بل وأكثر من ذلك، فإنه سبق لتشرشل أن وصف غاندي بطل

(الكفاح السلمي) بأنه رجل متسوّل، ولو أن غاندي حمل يوماً شفرةً للحلاقة، لسُمي بالإرهابي بدلاً من المتسوّل...

إن إقامة الحد الواضح، بين الكفاح الوطني والإرهاب (الذي قد يكون مسألة سياسية ـ قانونية). لم يكن صعباً على أحد، فبريطانيا صاحبة أعرق قضاء في العالم، لم يكن ليعجزها تعريف الإرهاب كجريمة يحاسب عليها القانون، لكن المسألة لم تكن منذ بدايتها مسألة تعريف أو توصيف، قدر ما هي دوافع إنسانية مُعلّلة، فالإرهاب بحد ذاته فعل مدفوع لا يهبط من فراغ، وكان على المجتمع الدولي، لو أراد أن يكون عادلاً، أن يعاين بصبر وأناة، مسألة الدوافع في الأساس، لا أن يتعجّل في إقامة العقاب على النتائج فقط، فاندفاع الأفراد أو المجموعات تحت جائحة الظلم واليأس والقسوة، إلى عمل إرهابي ما، له أسبابه العميقة والبعيدة، ومثلما أن القضاء يعمل لاجتثاث أسباب الجريمة قبل القضاء على المجرم، فإن الإرهاب يجب من الوجهة الإنسانية، أن ينال الجهد نفسه، خاصة وأن العالم قد تعرّض طوال القرن الماضي، لأبشع ما في تاريخه من طغيان واستيلاء وإبادة. إن الإرهاب الفلسطيني على ضآلة أساليبه ونتائجه المجسّمة من قبل الصهيونية العالمية، لم يكن إيديولوجية، هدفها السطو أو القتل في سبيل مآرب ذاتية أو عنصرية، وباستثناء حالات نادرة، فإن الدماء لم تكن لتُسفح، لولا تعنّت الإسرائيليين ومبادرتهم إلى الهجوم المسلح في كل الحالات دون السؤال عن النتائج، وفي حالات أخرى، فقد سقط العديد من الضحايا الإسرائيليين برصاص المهاجمين الإسرائيليين أنفسهم، ولم يكن سراً، أن هذا الأسلوب كان يخدمُ دولةً لها تاريخها في الاتجار بدم اليهود، فهناك في تاريخ ألمانيا النازية وقائع ثابتة تؤكد، أن الصهيونية السياسية، كانت راضية تماماً، عن التضحية بعشرات الألوف من اليهود، مقابل ترحيل النصف الآخر إلى فلسطين..

يتفاخر نتنياهو بأنه تمكّن وهو على رأس الدبلوماسية الإسرائيلية في واشنطن العام ١٩٨٣، من خلال برامج معهد يونانتان التي ركزت بصورة جذرية على ضرورة استئصال ظاهرة الإرهاب في العالم، تمكن من تبديل الموقف الأمريكي برمته من خلال وزير الخارجية شولتس، (لقد دعوتُ مراراً وتكراراً لتبنّي سياسة متشددة تشمل فرض عقوبات سياسية واقتصادية وحتى عسكرية ضد الدول التي ترعى الإرهاب ـ ص٢٣٦) ثم يتابع: (لايمكن الحاق الهزيمة بالإرهاب عن طريق سياسة الامتصاص السلبي.. حان الوقت للتفكير ملياً بصورة جديّة وعميقة، اتباع الوسائل الفعّالة، وسائل تتمُّ عن طريق عمليات وقائية ضد جماعات الإرهاب قبل تمكنها من توجيه ضرباتها.. وعلى الدول الغربية أن تتبنى مبدأين أساسيين لمحاربة الإرهاب الأول: رفض الرضوخ لمطالب الإرهابيين مهما كانت، الثاني: إبداء العزم لمحاربة الدول الداعمة للإرهاب ـ ص٢٣٧).

وهكذا أسّس نتنياهو ومن قبله سلفه آرينز لنظرية العدوان على الشعوب بذريعة محاربة الإرهاب.

لم يكن على قائمة (رعاية الإرهاب) سوى بعض الدول العربية، مثل سوريا والعراق وليبيا ومنظمة التحرير الفلسطينية.. ثم أضيفت إيران فيما بعد.

وأول ما بدأ (الشُغل) ضد الإرهاب، بدأ بطرد منظمة التحرير من الولايات المتحدة في العام ١٩٨٧، لكنه قبل ذلك بخمس سنوات، كانت طلقة واحدة أمام فندق دورشستر في لندن، على السفير الإسرائيلي هناك، كافية لقمع الإرهاب في لبنان كله، وهكذا نكتشف (سلامة الجليل)(*) من خلال رصاصة لندن، تلك السلامة التي أدت إلى استئصال منظمة التحرير بعد تدمير البنية التحتية لها، ثم الوصول إلى احتلال عاصمة عربية.. (الشُغل) الآخر الذي بدأ ضد الإرهاب أيضاً، كان قد تمثّل في قصف ليبيا عام ١٩٨٦ من قبل طائرات الأسطول السادس الأمريكي في البحر المتوسط، فلكي تقضي على إرهابي ما، أو مجموعة صغيرة من الإرهابيين، عليك أن تقضي على الدولة برمتها، وفي الطريق فإنه لامانع من أن تحصد (الحيوانات الذين هم على صورة إنسان - جورج شولتس ص ٢٣٦ من كتاب نتنياهو).

مع العام ١٩٩٠ فإن سياسة التشدد ضد العمليات الإرهابية (علماً بأنه أصبح من النادر جداً سماع مثل هذه الأخبار مع بداية التسعينات أو أنها ربما انعدمت نهائياً).. نقول: مع بدايات العام ١٩٩٠، كانت إسرائيل تحقق من وراء تحريض الولايات المتحدة (في الحقيقة لم تكن بحاجة إلى أي تحريض خارجي)، مايلي:

١ - بذريعة الإرهاب تم غزو لبنان كله وأدى هذا الغزو في النهاية إلى وقوع ١٨ ألف قتيل و ٣٠ ألف جريح معظمهم من المدنيين اللبنانيين والسوريين والفلسطينيين في ثلاثة أشهر.

٢ - بذريعة الإرهاب، تمّ إغلاق مكاتب منظمة التحرير من الولايات المتحدة الأمريكية.

٣ - بذريعته أيضاً، اعتبرت سوريا في عداد الدول غير المؤهلة، لتلقي أية معونة دولية اقتصادية أو استثمارية.

٤ - بذريعة الإرهاب، تم الهجوم الجوي على الجماهيرية الليبية، مما أدى إلى سقوط عشرات القتلى ومئات الجرحى.

٥ - بذريعة الإرهاب استمرت محنة لبنان الدامية، التي كان وراءها إسرائيل وكيسنجر وصَمتُ العرب القابع في المقطورة الأمريكية العالمية..

٦ - وبذريعة التأويل الخاص (لفلسفة الإرهاب) تم تدمير العراق وتمديد الحصار عليه حتى الآن.

لم يحدث في تاريخ حروب العالم، أن أقدمت دولة منتصرة على إلزام العالم بحصار يدوم ست سنوات (حتى كتابة هذه السطور) مثلما فعلت الولايات المتحدة بتحريض الصهيونية الدولية وإسرائيل، ضد العراق... حتى ألمانيا التي تسببت في حربين عالميتين أدت إلى مصرع ما يزيد على ستين مليوناً من البشر وتدمير ثلث العالم، فإنها كوفئت بمشروع مارشال بعد سنة أو أقل من انتهاء الحرب العالمية الثانية، وهنا تنبثق كفّةُ العدل المكسور في هذا العالم، حيث الإرهاب أحد نواتجه

(*) الاسم العسكري لغزو إسرائيل للبنان عام ١٩٨٢، والسلامة، هي الذريعة الإضافية في سجل إسرائيل العدواني.. أما سلام الآخر وسلامته، فيحصده العوزي الإسرائيلي في كل مكان.

بصورة كارثية.. لمن المؤسف حقاً، أن يكون نضال نتنياهو ضد الإرهاب في الولايات المتحدة (ذروته عام ١٩٨٣) متزامناً مع مذبحة صبرا وشاتيلا، حيث تمّ إفناء ثلاثة آلاف فلسطيني، تحت تغطيةٍ من قيادة شارون قائد عملية الغزو ضد لبنان، لا كما نزعم نحن، بل كما أقرّته المحكمة الإسرائيلية نفسها..

يقول الكاتب الفرنسي بيير ديمرون في مقدمة إهدائه لكتابه (ضد إسرائيل):

- إلى الفلسطينيين الذين يقسرهم الغرب منذ عقود، على دفع ثمن جرائمه وديونه لليهود.

- إلى الفرنسيين من أصل يهودي الذين يرفضون أن يكونوا ضالعين في هذا العار.

- إلى اليهود أنفسهم الذين ما زالوا يقتنعون بحق الآخر في الحياة والحرية..

أقدّم عملي هذا، لاستعفي بعده من العيش بين الذئاب.. فأي إرهاب.. وذئاب؟!

ثم يستنكر نتنياهو حلم اللاجئ الفلسطيني بالعودة إلى دياره، وسوف نسوق هذه الواقعة كما هي من كتاب نتنياهو، حين أجرى هو نفسه الحوار مع عجوز فلسطيني طاعن، كان يجلس القرفصاء أمام باب بيته في مخيّم جباليا (ص٢٥٦).

يسأل نتنياهو العجوز: من أين أنت؟!

ج - من المجدل (يعلق نتنياهو بهدف التعريف فيقول، مجدل هو الاسم العربي لمستوطنة أشكلون).

س - ومن أين أولادك؟

ج - من المجدل أيضاً (يعلق نتنياهو بقوله: لقد توقعت أن يكون أولاده من أبناء جيلي، لذلك من المحتمل أن يكونوا من مواليد المجدل حقاً، لكنني عدت للسؤال ثانية).

س - ومن أين أحفادك؟

ج - من المجدل أيضاً (يعلق نتنياهو لقد فهمتُ قصده الآن).

س - هل ستعود إلى المجدل؟

ج - إن شاء الله يعود السلام ونعود إلى المجدل.

وقلت (أي نتنياهو): إن شاء الله أنت تزور المجدل ونحن نزور جباليا بالمقابل (جباليا هو مخيم للفلسطينيين في غزة).

ويتابع نتنياهو: - فجأة تلاشت ابتسامة العجوز دفعة واحدة.

وقال: نحن نعود إلى المجدل وأنتم تعودون إلى بولونيا... فهل دَرَس هذا العجوز في مدرسة الإرهاب الفلسطينية أيضاً؟. ثم يتساءل نتنياهو في الصفحات الأخيرة من فصله هذا، كيف تمكن هؤلاء الإرهابيون من تضليل الدول الديمقراطية وجعلوها تفرضُ على الدولة الديمقراطية الوحيدة في الشرق الأوسط حصاراً من أجل الفلسطينيين، والأغرب من ذلك هو كيف استطاع الطامحون لإبادة دولة اليهود، الاستعانة بحكومة إسرائيل ذاتها لتنفيذ مآربهم؟!

ويجيب (ص٢٧١):

(إن حل هذا اللغز موجود في الأسطورة القديمة، أسطورة حصان طروادة، فمنظمة التحرير هي حصان طروادة العربي، تلك الهدية التي يحاول العرب اقناع الغرب بقبولها منذ ما يزيد على عشرين عاماً).

ونحن نقول، لطالما يحب نتنياهو التشبّه بما هو غريب وشاذ في التاريخ، فحصان طروادة الذي يريد أن يسحبه على شعب فلسطين، لايتصالح مع الحقائق التاريخية في المنطقة، فطروادة وحصانها نموذجان غربيان للمكيدة في التاريخ، أما الاستثناء الشرقي بالفعل فقد تم على يد الغرب أيضاً، فها هي إسرائيل تتسلل بحصان طروادة البريطاني إلى فلسطين، ولدى قراءة مقارنة لوقائع التاريخ، نجد أن أسوار طروادة مثل أسوار أريحا سواء بسواء، فقد تزامن دخول أثينا إلى طروادة بخيانة هيلينا، مع دخول يشوع إلى أريخا بخيانة رحاب.. أليس من غرائب الحياة، أن يكون العام ١١٩٣ قبل الميلاد، هو نفسه، عام طروادة في حصانها، ثم عام أريحا في بوقها؟ وفي جواسيسها؟.. لايستطيع نتنياهو أن يتّنكر لنماذج طروادية أشد هولاً في تاريخ الإبادة المقدسة حسب التوراة، فالأساطير تروي قصة حُبّ جنسية بين دينة الإسرائيلية وشكيم الكنعاني، وقد طلب حمور والد شكيم وزعيم المدينة، دينة زوجة لابنه، فاشترط أخوا دينة، الختان (الطهور في الإسلام) لكل ذكر في المدينة.. ووافق أهل شكيم (نابلس اليوم)، واختتن كل ذكر، وأصبح كل منهم لايقوى على الحركة من شدّة آلام الجراح.. وفي اليوم الثالث ـ كما يقول سفر التكوين طبعاً ـ حمَل أخوا دينة وهما أبناء يعقوب (شمعون ولاوي) سيفهما وقتلا كل ذكر، وقتلا حمور وابنه شكيم... ثم نهبوا المدينة، غنَمهم وبقرهَم وحميرهم.. وكل ما في المدينة أخذوه (تكوين ٣٣/ ١٨).. الخ.

ألم يكن الختان هنا، حصان طروادة الغادر، إلى أهل نابلس مثلاً؟

اثنان قتلا مدينة بحالها!.. وهنا ليس المهم فيما تقوله الأسطورة، بل ما يجول في أدمغة كاتبيها في جميع الأحوال.

□□□

الفصل الرابع

سلامان.. وجدار واقي.

إذا ما استمر الوضع العربي على وهنه واستخذائه فإنه لن يكون بعيداً ذلك اليوم، الذي يتوّسل فيه حُكام العرب من أجل الصلح مع إسرائيل، يومها أتوقع أن يأتي الجواب من إسرائيل بالرفض..

أكرم الحوراني ـ ١٩٥٥

يحتفظ نتنياهو لنفسه بحق التمييز بين نوعين من السلام في العالم، الأول ويسميه سلام الديمقراطيات الغربية، والثاني ويسميه سلام الردع: (أما النوع الأول فهو السلام بمفهومه المألوف بين الدول الغربية: حدود مفتوحة، تجارة حرة، سياحة، تعاون في مجال العلوم والثقافة... المحافظة على البيئة.. عدم وجود تحصينات وقوات على الحدود... عدم وجود حالات تأهب واستعداد عسكري وتحضيرات للحرب..

غير أن هذا السلام لايعني عدم وجود نزاعات.. ولعل مجرد إجراء استعراض سطحي يمكننا من الإشارة إلى وجود كثير من الخلافات والتعصب والنزاعات التاريخية التي ما زالت آثارها النفسية بين شعوب هذه الدول قائمةإلى يومنا هذا ص٢٤٧). ويتابع: (واضح للجميع أن أياً من هذه الدول الديمقراطية لاتسعى إلى شن الحرب من أجل تسوية هذه النزاعات... إن هذه الدول لاتستخدم القوة العسكرية، لسبب بسيط هو أنها لاتفكر بذلك إطلاقاً، لأن السلام بينها يستمد قوته من نظريات سياسية ونفسية أعمق بكثير) ثم يضيف: (هناك ميزة واحدة لكافة الدول التي يسود بينها هذا النوع من السلام أنها جميعها دول ديمقراطية ترفضُ قيمها استخدام القوة إلا في حالات استنفاد كافة الإمكانيات.. لم تخرج هذه الدول إلى حرب شاملة إلا عندما دعت الحاجة إلى ذلك، إذ لم تنضم الولايات المتحدة إلى الحرب العالمية الأولى إلا في نهايتها، كذلك لم تنضم إلى الحرب العالمية الثانية إلا بعد أن هاجم اليابانيون أسطولها في بيرل هاربر.. كما خرجت الولايات المتحدة إلى حرب الخليج بعد أن اعتدى صدام حسين على الكويت فقط).

(أما الصورة الأخرى للدول الديمقراطية فهي على النقيض تماماً، فالدكتاتورية لاتخضع بالطبع لقواعد السلام المفروضة من الداخل، وهي غير ملزمة بأية مراقبة أو قيود شعبية، وهي بالتالي غير

معنية بالتصرف بحذر إزاء النزاعات الخارجية، بل إنها تنحو إلى حل نزاعاتها الخارجية بنفس الطريقة التي تحل فيها نزاعاتها الداخلية.. فالنظام الديكتاتوري لايعتمد بمواقفه على رأي الشعب، بل على الإكراه أو التهديد باستخدام العنف... وهذا هو السبب الذي جَعَل الحروب الكبيرة، ومعظم الحروب الصغيرة التي شهدها القرن العشرين تندلع من قبل حكام مستبدّين - ص٢٧٦).

وتلك هي أهم أفكار فصله هذا باختصار.

مُفترض علاقة السلام إذن، هي أنها تتناسب طردياً مع الديمقراطية وعكسياً مع الديكتاتورية.

لنحاول أن نفحص العلاقة من جانبها الآخر، فإذا كانت الديمقراطيات الغربية متصالحة مع نفسها ومع السلام، تُرى ما هي علاقتها بالجانب المضاد، أعني الحرب، وهل ثمة علاقة؟ أليست الحرب هي معاكس السلام؟

ثمّ كتداعيات منطقية:

ماهي علاقتها بصناعة آلة الحرب الجهنمية.. الإنفاق العسكري.. المبيعات العسكرية.. وكل ما له صلة بعالم الحروب... ثم ماهي الصناعات العسكرية النوعية المقدّمة لإسرائيل، بالذات من الدول الديمقراطية المعنية بالسلام؟

لايمكن أن يهرب نتنياهو من الحقائق التاريخية الماثلة أمامنا مثل عين الشمس، فالغرب بنظاميه الديمقراطي والدكتاتوري هو خالق الحروب كلها في القرن الأخير، فمنذ الحرب الفرنسية البروسية في العام ١٨٧٠ إلى مذبحة كوستر ضد الهنود الحمر في أمريكا الشمالية عام ١٨٧٦ إلى مجازر الرقيق الأسود على يد أوروبا في أفريقيا، إلى معارك البريطانيين ضد شعب الزولو في جنوب أفريقيا عام ١٨٧٩ إلى الحرب الإسبانية الأمريكية عام ١٨٩٨ إلى الحرب الروسية اليابانية عام ١٩٠٤، إلى الحرب العالمية الأولى عام ١٩١٤، فإلى الحرب العالمية الثانية بين العالم والعالم الآخر عام ١٩٣٩ إلى الحرب العالمية الثالثة ضد العراق عام ١٩٩١... وعالم الديمراطية والدكتاتورية يتذابح مع نفسه والآخرين، وليس أدّل على ذلك من أن الديمقراطيات نفسها كانت تتحالف مع الدكتاتوريات في العديد من الحروب، ولعلّ أسطع مثالٍ هو أن ديمقراطية تشرشل الموغلة في العراقة كانت قد تحالفت مع ديكتاتورية ستالين طوال سنوات الحرب الدامية، كما أن اليابان لم تشهد نظاماً دكتاتورياً نوعياً فاشياً أو نازياً، عندما قررت التحالف مع المحور ضد الحلفاء، كذلك فإن دكتاتوريات أوروبية أخرى كان لها مواقف صارخة إبان سنوات الحرب، وها هو فرانكو يعيش عمره الطويل (١٨٩٢ إلى ١٩٧٥) متحالفاً مع ديمقراطيات الغرب (السلامية)، وكم من الدكتاتوريات الصغيرة الأخرى، سواءً في أمريكا اللاتينية أو الشرق الأوسط أو أفريقيا، إنما جاءت على يد الديمقراطية الغربية أو الديمقراطية الأمريكية لتتعايش معها - ضد شعوبها - إلى يومنا هذا:

(طيلة أجيال فقد انحازت الولايات المتحدة إلى جانب الطغيان والظلم في الشرق الأوسط وأمريكا اللاتينية، إنني أتحدى مَن يشير إلى دعم الولايات المتحدة لأي نضال في سبيل الديمقراطية لأي تحرك من أجل المليارات البائسة في العالم، لحقوق المرأة، لأية دعوة علمانية أو تلبية مطالب عادلة، لقد قمنا بدلاً عن ذلك بمساندة وكلاء طيّعين وغير شعبيين وأدرنا ظهورنا لجهود الشعوب

الصغيرة المكافحة في سبيل التحرر من الاستغلال ومولنا أعداءهم وأطلقنا نزعات العسكرة غير المحدودة وانخرطنا في مبيعات السلاح الضخمة على نطاق المنطقة بأسرها ـ ادوار سعيد ـ لندن ريفيو ـ ٧ آذار ١٩٩١).

وهنا، كيف يمكن تفسير الأحلاف بين ديمقراطيات السلام وديكتاتوريات الحروب وما هي علاقة الديمقراطية مع أعلام كبار في التاريخ الحديث:

شاه إيران، نوريغا، بينوشيت وآخرين أكثر من أن يُعدّوا في هذا القرن، وعلى رأسها ديكتاتورية هايتي الدموية القريبة. الوجه الآخر لعملة الديمقراطية ـ السلام، يكمن في هذا العالم المنشطر، إن ثمانين بالمئة من الموارد الطبيعية فوق كوكب الأرض يشرف عليه ويستهلكه ٢٠ بالمئة من سكانه، يعيشون جميعاً في بلدان الديمقراطية الغربية، وهذا معناه بالمقابل، أن ثمانين بالمئة من سكان العالم يستهلكون أو يشرفون على ٢٠ بالمئة من الموارد الطبيعية العالمية، ونتيجة هذا الانشطار فإنه يموت يومياً أربعون ألف كائن بشري من سوء التغذية أو الجوع، وجميعهم من سكان العالم الثالث، سواءً اكانت أنظمته ديمقراطية أو دكتاتورية، وخلال العقود الثلاثة الأخيرة (١٩٦٥ ـ ١٩٥) فقد ازداد الفارق بين البلدان الفقيرة والبلدان الغنيّة (من ١ إلى ٣٠) في العام ١٩٦٥، إلى (١ ـ ١٥٠) في العام ١٩٩٥، وإضافة إلى مئات الملايين من جيوش العاطلين عن العمل في بلدان العالم الثالث، تمّ إحصاء ٢٥ مليوناً من العاطلين في بلدان الديمقراطيات الغربية، فهناك ثلاثة مليارات من البشر المفلسين، بسبب السياسات الاستعمارية الجديدة التي تمثلها الدول السبع الكبرى وصندوق النقد الدولي والبنك الدولي، والمُضاربَةَ على الديْن، وتدمير البُنى الاقتصادية لبلدان التبعية للديمقراطيات الغربية بحيث جُعلت هذه البلدان بمثابة (ملحق اقتصادي) للسوق العالمية، ثم تحولت إلى (جامعة عملات صعبة) لتسديد ديونها إلى صندوق النقد الدولي.

أما التقنيات الحديثة، فقد حذفت الإنسان من مجال عمله الذي هو أساس رزقه وعيشه، ففي بلجيكا مثلاً تم إنتاج ١٠ ملايين طن من الفولاذ بجهد ٤٠ ألف عامل في العام ١٩٨٠، وفي العام ١٩٩٠ أنتجت بلجيكا ١٢ مليون طناً من الفولاذ بجهد ٢٠ ألف عامل فقط، والمصيبة تكمن في أسلوب الاستخدام، إذ من غير المعقول تجريم العلوم والتقنيات أو تحطيمها.. فإذا كان انقسام العالم اليوم، بين الغنى والفقر، بين العدالة وانعدامها، أكثر ما يكون إيلاماً لروح الإنسان وجسده، فإن التراكم في التفاقم، لايمكن أن يؤدي في النهاية إلا إلى انفجارات ستكون نهايتها انتحار الإنسانية على يد (ديمقراطيي السلام) وليس غيرهم، إذ ليس من المعقول، كما اعترف الرئيس الأمريكي كلينتون، أن واحداً بالمئة من المواطنين الأمريكيين يملكون ٧٠ بالمئة من الثروة الأمريكية كلها، وأن منظمة اليونسيف تقدّم طفلاً أمريكياً من ثمانية أطفال لايشبع من الطعام فيما مات في السنة نفسها (سنة تقرير اليونسيف هي ١٩٩٤)، خمسة عشر مليوناً من أطفال العالم بسبب سوء التغذية أو الجوع.

أهذه هي نهاية التاريخ في ديمقراطيته السلامية السعيدة وغايته المجيدة؟!... ثم أيهما أقدر على فداحة القتل، هل هي (ديمقراطية السلام) في الإفقار والتجويع، أم (ديكتاتورية الحرب) التي تطلق

سلاح الفرسان، لمواجهة آليات العمل الديمقراطي في الـ: ستيلث وتوما هوك وباتريوت!..

إن عالم السلاح وحده، يشهد كارثة العصر على يد الديمقراطيات الغربية، ففي العام ١٩٧٠ أنفق العالم كله شرقه وغربه، ما يقدر بـ (٢٥٧ مليار دولار أمريكي) على الإنفاق العسكري، كان نصيب الناتو منه ٤٥,٢ بالمئة من مجموع الإنفاق، وفي العام ١٩٨٠ وصل الإنفاق العسكري العالمي إلى رقم (٦٣٥,٧ مليار دولار أمريكي) حظي الناتو منه على نسبة ٣٦,٧ بالمئة، وفي العام ١٩٩٠ (حتى مع سقوط الاتحاد السوفييتي) كان الإنفاق العسكري يتحدى الرقم (١٠٣٥ مليار دولار أمريكي) نال الناتو منه نسبة ٤٤,٦ بالمئة.

وخلال العقدين من العام ١٩٧٠ إلى ١٩٩٠ فقد كان الإنفاق العسكري السنوي (بالمتوسط) على النحو التالي:

(الجدول هو مقارنة بين دول الطوق فقط وإسرائيل):

العام	دول الطوق	إسرائيل
١٩٧٠	مليار دولار	٢,٢ مليار دولار
١٩٧١	١,٢ مليار دولار	٢,٣ مليار دولار
١٩٧٢	١,٣ مليار دولار	٢,٣٥ مليار دولار
١٩٧٣	٢,٤ مليار دولار	٣,٧ مليار دولار
١٩٧٤	٢,٣ مليار دولار	٣ مليار دولار
١٩٧٥	٣. مليار دولار	٣.- مليار دولار
١٩٧٦	٣. مليار دولار	٣. مليار دولار
١٩٧٧	٣,٥ مليار دولار	٢,٣ مليار دولار
١٩٧٨	٣. مليار دولار	٢,٢ مليار دولار
١٩٧٩	٣,٦ مليار دولار	٢,٢ مليار دولار
١٩٨٠	٥,٢ مليار دولار	٢,٣ مليار دولار
١٩٨١	٤ مليار دولار	٧ مليار دولار
١٩٨٢	٥ مليار دولار	٧,٥ مليار دولار
١٩٨٣	٥,٧ مليار دولار	٧,٨ مليار دولار
١٩٨٤	٥,٩ مليار دولار	٨ مليار دولار
١٩٨٥	٥,٩ مليار دولار	٥,١ مليار دولار
١٩٨٦	٦,٩ مليار دولار	٣,٧ مليار دولار

١٩٨٧	٧ مليار دولار	٣,٦ مليار دولار
١٩٨٨	٧,٥ مليار دولار	٣,١ مليار دولار
١٩٨٩	١٠ مليار دولار	٣,١ مليار دولار
١٩٩٠	١٠,٣ مليار دولار	٣,١ مليار دولار
المجموع	**٩٦,٦ مليار دولار**	**٨٠,٥٥ مليار دولار**

فإذا ما أوقف حساب الإنفاق في الجدول السابق حتى العام ١٩٨٧، أي بعد التأكد من خروج مصر من معادلة الصراع، فإن توازن الإنفاق حتى نهاية العام ١٩٨٦ ظل يميل لصالح إسرائيل في مواجهة كل دول الطوق مجتمعة، ومع إجراء الحساب فإن إسرائيل تكون قد أنفقت من مال دافع الضريبة الأمريكي، أو من مال النفط العربي مبلغاً وقدره ٧١,٢٥ مليار دولار خلال المدة ١٩٧٠ - ١٩٨٦ وللمدة نفسها، فإن الإنفاق العسكري لدول الطوق وصل إلى إجمالي وقدره ٦١,٨ مليار دولار، وهي كلها حسابات ظاهرة علنية قد لاتعني شيئاً. فهناك في الترسانة الإسرائيلية النووية ما يقارب أكثر من مئتي رأس نووي لاتتحدث الجداول العلنية عن كلفتها ولا عن كلفة مفاعِلها في ديمونا، ولا عن كلفة المفاعلات الإسرائيلية الأخرى.. في الظاهر أيضاً، فإن المختصّين يحتسبون متوسط نسبة مئوية ظلّت تتراوح ما بين ٢٣ إلى ٢٥ بالمئة وهي تمثل نسبة الإنفاق العسكري إلى الناتج القومي في إسرائيل، أما في بلدان الطوق فتراوحت ما بين ١٤ إلى ١٦ بالمئة من الناتج القومي في مصر وسوريا والأردن ولبنان.

وهناك مهزلة لم تُقصّر إسرائيل في إظهار التبرّم منها، وهي بلا شك مسرحية فكاهية من مسارح تل أبيب البليدة، وهذه المهزلة تتعلق بمشتريات بلدان النفط العربية (باستثناء العراق طبعاً) من السلاح، وفي الحقيقة فإن هذه البلدان غالباً ما تشتري السلاح على غير رضىً منها، بل لعلها تُرغم إرغاماً على شرائه (من الولايات المتحدة بالدرجة الأولى، وبدرجة أقل من أوربا الغربية)، وذلك حسب تناغم سيناريو المصالح في المنطقة، ويكفي أن نشير هنا باختصار إلى أن السعودية وحدها أكرهت على شراء أسلحة أمريكية في العامين ١٩٩٠ و ١٩٩١ (أي بعد أن طارت كل أسراب الحروب المحتملة)، وهذه الأسلحة بمجموعها كافية لتدمير الشرق الأوسط العربي ومعه إيران وتركيا وربما أفغانستان، فقد بلغت هذه المشتريات في العام ١٩٩٠ رقماً وصل إلى ١٤,٨ مليار دولار (لسنة واحدة)، أما في العام ١٩٩١ فقد قفز الرقم إلى ٢٦,٢ مليار دولار لسنة واحدة أيضاً، وعليه فإن المجموع المُشكّل والبالغ ٤١ ملياراً للعامين المذكورين يعادل ٥٢ بالمئة من الإنفاق العسكري الأمريكي لعام ١٩٧٠ و ٣٨ بالمئة من الإنفاق العسكري الأمريكي لعام ١٩٨٠ و ١٤ بالمئة من الإنفاق نفسه للعام ١٩٩٠.. وكل ذلك في سبيل ازدهار الصناعات الحربية في الولايات المتحدة وأوروبا، على حساب

موت الأطفال العرب في السودان والصومال وموريتانيا والعراق وفلسطين(*).

لا علاقة للسلام أو الحرب بنمط النظام السياسي سواء أكان ديمقراطياً أو دكتاتورياً، ولو أننا جميعاً نرتشفُ الآمال في أن يصبح العالم كله، لا الوطن العربي فحسب، على موعد مع الديمقراطية الحقيقية التي هي الحرية والعدالة في كل شيء، وكان على السيد نتنياهو أن يبحث في معجم المصالح قبل أن يبحث في معنى السلام: (الذي هو حالة انسجام بين الشعوب أو هو الوضع الذي لاتكون الحرب فيه دائرة ـ ص٢٩٠ من كتابه).

فالمصالح هي (علم التشريح) لكل المؤرخين والمحلّلين والأكاديميين والخبراء، ومنها عثروا على الأسباب العميقة للحروب ونتائجها، فالأنظمة الديمقراطية وهو مما يُحزنُ عليه، تجد حياة اقتصادها وازدهاره في الحروب البعيدة، وهي الحروب التي لاتدور فوق أراضيها بالطبع، فقد شبعت أوروبا العجوز من سعار الاقتتال على حدودها، كذلك الولايات المتحدة التي تعلمت الدرس البليغ، من حكمة حربين عالميتين، فقد آن للعبة الحرب أن تدور فوق أراضي الآخرين، أمّا ما يُسمح به، داخل الديمقراطيات الغربية، فهي حروب أفلام على الدوام، وحروب تلفزة وكومبيوترات بشاشات صغيرة في أماكن اللهو ودوور الملاهي، وقد حوّلَت أفكار العنف في ثقافة أمريكا الصاعدة الأجيال كلها إلى انحرافات اجتماعية وخلقية متعاظمة، هذا فضلاً عن اعتبار (الآخر) الذي هو العدو الدونيّ، لايستحق الحياة، وهي صفعةٌ موجهة للإنسانية جمعاء، وفي المواءمة بين السلام والديمقراطية، فإن العلاقة لاتتناسب عندما يتصل الأمر بإسرائيل، فنتنياهو يعرف تاريخ إسرائيل أكثر من غيره، ومن جملة ما تعلّمه من دروس تاريخه، هي لعبة الحرب، ففي جميع الحروب الحاصلة منذ إنشائها وتوسّعها، كانت إسرائيل بمختلف الذرائع هي المبادرة إلى شن الحرب، وقد فعلت ذلك في العام ١٩٤٨ والعام ١٩٥٦ والعام ١٩٦٧ والعام ١٩٨٢ إضافة إلى عشرات الصدامات المحدودة والمناوشات الأخرى، وهنا، كيف يمكن التوفيق بين سلام الديمقراطية الإسرائيلية وحروبها؟ ومن ناحيتها أيضاً، فقد قدّمَت إسرائيل عشرات من عروض السلام، دون أن تعنيها، ومَن يراجع سجلات الجبهات العربية ـ الإسرائيلية، يجد أن كل عرض من عروض السلام، كان يسبقه أو يليه عدوان إسرائيلي ما، وتاريخ الصراع يشهد أن عروض السلام كانت تتزامن مع حفلة جديدة من حفلات الاستيلاء أو السيطرة أو الطرد.. وهو فعلٌ ظل يسبق القول بل يفوقه بأضعاف، **فالسلام للورق والفعل على الأرض،** ومع هذا الماراتون الحربي الحافل في تاريخ المنطقة، كيف يمكن توفيق المتناقضات هذه؟.

والحقيقة أن ديمقراطية إسرائيل أمنية أكثر منها غربية ليبرالية، وذلك بدليل تطورّين مختلفين في السطح والعمق، فأوروبا الغربية وصلت إلى ديمقراطيتها ضمن أممها الواحدة، في تسلسل تطوري

(*) هذه المعطيات الرقمية جميعها مستقاة من وكالات دولية وفق ما يلي:

١ - Arms control and disarmament Agency (A.C.D.A)

٢ - Stockholm International peace Research Institute (S.I.P.R.I)

وقد نقلها الدكتور عبد الرزاق الفارس في كتابه السلاح والخبز ـ مركز دراسات الوحدة العربية.

داخل تشكيلة اجتماعية ـ اقتصادية متناغمة في اللغة والتاريخ والاقتصاد.. ومن أجل الاختصار، فإن أوروبا حققت نقلتَين نوعيّتين من الاقتصاد الزراعي إلى الاقتصاد الصناعي، ومن الصناعي إلى التكنولوجي ـ المعلوماتي عبر مئتي عام من عمرها القريب.

وكانت هذه الثورات الاجتماعية ـ الاقتصادية العظمى، تتحرك في مخاض أليم، تحت بنية فوقية من الفلسفات والأفكار والثقافات وعلى رأسها مسألة الحرية، ففي بريطانيا أعلن كرومويل الحرب ضد الملكية عام ١٦٤٢ كما أعلن البرلمان الانكليزي أن من حق الشعب أن يحكمه ممثّلوه، وفي فرنسا مع الثورة الصناعية، صوتت الجمعية الوطنية الفرنسية يوم ٢٠ أيلول من العام ١٧٩٢، على إلغاء الملكية، وإعدام لويس السادس عشر في ميدان الثورة، وفي بريطانيا تم إلغاء تجارة الرقيق في العام ١٨٣٣، وفي أوروبا قامت ثورات في النمسا وشمال إيطاليا وبلجيكا وهولندا وبروسيا ولم يُقصّر الهنغار والتشيك في اللحاق بركب ثورات الحرية وبسبب من الخلاف على إلغاء الرق بين الولايات الشمالية والجنوبية في الولايات المتحدة، فقد نشبت الحرب الأهلية في العام ١٨٦١ وكان أن فاز الشماليون وأُلغيت تجارة الرقيق نهائياً عام ١٨٦٥ في أمريكا... وتلك هي باختصار مقدمات الأنظمة الديمقراطية في الغرب، أما في إسرائيل فإن شيئاً من هذا القبيل غير قابل للمشابهة أو التشبيه، فقد نشأت إسرائيل في أجواء حربية كاملة لا بسبب انقسامات في مجتمعها، بل بسبب صراعات مع جوارها، وهذا هو تاريخ إسرائيل كله، وقد فهم اليهود الغربيون، بناة الدولة، أن مصير إسرائيل لايتحمّل غلطة واحدة، وأن هذا المصير إنما يتهدد بفعل النزاعات التي تدور بسبب تفرّد قوة وحيدة، أو استئثارها بالحكم، وأن النزاع قد يبتدئُ مدنياً لينتهي دموياً، وليس من قبيل الصدفة الليبرالية، أن انقلاباً عسكرياً واحداً لم تشهده إسرائيل في تاريخها، فالمؤسسة العسكرية ظلّت موضوعة في يد أشكناز اليهود بصورة رئيسية، وأن لعبة الانقلابات هذه ستعرّض سلامة إسرائيل للخطر، فالمواجهات التي جُعلت دائمة مع العرب، تحتاج إلى جمع وتضامن لايمكن تحقيقه بحكم الفرد الواحد، بل بالتعددية السياسية من أقصى يمين الحاخامات الديني إلى أقصى القوى العلمانية أو اليسارية، على أن ذلك كله محاط بسياج غير منظور، هو سياج أمن الدولة لا غيرها... فالديمقراطية بهذا المعنى، مُتسبّبة بفعل عوامل خارجية لا ذاتية، وهي مُراقَبةٌ بصورة شمولية، فإذا ما أخطأ مدير مكتب بن غوريون نفسه، وانتسب إلى الـ: ك.ج. ب السوفيتية بسبب اجتهاد منه، فإن آيسر الصغير سيلقي القبض عليه دون السؤال عن أحد، بل لعلّ هذه الواقعة هي التي أفضت بداڤيد بن غوريون إلى الاستقالة، والعيش في عزلة المستوطنات البعيدة طوال حياته المتبقية(*).

(*) تقول وثائق الاستخبارات الإسرائيلية ـ الموساد ـ عن هذا الموضوع بأن مدير مكتب بن غوريون يومها، هو الذي أعطى فكرة افتتاح سفارة إسرائيلة في يوغوسلافيا الشيوعية، وقد لفت هذا الاقتراح انتباه رئيس الموساد يومها واسمه آيسر الصغير.. وظل يراقبه بتكليف من نفسه وعلى مسؤوليته، حتى اصطاده في بلغراد وهو يدخل إلى السفارة الروسية ليلاً... ثم كان ما كان، من أمر القبض في تل أبيب وإبلاغ بن غوريون بالواقعة...

لقد حظيت إسرائيل مع ولادتها (بل هم المولّدون)، بغربيين يعرفون فضائل الديمقراطية في بلد مُركّب، فالتجمع اليهودي من أقاصي الأرض لايشكل أمة (بالمعنى القومي التاريخي)، والاقتصاد الإسرائيلي محمول من الخارج لا تطورّ طبيعياً فيه، والانحياز إلى النظام السياسي الديمقراطي كان نقلاً عن أوروبا في أساسه وتوليده، فهو ليس تلبية طبيعة لنداء الحرية التي صرف عليها الغرب شلالات من دماء أجداده، ولا هو تحوّل كيفي من الزراعة الإقطاعية إلى الصناعة الرأسمالية، حيث يصل التجمع وروح عمل الفريق، إلى مئة ألف عامل تحت سقف مؤسسة واحدة، ففلسطين بطاقتها الكلية مسقوفة، وهي خالية تقريباً من الموارد الطبيعية الاستراتيجية، أو المواد الأولية المتنوعة، التي بمقدورها أن تصنع اقتصاداً عملاقاً يساوي نصف إنتاج النفط العربي كله، ولولا المساعدات الأمريكية الفلكية، التي لم يكن آخرها في عشرة المليارات التي كوفئت بها نتيجة موقفها من حرب الخليج الثانية.. لما كان بمقدور إسرائيل إلا أن تكون شبيهة بدولة زراعية ـ سياحية صغيرة في المنطقة، **غير أن الديمقراطية بحدّ ذاتها، لايعيبها أن تكون منحولة، مُصطنعة أو مُقلدة، بل يعيبها ألا تكون أبداً**، ولو أن المفارقة مطلوبة للكفّ عن هذا التنافخ الديمقراطي الذي بيديه نتنياهو فيجعله سبباً مُقيماً للهوة الفاصلة، أو للهوة الحضارية، بين كيانه الديمقراطي وجواره الاستبدادي المُظلم...

فالديمقراطية الإسرائيلية هي ديمقراطية لليهود بالدرجة الأولى، (حيث أساس الصهيونية التاريخي يقول بأن العمل لليهودي فقط)، وفي البناء الحقوقي والأخلاقي فإن الديمقراطية لاتتجزأ بين مواطني الدولة الواحدة بصرف النظر عن أصولهم القومية السابقة، فهذا مارتن أنديك سفير الولايات المتحدة في إسرائيل ذو الأصل الأسترالي، يتربع فوق عرش المجلس القومي الأمريكي بعد ست سنوات فقط، من حيازته للجنسية الأمريكية. والجنرال عمر برادلي نائب أيزنهاور في الحرب العالمية الثانية، من أصل لبناني أو فلسطيني، والجنرال كولن باول رئيس أركان الجيوش الأمريكية كلها من أصل آسيوي ملوّن، والجنرال شوارزكوف، واسمه الألماني مازال يدل على أصله، ثم فيليب حبيب من لبنان، وهنري كتن من حيفا... ولعل هنري كيسنجر، الذي لعب أخطر الأدوار السياسية في التاريخ الأمريكي المعاصر كان ألمانياً ويهودياً بآن واحد، ولطالما ظلت يهوديته تلحقه قبل أمريكيته.

تُرى لماذا لايبرز في قمم المسؤوليات الإسرائيلية الحسّاسة، إلا اليهودي من أم يهودية، وفي مرحلة مبكرة، إلا الصهيوني الأشكنازي (أي الغربي) من أب وأم يهوديين على السواء؟. هل ثمة تفرقة بين المواطنين الإسرائيليين ذوي الأصول المختلفة في ظل الديمقراطية الإسرائيلية التي يتحدث عنها نتنياهو؟!

لاعلاقة لنا في التمييز الذي يشتكي منه السفارديم اليهود، (اليهود الشرقيون) ضد سيطرة الأشكناز واستعلائهم، بل دعونا ننظر باختصار إلى وضع المواطن العربي ذي الجنسية الإسرائيلية من حيث ألا فرق بينه وبين أي مواطن إسرائيلي من أصل يهودي، كما يشير نتنياهو في أكثر من موضع؟

في كتابه (العرب واليهود في إسرائيل)، يُقرّ الأكاديمي الإسرائيلي سامي سموحا المختص ببحث الشؤون الفلسطينية في إسرائيل:

(بأن إسرائيل ليست ديمقراطية ليبرالية، وهي ليست ديمقراطية غربية، فالصهيونية والديمقراطية تتناقضان تناقضاً جوهرياً. وإن سياسات إسرائيل التمييزية، هي العامل الحاسم في توجهات العرب المقيمين في إسرائيل - ص٢١).

كما يؤكد الأكاديمي الإسرائيلي الآخر دافيد روزنلبوم في كتابه: الإسرائيليون العرب والقضايا العربية، (بأن الإيديولوجيا المهيمنة في إسرائيل! إنما هي إيديولوجية صهيونية، وهي تعتبر بأن إسرائيل هي دولة اليهود أينما كانوا، لا دولة المقيمين فيها، والعقد الاجتماعي للدولة الذي نستعمله هنا على نحو غير دقيق، تمّ صوغه قبل نشوء الدولة بفترة طويلة، فقد تم تصوّر الدولة اليهودية على أنها أداة تعبير عن القومية اليهودية، ولذلك كان في وسع الدولة أن توجد ـ على هذا الأساس ـ قبل أن يوجد كلُ مواطنيها المأمولين فيها - ص ٤٣٥).

ومع سموحا وروز نبلوم، هل تستطيع الديمقراطية العرقية، التي لايُعدّ الفرد فيها عماد المجتمع، مع أنّ أصله القومي أو الديني هي مسألة شخصية، وأن الجدارة هي المعيار لتولي الأدوار والوظائف وأن للناس حرية الاندماج أو الافتراق.. هل يستطيع هذا النوع من الديمقراطية أن يحل التوتر القائم بين النزعة الحصرية الصهيونية والنزعة الشمولية الديمقراطية بين أطراف المجتمع الواحد؟

إن التمييز قائم في البنية القانونية نفسها (تغاضي المجتمع الإسرائيلي عما يصيب الفلسطينيين من عنت وإكراه وطرد...)، وفي يهودية الدولة، وفي نظام القوانين الجنائية، (مقولات الأمن العام وفوارق نِسَب الإدانة في البلدات العربية عنها في البلدات الإسرائيلية)، كذلك يوجد التمييز جلياً في الإسكان وملكية الأراضي، وفي سياسات التخطيط الإسرائيلية والمجالس المحلية وفي التربية:

(فالعربي في الجامعات يقابله أربعة يهود، و ٥١ بالمئة من اليهود يحصلوه على شهادة التعليم الثانوي مقابل ٣٠ بالمئة من العرب، وعشرة من الأكاديميين العرب في الدراسات العليا يقابلهم خمسة آلاف أكاديمي يهودي علماً بأن الفارق الفعلي في حمل الشهادات العليا في إسرائيل، هي أربعة لليهود وواحد للعرب)... كذلك هناك فوارق في عالم الاقتصاد والهستدروت (كان محرماً على العرب الانتساب إلى النقابات اليهودية) ثم في عالم الزراعة والتجارة... الخ وفي المحصلة، فإن الديمقراطية الإسرائيلية هي ديمقراطية براغماتية استعراضية ولو أنها نجحت في تسويق سلعتها الإعلامية ـ التصديرية بكل تأكيد، وهي ديمقراطية منحولة ومجلوبة من المولّد الغربي، إلى المولّد الصهيوني فهي غير طبيعية، إنسانية ومتفتحة..

وهي ديمقراطية أمنية فهمت أن مصير إسرائيل في تجمعها وتضامنها ضد الأغيار (الأغيار كل من ليس يهودياً)، وقد تعلم اليهود من درسهم التاريخي البليغ، حين عصفت الأثرة الفردية لأبناء داوود (كملوك مُطلقين) بمملكة يهودا عبر التاريخ، بسبب من الاستئثار والتفرّد. وهي ديمقراطية عرقية، تميز بين الغربي اليهودي ونصفه الشرقي الآخر، وهي تميز بين الشرقي اليهودي واليهودي من البلدان العربية، وهي تميز بين اليهودي القادم من بلدان العرب، واليهودي القادم من بلدان

أفريقية، وهي تميز بين كل اليهود من جهة، والفلسطيني العربي ذي الجنسية الإسرائيلية من جهة أخرى..

ماذا بقي من الديمقراطية الإسرائيلية غير بضاعة التصدير؟! إن القول بأن الفلسطينيين في إسرائيل، قد نمت بين ربوعهم هوية إسرائيلية تميزهم عن سواهم من الفلسطينيين وتجعلهم أقرب إلى مواطنيهم الإسرائيليين (علم الاجتماع الإسرائيلي)، هو قول يحمل مفترض الشكل الشرعي للسلوك السياسي المعارض (مثل أعضاء عرب في الكنيست)، غير أن الفلسطينيين يرون أنفسهم فلسطينيين حتى بعد نصف قرن من وجود إسرائيل، وتعكس استطلاعات روحانا الأكاديمي الإسرائيلي، أن الفلسطيني من عالم النخبة، لايقبل أن يتماهى بصفة إسرائيلي، وهذا هو التعبير عن هويته السياسية المختلفة، ثم يقول في كتابه (المواطنون الفلسطينيون في إسرائيل ص٢٧): (إن الفلسطينيين أقرب إلى التماهي بأرض فلسطين التي تقوم عليها دولة إسرائيل منهم إلى الإطار المؤسساتي والبنية الأيديولوجية ـ القانونية التي تعبّرُ الدولة عنها).

إن ما يرسمه نتنياهو عن العلاقات الطردية والعكسية، ما بين السلام والحرب من جهة، وأنظمة الحكم الديمقراطية والدكتاتورية من جهة مقابلة، يُفتقر إلى أبسط الحقائق التاريخية القريبة، إذ كيف أمكن أن يعيش عالمان أحدهما ديمقراطي غربي وثانيهما شيوعي استبدادي في ظل سلام مشترك طوال سنوات الحرب الباردة، نصف قرن أو أقل بقليل؟ هل هي دواعي الردع كما يؤكد نتنياهو، كيف يمكن أن يعيش سلام الردع هذا، طوال نصف قرن دون حروب كبيرة؟

مع ذلك، فإن الردع كان متكافئاً قبل انهيار المعسكر الآخر، فالشرق والغرب يمتلكان الوسائل اللازمة لإيصال القنابل النووية كل واحد إلى الآخر، والشرق والغرب يمتلكان أحلافاً متكافئة (ناتو ـ وارسو)، والشرق والغرب ظلّا يمتلكان مصالح عالمية متكافئة، وليس الردع هو الذي صنع سلام العالم في يوم ما، بل التفاهم المشترك في يالطا، وبعدها عشرات المؤتمرات الأخرى، ألم يحدث في ظل الردع نفسه، أن نشبت أزمات بين الشرق والغرب كادت تودي بالعالم كله، وما الذي أوقف التدهور عند حده، هل هو الردع أم المصالح العليا، فالعالم وافق أن تُقسم كوريا إلى شطرين، كما قَبِل الأمريكيون الخروج من فيتنام (لاخوفاً من الردع السوفييتي بل بل اقتناعاً صميمياً بعدم جدوى الاستمرار في منطقة مجال الشيوعية العالمية) وبمناسبة الحديث عن المجال فقد قبل السوفييت الخروج من كوبا للقناعة نفسها (وليس الخوف من الردع أيضاً)، وفي مذكرات ترومان مايشي ببداية القصّة نفسها، فعندما وجّه تحذيراً إلى ستالين من مغبة الاقتراب من قوس النفط الذهبي في الشرق الأوسط (من خلال أفغانستان) قبل ستالين التحذير لا خوفاً من الجورجي الجامد من عواقب قنابل نووية) قدر ما هو اقتناع صادر منه، بأن النفط في الشرق هو خط أحمر يترتب عليه فعلاً، اندلاع حرب عالمية ثالثة.

لقد كانت الحرب هي دليل الديمقراطيات الغربية وبوصلتها الموجّهة، إلى مستعمراتها منذ البرتغاليين والإسبانيين والهولنديين والإنكليز والفرنسيين ثم الأمريكيين الوارثين لعالم ظل يعيش على حساب الشعوب ودمائها، وما أن استقرّ التطور الاستعماري ـ الرأسمالي، على منظومة

القوانين الحديثة للإمبرياليات الجديدة، فقد كفّ العالم الديمقراطي - السلامي عن ضرورة اللجوء إلى الحرب، فالكوكب هادئ جداً، بعد أن سيطر عشرون بالمئة من سكانه على أرزاق ثمانين بالمئة من بشريته، وليس هناك أكثر من لاعب صغير، قد يزعج الديمقراطية في سلامها، فها هو العراق الصغير أمام ثلاثين جيشاً وثلاثة أرباع القوة الجوية الأمريكية، يتعرض للضرب اليومي بل والحصار بالسنوات، بفضل سلام الديمقراطية، المحاربة لديكتاتورية العراق، والموادعة لديكتاتورية هايتي..

أعني، المحاربة مع مصالحها حتى آخر كوخ في أربيل:

(إنَّ صدام حسين لم يحاول الاعتداء على الكويت فحسب، بل على نمط حياتنا نحن سكان القارات في هذا الجزء من العالم - بوش).

فإذا ما مسّ كائن ما، نمطية الحياة هذه، دقّت الديمقراطية طبول حربها دون تردد. من هنا، تنبع الضرورة من أجل إعادة العلاقات للوقوف على قدميها، فسلام وحرب ليس لهما علاقة بديمقراطية ودكتاتورية، بل بمصالح الدول العليا، أو ما ترتأيها بأنها مصالح استراتيجية يجب ألا تُمس، فقد لبست بريطانيا خوذة الحرب مع ممر دانزنغ في بولونيا قبل أن تصل إليها طائرة ألمانيا واحدة، وهذا معناه أن بريطانيا الديمقراطية كانت قد تعايشت مع هتلر الدكتاتوري مدة سبع سنوات كاملة قبل أن تمتطي صهوة حصانها لمحاربة النازية العالمية بسيف تشرشل بدلاً من قلم تشامبرلن.. أما الخلاف على طريقة إدارة تشامبرلن المترددة أمام مخططات ألمانيا، فمفتاحه في سرعة الاستباق الألماني وتأخر بريطانيا عنه، فقد كان رأي تشرشل تدمير ألمانيا قبل أن يصبح لها أنياب، كذلك كان رأيه بخصوص الاتحاد السوفيتي والكتلة الشيوعية بعد انتهاء الحرب مباشرة، ولكن العالم كان مثخناً بما فيه الكفاية، وأن حرباً إضافية ضد الاتحاد السوفييتي وكتلته ستزيد من عذابات هذا العالم، وهو ما ينفي ثقافة السلام ونظريات الأخلاق المشتركة، التي تحول ما بين الديمقراطية وذهابها إلى الحرب.

يعتقد نتنياهو أيضاً، بأن العرب لاينصاعون إلا لسلام الردع (إننا نستطيع كبح عدوانية الأنظمة العربية الجارحة بطريقتين فقط، هما: بقوة الردع فإذا فشل فبقوة السلاح - ص٢٨٤).

قوة الردع، قوة السلاح، هي أدوات نتنياهو في التفكير، ومن المؤسف أنه سليل دولة ديمقراطية أيضاً، أليس ثمة قوة ثالثة يمكن الاحتكام إليها، قوة العقل مثلاً، ثوة العدالة كمثل آخر؟ أو حتى قوة المنطق بالحجّة..

ومن أجل التسبيق السلفي على هذه الاعتراضات، فإن نتنياهو يلجأ للمجادلة، أو بصورة أدق للمكابرة فيقول (باستثناء مبادرة إسرائيل بالهجوم على مصر في حملة سيناء عام ١٩٥٦ يبرز لدينا توجه واضح: في عام ١٩٤٨ تعرضت إسرائيل للهجوم من قبل خمسة جيوش عربية، وفي عام ١٩٦٧ حاربتها ثلاثة جيوش عربية، وفي عام ١٩٧٣ هاجمتها دولتان عربيتان.. وفي عام ١٩٨٢ دخلت إسرائيل الحرب (مع عملية اجتثاث المنظمة من لبنان) ضد دولة عربية واحدة.. وفي هذه المسيرة ما هو مشجع فعدد الدول العربية المستعدة للإعتداء على إسرائيل في تقلّص وعلينا أن ندرس السبب وراء هذا التراجع ص - ٢٨٨).

غريبٌ أمر هذه الحقائق التاريخية بقلم نتنياهو، فمسابقةُ مَن هو المعتدي ومَن هو المعتدى عليه

تجد طريقها للتلاعب بالكلمات، (تعرضت إسرائيل للهجوم.. حاربتها ثلاثة جيوش عربية.. هاجمتها دولتان.. ثم دولة واحدة فقط..).

كل ذلك ولايعترف نتنياهو مَن هو البادئ بالعدوان دائماً، إنني أتحدى أن يكون العرب قد خرجوا لمحاربة إسرائيل في تاريخهم، (باستثناء حرب تشرين)، وحرب تشرين في الأساس كانت رداً على العدوان ولم تكن العدوان ذاته، فلكي يصل نتنياهو إلى مبتغاه وهو سلام الردع، فإنه يحيل إلى التاريخ:

- مبادرات العرب إلى العدوان.
- فشل العرب في تحقيق أي نصر ضد إسرائيل.
- ثم تقلص عدد الدول العربية المستعدة للعدوان.

وهو يخلص إلى نتائج مفهومة (إذ كلما بدت إسرائيل أقوى، كلما أبدى العرب موافقتهم على إبرام سلام معها، وكلما بدت إسرائيل ضعيفة، كلما تشجع العرب لدخول حرب ضدها ـ ص ٢٨٨ ـ ٢٨٩).

وإذن فإن إسرائيل حتى مع السلام، ينبغي أن تكون قويّة ومحاربة، وإن قوتها ينبغي أن تفوق قوة العرب جميعاً، (بدليل أنه في الشرق الأوسط يعتبر الأمن (قوة الردع المعتمدة على قوة الحسم)، هو العنصر الحيوي للسلام ولابديل عنه، فالسلام لن يصمد دون الدفاع عنه.. ولولا سلام الردع لما تأخر الاتحاد السوفييتي عن مهاجمة الغرب، لكن مشكلته كانت في خوفه من نتائج الضربة المعاكسة التي سيتعرض لها، لا من إيمانه بالتسليم بوجود الغرب ـ الصفحة ذاتها).

إنها لغة القوة على طريق السلام، فإذا ما عاش السلام تحت ظلال الحراب، فإن الانفجار هو نهايته، إذ كيف يمكن الحديث عن السلام بلغة الحرب، كيف يمكن لنتنياهو أن يصنع سلاماً بمفردات حربية، إنه ينشيء سلامه في غرف الأركان الإسرائيلية وليس في حدائق للأطفال، وعلى هذا فإنه السلام المسلح غير المسقوف، فسلسلة القوة المطلوبة لإسرائيل سلسلة لانهائية، وسلسلة الضعف المطلوبة للعرب هي سلسلة لانهائية أيضاً، وفي اللانهايات لايمكن أن يحدث التلاقي (إلا في الافتراض الهندسي وليس الإنساني)، فمع مَن يريد نتنياهو أن يقيم سلامه على الأشلاء؟!...

ضعفٌ للعرب وقوة لإسرائيل، خواء للعرب وأرض لإسرائيل، ديكتاتورية للعرب وديمقراطية لإسرائيل.. ما معنى هذا السلام في النهاية؟!

لقد فشل نتنياهو في أن يكتب كتاباً يسارع فيه لتبيان النفس، أمام شمعون بيريس صاحب الكتاب الأرقى.. بل والأدهى، شرق أوسط جديد، فبيريس يدمج إسرائيل في المنطقة بل ويحاول أن يضعها في بوتقة واحدة تنظر إلى المستقبل الأخضر، ولاتلتفت إلى الماضي الأحمر، مستقبل مزدهر بالصناعة والتجارة والزراعة والسياحة، حيث يقدّم استعداداً إسرائيلياً جديداً للتعايش مع المنطقة بدون حرب ودماء، أما نتنياهو صاحب سلام القوة، فإنه يريد (أن يُخضع) المنطقة للسلام دون أي تنازل أو اعتذار، فإذا كان العرب لايأتون إلا بالعصا، فهو تلميذ مبتدئ في التاريخ، وإذا

كان العرب ينقضون العهد كما يتبجح نتنياهو عن نبينا محمد ﷺ (حين ألغى الاتفاق مع قريش بعد فترة وجيزة من إبرامه، وقضى على القبيلة المذكورة ـ ص ٢٥٩ من كتابه)، فإن نتنياهو يكون قد سجّل علامة الصفر في معرفته بتاريخ الإسلام، وقد لاينتقص من شأن نتنياهو أنه على رأس الجاهلين بتاريخ الإسلام، أما وأن يتنطح للحديث عن هذا التاريخ دون أي أساس أو كفاءة، فتلك هي أحقاد يهودية في التاريخ، إذ كيف يمكن لمحمد ﷺ أن يقضي على قريش وهو منها، كيف يمكن أن يفعل ذلك وجيشه الذي فتح مكّة (موطن قريش) بأكثريته الكاثرة من قريش، ومع ذلك فإننا سنلقي على مسامع نتنياهو الكاره لتاريخ الإسلام غرزمات من هذا الفتح النبيل:

لقد نادى المنادون في جيش المسلمين: أيها الناس، يا معشر قريش، مَن دخل بيته فأغلق عليه بابه فهو آمن، ومن دخل الكعبة فهو آمن ومن دخل بيت أبي سفيان فهو آمن... وقد حدث ذلك بعدأن دخل المسلمون مكة، فلما اجتمع القوم يستطلعون الخبر من منهله، وقف الرسول في الجمع وقال:

ـ يا معشر قريش، أيها الناس، ماذا تظنون أني فاعلٌ بكم؟!

قالوا: أخ كريم وابن أخ كريم.

قال: اذهبوا فأنتم الطلقاء.

فأين سماحة محمد ﷺ من حقد غيره على مر العصور؟!

هذا ولايكتفي نتنياهو بأكثر من مئتي رأس نووية، وآلاف الطائرات والدبابات والمدافع، بل إنه يطلب المزيد من أجل سلام الردع، (إنني مؤمن بأن العرب لن يظلّوا يضربون الجدار برؤوسهم إلى الأبد، ولولا هذا الجدار لما تمت تلك الاتفاقيات مع إسرائيل ضعيفة ـ ص٢٩١).

وبذلك يكون الجدار الواقي، كاسر الرؤوس، هو مدخل نتنياهو إلى السلام، وقد تأكد حتى الآن (دون الرهان على الموقف الأمريكي)، وحتى كتابة هذه السطور، بأن نتنياهو يريد أن يأسر السلام كما يأسر الأرض، إذ لا جولان ولا قدس ولا دولة فلسطينية فوق جبال الضفة.. وهو ما سنجد أسبابه الاستراتيجية والعسكرية في الفصل التالي ذي العنوان الحديدي: الجدار الواقي.

○○○

(٢)

يستعرض نتنياهو منذ أن كان طالباً جامعياً في الولايات المتحدة، تلك الأيام الرهيبة التي عاشتها إسرائيل مع الأسابيع الأولى من حرب يوم الغفران (حرب تشرين التحررية عام ١٩٧٣)، فقد عاد مع مئات غيره من الطلاب اليهود على (طائرات هيركوليس) الأمريكية الضخمة، للإنخراط في الوحدات المقاتلة سواء على الجبهة الشمالية السورية أو على الجبهة الجنوبية المصرية.

ويصف: لقد عاشت إسرائيل أيامها الحالكة عندما بدا أن التأخر في تجنيد الاحتياط كاد يضع إسرائيل في خطر محقق، ثم يقول: (لقد وصف الجنود الذين نجوا من الحرب شعورهم وهم يقاتلون بأنهم كانوا يشعرون أن مصير الشعب اليهودي مُلقى على كاهلهم، فإذا هُزموا هنا، فإن كل شيء سيضيع... ص٣٩٦).

ولاينقص نتنياهو التفاخر حين يؤكد (في نهاية الحرب كان الجيش الإسرائيلي يقف على مسافة ٤٠ كم من دمشق و ١٠١ كم من القاهرة... ولولا وقف إطلاق النار الذي فرضته أمريكا لما كان هنالك أية قوة تمنع الجيش الإسرائيلي من الوصول إلى العاصمة المصرية ـ صفحات ٢٨٨ و ٢٩٧).

ويا ليته فعل، لتوجبّ عليه الاستدارة من حرب جيوش إلى حرب شعوب، إذ لطالما اشتهينا نحن العرب أن تنقلب الحروب ذات يوم إلى مواجهات شاملة، وليست اقتناصات حروب سريعة مكسورة في تكافؤها، فإذا كان مايقوله نتنياهو صحيحاً، فلماذا انسحب من بيروت إذن؟!

لقد كان دايان خبير المعارك على امتداد تاريخ الصراع مع العرب، هو ملك إسرائيل الحربي دون منازع، أما مملكته فقد بناها على أكتاف الضعف العربي دون ريب، فعندما سأله أحد الصحفيين، بعد معركة العام ١٩٦٧، لماذا لم تدخلوا القاهرة وقد كانت الطريق مفتوحة إلى هناك؟. أجاب على الفور باقتضاب: لأننا لانريد خوض جهاد مقدّس... وحينما سأل جورج بوش رئيس أركانه الجنرال باول عن السبب لعدم دخول بغداد أجاب:

لأن جيوشنا غير مستعدة لخوض حرب غوار..وكان الجواب واحداً رغم مضي ربع قرن بين عدوان إسرائيل على العرب، وعدوان الولايات المتحدة على العراق... فالطرق ليست مفتوحة بهذه السهولة إلى أرض العرب، ولو أن الزمان يمكن أن يدور، فعندما دخلت الجيوش الألمانية مدينة براغ التشيكية، لم تُطلق طلقة واحدة في وجهها، لكن أحداً من الجنود الألمان لم يخرج حيّاً من براغ في النهاية.

تلك هي العبرة التي كان على نتنياهو أن يتمثلها في سِفره عن العرب ـ فنتنياهو لم يجرب حتى الآن حرب المساجد التي ترسل الإنسان إلى حياته الخالدة في السماء، وهو لم يصطدم حق الاصطدام بالذين يتدثرون الشهادة والقنابل، وأردانهمُ البيضاء علامة موتهم السلفي تلفُّهم لفّاً، لم يصطدم بعد بالذين على استعداد جماعي لمساواة الموت بالحياة، وكان يكفيه نموذجاً من ثلاثة انفجارات ربيع العام الفائت (١٩٩٥) حتى ينخلع فؤاد إسرائيل من جذره، ثم كان يكفيه أن (اعترافاً إسرائيلياً مُبهماً) بوجوب وجود شرعية فلسطينية، ألزم رابين بأن يصعد إلى السماء، وكل ذلك على يد الأجواء السوداء التي اصطنعها نتنياهو تمهيداً للجريمة.. الفضيحة.

* * *

يعود نتنياهو بعد استعراض تاريخي ـ استراتيجي وطوبغرافي، للتأكيد بأن الجبهة الفسيحة المتمثلة في شبه جزيرة سيناء، هي جبهة كافية للسلام، إذ من خلالها تتحقق عناصر الردع المطلوبة

لإسرائيل، كذلك هي على الجبهة الطويلة مع الأردن(*)، لكن عناصر الردع لاتتحقق إطلاقاً مع الجبهة السورية أو الدولة الفلسطينية في الضفة والقطاع، ثم يلخص نظريته العسكرية ـ الجغرافية بقوله: (إن قدرة إسرائيل على الردع تعتمد على ثلاثة عناصر رئيسية: قوتها العسكرية مقابل القوة العسكرية العربية، المدة الزمنية اللازمة للإنذار المبكر والحد الأدنى من المساحات المطلوبة للجيش كي يستطيع الانتشار ـ ص٢٩٨) ثم يقول (إن الدفاع الإسرائيلي يتطلب رداً على هجوم يكون فيه الجيش الإسرائيلي منذ البداية أقل عدداً بنسبة ١ إلى ٥ أو بنسبة ١ إلى ٧ مقابل الجيوش العربية ص٢٩٩).

وفي المجال الجوي، فإن الأمور أخطر بكثير، إذ فيما تستطيع مقاتلة عراقية أو سورية الإقلاع من مطاريهما في غضون من خمس إلى عشرة دقائق كي تصل إلى التجمعات السكانية في إسرائيل، فإن المقاتلة الإسرائيلية تحتاج إلى ثلاث دقائق لمواجهة الطائرات المهاجمة، هذا إذا كانت الطائرة الإسرائيلية في حالة تأهب قصوى مع طيارها في المطار.. ويسترسل قائلاً: (لكم هي مهمة محطات الإنذار المبكر التي أقامتها إسرائيل على قمم جبال نابلس وفوق جبل الشيخ في هضبة الجولان ـ ص ٣٠٠).

كما يقول (مقابل ١٦٠٠ كم كانت تفصل بين خطوط خلف وارسو وبين المحيط الأطلسي، فإن إسرائيل لايزيد عرضها من نهر الأردن وحتى البحر المتوسط على ٦٥ كم، وكأن هذا الوضع ليس خطيراً حتى توجه إلى إسرائيل مطالب من دول مختلفة بشأن تقصير هذه المسافة إلى ١٥ كم فقط، ويشارك في هذه المطالب إسرائيليون فقدوا أي صلة بالواقع ـ ص٣٠٣).

ويصطفي نتنياهو تقريراً لقادة هيئة الأركان المشتركة في الجيش الأمريكي برسم حدود كافية للدفاع عن إسرائيل، وبناء على طلبٍ من وزير الدفاع آنذاك روبرت مكنمارا، وضع هؤلاء القادة (ورقة موقف) تتضمن تفاصيل أقل مايمكن من الحدود التي تحتاجها إسرائيل دون أية اعتبارات سياسية فكان التقرير كما يلي:

(أوصت وزارة الدفاع الأمريكية في التقرير الذي أرفقته مع الخريطة، بأن تحتفظ إسرائيل بأربعة أخماس أراضي الضفة والقطاع، وبهضبة الجولان كلها.. وأن المنطقة الوحيدة التي تستطيع إسرائيل السماح لنفسها بعدم ضمّها، هي المنحدرات الشرقية لجبال نابلس ـ ص٣٠٦).

ويعترف نتنياهو بتفوق السلاح الجوي الإسرائيلي إلا أنه يعود فيقول:

(إن القصف الجوي الأمريكي للجيش العراقي طوال أربعين يوماً لم يكن بمقدوره حسم الحرب، إذ من أجل طرد الجيش العراقي من الكويت، كان لابد من شن هجوم برّي، وبعد بدء هذا الهجوم بمئة ساعة حُسمت الحرب نهائياً ـ ص٣٠٩).

(*) نتنياهو هنا راضٍ عن السلام مع مصر والأردن، بصرف النظر عن الأنظمة الديمقراطية والاستبدادية وعلاقتها بمقولة السلام والحرب، حيث صرف عصارة فكره في فصل سابق ليؤكد أن السلام لن يقوم بين أنظمة سياسية ديمقراطية ودكتاتورية!..

ويتابع: (حتى في زمن الصواريخ، فإن الجدار الواقي المتمثّل في هضبة الجولان، وجبال الضفة الغربية، يمنح إسرائيل وقتاً أثمن من الذهب..) وهناك مزايا تتلخص في الفرق بين أن تكون كاشفاً أو مكشوفاً.. (إن الدرس الذي يجب أن تتعلمه إسرائيل كدولة صغيرة، هو أنه في عصر الصواريخ تزداد أهمية الأرض ولاتنقص - ص٣١١).

ثم يختتم قائلاً: (إذا أخذنا بعين الاعتبار الأهمية الاستراتيجية لمناطق الضفة والهضبة، فلا بد أن نستنتج أن شعار الأرض مقابل السلام، هو شعار غير صحيح من أساسه، فسيطرة إسرائيل على هذه المناطق ليست عائقاً أمام السلام، إنما هي عائق أمام الحرب، وكيما نحقق سلاماً قوياً يتوجب على إسرائيل، أن تحافظ على قوة ردع قوية.. إن وجود إسرائيل في هذه المناطق بالذات، هو الذي ردع العرب عن شن حرب شاملة عليها، وهو الذي يزيد من احتمالات تحقيق سلامٍ حقيقي في المستقبل - ص٣٢٨).

تلك هي أهم محاوره في جداره الواقي حسب فصله السابع من الكتاب، ففي تاريخ إسرائيل لازمة تتكرر على الدوام ولابد من إسماعها، وهي أنها ترفض الشروط المسبقة، أما أن يضع نتنياهو شروطه في جداره، فليس ذلك إلا الاحتفاظ بالأراضي المحتلة إلى يوم يُبعثون؟

ماذا يعني جدار نتنياهو غير الشروط الكفيلة بإسقاط أي سلام، وأية مفاوضات، بل وأيّ حوار، فنتنياهو يُنصِّبُ نفسه جنرالاً عسكرياً في بحثٍ سياسي صرف، علماً بأن حزب العمل هو صاحب المدرسة العسكرية الحقيقية في إسرائيل، فلماذا يتجاهل التعليق على تلك الندوة الكبيرة التي أُقيمت تحت رعاية جريدة ها آرتس في العام ١٩٨٨ بين ثمانية من كبار جنرالات إسرائيل، حيث أيدّ جميعهم مبدأ الانسحاب من الأراضي المحتلة في مقابل السلام مع العرب.. وهل يُعقل أن نتنياهو أطول باعاً في مسائل الإستراتيجيا العسكرية، من قادة حملة سيناء، وشرم الشيخ وحرب العام ١٩٦٧ وغيرها من حروب إسرائيل.. ألا يُقدّر هؤلاء الجنرالات الثمانية، ما معنى كلمة الإنسحاب وعلام تنطوي وإلى أي مآلٍ تقود؟.

ها هنا فإن الهدف يسبق الحجّة على الدوام، فنتنياهو يريد أن يصل إلى النتيجة السياسية التي درج عليها حزبه، سلام مقابل سلام، ولا شيء آخر...

إذ ماذا تعني هذه المفردات الاستراتيجية التفصيلية إذا كان الادعاء يطالب بحكم الإعدام قبل اثبات أي شيء يتعلق بالاتهام، ومع أن نتنياهو يتحدث عن السلام من قاعات الحرب، فإن سنبلة نتنياهو السلامية تبقى معلقة على فوهة مدفع، ويعود ذلك إلى انعدام اليقين الكلّي فيما يتظاهر بالدفاع عنه، ألا وهو السلام.

قوة عسكرية لإسرائيل، إنذار مبكر لها أيضاً، ومساحة أراضي كافية للإنتشار، أما النموذج المفضل فهو سيناء.. فإذا كانت سيناء هي ضعف مساحة فلسطين كلها، والضّفة الغربية منها تشكل ثلث مساحة فلسطين، وهضبة الجولان أقل من ثلث مساحة الضفة الغربية، فمن أين نأتي بالمساحات الإضافية كي يحقق نتنياهو جداره الواقي بصورة نموذجية؟.

ماذا نفعل إذا كانت المساحات التي تتمركز عندها بؤرة الصراع في الأساس، هي أصغر من

أصغر ولاية أمريكية، ثم لماذا القياس على الناتو ووارسو وجبهات العمالقة والقارات، إلا إذا كان نتنياهو قد صدّق نفسه بأنه دولة عظمى من دول هذا العالم؟

ومن هنا... مَن الذي حشر نفسه في المنطقة، أهم العرب أم إسرائيل لماذا لم يذهب هرتزل إلى الأرجنتين أو أوغندا فيكفينا مؤونة الحساب والاحتساب للأبعاد ذات الآلاف الكيلومترية، حيث تستغرق الطائرات ساعات من الزمن بدلاً من الدقائق الخطيرة أو المصيرية؟!..

إن السلام لايُناقش بمفردات حربية، فإذا كان الإناء ينضحُ بما فيه، فإن السلام يكون بمفرداته المستقبلية الإنسانية البنّاءة، فيما الحرب لها مفرداتها التدميرية أيضاً.

لايوجد دولة في العالم كله، حريصة على أخذ حذرها واحتياطاتها مثل إسرائيل، ففي ذات يوم، كادت إسرائيل أن تعطل أثمن ما في تاريخها من مفاوضات من أجل حجر حدودي في طابا، وقد علّمنا تاريخ المفاوضات مع إسرائيل، بأنها مريضة في غرام التفاصيل، وأنها لاتُسلّم بموضوعٍ على طريقة شايلوك الشكسبيري، دون أن تميته متاجرةً ومراوغةً وتدويرا.. فكيف إذن بالقضايا الكبرى مثل مستقبل السلام والحرب في المنطقة، فإسرائيل في سلامها تعتقل حاضر العرب من أجل مستقبلها، وأقل ما يمكن أن يُقال في هذا الشأن، أنها تشترط فيما تشترط، تخفيض عدد الجيوش العربية إلى النصف أو الثلث حال إبرام السلام وتوثيقه، وليست الجيوش فحسب، بل تتدخل في شأن الفروع الأمنية والداخلية من أصغر مكتب في دمشق وحتى آخر مخفر للشرطة على الخابور... وإن ما يبديه نتنياهو من تحوّط زائد إنما هو اصطناع في اصطناع.

إن السلام والردع لايجتمعان في قاموس واحد، فضلاً عن أنها جملة مركبة ومتناقضة، كمن يقول مثلاً: قُبح الجمال، أو ظلام النهار، أو نهار الليل ودفء كانون... الخ، فالردع هو مقابل السلام الضدّي وليس حليفه، فحليف السلام هو الأمان، وحليف الردع هو الحرب، فضلاً عن أن الردع ذاته صادر عن كامل عدم الثقة، لا بالطرف المسالم فحسب، بل وبكل الأطراف الراعية له، فإذا كانت بادئة السلام هي التبييت أو المكيدة أو نيّة الغدر، فإن السلام هنا لالزوم له، بل لعل من الأفضل أن تظل الأطراف في نزاع صريح، من أن تنام على سلام غادر، ومع ذلك فإن الدعوة هنا، ليست موجهة للنوم على النوايا بكل سذاجة، بل هناك حقائق على الأرض مع السلام، نفترض أن نتنياهو لايتجاهلها، فالحرب لها تحضيرات واستعدادات وأجواء فضّاحة، وأمام أجهزة الانذار والأقمار لايمكن لهذه الاستعدادات أن تبقى مكتومة، فالجيوش ليست علبة تبغ تُخبأ في الجيوب، وعندما أعادت القوات السورية انتشارها في لبنان، زعقت إسرائيل: إنها الحرب، ولم يكن قد مضى على هذا الانتشار إلا ساعات قليلة، علماً بأن إسرائيل تعلم حق العلم، بأن سوريا لاتحارب بمفردها، وإنها في جميع الأحوال، لن تحارب بثلاثين ألف جندي من قواتها في لبنان!...
من جهة أخرى، فإن حركة الطير في بادية الشام أو سيناء أو صحراء الأردن... بادية للعيان على شاشات نتنياهو الرادارية، مثلما هي بادية طائرة مقاتلة أو مدنية في مرتفعات الجو أو منخفضاته، فالحرب في زماننا هذا، مع كلّ ما يحفّها من أجهزة أسطورية، لايمكن أن تقع بغتة مثلما يصوّر

نتنياهو المخاطر المحدقة بإسرائيل... إن المخاطر المدعاة تقع على خارطة احتباس الأراضي المحتلة وليس شيئاً آخر، كما يتحدث نتنياهو بلهجة جنرال عن عصر الصواريخ، حيث يريد أن يدحضَ الفكرة القائلة بعدم جدوى الجغرافيا مع هذا العصر، بل يؤكد (إن الأرض تزداد قيمتها في عصر الصواريخ ولاتنقص).

وكي يعزز فكرته فإنه يضرب مَثَلاً عن مقاتلة عراقية وأخرى مثلها سورية ـ حيث الفارق الزمني في الوصول إلى مراكز إسرائيل الحيوية، يكمن في خمس دقائق ثمينة، ووفق هذا التقدير، فإن المقاتلة العراقية أقل خطراً من حيث الوقت الذي عليها أن تقطعه (١٠ دقائق)، أما المقاتلة السورية فبمقدورها أن تكون في أجواء إسرائيل في غضون خمس دقائق فقط..

حتى هذه الحسابات فإنها نافلة في زمن السلام، لكننا لنفترض مع عقم الجدل بأنها حَصَلت، فلماذا يخفي نتنياهو آلية الرد الإسرائيلي ـ الأمريكي الحقيقية، ويضع بدلاً عنها حسابات أطفال، تتعلق بالمدة التي تستغرقها مقاتلة إسرائيلية متأهبة لملاقاة المقاتلة السورية أو العراقية حيث تحتاج إلى ثلاث دقائق؟

فقبل خمس سنوات ـ وليس الآن ـ قامت واشنطن بتسليط ستة أقمار صناعية فوق العراق والكويت، ثم قذفت إلى سماء المنطقة بقمرين إضافيين لمراقبة مُتقدمة بوسعها رصد الحرارة التي تلفظها عوادم الصواريخ قبل إطلاقها، كما وجهّت قمرين آخرين من نوع لاكروس تخترق راداراتها كتل الغيوم كما تخترق سطح الأرض إلى عمق يتجاوز خمسة أمتار.

أكثر من عشر أقمار صناعية سُلّطت على كامل الخارطة النفطية، وعلى ارتفاعات ما بين ١٥٠ إلى ٢٠٠ كم في أعالي الفضاء، واستطاعت بواسطة أجهزة فيديو تصوير مساحات بحدود المتر المربع الواحد بمعدل ١٢ فيلم في الساعة مدة الفيلم ٥ دقائق، وقد أحصت هذه الأفلام قبل اندلاع القتال زهاء أحد عشر ألفاً من الأهداف العراقية وقد تمت برمجتها على الطائرات الأمريكية دون حاجة لأي انذار مبكر، أو تمرينات ميدانية على الأهداف المطلوبة، وقد أباح أحد الأخصائيين الأمريكيين (قبل خمس سنوات فكيف الآن)، (بأنها الحرب الأولى التي تشارك فيها القمار الصناعية بكفاءة جيش كامل، لقد قدّمت مساعدات ذهبية للعمليات الجارية على الأرض)..

وهناك مثل أمريكي عسكري يقول: (بعد الكنس الجوي لايبقى على الأرض سوى المسح).

ورغم السرية الشديدة التي فرضها البنتاغون على طبيعة مهمّاته القمرية، فإنه بالإمكان إعطاء أهمية أكبر لسبعة من الأقمار الأمريكية (أو الإسرائيلية سيّان)، كانت قد دخلت في النزاع بشكل مباشر، فقد رُكزّت جميعها على ارتفاع ٢،٣ ألف ميل في الفضاء، وقد سمحت هذه الأقمار باكتشاف أي صاروخ عراقي لحظة انطلاقه تماماً، أي قبل وقت كاف لانذار صواريخ باتريوت الأمريكية في إسرائيل، وكان القمر الصناعي فور اطلاق الصاروخ العراقي ينقل الخبر في الوقت المحدد إلى المحطة الجوية الأمريكية المتركزة في منطقة (أليس سبرنغ) في استراليا، ثم يقوم الخبراء بتحليل الإرسال المصور في غضون ثلاثة أرباع الدقيقة، ويقررون نقله أو عدم نقله إلى مقر القيادة

الجوية العامة في كولورادو في الولايات المتحدة ومن ثمّ إلى الخليج فتل أبيب، وكان كل ذلك يستغرق بين دقيقة ونصف أو دقيقتين، ويبقى للرد حوالي دقيقتين إضافيتين، وهو وقت كاف للرد على الصاروخ العراقي الذي يحتاج إلى خمس دقائق للإنقضاض على إسرائيل...

فإذا كانت الأقمار الصناعية الأمريكية أو الإسرائيلية، حيث يمكن الأولى أن تكون في خدمة الثانية دوماً، تقوم بالتعامل مع سرعة الصاروخ وتترك زمناً فائضاً للرد، فكيف إذن مع سرعة الطائرة المقاتلة التي لاتتجاوز نصف السرعة بل أقل بالنسبة إلى الصاروخ؟!

لا شأن لموضوع العراق هنا، لكنها الطريقة الإسرائيلية النموذجية في العرض!... فمن أجل إخراج إسرائيل تلك الدولة الموادعة والمسالمة، فإن نتنياهو يضعها في موضع المراقب (كالناطور) الذي يترقّب خاتمة الأحداث بكل سلامة طويّة وطهارة نفس (فقد اضطرت إسرائيل للإحتفاظ بجزء من سلاحها الجوي محلقاً في الجو ليل نهار طيلة فترة حرب الخليج.. لذا فإن هذا المستوى من التأهب غير ممكن فضلاً عن تكاليفه الفادحة ـ ص٣٠٠).

لم يستلم نتنياهو ثمن حياده في حرب الخليج بعد.. ومن أجل تبيان الطريقة في التفكير، كما أسلفنا، فإنه لابد من استعارة مقطع من كتاب (الخليج بيننا ـ حمدان حمدان) لإيراد الحقائق التي تخص إسرائيل بالنسبة لحرب الخليج:

(لم يتأكد جورج بوش من موافقة شامير على البقاء على الحياد في هذه الحرب، فقد صمّم على إرسال الجنرالين إيجلبرغر وولفوتيز ليقيما في إسرائيل طوال فترات العمليات القتالية في الخليج، وقد أقاما في مبنى قريب من مبنى مجلس الوزراء الإسرائيلي ليكونا في قلب الأحداث بصورة دائمة، وقد فهم شامير فحوى الرسالة، إلا أنه كان راضياً عن مهمات سرية أخرى... فقد شرعت الإدارة الأمريكية على الفور، عبر جسر جوي ضخم، إرسال بطاريات باتريوت، التي لم يتزود بها إلا الجيش الأمريكي فقط، وكانت هذه البطاريات تُنقل عن طريق حلف الأطلسي، لتنتشر في أماكن عدة من إسرائيل، والمهمة السرية الثانية، كانت تتمثل في الإشراف على حلقة الاتصال الصوتية المأمونة والسرية، وذلك بين مركز العمليات في البنتاغون ومقر وزارة الدفاع الإسرائيلية، وقد عمل رجال أمريكيون على تدريب الإسرائيليين لتشغيل الأجهزة الخاصة بالشيفرة والتي تشكل جزءاً من نظام اتصال متكامل، وقد أطلق على هذه المحطة اسم هامر (أي المطرقة)، وكانت هناك محطة فرعية على الخطوط اسمها هامر ريك (أي كومة المطارق)، جُعلت ما بين القيادة العسكرية الأمريكية في السعودية (الظهران) والمحطة الموجودة في تل أبيب.

كان بمقدور هذه المحطات، أن تضع إسرائيل في فيديو الأحداث والعمليات الجارية لحظة انطلاقها في الجو أو البحر أو البر، وقد باشرت هذه المحطات عملها اعتباراً من العاشر من كانون الثاني عام ١٩٩١ بشكل تجريبي، والثالث عشر منه بشكل نهائي... كانت إسرائيل قد حظيت بمرتبة أولى من بين دول التحالف، على أول إخطار بخصوص ساعة الصفر، وقد ذكر شامير لعددٍ مُنتقى من وزرائه المخلصين، بأنه كان يعرف موعد الصفر، وكلمة السر لإنطلاق العمليات (التي هي سليمان)، منذ أن التقى مع جورج بوش في التاسع من كانون الثاني...).

إذن ما هي المباغتات (في ظل السلام) التي يحرص نتنياهو على التحذير منها، وهو يعرف كل هذه التفاصيل وأكثر منها؟.. لماذا يخبئ مقدرة إسرائيل الحقيقية، التي هي جزء لايتجزأ من المقدرة الأمريكية، في اكتشاف أسراب السنونو فوق دجلة والفرات، أو أسراب الحمام فوق دنشواي...

لقد عاد نتنياهو إلى طريقة أجداده في العزف على وتر: إسرائيل قليلة أمام التعداد العربي الهائل (خمسة ملايين إلى ١٥٠ مليوناً)، وإسرائيل غير متكافئة مع قوة العرب (واحد إلى خمسة أو إلى سبعة في مجال العديد العسكري والطيران والمدفعية والدبابات... الخ)، وإسرائيل سلامية أمام صراخ العرب الحربي في كل آنٍ وزمان، وإسرائيل محدودة أمام ملايين الكيلومترات المربعة العربية... وكل ذلك لاعلاقة له البتة، في التقابل الحقيقي للقوة العربية الإسرائيلية، فمنذ عشر سنوات وربما أكثر، زُوّدت إسرائيل بأسراب من الطائرات النوعية بمعدات الكترونية لم يكن حلف وارسو يعرفها أو يمكنه التعرف عليها، وكانت فوارق التكنولوجيا الأمريكية السوفيتية قد بدت ذات فجوات، عندما حلّقت منذ العام ١٩٨٦ مقاتلة أمريكية فوق شبكات الرادار الدفاعية المركزية السوفيتية ولم تستطع التقاطها، وكانت حرب النجوم الريغانية، قد بلَغت مبلغاً بالنسبة للإقتصاد السوفيتي الذي بدا أنه يئن تحت الضربات الموجعة لاهدار المليارات في السماء لا على الأرض...

كان التقابل المكسور بين الشرق والغرب قد انسحب بنفسه على التقابل بين العرب وإسرائيل... ثم كانت طائرات إسرائيل الأمريكية، التي تصيب أهدافها بدقة معيارية، دون أن تتمكن عيون الرادارات في الطائرات أو على الأرض من اكتشافها...

وتلك مزيّة واحدة في الجو، تليها ميزات أخرى في الدفاعات الجوية: والبحر والبر... إذ لم تتمكن المقاتلات العربية من عمق إسرائيل إلا نادراً، وهذا معناه أن أجهزة الكشف الرادارية الإسرائيلية، كان لها عمقاً آخر غير مايرويه نتنياهو عن عمق إسرائيل الأرضي، ففيما يتحدث عن عمق لايتجاوز ٦٥ كم بعد عدوان حزيران، و ٢٠ كم قبله، كانت عيون راداراته من جبل الشيخ أو جبال نابلس المسلطة فوق جميع المطارات الحربية العربية تصل إلى حدود تركيا في الشمال وحدود العراق في أقصى الشرق، هذا غير طائرات الاستطلاع اليومية التي تطيّرها إسرائيل دون طيّار، والتي من المرجح أن تكون الأقمار الصناعية المتقدمة قد حلّت محلها منذ زمن ما قبل حرب الخليج الثانية.

ومثل الكف المبسوط، كانت أعماق جميع الدول العربية المحيطة على الأقل، مكشوفة أمام أجهزة الرادارات الإسرائيلية بحيث يستطيع نتنياهو أن يكتشفها من مكتبه، فلماذا إذن التباكي على العمق الهش لإسرائيل، فيما الجيوش ستتراجع بعد تخفيضها، عشرات الكيلومترات إلى الوراء في حال إبرام سلام؟ وهو عمق إضافي لإسرائيل؟..

يقول نتنياهو من أجل التأكيد أيضاً (إن القصف الجوي الأمريكي ضد الجيش العراقي، الذي تخلّله استخدام هائل لجميع أنواع الصواريخ والقنابل الثقيلة، لم يكن بمقدووره حسم الحرب، إذ

من أجل طرد الجيش العراقي من الكويت، كان لابد من شن هجوم بري، وبعد هذا الهجوم، حُسمت الحرب بعد مئة ساعة فقط - ص٣٠٩).

لم يكن هدف أمريكا من الحرب، إخراج العراق من الكويت، بل من التاريخ، وهذا ما قاله جورج بوش بالضبط (سنعيد العراق إلى العصر الحجري)، وكان مما قاله الجنرال الأمريكي ماك بيك قائد سلاح الطيران الأمريكي: (وفقاً لقناعتي الشخصية، فإنه لأول مرة في التاريخ، تستطيع قوة جوية أن تحسِم المعركة على الأرض سلفاً)، وفي كتابه عاصفة الصحراء يؤكد إيرك لوران (بأن العراق كان قد أُخضع لقصف جوي لا مثيل له في التاريخ العسكري فخلال ثلاثة وأربعين يوماً من الغارات الكثيفة التي لاتتوقف، أُلقي على العراق ما ألقاه الحلفاء على ألمانيا النازية خلال كامل السنتين الأخيرتين من الحرب العالمية الثانية، وهناك إحصائية تقول بأن مجموع ما أُلقي على العراق من القنابل والصواريخ يتجاوز ما حمولته مئة ألف طن من المتفجرات، وهذا معناه خمس قنابل نووية من عيار هيروشيما، أو تسع سنوات من القصف فوق ڤيتنام).

وهو الرد على ما يتنافخ به نتنياهو من أن العراق لم يصمد سوى مئة ساعة أمام الحرب البرية.

لقد تحدث جنرالات كبار، مثل نائب مارشال الجو الأمريكي و.ج. وراتن عن الحرب الجوية ضد العراق (كانت أول معركة في التاريخ تخوضها القوات الجوية بكاملها...) وقد عكست هذه الآراء كما الوقائع على الأرض استنتاجات خاصة بخصوص فعّالية السلاح الجوي الحديثة وإمكاناتها في تبديل العديد من القواعد النظرية الحربية في السابق..

أما الجيوش البرية في هذه الحالة، فهي لالتقاط ما تبقى من الأسرى والجرحى بعد حفلة القتل الجماعية التي كانت من مهمات أسلحة الجو لا أسلحة البر في جميع المقاييس.

إن نتنياهو وهو يعرف هذه الحقائق وأكثر منها، يريد الاحتفاظ بالأرض لا للدفاع بل للعدوان، فإذا ما توفرت له كل المساحات المنزوعة من السلاح، وتخفيض الجيوش والأسلحة، وقوات الطوارئ الدولية، وأجهزة الإنذار المبكر، ورعاية أمريكا، وزرع السفارات، وفتح الحدود أمام الأشخاص والبضائع، إذن... ما هي الدواعي لاحتساب الأعماق والأطوال، والكيلومترات المربعة، وعديد الجيوش، وكميات الأسلحة في برّها وجوّها وبحرها.. إذا كانت أجواء السلام الحقيقية هي سيّدة الموقف في المنطقة، ماذا يضيره لو كان العمق الإسرائيلي عشرين كيلو متراً أو خمسين أو مئة.. وقد أصبحت الأعماق العربية كلها من الدار البيضاء إلى حدود تركيا، مفتوحة أمامه في سبيل القضية النبيلة الحقة: سلام عادل وتعايش مشترك دون تجاوز أو طغيان؟!..

في النهاية، فإن نتنياهو يقيم العائق من عنده، بين مفهومين متعارضين قد يقوما في المستقبل، مفهوم نزع السلاح ومفهوم السيادة الوطنية، والرد على فرضية هذا التعارض، ليس في النظر، بل بالتجربة الماثلة أمامنا منذ حين، فبالأمس القريب (أيلول ١٩٩٦) عندما اندلعت الأحداث بسبب حفر النفق تحت المسجد الأقصى، أُضطرت الشرطة الفلسطينية للدفاع عن نفسها وأهلها في المناطق المحتلة، فكانت الدبابات الإسرائيلية تجوب شوارع المدن الفلسطينية وضواحيها في

غضون ساعات، هذا فضلاً عن طائرات الهيلوكبتر التي أصبحت مُجهّزة بدقةٍ تسمح لها حتى بقتل فردٍ من السماء على الأرض، وهكذا أصبح وضع السيادة مكبلاً في ساعات، الدبابات أمام البندقية الفلسطينية النادرة، والطائرات أمام الزجاجات البدائية الحارقة، والجنود أمام العُزّل من المواطنين، وليس مثل إسرائيل مَن يبادر إلى مصادرة السيادة لمجرد أنها تستشعر الخطر البعيد...

□□□

الفصل الخامس
عن السكان والسلام ولغة القوة

الدولة الضعيفة تغري الخصم على العدوان... إن سلامنا هو سلام الردع... سلام القوة اليهودية إلى الأبد.

بنيامين نتنياهو

يتحول نتنياهو في فصله الثامن المعنون بالمشكلة السكانية إلى باحث اجتماعي - ديمغرافي بعد أن أنجز إدارة أعماله في فيلادلفيا، وها هو يخوض غُمار معركة طاحنة ضد التنبؤات السوداء التي يقول بها بعض العلماء الديموغرافيين، من أن إسرائيل ستتعرض للدمار من داخلها، إذا ما استمر النمو السكاني العربي على معدله (فإذا ما استمرت إسرائيل بالاحتفاظ بالمناطق المحتلة، فقد يصبح عدد اليهود أقلية واضحة مع العام ٢٠٠٠ - جيروزليم بوست - خريف العام ١٩٧٤ ص ٣٣٠).

يستنبط نتنياهو مثالاً آخر من صحيفة ها آرتس حيث تنبأ الدكتور الإسرائيلي يهودا دوان بأن (المناطق المحتلة جلبت لإسرائيل ١,٤ مليون عربي... وهذا يشكل شحنة ثقيلة جداً من المشاكل والالتزامات، خاصة في ضوء حقيقة أن نسبة التكاثر الطبيعي المتوقع ستجعل عدد الشعبين متساوياً في غضون ١٤ سنة).

ولما كان توقع الدكتور يهودا قد حصل بعد عدوان حزيران ١٩٦٧، بأسبوعين فقط، أي في العشرين من حزيران عام ١٩٦٧، فإن نتنياهو يكذب هذه النبوءة الآن، إذ يقول: «لقد أخطأ الدكتور يهودا في تنبؤاته وها هو بعد مضي ١٤ سنة لم يتغير شيئاً، والنسبة العدية بين اليهود والعرب مازالت هي هي منذ العام ١٩٦٧ ص - ٣٣٠).

ذكرت صحيفة شيكاغو تريبون، وهو مثال نتنياهو الثالث عن المشكلة السكانية، (بأن أهم خبير إسرائيلي في مجال الديموغرافيا، وهو البروفسور آرنون سوفر توقع هو الآخر في العام ١٩٧٨ أن السكان العرب في أرض إسرائيل سيصلون إلى نسبة ٤٦ بالمئة من مجموع السكان في العام ٢٠٠٠ فإذا ما استمر هذا الوضع على حاله فستختفي إسرائيل بصورتها الحالية - الصفحة ذاتها).

ويجيب نتنياهو: ها هي إسرائيل لاتوجد فيهاأية مؤشرات للاختفاء وأن النسبة مازالت متوازنة منذ دراسة البروفسور سوفر وحتى الآن!.

ويهاجم نتنياهو موضوعات الديموغرافيا، بصفتها ليست علماً دقيقاً، وأن توقعاتها لا ترقى

إلى مرتبة الحقائق كما هو الحال في علوم الفيزياء مثلاً، فالديموغرافي يتوقع كما لو أن الجميع سيتصرفون اليوم وبعد ربع قرن على نحو واحد، ثم يتنبأ على ضوء الولادات وعدد السكان ومتوسط الأعمار.. ما الذي سيحدث بعد عقدين أو ثلاثة عقود من الزمن.. ومن أجل النصيحة فإن نتنياهو يدعو الإسرائيليين بالاتعاظ بقول هرتزل: (إن أردتم وقررتم، فلن تكون هناك خرافة)(*).

ويختصر نتنياهو فكرته عن دحض أفكار الديموغرافيين الذين قالوا بصراحة ساذجة بأن (المعركة المقبلة هي مع الرحم)، فيذكر صراحة لا مواربة (إن عدد السكان العرب في البلاد أيام هرتزل كان يزيد عشرة أضعاف السكان اليهود، وقد اختار الشعب اليهودي أن يتجاهل كل الحقائق السكانية.. هاجر الصهاينة إلى البلاد وبنوها.. أقاموا المدن والمستوطنات.. خلقوا واقعاً ديموغرافياً جديداً: دولة يهودية بأكثرية يهودية - ص٣٣١).

ومن أجل تأكيده على الأرقام والنسب، فإنه يرسم جدولاً للتعداد السكاني المتقابل في العامين ١٩٦٧ و ١٩٩٣، ثم يصل إلى الأرقام التالية (مع هضبة الجولان):

- السكان العرب في فلسطين والضفة والقطاع والجولان مع العام ١٩٦٧ كانوا يشكلون ١,٣٦٨,٠٠٠ نسمة أما اليهود فيشكلون ٢,٣٤٨,٠٠٠ نسمة في فلسطين العام ١٩٤٨، وتكون النسبة المئوية قياساً إلى ذلك هي ٣٦,٥ بالمئة للعرب و ٦٣,٥ بالمئة لليهود.

- في العام ١٩٩٣ أصبح السكان العرب في المناطق المذكورة ٢,٨٦٢,٠٠٠ نسمة بينما أصبح عدد السكان اليهود الكلي ٤,٣٣٥,٠٠٠ وبهذا تكون النسبة المئوية العربية ٣٩,٥ بالمئة إلى ٦٠,٥ بالمئة لصالح اليهود..

ثم يستخلص نتنياهو بأنه في غضون ٢٥ سنة لم ترتفع نسبة النمو السكاني بالنسبة للعرب أكثر من ٣ بالمئة، مقابلها انخفاض بذات النسبة بالنسبة لليهود..

غير أن ثمة عناصر لها تأثيرها على مسألة الحجم السكاني، ويضع نتنياهو هذه العناصر المؤثرة في أربعة: (الولادة، الموت، الهجرة والهجرة المعاكسة، ثم يتابع: وبما أننا نتحدث هنا عن نوعين من السكان هما اليهود والعرب، فإن هذه العناصر تصبح ثمانية لا أربعة - ص٣٣٤).

وما من شك، يضيف نتنياهو، أن الولادة والهجرة تزيدان في عدد السكان، كما أن الوفاة والهجرة المعاكسة تنقصان من هذا العدد، بالنسبة للطرف العربي فإن الشق الثاني من المعادلة (الوفاة + الهجرة إلى الخارج) هو المطلوب، وأما بالنسبة لليهود، فإن المطلوب هو الشق الأول من المعادلة (أي توالد + هجرة من الخارج). فتاريخ الصهيونية، كما يؤكد نتنياهو، هو تاريخ هجرة اليهود إلى أرض إسرائيل، وهذا هو العنصر الذي سيحسم مستقبل الدولة السكاني.. فإذا ما

(*) لم يكن العديد اليهودي في فلسطين أيام هرتزل ليتجاوز بضعة آلاف من اليهود، وعلى وجه الدقة فإن يهود فلسطين الأصليين قبل نشوء الحركة الصهيونية في مؤتمرها الأول ١٨٩٧ كانوا حسب الاحصاء الحيادي العثماني يشكلون عشرين ألفاً، ومع وفاة هرتزل أصبح التعداد اليهودي عام ١٩٠٤ زهاء خمسة وأربعين ألفاً... بالهجرة وهو المقصود.

انتهجت إسرائيل سياسة صحيحة بالنسبة للهجرة والتكاثر الطبيعي فسيكون بمقدورها مضاعفة عدد سكانها من اليهود في غضون عشرين عاماً..

ويستخدم نتنياهو عبارات لهرتزل ونورداو وبنسكر، من أنه لايتحتم على كل يهود العالم الهجرة إلى أرض إسرائيل، لكن مضاعفة عدد اليهود في إسرائيل اليوم أمر ممكن (كأن يصبح اليهود في فلسطين ثمانية ملايين) أو أكثر.

فإسرائيل ليست ملجأً ليهود العالم من أجل حمايتهم من الإبادة فقط، بل إنها الواسطة من أجل رفع قيمة حياة اليهود كشعب مستقل.

العنصر الثاني الذي يخشاه نتنياهو بعد مسألة تدّني الهجرة أو وقفها، هي الهجرة المعاكسة، وهذه بدورها تتناسب إيجاباً مع الضمور الاقتصادي وتقّلص فرص العمل..

(في الثمانينات، كما يقول، عندما بلغ معدل الهجرة المعاكسة من إسرائيل حوالي ٣٠ ألف شخص سنوياً أعتبر هذا الأمر بمثابة ناقوس خطر أكيد يهدد مستقبل الدولة، لكنه في أعقاب تحسين الوضع الاقتصادي والشعور النفسي العام بهجرة اليهود من الاتحاد السوفييتي أوقفا هذا التوجه السلبي - ص٣٣٧).

وهكذا نكون قد وصلنا إلى خط النهاية مع مرامي نتنياهو من بحثه هذا..

فإسرائيل عرضة للتآكل من داخلها إذا ما اقتصرت المعركة على موضوع الرحم، فالتكاثر الطبيعي للعرب في فلسطين سيؤول بعد ربع قرن أو حتى نصف قرن إلى إغراق المجتمع اليهودي بأكثرية عربية، وهو لهذا يضع (معالجة قيصرية) لمنع هذا التكاثر من أن يأخذ مجراه، وطالما أن الظروف الاقتصادية هي العامل الحاسم فإن نتنياهو يخطط سلفاً لجعلها في مستوى الحد الأدنى بالنسبة لأماكن الكثافة العربية وهو ما يشجع على الهجرة إلى الخارج من قبل الفلسطينيين، أما بالنسبة لليهود فإن رفع مستوى الحياة المعيشية يلعب دوراً معاكساً ضد هجرة اليهود إلى الخارج. ولايجد نتنياهو مانعاً من استخدام الواقعة التالية:

(لقد ازدادت طوابير المراجعين من العرب أمام مبنى القنصلية الأمريكية في القدس أواخر عقد السبعينات، وقد علّق أحد المراجعين قائلاً: لو كانت الولايات المتحدة تسمح بدخول عرب الضفة أو القطاع كما تسمح ليهود الاتحاد السوفييتي، لحلّت مشكلة إسرائيل السكانية في يوم واحد - ٣٣٦).

وفي الأساس، فإن هذا الهاجس هو ما يدور في خَلَد نتنياهو، هجرة معاكسة للعرب، وهجرة قادمة لليهود، اقتصاد مثالي لليهود، واقتصاد متخلّف للعرب، متوسط دخل يتكافأ مع أعلى متوسطات الدخول العالمية (في سويسرا واليابان وألمانيا...) لليهود، ومتوسط دخول (معاكس) للعرب..

تلك هي أهم أسلحة نتنياهو في معركته ضد الكثافة السكانية، ولو أن طبيعة هذا العصر تسمح بما سُمح لآبائه في الماضي، لما تأخر عن استخدام سلاح إضافي وهو الطرد الجماعي للسكان. ومع

ذلك، فإن هذا السلاح يظل مسلطاً فوق الرؤوس في كل آن وأوان، فلدى كل حَدَث في إسرائيل على يد أي عربي، فإنه سرعان ما تُتخذ سياسات المداهمات وتفجير البيوت والطرد الجماعي تحت سماوات الأرض دون السؤال عن العالم أو رأيه، وغالباً ما تُتخذ مثل هذه المناسبات لزيادة الضغط الأمني أو الاقتصادي كمسعىً إضافي من أجل معالجة الكثافة السكانية العربية..

المعالجة القيصرية الثانية هي وقف النمو السكاني العربي بأساليب شتى، فمن المعلوم أن الأسرة الفلسطينية التي تناقصت من متوسط ثمانية أفراد إلى أربعة في غضون عشرين عاماً كما يقول نتنياهو، لم تكن تتعلق باضطراد أسباب الثقافة، وتراجع مستوى الجهل، ولو أنها كقانون اجتماعي عام، صحيحة في العالم، وغير صحيحة في فلسطين، فمعركة الرحم واحدة من أهم معارك الفلسطينيين في المستقبل، ولو أن معدل الأسرة المنخفض هي سمة حضارية أوروبية، إذن لماذا يدعو نتنياهو إلى إكثار الخصوبة الإسرائيلية في فلسطين؟ لنسمع ما يقول:

(إسرائيل بحاجة إلى منح قروض لإنشاء أسر جديدة، ومساعدة النساء اللواتي يعانين من صعوبات الإخصاب، وتقديم المساعدة المميزة للعائلات التي تريد زيادة عدد أولادها ـ ص٣٣٧).

والخلاصة أن مشكلة الكثافة السكانية اليهودية ترتبط بصورة حاسمة بالأوضاع الاقتصادية في إسرائيل، فقد سبق للهجرة اليهودية أن اضطردت إيجاباً مع الأحوال المتقدمة للاقتصاد الإسرائيلي، وكان من المفهوم أن ارتفاع سوية الاقتصاد الإسرائيلي تعني بالمقابل انخفاض سوية الاقتصاد الفلسطيني، فمع سنوات الانتداب البريطاني الأولى على فلسطين، كان الاقتصاد الفلسطيني يشكل ٨٥ بالمئة، يقابله ١٥ بالمئة للاقتصاد اليهودي، وقد انعكس هذا التقابل اليوم ليشهد الاقتصاد الفلسطيني أسوأ سنواته منذ أن قامت إسرائيل باحتلال المناطق الإضافية من فلسطين.

يتوارى نتنياهو خلف ضباب المسار التاريخي للاقتصاد اليهودي في فلسطين، بل إنه يتحدث (بضمير الـ نحن) عندما يتحدث عن المعجزة الإسرائيلية الاقتصادية، التي مكّنت من مضاعفة السكان سبع مرات في غضون أربعة عقود من تأسيسها، ومع ذلك فهو لايخفي نفسه عندما يطالب بالقروض والمنح والمساعدات الخارجية في سبيل اتمام إسرائيل لرسالتها التوراتية.

فالهجرات الإضافية تحتاج إلى مستوطنات والمستوطنات تحتاج إلى بنية تحتية شاملة من الخدمات، وهذا بدوره يحتاج إلى الأموال، وهو الوتر الذي يريد أن يعزف عليه في النهاية.

غير أنها ليست هي السابقة الأولى في تاريخ إسرائيل على العموم، ولعل نظرة سريعة بخصوص معادلة (الهجرة تساوي الحاجة إلى الأموال) يمكن أن تعطي الهدف البراغماتي لنتنياهو عندما يبحث بالمعضلة السكانية لإسرائيل.

يُعلّمنا التاريخ أنه كلما ارتفعت عقيرةُ إسرائيل بالصراخ ضد اللاساميّة العالمية المتوحشة، فذلك يعني أن أمواجاً من الهجرة اليهودية على وشك أن تقرع أبواب فلسطين، واستطراداً فإنه كلما ارتفعت عقيرة إسرائيل بعويل الهجرة الضرورية والإنسانية، فإن ذلك يعني طَرقاً على أبواب خزائن المال في العالم.

لكن الغرب لم يكن يهودياً ليُزجي الصَدَقات على دولة مغامرة ليس لها مستقبل في الشرق الأوسط، لذلك عانت الدولة اليهودية خلال سنوات تأسيسها (من العام ١٩٤٨ ـ ١٩٥٤)، من فترة تقشّف لامثيل لها، واكتفت من التنمية بقطاعها الزراعي بصورة أساسية، إلا أن الانفاق العسكري لدولة عسكرية حتى الناب، كان يأكل أكثر من ثلاثين بالمئة من كل ما تنتجه إسرائيل خلال تلك الفترة.

لم تكن الهجرة اليهودية في تلك السنوات هي الموضوعة في قاموس الدولة الصهيونية الجديدة، فقد شهد مطار فيّنا تحولاً عجيباً من قبل المهاجرين اليهود سواء من روسيا أو شرقي أوروبا، إلى الولايات المتحدة بدلاً من إسرائيل، علماً بأن أذونات الهجرة كانت تُمنح تحت شرط السفر إلى إسرائيل.

كانت إسرائيل يومها، تتكئ على التبرعات من الجاليات اليهودية في العالم، إلى أن استيقظ الضمير اليهودي (ومن بعده العالمي) على ضحايا محارق أوشفايتس وأفران بركناو الألمانيتين، علماً بأن هتلر أحرق ٣٥ مليوناً من البشرية غير اليهود.

لقد تمت المطالبة بثمن الدم اليهودي من ألمانيا، في الوقت الذي كانت فيه ألمانيا تعيش تحت رحمة نورمبرغ بعد أن عاشت تحت بطش هتلر، وأنها كانت مازالت تلعق جراحها بسبب نزيف مدمر أخذ معه الشعب والأرض والاقتصاد كله.. والمحصلة، أن التعويضات الألمانية في حينها، دفَعت بمعدل النمو في الناتج القومي الإسرائيلي من مرتبة ٢ بالمئة إلى ١٧ بالمئة مما أفضى معه إلى زيادة في الاستهلاك الشخصي بمعدل ٩ بالمئة بالنسبة للمواطن الإسرائيلي عما قبل، وهي معدلات لاتصل إليها الشعوب الأخرى بالقرون.

غير أن ما يشتكي منه نتنياهو وهو الهجرة المعاكسة التي بلغت ذروتها في الثمانينات، لم تكن نتيجة لاقتصادٍ موجّهٍ يذهب أكثر من ٣٠ بالمئة منه نحو الحرب فقط، بل نتيجة لاستحالة تدفق الهجرة وتدفق رؤوس الأموال الأجنبية بالمعدلات نفسها، فالنمو الصناعي الذي جاء عقب الانتهاء من استغلال الحد المتاح للأراضي الزراعية، كان هدفه إنتاج سلعة محلية تستطيع أن تصمد أمام المنافسة العالمية، ولما كانت إسرائيل غير مستعدة لدخول الحلبة العالمية، فإن أزمة الكساد والبطالة وتالياً الهجرة المعاكسة، كانت من مفرزات أزمة بنيوية في الاقتصاد الإسرائيلي، فالاقتصاد بات في هذه المرحلة (أواخر السبعينات أوائل الثمانينات) يعاني من تضخم مالي مرتفع وعجز هائل في ميزان المدفوعات التجاري، وكاد الوضع يهدد بانهيار مالي كامل، لولا مجيء حكومة الشراكة الإسرائيلية من عمالٍ وليكود، حيث أسعفت المساعدات الأمريكية، بعد اتخاذ إجراءات داخلية صارمة، الوضع من جديد، فقد بلغت هذه المساعدات بين قروضٍ ومنح (نهاياتها واحدة في المستقبل) ما بين العام ١٩٨٢ والعام ١٩٨٦ أي في مدة خمس سنوات فقط، ٨٦٧٤ مليار دولار أمريكي، هذا غير المساعدات الخاصة، فقد بلغ عدد المؤسسات الأمريكية عام ١٩٨٦ التي تجبي التبرعات إلى إسرائيل نحو ٢٠٠ مؤسسة ومن أهم هذه المؤسسات الأمريكية ـ اليهودية:

(النداء اليهودي المتحد) (ومنظمات سندات دولة إسرائيل) التي تسهر على بيع السندات الإسرائيلية لصالح الاقتصاد الإسرائيلي.

أما الدين الخارجي الذي سُرعان ما يُنسى بالنسبة إلى إسرائيل فيصل أحياناً إلى ٢٥ مليار دولار، وهو رقم ضخم بالنسبة إلى دولة لايتجاوز عدد سكانها أربعة ملايين نسمة اليوم، وهذا معناه أن كل مواطن إسرائيلي له حصة نظرية من هذا الدين تبلغ خمسة آلاف دولار، مما يجعل متوسط دخل الفرد الإسرائيلي من بين أعلى الدخول في العالم، أما دخل العربي في (فلسطين الداخل أي ٩٤٨) فتشير التقديرات في العام ١٩٨٣ إلى أنه لايتجاوز في أفضل الأحوال أكثر من ٤٠ بالمئة فقط من دخل الفرد اليهودي في إسرائيل.

وفي بحثه عن الكثافة السكانية، فإن نتنياهو يضع عينيه على مستقبل الهجرة اليهودية العالمية، فإسرائيل اليوم لاتضمُّ إلا أقل من ثلث اليهود في العالم، (فهناك ما بين ٢ إلى ٣ ملايين يهودي في جمهوريات الاتحاد السوفييتي السابق، وفي فرنسا هناك ما يقارب مليون يهودي ويعيش حوالي مئة ألف يهودي في جنوبي أفريقيا وثلاثمائة ألف يهودي في الأرجنتين... والموجات اللاسامية آخذة في الازدياد، ومع تحسين الازدهار الاقتصادي علينا اللجوء إلى إحداث تيار جديد للهجرة إلى إسرائيل - ص٣٣٩).

ثم يؤكد في الصفحة ٣٤١ (إن ثمة علاقة مباشرة ومصيرية بين الهجرة اليهودية وبقاء الكيان اليهودي في أرض إسرائيل).

من الطبيعي أن الكيان الآخر المقابل، أي الكيان العربي المتآكل في الأراضي المحتلة، لايعني نتنياهو في شيء، فهو لايتحدث مثلاً، عن مصير السكان الأصليين حين يدعو لاستنهاض مشاريع هجرات جديدة إلى هذه المنطقة، وهو لايسأل عن مصير مئات الألوف من الدونمات التي صودرت وستصادر من أجل بناء المستوطنات الجديدة في إسرائيل، لكنه بالضرورة يُمهّد (للسؤال عن) استجداء جديد للأموال، فهو لايكتفي بعَصر دافع الضريبة الأمريكي أو بالضغط على بلدان عالمية أوروبية أو أفريقية، بل إنه يُمهّد السبيل لماراتون عالمي في سياسة مساعدات مالية جديدة..

ومن أجل تكوين فكرة حقيقية عن المستقبل الذي يدعو نتنياهو له، فإنه من المستحسن إلقاء نظرة مختصرة على سياسة التهويد الإسرائيلية الماضية، وإلى أين وصل زحف المستوطنات الصهيونية فوق الأراضي العربية.

يوجد حالياً في الأراضي العربية المحتلة بعد العام ١٩٦٧ مايقارب ٢١٠ مستوطنة يهودية، يتركز معظمها في الضفة الغربية (١٦٠ مستوطنة) ويتوزع الباقي بين مرتفعات الجولان (٣٥ مستوطنة) وقطاع غزة (١٦ مستوطنة تقريباً)، كما يبلغ مجموع المستوطنين في هذه المستوطنات حوالي ٣٠٠ ألف مستوطن، يسكن نصفهم في الضواحي الاستيطانية المحيطة بمدينة القدس، أما في الضفة الغربية، فهناك ما يقارب ١٣٥ ألف مستوطن، و ١٤ ألفاً في الجولان، كذلك ما يقارب ٤٥٠٠ مستوطن حوالي قطاع غزة.

ومن جهة الانتشار، غطّت المستوطنات المزروعة مختلف أنحاء الأراضي العربية المحتلة، ومن جهة التمركز فقد قامت المستوطنات الموزعة (على شكل كتل أو أطواق) بخدمة استراتيجية الفصل والوصل بآن معاً، فالأطواق الاستيطانية المحيطة بمدينة القدس تؤمن التواصل فيما بينها وبين القدس الغربية بينما تفصل القدس الشرقية عن سائر الضفة، كما تفصل الضفة نفسها إلى شمال وجنوب، وينطبق الأمر نفسه على سلسلة العزل الاستيطانية، بين عرب الضفة وعرب (فلسطين العام ١٩٤٨)، كما ينطبق على مرتفعات الجولان وقطاع غزة.. ومع ذلك يريد نتنياهو المزيد، فهو لايتخلّف مثلاً عن استخدام أسلوبه الاستعراضي في توجيه الشكوى ضد الولايات المتحدة نفسها، فبالرغم من أن إسرائيل قبضَت ثمن موقفها من حرب الخليج سلفاً، فإنه مازال يوجه اللوم لحكومة بوش (حين ربطت ضمانات المليارات العشر بشرط عدم استخدام هذه القروض لإقامة مستوطنات جديدة في الأراضي المحتلة، فالإدارة الأمريكية يومها، ربطت هذا الموضوع الإنساني المتعلق بالمهاجرين من روسيا، بمواقف العرب السياسية المعارضة - ص٣٤٤).

غير أن مثل هذه الشكاوي المكرورة في كتاب نتنياهو ضد حلفائه، لاتعني أكثر من انفراط حالة الدلع، خاصة حين تقترب مواسم الانتخابات الرئاسية الأمريكية، إذ أن المكافآت كانت ثمينة جداً، وما حصل بالفعل، هو أن إسرائيل كانت قد حققت بعد حرب الخليج مباشرة، اجتماعات الصلح في مدريد، إذ جلس العرب جميعهم (باستثناء ليبيا والعراق بالطبع) بوفودٍ منفصلةٍ إقليمياً، أمام إسرائيل واحدة، وما حدث أيضاً، هو أن إسرائيل حصَلت على المليارات الأمريكية العشر، وأنها تمكنت من تهجير ٢١٧ ألف يهودي روسي إلى فلسطين، وهو ما يعادل ربع مستوطنات إسرائيل (في غضون سنتين فقط ١٩٩١ و ١٩٩٢)، وأن المعارضة السياسية العربية التي يخترعها نتنياهو كانت كلاماً في كلام، وعند نتنياهو فإن مستقبل إسرائيل لايتحقق في الكلام، بل بمشروع مُثّلث يستهدف إجراءات دراماتيكية لتنشيط الهجرة اليهودية إلى فلسطين: (وهذا المشروع ينطوي على إعادة إحياء الدافع الصهيوني في أوساط يهود العالم، وإنشاء علاقات سلام مبنية على الأمن مع الجيران العرب، وأحداث تحول أساسي عميق في النظامين: السياسي والاقتصادي في إسرائيل - ص٣٤٨).

وما يهمنا بالدرجة الأولى هنا، ما يتصل بالعلاقة الثنائية بين العرب وإسرائيل، فكلمة سلام عند نتنياهو لاتعني بما يفيد انتهاء حالة الحرب والعداء مثلاً، بل هو طمأنة ليهود الخارج، بأن (بقاء الدولة مضمون حتى مع السلام) وأن النزاع في الماضي البعيد: (خلال مئة عام، لم يمنع أجدادنا وآباءنا من الهجرة إلى البلاد التي ظلّت تقاتل ضد العرب الفوضويين). وأن الصراع في المستقبل مع الدول العربية (سيتغلب في نهاية المطاف على أولئك الذين يريدون القضاء على إسرائيل) فالسلام هنا يجب أن يرتكز (على أسس أمنية رادعة).. (وهو التحدي الذي يجب أن تواجهه إسرائيل).

إن مفردات نتنياهو بخصوص السلام كما نرى هي مفردات الحرب نفسها، (البقاء المضمون) (النزاع في الماضي) (الصراع في المستقبل) (الأمن والردع) (التحدي المقبل).. ولم يعد أمام نتنياهو

سوى أن يحدد الزمان والمكان ونوع السلاح، للخلود إلى سلامه مع نفسه. إن نتنياهو كسابقيه من حكام إسرائيل، يريد أن يخلق واقعاً لدولة (عشرة الملايين يهودي)، ومن أجل ذلك فإن مستلزماته تبقى حيث يكون سلام مراوغ، هجرة يهودية جديدة، تهجير عربي، قروض أمريكية، وقوة إسرائيلية متفوقة على الدوام.

○○○

(٢)

في فصله ماقبل الأخير، الموضوع تحت عنوان (سلائم دائم)، يستخرج نتنياهو مرتكزات جذّابة لما يمكن أن يوصف بسلام دائم في المنطقة، لذلك فهو يضع صفات السلام في ثلاث: الأمن - العدل - الحقيقة، أما الأخيرة فتنبع من (طبيعة المنطقة الحقيقيّة)، وحالات العداء الخاصة والدائمة فيها، فالنزاع برأي نتنياهو (ينبع من وجود كيان يهودي بالأساس، وليس له علاقة بالأرض بشكل خاص...)، ويتخذ من عبارةٍ لوزير الدفاع السوري: (إن الصراع هنا صراع وجود لا صراع حدود) وذلك لتثبيت مقولة الاعتراض على وجود إسرائيل، وهو يستخدم مثلاً آخَرَ يتعلق بسوريا إذ: (لماذا لاتمتنع سوريا عن الاعتراف بتركيا بل تقيم علاقات معها، في الوقت الذي تغتصب فيه تركيا لواء اسكندرون - ص٣٦١).

كما يعرّج على وضع اللمسات الأولية لسلام يقبله: (التسليم بوجود إسرائيل دون شروط، الغاء المقاطعة، وقف التعاظم العسكري ضد إسرائيل، صنع معاهدات سلام معها، وقبول إسرائيل في المنطقة بين جميع الدول دون تحفظ..).

ورغم أن التعايش مع الصراع، أسلوب واقعي أمكن حلّه في العالم: (إلا أن السياسة العربية طيلة ٧٥ عاماً ظلت رهينة لفكرة العداء مع اليهود دون حدود، فقد استخدم العرب النازيين القدامى ضد إسرائيل، وشنّوا ضدها خمس حروب، ولجأوا إلى الإرهاب، وهزّوا اقتصاد العالم بحظر نفطهم، ومنهم مَن يحاول الوصول إلى إنتاج السلاح النووي وموصلاته، لذا يجب اقتلاع هذه الأفكار من جذورها، لا من أجل إسرائيل والعرب فقط، بل من أجل سلام العالم أجمع - ص٣٦٣).

وهكذا كلما تحدث نتنياهو بكلمتين عن سلام المستقبل، فإنه يتحدث بصفحات عن حروب الماضي، فسلبيّته ضد السلام تسرقُ منه كل مايمكن الإفاضة عن مستقبله، أما إيجابيته غير المنقطعة عن عالم الحروب، فإنها تفيض عليه باستطرادات مكرورة ومملّة من مثل (شنّ العرب خمس حروب) و(استخدموا النازي) و(اتبعوا أساليب الإرهاب)(*)... الخ، فإلى أين يمكن أن تستقر

(*) سبق لنا الإجابة على جميع هذه الاتهامات المتعمدة، وإذ يكرر نتنياهو اتهاماته السابقة هنا، فإنه يهدف إلى إلقاء القبض على السلام، لتحويله إلى مُعترف شرعي بالإستسلام، ولا شيء غير الاحتفاظ بالأراضي المحتلة ومضاعفة الدولة العبرية.

مبارزات الماضي في المستقبل، وأي طريق حربي هذا الذي يوصل إلى السلام الدائم، إذ لم نسمع حتى الآن بحثاً منهجياً متكاملاً عن السلام الذي يراه نتنياهو، سوى ما نسمعه عن قعقعة السلاح (سلام القوة، سلام الأمن، سلام الردع)، فإذا ما أراد نتنياهو أن يرد (في سلامه) على (سلام) بيريز في شرق أوسطه الجديد، فإن الأطروحة تُعطى لبيريز دون جدال.

لدى نتنياهو، فإن العرب مرغمون على قبول السلام مع إسرائيل، فالدوافع لديهم إنما هي دوافع خارجية إكراهية، لا ذاتية صادرة عن الرضى والقناعة (لقد ظل الناس يسمعون طيلة عشرات السنين بأن الدولة الصغيرة الموجودة بين العرب، لامكان لها تحت الشمس.. فبعد خمسة حروب.. وآثار الانتصار الإسرائيلي في حرب الأيام الستة، والتحول الجيو ـ سياسي الكبير الذي تلا انهيار الاتحاد السوفيتي، وهزيمة العراق المدمرة... فقد كان عليهم الانصياع بشكل أو بآخر، للواقع الدولي الجديد ـ ص٣٦٤ ـ ٣٦٥).

حيث يعيد نتنياهو الموضوعات نفسها ويكررها، فإنه لابد من وقفة إعادة مقابلة، فنتنياهو ليس على قناعة بما يقول على الأرجح، فالتكرار صفةً من انعدام الثقة، والعرب، كما أسلفنا، لم يشنوا الحروب، والتاريخ ماثل وقريب، وليس ثمة حاجة للأركولوجيا تحت الأرض طالما عيون السماء مفتوحة لاتغمض، والحروب كلها كانت قد جُهزت بأسمائها الرمزية (التاريخية العبرية) ومواقيت أيامها وساعات صفرها... في تل أبيب وليس في عمان أو دمشق، القاهرة أو بغداد، وإنني أتحدى أن يكون اسماً رمزياً لحرب عربية ضد إسرائيل غير (بدر أو غرانيت) الذي أُطلق على حرب تشرين، لكن تشرين جاءت بعد ثلاثة حروب رئيسية (١٩٤٨ ـ ١٩٥٦ ـ ١٩٦٧)، وعشرات الاعتداءات والمناوشات والطرد واستلاب الأراضي والمياه، خلال عقود من تأسيسها، وفي العام ١٩٦١ عندما قامت إسرائيل باغتصاب مياه نهر الأردن، بعد أن أغرقت ألمانيا بتعويضاتها السخية لإنجاز المشروع بدءاً من العمق الإسرائيلي، إلى الحدود السورية، لم يحرك العرب ساكناً، اللهم ذلك المشروع المرتجل القائل بتحويل النهر من الجانب العربي، لكن كل شيء كان قد انتهى، ولنفترض الآن أن الآية كانت معكوسة، فما الذي تفعله إسرائيل إذا قام أحدهم باللعب على مواردها المائية؟!.. هل تُراها كانت تقف مكتوفة الأيدي مثلما فعل العرب، فأية حروب تحتاج لأكثر من مثل هذه الذريعة الجوهرية، سرقة المياه ومصادرة الأراضي وبناء المستوطنات؟..

إن أسباب إسرائيل في شن حروبها كثيرة، فإضافة إلى سياسات التوسع المعروفة، فإن هناك هدفاً في تحطيم القوة العربية الوليدة قبل أن تنضج، وهناك منابع المياه، وهناك الأمل باستسلام العرب والهرولة إلى صلح غير متكافئ، وقد غذّت شعارات الصهيونية أبناءها، بأن العرب لايأتون إلا بالعصا، جيلاً إثر جيل منذ مئة عام أو أكثر...

كما أن الأسباب الظاهرية في حروب إسرائيل كثيرة أيضاً، فهي ترى في أي تضامن عربي حقيقي سبباً لشن الحرب (وهو ما هدد به بيغن حال نشوء الجبهة الشرقية بين بلاد الشام والعراق)، وهناك الحرب الوقائية التي تجيد خداعها إسرائيل، إذ ما أن قام الرئيس الراحل جمال عبد الناصر بتحديث جيشه نسبياً حتى قامت قائمة حرب حزيران، وقبل ذلك فإن تأميم قناة السويس كانت

سبباً لعدوان إسرائيلي بالمشاركة مع بريطانيا وفرنسا (إذ ما علاقة إسرائيل بقناة السويس)، وبعد فترة وجيزة شُنت الحرب الوقائية ضد المفاعل النووي في العراق، كذلك فعلت إسرائيل حين تذّرعت باغتيال سفيرها في لندن، فتوجّهت لاحتلال لبنان ومن ضمنه العاصمة بيروت. أما عن آثار الانتصار الإسرائيلي في حرب الأيام الستة، فقد فعلت الكثير، لكن فعلها في مخيلة نتنياهو كان أقوى، إذ كيف يجيز نتنياهو لنفسه أن يعتبر حزيران سبباً من أسباب موافقة العرب على السلام مع إسرائيل، وقد اعترف صاحب الأمر نفسه، موشي دايان بقوله: (لقد جلست إلى جوار الهاتف أنتظر ما ينبئ بقرب حل النزاع، إلا أن أحداً من الزعماء العرب لم يفعل، لقد كانت الهزيمة قاسية، وكان معنى أن يأتي عربي إلينا في مثل هذه النتيجة، ليس شيئاً آخر غير الاستسلام). ويتابع دايان: (لقد فهمتُ يومها أن الحرب لاتجلب السلام، وأن السلام لايمكن أن ينزغ من خلال ضجيج السلاح)...

ثم لماذا يكابر نتنياهو ويستمر في المكابرة، ألم تكن دزينة من السنوات (١٢ سنة) هي الفاصل بين كارثة حزيران وأول معاهدة صلح عربية مع إسرائيل، بما بينهما حرب تشرين.. فما هي تواريخ الكامب إذن؟

أما الإتحاد السوفييتي فلم يكن (كل) العرب على صداقةٍ معه، بل إن (كل) العرب باستثناء مصر وسوريا والعراق، وبدرجة أقل ليبيا والجزائر، كانوا على درجة من العداء معه لاتختلف كثيراً عن عداء إسرائيل له!... والحقيقة أن واحداً من أسباب الانهيار كان في علاقة عرب الفقر مع الاتحاد السوفييتي، فيما ظلّ عرب الغنى مع حلفاء إسرائيل حتى يومنا هذا، والحقيقة الموازية، التي يتجاهلها نتنياهو باصطناع، أن رعاية الحلفاء لإسرائيل منذ ما قبل وجودها، ظلّت مختلفة جوهرياً في كل المقاييس.. أما قوله بأن هزيمة العراق كانت سبباً في انصياع العرب للواقع الدولي الجديد، فهو صحيح ولاغبار عليه، لكن العرب كانوا قد وقّعوا على (عقد انصياعهم) قبل هزيمة العراق بكثير، وبالضبط منذ أن سمحوا لأنفسهم بالتوقيع على عقود حياتهم المجزأة، وعقود تناحراتهم، وعقود الرضى عن كل مَن يلعب بحياتهم ومصيرهم فيسلب وحدتهم وأرضهم وخيراتهم من النفط إلى البوتاس.. أما الانصياع الذي يقرره نتنياهو، فلم يكن معناه أن العرب كانوا متمردين على الواقع الدولي من قبل، فما من عدوان إسرائيلي إلا وتعقبه شكوى للأمم المتحدة، وما من زحف استيطاني إلا ويعقبه نداء للشرعية الدولية، وما من مجزرة إلا ويعقبها توسّلٌ لمجلس الأمن... فأي انصياع كان أكثر طمأنينية للغرب من هذا... إن ما حدث بالفعل، هو أن العرب بعد هزيمة العراق، قرروا إعلان الانصياع بعد أن كان خفيّاً على شعوبهم، فلأول مرة في التاريخ، تقول دولةٌ عربية عن دولةٍ عربية أخرى، (عَلَناً) بأنها أخطر من إسرائيل، وهذا معناه أن إسرائيل هي الأقرب، وأن الانصياع لم يكن للواقع الدولي الجديد، بل لشروط إسرائيل في السلام.

ومع ذلك، فإن نتنياهو يرفض وصفةَ العلاج التي قدمتها السياسةُ الإسرائيلية أيام حزبِ العمل ورمزُه رابين، فهو يريد أن يقول للإسرائيليين (ليسقط كل هذا فقد خُدعنا)، ولنعد إلى السيناريو من أولّه، فسياسات السلام الظاهرية، كان لها كل المنافع في تاريخ إسرائيل، دون أن تعلق بها

رائحة التاكتيكات الرخيصة، لكنَّ الأسرة الدولية المتمدنة، ستتفهم موقف إسرائيل الجديد بل وستتعاطف معه كما تعاطفت من قبل، فنتنياهو يريد من العرب (أو لعلّه يقبل من العرب) أن يصافحوه مقابل الاعتراف بالاعتراف والسلام بالسلام دون أن يترتب شيء على ذلك، ونتنياهو يثق بأن الجانب الغربي لابد أن يتفهّم ذلك في يوم ما، فإذا ما تابع إصراره على أن السلام لايمكن مقايضته إلا بالسلام، وأن الاعتراف لايمكن تبادله إلا بالاعتراف، عندئذ، فإن شيئاً مماثلاً سيلتقيه لدى الطرف الآخر، إذا ما حافظ على ضعفه التاريخي المعهود.

لايعتقد نتنياهو أن الضعف العربي يمكن أن ينتهي، بل بالعكس، فإنه ربما ازداد أضعافاً مضاعفة بعد انهيار السوفييت وتدمير العراق، ويعترف نتنياهو من خلال عشرات التسريبات والتلميحات وحتى التصريحات المباشرة، بأن ضعف العرب لايعود بالدرجة الأولى لعوامل خارجية، بل ذاتية داخلية، فجماهيرهم تعيش في حالة كاملة من الفقر والجهل والمرض، والطابع الدكتاتوري هو الناظم المشترك بين جميع الدول العربية، والاعتماد الخضوعي للخارج من أهم مشاكلهم سواء في الماضي أو الحاضر، أما أنا فأختم على صحة ما يقول.

يرفض نتنياهو أيضاً مقولة مبادلة الأرض بالسلام، إذ أن عداء العرب لم يكن موجهاً بسبب الأراضي، بل بسبب وجود إسرائيل نفسه، فالأراضي كانت بيد العرب قبل أن تسيطر عليها إسرائيل، ومع ذلك فإن العداء كان قائماً، والهدف الوحيد لهذا الادعاء هو اخفاء الحقيقة، ويتابع نتنياهو:

(في العام ١٩٤٧ عرضت الأمم المتحدة على العرب الفلسطينيين دولة فرفضوها، وهكذا فعلت كافة الدول العربية التي أرسلت جيوشها عام ١٩٤٨ إلى إسرائيل لاحتلال كل ما تستطيع احتلاله من أراضيها.. أضف إلى ذلك، أنه عندما كانت الضفة وغزة بأيدي الأردن ومصر، لم يطالب أي عربي بإقامة دولة فلسطينية في تلك المناطق... لذا فإن العلاقة التاريخية بين رفض العرب الاعتراف بإسرائيل، وبين مطالبتهم بدولة فلسطينية، لا أساس له على أرض الواقع - ص٣٦٣).

فإذا كانت السياسة في بعض أحوالها هي فن الممكن، فإنها بالنسبة إلى نتنياهو هي (فن النكايا)، إذ ما هي العلاقة بين رفض العرب لمشروع التقسيم عام ١٩٤٧، وإنكار كل الحقوق التاريخية والشرعية لشعب فلسطين، وهل إذا رفض الفلسطينيون ومعهم العرب مشروع التقسيم، فإن عليهم أن يتحملوا وزر ضياعهم إلى الأبد؟ وإلى أي مدىً يمكن أن يُصنّف كلام نتنياهو في حدود كلام المسؤول أم في حدود كلام المنتقم، فها هو السلام هنا يلقى مصرعه من جديد، إذ لماذا ترفض إسرائيل اليوم، ما وافقت عليه بالأمس؟ ألم يوافق الصهاينة على تقسيم فلسطين بين دولة عربية وأخرى يهودية، ثم لماذا هذا التباين بين رفض ورفض، فرفض العرب يجب أن يكلّفهم ضياع أراضيهم ومستقبلهم، ورفض إسرائيل يحظى بالرعاية والوداد على الدوام، ولا يسع المرء هنا إلا أن يصرخ مع اغتيال التاريخ، أهي سياسة سلام أم سياسة انتقام؟!.. ثم يتحدث نتنياهو عن وقائع منتقاة بخصوص التطرف العربي - الإسلامي ضد

إسرائيل، فهو يستشهد مثلاً بمؤتمر طهران الإسلامي الذي انعقد قبيل مؤتمر مدريد بأسبوعين، كما يستشهد ببيانات الفصائل التابعة لمنظمة التحرير والتي تدعو لتدمير إسرائيل، وهو يقيم البرهان على التطرّف الخفي عند عرفات نفسه، خاصةً حين يزّلُ لسانُه فيجنح إلى التعبير عن دواخله المكبوتة علناً، (إذ لم يُقصّر عرفات في الدعوة إلى الجهاد ضد الأعداء في العام ١٩٩٤ - ص٣٦٦)، وقد أدرك العرب مؤخراً، وبعد هزيمة العراق بالتحديد، أن أثمان الحروب باتت باهظة جداً، وأنه كلما ارتفعت هذه الأثمان كلما ازدادت القناعة بالسلام، (وعلى الزعماء العرب أن يأخذوا بعين الاعتبار، أن إسرائيل لن تقف مكتوفة الأيدي فيما لو تعرّضت لهجوم جديد، فإذا ما واجهت خطراً يهدد وجودها، فإنها ستعمد إلى الرد بقوة هائلة يعرفها الجميع - ص٣٦٧).

إن نتنياهو هو أول زعيم إسرائيلي يظهر للعلن إمكان استخدام أسلحة غير تقليدية في النزاع، فمن المعروف أن تعبير (القوة الهائلة) يطلق أول ما يطلق على التفجيرات النووية، ولما كانت إسرائيل في جميع مراحلها، تحجم عن الإقرار رسمياً بحيازتها أسلحة نووية، بل وتصرّ على ألا تكون الأولى في استخدام الخيارات النووية، فإن نتنياهو لا يرى فوائد استراتيجية كبرى في إخفاء الخيار النووي، علماً بأن إسرائيل ما تزال تصرّ على عدم توقيع معاهدة منع انتشار الأسلحة النووية لعام ١٩٦٨، كما ترفض التفتيش الدولي الشامل لمنشآتها النووية، بينما يتم نبش العراق كله من أجل العثور على قنبلة يدوية واحدة، لإدامة الحصار عليه، كما يلوّح الحلفاء بتهديداتهم المتواصلة إذا ما راق لطهران الدخول إلى حلبة الألعاب النووية!... وهكذا في غمرة (سلامه) أو (مكانه)، فإن نتنياهو لايعدم الوسيلة، من أجل إظهار الربط، بين وجود إسرائيل وخيارات شمشون المعروفة. ويتساءل نتنياهو بعد جولة وجيزة في فضاء الدول الصناعية الكبرى وتهميش العالم العربي في حال تركُّز المبادلات التجارية بين عمالقة ونمور العالم الجديد، وكيف يمكن أن تصبح إسرائيل جسراً للعالم العربي نحو العالم المتقدم... ثم يتساءل:

كيف يمكن أن يكون شكل السلام فيما لو آمن العرب به بإخلاص؟! ولأنه يؤمن بالسلام إيمان يهوذا بالمسيح، فإنه يستعرض حُثالة ما في كأس شمعون بيريز من أفكار عن المستقبل: تجارة، وزراعة، ومياه، ومحطات تحلية (على البحر الأحمر مع الأردن والسعودية)، كذلك منشآت السدود المائية، وتطوير أساليب الري، وتقليد المعجزة الإسرائيلية في الناقل القطري للمياه (الذي تم إنشاؤه مع تحويل نهر الأردن)، كذلك الانخراط المشترك في عالم السياحة الحرة، ورفع المستوى الصحي في المنطقة وآليات الثقافة... وكل ما يمكن أن تصل إليه مفاوضات (المتعددة) بعد مدريد وقبل نتنياهو. بشكل عام. وإذ يكتشف نتنياهو فضائل السلام فجأة، فإنه يعود إلى سلبية السؤال من جديد: (لماذا لاينهض الزعماء العرب لشرح فوائد السلام إذن... هل من المعقول أن يكون ١٥٠ مليون نسمة غير مدركين لهذه الحقائق... والجواب أنهم ليسوا جميعاً مصابين بالعمى... غير أن التوجه يصطدم بعقبتين: الأولى أن عدد العرب الذين يدركون فوائد السلام أقل من عدد الذين يرفضونه، وأن بعض الزعماء لايعتبرونه هدفاً بحد ذاته، إنما مجرد وسيلة لاسترداد

الأراضي... الأمر الذي يمكن أن يتم معه التنكر للسلام في المستقبل ص - ٣٧٠). وهكذا فإن المسألة برمتها هي مسألة عدد أو تصويت.

ثم يضع اللوحة المقابلة: (في إسرائيل فإن الجميع يرغب بالسلام، لكن الخلاف ينشأ حول طرق تحقيق السلام، وليس حول قيمته وأهميته).

إن كل النزاع الذي سالت على جوانبه الدماء ينحصر في مفهوم السلام، لا في طريقة تحقيقه ولا حول قيمته أو أهميته، فالسلام هنا مرتبط بصورة كليّة بالأرض، فنحن لانعقد سلاماً مع أثيوبيا أو مع الصرب، بل مع إسرائيل، وتاريخ إسرائيل مصحوب أبداً بالاستيلاء على الأراضي ومع كوارث أخرى تتصل بشعب كامل، فلماذا لايكون عربون السلام، هو ماسالت الدماء من أجله، أما أن تحتفظ إسرائيل بالأراضي التي احتلت، ثم تتحدث عن الطريقة أو القيمة، فإن العرب ليسوا على استعداد لسماع المزيد عن روما(*)، فبالأمس فَقَد العربُ أراضيهم بحروب إسرائيل، وهم ليسوا بصدد الختم عليها بسلام إسرائيل اليوم، والعرب لايؤمنون إلا بعرضٍ قائم على الانسحاب من جميع الأراضي، وفي هذه الحالة، فإننا نريد السلام أكثر من أي شيء آخر، لأن الأرض بنظرنا أهم من أي شيء آخر، واعتراضنا على وجود إسرائيل في الأساس، سببه الخشية من استيلائها على الأرض، وهو ما حدث خلال مئة سنة من الأحداث، لكن لماذا ترفض إسرائيل إعادة الأراضي وهي تعرض السلام؟ ها هنا نصل إلى الوسيلة في استخدام السلام، فالعرب لم يفكروا ذات يوم باستخدام السلام كوسيلة، بل إن العكس هو الصحيح دائماً، فقد ظلت إسرائيل ترفع عقيرتها بالسلام، فيما هي تفعل على الأرض شيئاً آخر، وظل العرب يرفعون عقيرتهم بالحرب، وهم يفعلون شيئاً معاكساً على الأرض، وقد استفادت إسرائيل بفارق خداع لا يُثمّن، حين بَدَت كعارضةِ أزياءٍ باريسية تعقد سنبلة القمح حول تاج رأسها، فيما يدق العرب طبول حروبهم على دخان النار!..

أما التنكر للسلام، فلا سابقة تاريخية له عند العرب، بل هناك آلاف الاختراقات الإسرائيلية لعقود الهدنة التي كانت تُوقع ثم تخترق منذ تأسيس إسرائيل حتى اليوم، ففي العام ١٩٥٦ تم اختراق الهدنة الإسرائيلية - المصرية لتقتحم إسرائيل في إثرها كل سيناء وحتى قناة السويس، كذلك فعلت في العدوان الشامل على العرب في العام ١٩٦٧ وقد وضعت احصائيات الجامعة العربية بياناً إجمالياً للاعتداءات التي كانت سبباً في اختراق الهدنة من قبل إسرائيل بين العامين ٩٤٩ - ٩٦٤ (أي في غضون خمسة عشر عاماً فقط) فكانت على النحو التالي:

(*) حين نهض إمبراطور روما يوليوس قيصر لحقه صديقه بروثيوس وسأله:

- إلى أين يا سيدي الإمبراطور؟!...

- إلى مجلس الشيوخ!...

- وماذا سنفعل هناك؟

أجاب الإمبراطور: - نذهب! علّنا نسمع المزيد عن روما!..

الأردن	١٤٩٠٣	حادث اعتداء إسرائيلي
سوريا	٤٤٢١٠	حادث اعتداء إسرائيلي
لبنان	١٩٣٦	حادث اعتداء إسرائيلي
ج.ع.م	٢٢١٢	حادث اعتداء إسرائيلي

وبذلك يكون المجموع ٦٣١٦١ حادث اعتداء تم بموجبها خرق الهدنة الإسرائيلية ـ العربية، أي خرق (السلام الموقت) الذي كان قائماً، فمن أن يأتي نتنياهو بسنده عن احتمال تنكّر العرب للسلام، وجدول الوقائع الميدانية الإسرائيلية أمامه على هذا المنوال؟!

ثم يصل نتنياهو في محطة أخرى من (سلامه الدائم) إلى التطرف العربي الذي يغتال الزعماء الذين يرمون صلحاً مع إسرائيل فيقول:

(إن أياً من الزعماء العرب الراغبين بالسلام، لايريد أن ينهي حياته مثل الرئيس اللبناني بشير الجميّل والرئيس المصري أنور السادات... وغيرهما من الفلسطينيين المعتدلين الذين قُتلوا على يد المفتي أمين الحسيني، والحقيقة أن أية بادرة عربية لتحقيق السلام مع اليهود، تواجه فوراً بالإرهاب والتهديد بالقتل من جانب القوميين المتطرفين أو الأصولية المتطرفة ص ـ ٣٧١).

ولا نعلم تماماً، فيما إذا كان يحق لنتنياهو أن يكون وكيل الدفاع ضد الإرهاب، لا من جهتنا نحن، بل من جهة مجتمعه الإسرائيلي نفسه، فمن المسؤول إذن عن اغتيال رابين في الساعة التاسعة والنصف من مساء الرابع من تشرين الثاني ١٩٩٥ وهو ينشد في أكبر تظاهرة للسلام في تاريخ إسرائيل كله؟

بعد كتابيه الشهيرين، (تحقيق حول مذبحة) في العام ١٩٨٢، (والخليل مجزرة معلنة)، يكشف الكاتب الإسرائيلي آمنون كابليوك في كتابه الجديد (اغتيال سياسي) ظروف المرحلة التي جَعَلت اغتيال رابين حدثاً أخفق جهاز الأمن الداخلي (الشاباك) في توقعه أو اجهاضه، ويلقي كابليوك الأضواء على بؤر التطرف الديني وتصاعدها برعاية الحاخامات، ويستنتج أن المشكلة قائمة ولاخطط جدية لمعالجتها برغم مخاطرها على السلام.

يقول آمنون كابليوك تحت عنوان فرعي (البطل الذي أصبح خائناً) مايلي:

(عندما كان رابين مسؤولاً عن القوات الإسرائيلية في مواجهة مدينتي اللد والرملة، أُمر بموجب أوامر من بن غوريون، بقصف المدينتين ولم يكن أمام العرب من خيار إلا الرحيل، وقد شرح رابين في مذكراته أسباب ذلك بقوله: إنه لم يكن في وسع إسرائيل التغاضي عن جهود مدينتين عربيتين كبيرتين بين القدس وتل أبيب، وقد دوّن ذلك في مذكراته، إلا أن الرقابة الإسرائيلية حذفت هذا المقطع الذي يتناول تشريد خمسين ألف فلسطيني من المدينتين بسبب الموقع، لكن رابين أراد تضمين المقطع في نسخة مذكراته الانكليزية فجوبه ذلك باعتراض وزير العدل في حكومة الليكود شموئيل تامير... وعندما أراد مدير مكتب رابين، إيتان هامير، أن يقنع وزير العدل بحرية الكلمة أجاب:

ـ لايمكننا في إسرائيل أن نقول الحقيقة كلها.

ويرد مدير مكتب رابين: ـ لكنها حقيقة معروفة للعالم أجمع.

يجيب وزير العدل: نعم. ولكن الحقيقة ينبغي ألا تصدر عمن هو متورط فيها، خصوصاً إذا كان الأمر يتعلق بشخصية من الصف الأول.

ويرد مدير مكتب رابين: ماذا ينفع أن نخفي رؤوسنا فيما العالم يعرف.

ويجيب وزير العدل: لأن اعترافنا بأنفسنا سيدمر صورتنا في تلك الحقبة، وروايتنا عن رحيل العرب من تلقاء أنفسهم أو بناء على الدعوات الملحة التي وجهها لهم قادة العرب يجب أن تبقى راسخة.

وانتهى الجدل

ويتابع كابليوك: منذ اتفاق أوسلو فقد شعر اليمين الإسرائيلي بأنه قد خسر معركة إسرائيل الكبرى، وهكذا انقلبت الآية، فقد انصبت الشتائم واللعنات والاستفزازات فوق رابين، وكانت تشاهد على الجدران والسيارات وواجهات المتاجر وحتى حقائب الطلبة.. وكانت تحمل تعابير سامة من مثل: (الشعب ضد الخيانة) (إلى القضاء بتهمة الخيانة) (رابين قاتل) (رابين وبيريز أولاً ـ إشارة إلى غزة وأريحا أولاً)، و(رابين كلب) (الحكومة تضحي بحياة اليهود) (أيام الطاغية معدودة) (إلى الجحيم يا رابين) (بالنار سنطرد رابين) (إلى المتاريس لنوقف تصفية إسرائيل) (رابين متعاون مع المجرم عرفات).. وكان الكثير من هذه الشعارات يُذكّر المرء بأيام النازية فقد صدرت يافطات أخرى تقول: (معاهدة رابين ـ عرفات هي معاهدة ميونيخ) (معاهدة رابين ـ عرفات تشبه معاهدة رينبتروب ـ مولوتوف) (ستالين لم يصافح هتلر)، (رابين هو الماريشال بيتان)، (أوسلو ستوصلنا إلى غرف الغاز)، (رابين سيقودنا إلى محرقة يهودية جديدة)... علماً بأن واحداً من هذه الشعارات يقود في الديمقراطيات الغربية إلى المحاكمة فوراً، وقد ردد عامير قاتل رابين بعض هذه الشعارات حتى أثناء محاكمته...

ويتابع آمنون كابليوك: إن رئيس الليكود يتحمل مسؤولية جسيمة عن العنف المناهض لرابين وحكومته، إذ أنه شجّعه ضمناً كما شجّعه علناً سواء بسواء، فوَصفُ رابين بالخائن كان يعني أنه سيكون الضحية الأولى لمشروع السلام، ولم يقم زعيم الليكود ولو لمرة واحدة بإدانة هذا الكلام، بل إن سكوته كان يعني الموافقة عليه وتصديقه. فقد شارك نتنياهو قبل فترة وجيزة من اغتيال رابين في تظاهرة رفع خلالها نعشاً أسود كُتب عليه (رابين يدفن الصهيونية)، وقد ادعى نتنياهو أمام عدسات التلفزيون في آذار ١٩٩٥، بأن إسحاق رابين بعث برسائل إلى حركة حماس يجيز لها فيها، قتل اليهود في غزة والضفة بغية ترحيلهم بالقوة عنها.. ويشير كابليوك إلى دور رئيس الدولة فيقول (في إطار نَزع الشرعية عن حكومة رابين، لم يكن دور الرئيس عزرا وايزمن ضئيلاً، فقد شكلت مواقفه السلبيةَ المتعمدة، مَهداً لتطرّف اليمين الإسرائيلي ضد السلام مع الفلسطينيين، وكانت سابقة أولى في تاريخ إسرائيل السياسي بالنسبة إلى رئيس الدولة، ولقد صرخ أحد أحفاد رابين في وجه عازر وايزمن عندما جاء إلى المستشفى الذي تُسجّى فيه جثة

رابين، قائلاً: ـ اخرج من هنا، غادر هذا المكان فوراً)...

ويعلق كابليوك: إن المجرمين انبثقوا من صفوف اليمين، ومعظمهم من أولئك الذين يرتدون القلنسوات، فالمحرّض لا يقل أهمية عن ضاغط الزناد، بل لعلهما في نظر القانون، يحملان وزر الجريمة بصورة متساوية..

لقد صرخَت ليارابين (زوجة رابين) إثر مقتل زوجها وقبيل الانتخابات الإسرائيلية: (إذا مانجح هؤلاء القتلة فسوف نغادر هذا البلد).

لايوجد متّسع من الوقت أمام نتنياهو للحديث عن الإرهاب الصهيوني، فمتسّعه الوحيد، هو الحديث عن الإرهاب العربي أو الإسلامي.. ومن باب التاريخ مثلاً، فإن لا ديمقراطية جابوتنسكي وميله إلى الحسم العُنفي، فاقا عناصر الخلاف الأخرى بينه وبين الصهيونية الرسمية، أو على الأقل، بعد حادث الاغتيال الغامض للزعيم العمالي اليهودي حاييم آرلوسوروف في حزيران من العام ١٩٣٣، وقد ردّ العمال اغتيال زعيمهم آنذاك إلى متطرفي جابوتنسكي، غير أن بن غورويون سارع إلى حل المشكلة بإيجاد هدنةٍ تحول دون تمادي العنف في ظرفٍ غير مواتٍ للطرفين.

وفي مقالة حول اليمين الإسرائيلي يذكر حازم صاغية في جريدة الحياة ٢٦ تموز ١٩٩٦: (لقد استهوت حركة المراجعة ـ أي جناح التنقيح لجابوتنسكي في المنظمة الصهيونية ـ العديد من الشعراء والكتّاب والاشتراكيين التآمريين الذين لم يخفوا إعجابهم (بلينين كمتآمرٍ ذكي)، وقد أنشأ المراجع الأول جابوتنسكي عام ١٩٣١ وهو عام الهجوم على حاييم وايزمن (تنظيم بيتار)، وهو الحصن الذي شهد الوقفة الأخيرة لباركوخبا في مواجهة الرومان، على أن بيتار هذه، لا صلة لها بالدين أو التدين، فجابوتنسكي كان علمانياً راديكالياً، يتذوق الدين كما يتذوق الموسيقى ويتعامل معه بوصفه نتاجاً قومياً، فاختيار بيتار كان اختياراً للرموز والطقوس، تماماً مثلما كانت تفعل وثنيات الجرمان واليونان وروما قبل الأديان.. لقد قال نشيد بيتار: (بالدم والعرَق سوف نخلق عِرقاً فخوراً بنفسه، وسخياً وقاسياً..) فالاحتفالات المهرجانية والعروض العسكرية، كان القصد منها ابهار البصر والتأثير في القلب، إما جذباً لنصير أو إخافةً لعدو.. وهكذا وصلت بيتار إلى آرغون الشهيرة، وهكذا يجد نتنياهو متعة في التكرار، فبالرغم من أن اليهود لايحبون الألمان عموماً، فإن نظرية التكرار عند غوبلز تلقى صدى مضمراً حتى لو لم يعترف نتنياهو به(*)، وكدفعةٍ سلفية من جنوح الخيال المُتعمّد، يؤكد:

(بأن إقامة دولة فلسطينية وتحويل الأردن إلى بلد مواجهة يشكل كابوساً استراتيجياً بالنسبة لإسرائيل.. إذ معنى ذلك أن التواصل الإقليمي لجبهة شرقية راديكالية، سيمتد من الهضاب المطلة على الساحل الإسرائيلي وحتى بغداد ـ ص ٣٧٨)..

ومرة أخرى سيصل هذا التواصل إلى بلد آخر، فهو يقول:

(*) الجنرال غوبلز مسؤول الدعاية والأنباء في عهد أدولف هتلر، كان له مقولة شهيرة في منافع التكرار فهو يقول مثلاً (اكذب ثم اكذب... فلابد أن يصدّقك الناس).

(إن احتمال قيام دولة فلسطينية إسلامية يتأثر بها الأردن، يمكن أن يجلب إيران إلى مشارف تل أبيب - ص٣٧٩)..

وهكذا من القدس إلى عمان فبغداد فطهران، بجرة قلم واحدة، فإذا كانت الأساطير في الماضي هي لاعبة الدور الأساس في تاريخ إسرائيل قبل قيامها، فإن الأساطير في يومنا هذا، لم تعد موضع إعجاب حتى بالنسبة لأطفال توم وجيري أو ليلى والذئب أو كراندايزر.. فأحلام المنطقة غير واقعها بل لعلّ واقعها على النقيض من أحلامها، فنتنياهو يعلم أن خير ما تجيده إسرائيل هي (الضربات الاستباقية) إذ تتسعّ مروحة هذا المفهوم، من بغلةٍ تجر عربة في إقليم التفاح إلى طفل يحمل حجراً في مخيم جباليا، فالمنطقة أعجز من أن تتحرك من تلقاء نفسها ومصالحها.. وأن حركة ما في المنطقة مثل تحريك دورية شرطة من البصرة إلى الزبير تراها عيون رادارات نتنياهو مثلما يرى الأشياء في مكتبه، وأن حركة إضافية من هذا النوع، يمكن أن تؤدي سلفاً إلى استخدام توماهوك أو ستيلث، ألم يكن معلمه (بيغن) هو القائل (بأن بوادر حقيقية لإنشاء جبهة شرقية تعني الحرب بالنسبة إلى إسرائيل)ن ماهي الأبعاد الأخرى التي تعني الحرب بالنسبة إلى إسرائيل وإلى أين تصل؟!..

ويستعرض نتنياهو سلسلة التنازلات التي قدمتها الصهيونية على هذا النحو:

- عام ١٩١٩ تنازلت الصهيونية عن حقها في مياه نهر الليطاني.

- عام ١٩٢٢ سكتت الصهيونية عن اقتطاع ٨٠ بالمئة من أراضي الوطن القومي اليهودي لمملكة الأردن.

- عام ١٩٧٩ تنازلت إسرائيل عن صحراء سيناء.

- عام ١٩٨٩ سلمت إسرائيل طابا للمصريين.

ثم يقول: (لقد أصبح واضحاً أن المتطلبات القومية لإسرائيل تستوجب استمرار السيطرة على الجدار الواقي المتمثل في الجولان والضفة الغربية، وأن قيام دولة فلسطينية سيؤدي في النهاية إلى حرب حتمية).

وهكذا يدفع نتنياهو ثمن سلامه من مصرف الأسطورة، إذ تراه مَن الذي منح سندات التمليك للأراضي والمياه وسواها من الممتلكات العربية إلى إسرائيل؟! أين كانت إسرائيل في العام ١٩١٩ وما هو عديد اليهود في فلسطين يومها كي يطالبوا بنهر الليطاني، وأيضاً بأراضي شرق الأردن، فها نحن قد بلغنا خط النهاية، ومع ذلك فإن نتنياهو يعود سيرته الأولى، إنه يعود إلى مابدأ به، أرض إسرائيل كما رسمتها خارطة التوراة، ثم أرض إسرائيل كما تمّ الوعد بها، وإنني أتحدى أن مجتمعاً مثل المجتمع الإسرائيلي سيتفّق بالكامل على رسم حدود دولته، أو أنه يعرف تماماً فارق حدود دولته في عهد هرتزل عنها في عهد بن غوريون، وفي عهد بن غوريون عنها في عهد نتنياهو، فهناك تحديدات إسرائيلية تجد نفسها في حالة اشتباك دائم، ويعود ذلك لا لشيء آخر قدر ما هو انعدام القناعة بالأسطورة وخرائطها، فإسرائيل النهرين هي غير إسرائيل

الكبرى، وإسرائيل كامبد ديفيد هي غير إسرائيل مدريد، وإسرائيل مدريد هي غير إسرائيل أوسلو، وإذ أننا بكل براءة، لا نعرف أين كانت إسرائيل التوراة في التاريخ، فإننا نسأل السيد نتنياهو فيما إذا كان يوشع قد فتح دمشق في أريحا، أو أن داوود قد فتح القدس في يوروشلايم، أو أن باركوخبا قد فتح بغداد في بيتار.. ثم لماذا لايرسمُ نتنياهو بريشته حدود دولته في العصر الحديث؟!

إننا نقول بأن لكل سلام ثمنه في التاريخ، إذ لايعقل ونحن هنا في ذروة الصراع وتاريخيته المتواصلة، أن يكون السلام مقابل السلام، أو الاعتراف مقابل الاعتراف، إلا في حالة واحدة هي الإرغام، وهو الوجه الخلفي للإستسلام، فقد كان ثمن سلام أمريكا مع ڤيتنام هو الخروج منها، كذلك كان ثمن سلام فرنسا مع الجزائر، وبريطانيا مع كل مواطن انتدابها، أما الاستسلام فهو صك إرغامي موقع بين طرف منتصر وآخر مهزوم، وهي طريقة لاتخدم السلام في حالة مثل حالة الشرق الأوسط، صحيح أن العرب خسروا معظم حروبهم التي خاضوها مع إسرائيل، إلا أن المنطقة لم تشهد بيتان أو فيشي، كما أنها لم تشهد يالطا أو العبور من الراين إلى نهر الألبا وانتحار هتلر...

ورغم كل هزائمهم، فإن العرب لم يوقعوا صك استسلامهم لإسرائيل، وإلا كيف أمكن لهذه الحروب أن تثور المرحلة تلو الأخرى، إذ ما تكاد أن تنتهي حرب حتى تلد أخرى، وهذا معناه أن العرب ظلوا يمتلكون احتياطياً هائلاً لامتصاص نكسة ما، والتهيؤ للمجابهة من جديد، وبفعل عوامل شتى، ذاتية وموضوعية وخارجية، خسر العرب معاركهم، إلا أن أحداً من مسؤوليهم لم يجرؤ على حمل الراية البيضاء، وحتى الرئيس السادات نفسه، فإنه لم يتخلَّ عن ندّيته في أحلك المواقف، وعندما قال كلاماً في الكنيست فإن كلامه ظلَّ يحمل خلفية الاعتزاز بمصر وتاريخها، بل وقدرتها على التواصل والتصميم، فما كان للسادات أن يرشح من خطابه كلمةَ ضعفٍ أو استخذاء، وبالعكس، فقد أسمع مستمعيه آيةً كريمةً بصوت مرتفع: (وإن جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله)، ورغم عدم اعجابنا بكامب ديفيد التي سرقت مصر منا، فإننا نقول للتاريخ، بأن السادات كان له اجتهاده الفردي الخاص، وكان له أطواره، وظروفه القاسية ومنطقه الصعب... وعلى اجتهاده وظروفه ومنطقه، فقد فهم السادات بأن السلام مع إسرائيل يعني سيناء كلها، بل ويعني التمهيد للإنسحاب من الأراضي المحتلة على رأسها مدينة القدس، كما فهمه بأنه حق تقرير المصير للشعب الفلسطيني، ولو كان السلام أمامه هو ما يعرضه نتنياهو اليوم، لقفل السادات عائداً من الكامبد حتى لو جاعت مصر كلها، ولبقيت مصر في خندق الصراع حتى يومنا هذا، ونحن لا نعلم تماماً بأن السادات كان على يقين، بأن إسرائيل في سلامها مع مصر، فإنها ستبول على أيّ سلام آخر، وحتى مع فرضية استيعابه لذلك، فإنه كان قد قرر الرهان على المستقبل... أما إذا كان سلام نتنياهو هو المطلوب، فلماذا يتعمد الحديث عن المستقبل والازدهار وفضائل السلام المشتركة، لماذا لايصنع مشاريعه بنفسه ويمضي في سلامه الوحيد دون الآخرين؟

ويشرع نتنياهو في تصوّره للحكم الذاتي فيقول: (إن الحكم الذاتي للفلسطينيين لايعني دولة،

إنه نوع من نظام حكم ذاتي داخلي، يسمح لأقلية قومية أو دينية، بإدارة شؤونها تحت سيادة شعب آخر - ص٣٩٠).

هذا ويسمعنا نتنياهو اليوم، بخيار بورتوريكو.. ونزيد عليه: بخيار موناكو، وبروناي، وهونغ كونغ، وتايوان... فإذا كانت هذه الأرخبيلات من جذور شعوب واحدة، وأصبحت منفصلة عن تاريخها مندمجة في مصالح حاضرها، فما الذي يمنعها من أن تسلم قيادها إلى مركزها الآخر، ما الذي يمنع الفلسطينيين من تسليم قياد دولتهم إلى دمشق أو القاهرة، ما الذي يمنع أكراد الشمال وقد عُجنوا مع خبز هذه المنطقة، بل وانخرطوا في تسّنم قياداتها العظمى، من أن يسلموا قيادهم في ذاتية حكمهم إلى نصف جسدهم الآخر في بغداد، ونحن لا نرى مانعاً من أن تسلم دمشق وبغداد والقاهرة، قيادها إلى قدس العاصمة الفلسطينية طالما أن الجميع من أمة واحدة وتاريخ واحد أما أن يكون الحكم الذاتي هو استيحاء للغيتو اليهودي في التاريخ، فهو فرضية مضمرة تستجيب للاسامية أوروبا ضد اليهود.. وإذ بدا هذا الموقف رجعياً بذاته، فإنه لايخلو من انتقامية مريضة، فنتنياهو يطلب الثأر مِمَّن لم يقترف الجريمة، بل هو يصطنع الكرامة لا بالاستقواء على غريمه التاريخي (الغرب مثلاً) بل ضد غريم مصنوع حيث لايتردد بإنزال أشد أنواع الأذى بحياته ومصيره..

وإذ يتماهى سلام نتنياهو مع استسلام العرب، فإننا نتساءل كيف يمكن له أن يكون مُقنعاً في شيء.. كيف يمكن لرئيس إسرائيل أن يتصور أن بإمكانه اقناع الأقصى، بأن يُصلّي تحت سيادة شعب آخر، كيف يمكنه اقناع الحرم الإبراهيمي أن يُصَلي تحت رحمة كريات أربع(*)، ونابلس تحت شفاعة آرييل(*)، وجنين تحت حراب حنانيت(*)، وطولكرم تحت وصاية شَعَاريه تكفا(*)، وأجراس كنائس بيت لحم تحت تاريخ بيتار(*)..

ويتوقع نتنياهو من خلال برنامج سلامه أن تمنع إسرائيل أي سيادة أجنبية على المناطق المحتلة، كما أنه في ثوابته يطرح جدولاً غير قابل للنقاش:

أولاً - أن تدوم السيطرة الإسرائيلية على جميع مصادر المياه في المناطق المحتلة.

ثانياً - أن تتم مراقبة سكانية دائمة تمنع إغراق الضفة والقطاع بالعائدين الفلسطينيين أو طالبي العودة.

ثالثاً - اتخاذ الإجراءات الصارمة بشأن وحدة مدينة القدس، وأنها العاصمة الأبدية لإسرائيل.

ثم يختصر (إن ما يجب أن يبقى تحت سيطرة الشعب اليهودي، هو الدولة، الأمن، الأراضي والمياه، والدمج بين هذه العناصر، هو الذي يمكن إسرائيل من تحقيق سلام ردعها بل ووجودها- ص٣٩٤).

(*) كلها أسماء مستوطنات إسرائيلية مزروعة حوالي المدن العربية، وكما أسلفنا يوجد زهاء ١٦٠ مستوطنة في الضفة الغربية فقط، منها ٢٤ مستوطنة حول ووسط القدس، ومع الضواحي والمدينة زاد عدد اليهود على ٢٠٠ ألف نسمة.

إن هدف الردع يتقدم على هدف السلام بصورة عامة، وفي حالة نتنياهو فإنه يمكن الدمج بينهما كما يتم الدمج بين عنصري الماء والنار، فهناك سلام الردع، أو سلام الحرب، أو حرب السلام، وكلها تحمل مضموناً واحداً متحداً كصيغة كيميائية ألا وهو قوة الردع لدى إسرائيل، فعلى الرغم من اتفاقيات الهدنة المعقودة في إثر الحرب العربية ـ الإسرائيلية الأولى، وعلى الرغم من الاعتراف بواقع وجود إسرائيل في التحليل الأخير، فقد فسرت إسرائيل الخطاب السياسي العربي بأنه خطاب مراوغ يهدف إلى تدمير إسرائيل في النهاية، وفي العام ١٩٥٠ أصدرت الجامعة العربية قراراً يجيز التسوية مع إسرائيل شريطة تنفيذ قرارات الأمم المتحدة المتعلقة بمشكلة الفلسطينيين، ولم يطرأ أي تعديل على مفهوم إسرائيل للردع، فالمفهوم الاستراتيجي الإسرائيلي لا يعتدّ بالسلام مثلما يعتّد بالردع، وهذا معناه إمكان نقل الحرب إلى أراضي الجوار وتدمير القوات المتواجدة في سلسلة هجمات مفاجئة، ويخطئ مَن يظن أن كلمة الردع هنا، إنما تستخدم في محل كلمة الدفاع، فوسيلة إسرائيل للدفاع ـ تاريخياً ـ هي الهجوم، ويضاف إلى مفهوم الردع لدى إسرائيل، ضرورة إنهاء الحرب في أقصر وقت ممكن، كذلك الحاق خسارة فادحة بالجوار العربي، خشية إكراه المجتمع الدولي بالتنازل من قبل إسرائيل، ويتطلب مفهوم الردع، تفوقاً عسكرياً صارخاً لتحطيم أي تشكيلة محتملة من الخصوم، ومن هذا المنطلق فإن الردع الذي يعنيه نتنياهو ليس من مشتملات الدفاع بل الهجوم، ويستلزم ذلك بالضرورة توسيع العمق الإسرائيلي على حساب الأراضي العربية، كذلك الهيمنة على مصادر المياه والسكان، وفي المحصلة فإن شعار الردع موضوع من أجل أهداف توسعية لا دفاعية ولا سلامية، فهو ينفي بوقائع التاريخ، لا بالاستنتاج بل بالنتيجة، أي صفة وقائية للدفاع عن أمن الدولة العبرية، وقد تحققت هذه الأهداف فعلاً في حرب العام ١٩٦٧.

يستتبع مفهوم الردع الإسرائيلي ما يُسمى بذرائع الحرب عموماً، إذ من المفهوم أن أية تحشدات عسكرية عربية على الحدود أو خلفها تستوجب شن حرب وقائية سلفية، كما أن الاقتراب من ممرات إسرائيل البحرية أو الجويّة، يستوجب حرباً مسبقة، ثم إن ازدياد نشاط المقاومة (الفلسطينية أو اللبنانية) كان قد أدى إلى اجتياح لبنان كله، كذلك فإن أي تحرك غير مألوف فوق أي ميدان من ميادين الجبهة الشرقية، إنما يعني علامة الحرب لدى إسرائيل، وهناك ذرائع لاتنتهي، فحصول أي طرف عربي على قدرة تسلّح مُعيّنة تعني النزول إلى مسرح العمليات، وأي إجراء قد يمسّ منابع المياه يعني الحرب أيضاً.. أما كل دولة عربية فهي مسؤولة عن ضبط الأمن في أراضيها فإذا ما لاحت الكاتيوشيا، تعرّض لبنان كله، وقد تتعرض القوات السورية أيضاً لأهداف الطيران الإسرائيلي، وفيما يتعلق بالخيار النووي العربي فإنه يعني الحرب فوراً، حتى أن الوطن العربي كله، هو المسؤول عن أمن وسلامة اليهود في العالم.

نحن شعب يريد أن يعيش بسلام في هذا العالم، وطريق السلام باتت بازغة كعين الشمس، فالردع لايتعايش مع السلام، وقعقعة السلاح لاتتناسب مع أجوائه، والاحتفاظ بالأراضي وتحطيم أحلام الآخلاين ليست النماذج المحتذاة على طريق السلام، فالدولة الفلسطينية الصغيرة ذات المسدسات لايمكن أن تعني نهاية إسرائيل النووية، بل بدايتها، والدولة الصغيرة هو أول اعتراف

حقيقي لإسرائيل بحقوق الآخرين، والنزول عن الجولان لايعني تدمير إسرائيل الشمالية بل بنائها في ظل من الهدوء والاندماج في المنطقة بصورة مبنية على حسٍّ من المسؤولية الأخلاقية والثقة، فضلاً عن أي إجراء رقابي يمكن خلقه على الأرض، والفلسطيني بل العربي، يميّز بين تناسب مفهوم السيادة والشعور بالمسؤولية، إذ في ظل قانون الدولة يعيش الجميع تحت حكمة الثواب والعقاب، وعندما تصبح إسرائيل جارة حقيقية لجيرانها، فتمتنع عن التماس أعذار العدوان والتوسع والتشريد والطرد، فإن العربَ قوميين وأصوليين، لا يرغبون بالحاق الأذى بغيرهم لوجه الأذى، ولولا الآلام الحقيقية التي سبّبها الغرب والصهيونية، لما آثر العرب عيش التجاور مع الدماء والدخان ورائحة البارود، وبالعكس تماماً، فإن العرب هم الذين تعرضوا للأذى الماحق منذ أن اشتم ونستون تشرشل رائحة النفط في الجزيرة والعراق، وكان الأذى قد لحق بهم منذ أن سمعت روما رنين الذهب في بيت المسيح(*).

وعلى طريقته، فإن نتنياهو يعطي انذاراً للغرب في (أن يعلن بصورة لاتقبل التأويل، أن قرارات الأمم المتحدة التي مضى وقتها والمتعلقة باللاجئين أصبحت في حكم المُلغى، وعلى الغرب أن يضعَ الفلسطينيين والعرب أمام الأمر الواقع، فالعرب غير قادرين على القول، بأنهم يوافقون على مشروع التقسيم لعام ١٩٤٧ الذي رفضوه قبل خمسين سنة ـ ص٣٩٨).

ها هنا تناسب تام في العدالة، بين رفض الشرعية الدولية من بغداد، والانصياع لها من تل أبيب، فبغداد التي قبلت كل لجان التفتيش منذ خمس سنوات، تُضرب وتُسجن في ظل حصار مميت، فيما يجهر نتنياهو بصوت مرتفع وهادر: (إن قرارات الشرعية الدولية أصبحت لاغية... بالتقادم)، أليس هذا هو التطرف اليهودي الذي يربت على كتفه عالم أمريكا، هو الذي أغرق المنطقة في عالم من اليأس والدماء، لماذا تنوح إسرائيل على قتلى انفجارات حماس والجهاد الإسلامي، ولا تسأل عن قتل شعب كامل؟..

بالأمس وقفت امرأة يهودية تصرخ في وجه نتنياهو إثر مقتل زوجها الضابط في جنوب لبنان: (بنيامين أنت المسؤول الأول عن مقتل زوجي) وكانت صرخة من قلب نهار الحقيقة الإنسانية..

○○○

(٣)

في زيارته للتاريخ، يستعرض نتنياهو وقائع رحلة حديثة إلى بولندا في العام ١٩٨٧، حيث وُجهة القصد، أماكن الكارثة اليهودية في بلدة أوشفاتيس، وأمام المعسكر الفظيع، كما يصفه، ما زالت اللائحة تقول (العمل يحرر): (وقد أوضح المضيفون لي، أنّ عملية الإبادة الرئيسية التي قتل

(*) إشارة إلى الحروب الصليبية التي حرصت الكنيسة المتأثرة بالعداء آنذاك على تسعير أوارها.

فيها حوالي مليوني يهودي لم تكن تجري في أوشفاتيس بل في بركناو حيث غرف الغاز - ص٤٠٣)(*).

غير أن نتنياهو يعود في الصفحة ٤١٢ فيقول (أدرك اليهود أن عدم قدرتهم على خلق قوة لمقاومة النازيين، جعل من السهل عليهم (أي على النازيين) تنفيذ عملية إبادة ستة ملايين يهودي). فإذا كان المقصود هو أن أوشفايتس أو بركناو، وحدها هي التي حظيت بمليوني ضحية يهودية، وأن ستة ملايين هم مجموع ضحايا النازية في العالم، فإن الحساب هنا يكون صحيحاً..

هل كان ثمة ضرورات تقتضي رفع عدد الوفيات من اليهود، ثم العودة عن هذه المبالغات إلى تخفيف الأرقام وتعديلها؟!

لنستمع إلى ما يقوله غارودي في الخرافات المؤسسة للسياسات الإسرائيلية:

لقد تم إبدال الشاهدة على بوابة بركناو التي كانت تتحدث عن أربعة ملايين من ضحايا اليهود وتبديلها بشاهدة أخرى تحمل رقم مليون.

تغيير الوصف لغرف الغاز في داشاو (وهو معسكر آخر للنازيين)، حيث ثَبُت بأن هذه الغرف لم تكن جاهزة للاستعمال.

تبديل شاهدة في معسكر آخر في باريس كانت تحمل رقم ٣٠ ألف ضحية يهودية إلى شاهدة جديدة تشير إلى احتجاز ٨ آلاف يهودي ويضيف: إنها ليست عملية حسابية جنائزية، فقتل امرئ واحد هو جريمة ضد البشرية كلها، سواء كان يهودياً أو غير يهودي، وإذا كان عدد الأموات لايشكل في هذا الحكم أية أهمية، فإنهم يتشبثون بالرقم المشؤوم ستة ملايين لمدة نصف قرن، في حين لايولون اهتماماً لعدد الضحايا من غير اليهود في كانتين ودرسدن وهيروشيما ونازغازاكي مع أنها أعداد لايرقى إليها الشك، لكنها لم تتحول إلى رقم ذهبي(**)، فيما أُحيط رقم الضحايا اليهود بالقدسية رغم تعديله وتخفيضه، وكونه يشير إلى فئةٍ واحدة من الضحايا، حيث لانشك في معاناتها.

وهنا يبرز سؤال:

أليست هي خدمة مؤداة سواء للفاشيات أو النازيات القديمة أو الجديدة، أو لأحزاب اليمين المتطرف في العالم كله، حين يُعطى الفرصة ليقول: ما دمتم تكذبون في هذه المسائل فأنتم

(*) هذا الفصل المعنون بمسألة القوة اليهودية، هو الفصل الأخير من كتاب نتنياهو (مكان تحت الشمس) أو (مكان بين الأمم)، ومن الواضح أنه سيفرش عتبة هذا الفصل باسهاب مطول حول الكارثة اليهودية (الهولوكوست) أيام النازية، وهو إذ يفعل ذلك فإنه يبرهن على أن الضعف اليهودي هو الذي قاد إلى الكارثة، وأن القوة هي الخيار الوحيد.

(**) حيث تم بيع هذه الضحايا إلى الحكومات الألمانية اللاحقة بمليارات الماركات التي تجلت في التعويضات الألمانية لإسرائيل بدءاً من العام ١٩٥٠.

تكذبون في كل شيء!.

لقد تحدثت الصحافة المتأثرة بالسيطرة اليهودية أيضاً عن الوسائل الغريبة التي كان يتم بواسطتها قتل اليهود وكل ذلك لإزالة الشكوك من أذهان الناس، حيث لايعقل قتل ستة ملايين إنسان بوسائل تقليدية معروفة، وهكذا فقد ابتدعت صحيفة نيويورك تايمز في عددها الصادر في ٣ حزيران ١٩٤٢ ما يُسمى (بمبنى الإعدام) حيث أمكن إعدام ألف يهودي يومياً رمياً بالرصاص كما تحدثت الصحيفة نفسها يوم ٧ شباط ١٩٤٣ عن محطات تسميم الدم في بولونيا المحتلة من قبل النازيين، وهناك مَن أدخل اليهود (وهو الكاتب ستيڤان زند) بأحواض ضخمة للسباحة حيث أمكن تمرير تيار كهربائي ذي توتر عال للقضاء على الألوف بصعقة واحدة، وهناك وثائق قُدمت إلى محكمة نورمبرغ في ١٤ كانون الأول ١٩٤٥ تحدثت عن وسيلة أخرى للقتل الجماعي وهي طريقة (الغلي) حيث كان يوضع اليهود في حمّامات ذات بخار حارق، ثم استخدمت غرفت الغاز بدلاً من حمامات البخار الحارق، والمشكلة أن محكمة نورمبرغ لم تكن تطلب اثباتاً قاطعاً لتحديد أداة الجريمة، فكل ما يتصل بمحاكمة مجرمي الحرب قابل للتصديق، أما الفيلم الوثائقي الذي عُرض أمام المحكمة كدليل على فظاعة النازيين فلم يظهر سوى غرفة غاز واحدة، بدليل ما يقوله نتنياهو نفسه (لم أكن أتخيل كم كان صغيراً وحقيراً ذلك المكان ـ نتنياهو ص٤٠٣). واليوم يستطيع أي زائر أن يقرأ لوحة صغيرة علقت أمام معتقل داشاو وتقول اللوحة (هذه الغرفة لم تشهد موت أحد مخنوقاً بالغاز، لأنه لم يكن قد استكمل تجهيزها أبداً) والمشكلة الذي خطّ هذه العبارة هو الدكتور بروزات أستاذ التاريخ المعاصر في معهد ميونيخ المعروف لا بميوله فحسب، بل بطاعته الكلية لأفكار الحركة الصهيونية، هذا وتشير جريدة ليموند الفرنسية في عددها الصادر يوم ١٩٩٠/٢٣ نقلاً عن كتاب الانقياد اليهودي الصادر عام ١٩٤١ صفحة ٦٦٦ إلى (أن التوسع النازي في ذروته حين وصل إلى أبواب موسكو، لم يكن يُخضع في أماكن سيطرته كلها بما فيها ألمانيا، سوى ثلاثة مليون يهودي.. كيف أبيد ستة ملايين إذن؟!).

ثمة اصطلاحات متباينة تم استخدامها في وصف المعاملة التي تلقاها اليهود أيام النازيين، وهي تتراوح من الإبادة الجماعية إلى الكارثة مروراً بمصطلحات المذبحة والمحرقة وتصفية العرق، ومما لاشك فيه أن اليهود كانوا أحد الأهداف المفضلة عند هتلر، ذلك أنه ربط منذ كتابه كفاحي، ما بين الشيوعية واليهودية بشكل محكم، واعتبر أن كوارث ألمانيا متأتية عن عرقين في الأساس: العرق اليهودي والعرق السلافي، وكان في خطاباته يأتي على تعبير متكرر هو (البلشفية اليهودية)، وقد تمت عملية إبادة هؤلاء (سلاف، بلاشفة، يهود، غجر...) عن طريق الأشغال الشاقة لخدمة المجهود الحربي الألماني، كذلك بسبب انتشار أوبئة التيفوس، غير أن ما يهمنا هنا هو مصطلح الإبادة الجماعية، إذ يتم تعريف المصطلح في مجمل قواميس العالم أنه (التدمير المنهجي لمجموعة عرقية من خلال إبادة جميع أفرادها). ولايمكن أن نجد تطبيقاً لهذا الوصف في التاريخ، إلا في التوراة نفسها، إذ مهما كانت الهلوكوست بالنسبة للشعب اليهودي، فإن جزءاً كبيراً من هذا الشعب في جميع أنحاء العالم بقي على قيد الحياة حتى بعد

احتلال هتلر لكل أوروبا الشرقية وأجزاء من أوروبا الغربية وأراضي الاتحاد السوفييتي. إن الوصف المحكم للإبادة الجماعية، هو ما ورد مثلاً في سِفر يشوع حيث يقول عن أريحا: (ضربوها بحد السيف مع ملكها وكل مدنها وكل نفس بها) وعن كنعان: (فضربوه وبنيه وجميع قومه حتى لم يبق شارد له وملكوا أرضه) وعن العماليق (أما الرجال فضربوهم جميعاً بحد السيف حتى أبادوهم ولم يبقوا منهم نسمة).

لقد سام هتلر جميع معتقليه سوء العذاب، فالحرمان، والسير القسري وموت الضعفاء والسخرة الشاقة والتعرض للأوبئة (حيث أن انتشار مرض التيفوس بين المعتقلين هو الذي أدى إلى استخدام المحارق) فهل كان من الضروري وقف ذلك على الشعب اليهودي، ألم يؤدي الحساب الختامي الرهيب للضراوة النازية، إلى مقتل خمسين مليوناً من البشر، ألم يدفع العالم كله ثمن وحشية الصراع على مناطق النفوذ بين المحور والحلفاء؟.. ألم تؤدي البربرية الأمريكية إلى مقتل ٦٠ مليوناً من الهنود الحمر في النهاية، ثم ألم تؤدي الوحشية البيضاء في عالم النخاسة والرقيق إلى قتل مئة مليون أفريقي ثمناً لتجارة البيض بالرقيق الأسود(*)؟!

لكن الخرافة الصهيونية حملّت العالم كله المسؤولية عن أكبر عملية إبادة في التاريخ (إن الحلفاء كانوا يعرفون ما يدور في معسكرات أوشفايتس وبركناو، ولم يكن الأمر يكلفهم سوى اعطاء أمر بسيط لإحدى طائراتهم لكي تنحرف قليلاً فتوقف تلك المجزرة، لكن ذلك الأمر لم يُعط أبداً ـ ص ٤٠٣).

غير أن نتنياهو في موقعه المطل على (ياد فاشيم ـ موقع ذكرى الكارثة والبطولة في إسرائيل) لايكتفي بالشطر المتعلق بضعف اليهود بعد آلاف السنين من الشتات والوهن (فمن لايحمل السيف سرعان ما ينسى كيفية استعماله ـ ص٤٠٦)، وإذ هو يعود إلى استنهاض الهمة اليهودية في العالم كله، فإنه يفعل من خلال التاريخ المجيد للأجداد القدماء: (فقد وقف يهود أرض إسرائيل وحدهم في وجه روما، تلك الدولة العظمى التي خضعت لها معظم شعوب العالم في تلك الأيام وظلوا يقاومون بإصرار طيلة سنوات كثيرة ضد الحكم الروماني ـ ص٤٠٥).

ألم تقف شعوب أخرى ضد روما في التاريخ؟ هل يهود أرض إسرائيل وحدهم هم الذين قاوموا روما؟ إذن أين تاريخ تدمر أذينة وامرأته زنوبيا في قتالهما الشرس ضد روما؟ أين تاريخ هاني بعل الذي هزم روما في معارك تراسمين وكاناي في إيطاليا نفسها بعد أن اجتاح إسبانيا في طريقه..

أين مواقع منذر وغسان ضد جيوش روما شرق سوريا ووسطها؟.. حتى العبيد فقد شنوا ثورات دموية ضد روما وقد حدث ذلك في العام ١١٥ قبل الميلاد، وفي آخر ثورة قادها سبارتكوس في (معركة لوكانيا) عام ٧١ قبل الميلاد، كان ستة آلاف من العبيد يُصلبون (قبل

(*) هذه الأرقام والمصطلحات والأفكار مستوحاة من كتاب روجيه غارودي ـ الأساطير المؤسسة للسياسات الإسرائيلية حيث شنّت الصهيونية حرباً شاملة ضده.

صلب المسيح) على أبواب روما(*).

ويستطرد نتنياهو في توضيح معنى العلاقة المتبادلة بين مسألة القوة اليهودية المطلوبة وحالة الضعف اليهودي زمن الكارقة ليؤكد على ضرورة العودة إلى تجارب التاريخ: (عندما كان يُطرد اليهود من بلد ما، فإنهم يجدون مأوىً في بلد آخر، حيث يعقدون صفقة أمان مع حاكم هذا البلد، أو مع أعوانه، وحين يُطاح بهذا الحاكم يبدأ الاعتداء والمطاردة من جديد.. الأمر الذي جعل من الشعب اليهودي ضحية لأعمال القتل والتنكيل على أيدي الشعوب الأخرى - ص٤٠٧).

في هذا العداء الثابت والراسخ يرسم نتنياهو صورة سوداء للشعوب من غير اليهود، فمن يحاول فهمَ الكون والتاريخ انطلاقاً من ثوابت نتنياهو، فإن كثيراً ما يتراءى له أن البشر من غير اليهود لم يمتهنوا في حياتهم، غير التفكير بإنزال الأذى باليهود، فلا الزمان استطاع، كذلك المكان، تمكنا من تغيير الجوهر العدواني عند (الأغيار) ضد اليهود، وما دام الأمر هو ما يقوله نتنياهو، فإننا إذن، إزاء جوهرين إنسانيين يقف أحدهما متربصاً بالآخر، فهناك جوهر يهودي وآخر غيره، وهو ما نجده معكوساً في الإيديولوجيا النازّية، ففي النازية، اليهود هم أعداء العالم، وهم المتآمرون عليه..

هل ثمة حاجة للتأكيد دوماً بأن اليهود ظلوا يتعرضون لأذىً استثنائي في التاريخ؟ ثم ماذا بشأن العذابات التي ظلت تتعرض لها شعوب العالم أجمع؟.. لماذا تتم إزاحتها عن لوحة التاريخ؟.

يقول الصحفي اليهودي الشهير بواز ايفرون: (كأنه من طبيعة الأشياء أن نصحب كل ضيف يصل إلى البلاد في زيارة قسرية إلى ياد فاشيم (موقع ذكرى الكارثة والبطولة)، كي يتفهم مشاعرنا ويعاني من تأنيب الضمير المنتظر منه... نحن نشعر، لأن العالم يكرهنا ويُخضعنا للعذاب، إننا معفيون من ضرورة أن نحاسب أنفسنا على تصرفاتنا تجاهه.. إن هذا الانعزال المَرَضي المتوّهَم تجاه العالم وقوانينه. سيؤدي إلى أن يُعامِل اليهود الناس من غير اليهود كأنهم أدنى من البشر منافسين بذلك العنصرية النازية - من كتابه الإبادة الجماعية ص١٢).

ويتابع نتنياهو: (فقط جابوتنسكي كان أحد القلائل من زعماء الجيل الثاني الذين أدركوا إلى أين يتجّه اليهود.. فمَن يفرّ من الكارثة.. لابد أن يشهد الفرحة اليهودية الكبرى ولادة وقيام دولة يهودية من جديد... وكما أنني واثق من أن الشمس ستشرق غداً، فإنني واثق من ذلك.. وبالنسبة لي فإنني لا أعرف إذا كنت سأشهد ذلك، أما بالنسبة لابني فنعم - ص٤٠٧).

ومنذ ذلك التاريخ لم تهدأ فلسطين، ومنذ ذلك التاريخ أيضاً، تمكن زئيف جابوتنسكي من تصحيح التاريخ والسياسة، **بصفته اغتيالاً له ولها**، فسكان فلسطين لا يدخلون في حساب هذا التاريخ، سواء أقاموا على الضفة الشرقية أم الغربية من النهر، أما مملكة إسرائيل، فتقفز من فوقهم، ومن فوق مئات السنين، مثلما تقفز فوق ماضي الأركولوجيا البائدة، وهنا تعاود الأسطورة سيرتها

(*) ليست متوقفة كلمة العبيد هنا على الجنس أو اللون، فعبيد روما جُلّهم من العرق الأبيض، إذ أن مفهوم العبودية في روما كان يدور حول مَن هو خارج السور (أي خارج المدينة) والعبيد هم الطبقة الأدنى التي تعلوها بالطبع طبقة الأباطرة والأسياد.. ثم طبقة قواد الجيش.

في تحويل التاريخ من جديد، ومن الطريف أن حاييم وايزمن زعيم الحركة الصهيونية آنذاك، قذف جماعة جابوتنسكي بأوصاف (الحقد والثارات والصغائر والخيانة) وأنهم (مجموعة من الظلاميين الرجعيين، بل هم الضجيج الأكبر في الشارع اليهودي، إنهم الهتلرية وهي ساطعة في أسوأ أشكالها الممكنة). فماذا يقول عزرا وايزمن رئيس الدولة الحالي، لرئيس وزرائه نتنياهو، وهو يرفع جابوتنسكي إلى المنصّة من جديد؟!.

ثم يسترسل نتنياهو: (في تلك الأعوام التي تنبأ فيها جابوتنسكي باقتراب الكارثة، كان لفيف من نازيّي هتلر، يجتمعون في حي فانسي في برلين، ليضعوا اللمسات الأخيرة لخطّة الحل النهائي للمسألة اليهودية، وكانت هذه الخطة كما تبين من خلال وثائق فانسي تذهب إلى إبادة اليهود في جميع أنحاء العالم، حيث شملت القوائم المفصلة كيفية القضاء على ١١ مليون يهودي في العالم ص ٤٠٧).

إن أدبيات الهولوكوست (الكارثة) اليهودية، تعود في معظمها إلى الأداء الذي قدمته محكمة نورمبرغ أثناء محاكمتها لقادة النازيين، وقد غمز العديد من القضاة وأخصائيي القانون الدولي ـ وخاصة الأمريكيين منهم ـ من قناة عدالة هذه المحكمة، وكان أهم ما اعتُرض عليه هو:

ـ حقيقة النصوص النازية المقدمة إلى المحكمة وطريقة ترجمتها.

ـ صدقية الشهادات المؤداة والظروف التي أحاطت بتقديمها.

ـ التدقيق العلمي ـ الفنيّ في فحص أدوات الجريمة.

هذا وسنكتفي هنا بالتعليق على نص فانسي (أو وثائق فانسي) كما يعرضها نتنياهو في كتابه.

يقول النص: (أثناء تنفيذ الحل النهائي، سيسير اليهود تحت قيادة مناسبة نحو الشرق للإستفادة من عملهم، سيُقاد اليهود، بعد فصلهم حسب الجنس، بأرتال كبيرة إلى مناطق الأشغال الضخمة لشق الطرق، ونتيجة لذلك، سيسقط عدد كبير منهم ويلاقون حتفهم بطريقة الاصطفاء الطبيعي، أما الباقون الذين سيشكلون العنصر الصَلب، فسيعاملون بصفتهم يمثّلون الاصطفاء الطبيعي للقوة، ويجب أن تعتبر حريتهم كخلية تكاثر لتطور يهودي جديد) وهذا مع ذلك، هو النص الذي قُدّم إلى محكمة نورمبرغ دون السؤال عن صدقيّته.

ويقول س. ايرفنغ أحد المعنيين بتتبع المحاكمات (إنني قرأت محاضر محكمة ويلهلم شتراسة، وهي الثانية بعد محكمة نورمبرغ، وقد تلتها اثنا عشر محكمة أخرى، ولم أجد في أي منها شهادة واحدة تشير إلى أن تصفية اليهود قد نوقشت في مؤتمر فانسي). فالمؤتمر الذي عقد في فانسي في ٢٠ كانون الثاني من العام ١٩٤٢ والذي شارك فيه أمناء سر الدولة المهتمون بالمسألة اليهودية ورؤساء الأجهزة المكلفة بالتنفيذ... هذا المؤتمر، لم يتطرق إلى غرف الغاز ولا إلى الإبادة الجماعية، إنما فقط إلى نقل اليهود إلى شرقي أوروبا... حتى صورة الوثيقة التي قُدمّت إلى المحكمة والتي زُعم بأنها تمثل نص فانسي، فإنها تتمتع بكل خصائص الوثيقة المزورة، فهي بلا توقيع ولا تاريخ ولا خاتم وقد طبعت على آلة كاتبة عادية بورق من القياسات الصغيرة..).

لقد اضطر القاضي جاكسون في ٢٠ آذار من العالم ١٩٤٦، وقد ضُبط مُتلبساً بجريمة ترجمة الكلمات الألمانية بصورة مُغرضة (وقد ضبطه غورنغ نفسه)، أن يعترف بهذا الجرم صراحة، ولكن هذا الحادث الذي يهدم نظرية الإبادة بأسرها، لم تذكره الصحافة ولو لمرة واحدة.

يلخص هايدريخ أحد القادة النازيين، سياسة ألمانيا اللايهودية بما يلي:

١ ـ دفع اليهود خارج المجال الحيوي للشعب الألماني.

٢ ـ دفع اليهود خارج المناطق الحيوية الألمانية.

٣ ـ إن دفع اليهود نحو الشرق هو حل مؤقت، وأن الحل الشامل للمسألة اليهودية حسب توجيهات كبار المسؤولين في الرايخ، لايمكن تنفيذه إلا بعد الحرب وعلى صعيد أوروبا كلها.

في ٣٠ كانون الثاني من العام ١٩٩٢ كتب الصحفي اليهودي يهودا باور في (صحيفة يهود كندا) عن وثيقة فانسي بأنها (الوثيقة الأكثر غباءً وسخافة في تاريخ العدالة)... فالتاريخ النازي يصوّر دولة منهجية في استثمار المعتقلات، وقد شهد ١٩ مركزاً للاعتقال في دائرة أوشفايتس، تشغيل الغالبية العظمى من اليهود كأيدٍ عاملة، وليس كأيادٍ مبتورة... هذا وسيتخلى المؤتمر اليهودي في شتوتغارت في العام ١٩٨٤ عن الأخذ بوثيقة فانسي بصورة نهائية، إلا أن نتنياهو مع الأسف ما زال يحملها كتذكار من ألمانيا، أما الحديث عن قتل ١١ مليوناً من اليهود فهو تأجيج لإضرام النار، فعمليةٌ جهنّمية من هذا النوع، تتطلب نصف المجهود النازي لبناء منشآت (أدوات الجريمة) خاصة لتلبية هذا الهدف، وما من شك أن هذه المنشآت ستكون على درجة من الضخامة بحيث لايمكن إخفاؤها عن البصر أو البصيرة، ومع ذلك فإن نتنياهو يتحدث عن: (غرفة صغيرة وحقيرة كان بمقدورها أن تمثل ذلك المسلخ الرهيب ـ ص٤٠٣ نتنياهو).

غير أن نتنياهو في تصويره لهذه التراجيديا المُضخّمة، إنما يسعى للوصول إلى: (الأهمية الحاسمة لبناء قوة عسكرية يهودية ضخمة، فإسرائيل خصّصت معظم مواردها لتقوية جيشها، وكلفّت أفضل أبناءها بهذه المهمة.. ومما أدهش العالم، أن إسرائيل أفرزت من أبنائها أفضل المقاتلين في العالم، وأنشأت جيشاً تمكنّ المرة تلو الأخرى، من إلحاق الهزيمة بآلة حرب كبيرة وعظيمة ـ ص٤٠٩) ثم يستشهد بعائلة آهرونسون التي قضَت مع أصدقائها، على يد الأتراك، حيث شكلوا جميعاً شبكة التجسس المعروفة (نيلي)، بهدف نقل معلوماتها عن تحرك الأتراك إلى السفن البريطانية على سواحل المتوسط، فيما يتم تنسيب هذا العمل إلى واحدةٍ من أهم البطولات في التاريخ اليهودي...

لاداعي للتذكير بالقدرات العسكرية لإسرائيل، إذ ربما تعتبر الخامسة أو السادسة في العالم كله، علماً بأن عدد سكانها لايتجاوز ٨ بالمئة فقط من عدد سكان مصر، و٢٠ بالمئة من عدد سكان العراق و ٢,٥ بالألف من سكان الوطن العربي.. كما أنه لايخفى على المواطن العربي، كيف أصبحت إسرائيل على هذه الدرجة من القوة المصحوبة بمئات القنابل النووية مع موصلاتها إلى أي هدف عربي، بل والاتحاد السوفييتي سابقاً..وهنا تكفي الإشارة إلى بعض الأرقام على

سبيل الاستئناس لا الحصر، فآخر ميزانية للدفاع وُضعت في العام ١٩٩٥ وصلت إلى رقم ٨,٣ مليار دولار منها ٣ مليار دولار مساعدات أمريكية، ومع أن هذه القوة العسكرية البالغة الآن ٤٩٩ ألفاً على صعيد البر و ٨٧ ألفاً على صعيد الجو و ٢٠ ألفاً على صعيد البحر، بحيث تمتلك الأولى منها ٣٨٩٥ دبابة والثانية ٧٥٠ طائرة من أحدث الطائرات الأمريكية، والثالثة ٥٨ قطعة بحرية عدا خمس غواصات من الطرازين البريطاني والألماني... فإن نتنياهو إضافة إلى ٢٠٠ رأس نووية يدعو إلى استحواذ المزيد من القوة العسكرية، فهو إذ يشكك بأولئك الإسرائيليين القائلين بعدم الحاجة للإبقاء على هذه القوة وتطويرها، فإنه يجد العذر في الرحلة المؤلمة الطويلة التي قطعها الشعب اليهودي في معمعان الصراع، حيث يبرز السؤال دوماً: هل كُتب علينا مواصلة الحروب إلى الأبد؟..

ومَن غير سلام مع نفسه، فإنه يجيب على الفور: (وما العمل إذا كانت النزاعات الدينية والسياسية لن تنتهي في الشرق الأوسط، على الأقل في المستقبل المنظور)، وحيث أن المستقبل المنظور يولّد مستقبلاً أعمى بعده، فإنه لاجواب على السؤال: إلى متى نحارب، إلا بالدعوة إلى الحرب من جديد(*).

ويستذكر نتنياهو وهو في الثامنة عشرة من عمره، كيف جلس دايان عشية حزيران ينتظر مكالمة هاتفية من مسؤول عربي، يطلب فيها الاستئذان بعرض استسلامه!.. (ومن المدهش أن الإسرائيليين معظمهم، تمتلكتهم مشاعر أن العرب سيطلبون إنهاء النزاع، ولكن العرب ظلوا يحاربون إسرائيل بوسائل أخرى.. لم يكن ثمة مَن يُفكر كم من الجولات والهزائم الأخرى، يتطلب الأمر، حتى يبدأ التغيير البطيء في نظرة العرب تجاه إسرائيل - ص٤١٣).

. أمام نتنياهو جولات أخرى من الهزائم التي يرى ضرورة إلحاقها بالعرب، كي يبدأ التغيير البطيء في النظرة تجاه إسرائيل، علماً بأنه أفرز سبعين صفحة من كتابه (في فصلين فقط هما نوعان من السلام والسلام الدائم)، للحديث عن السلام، وإذ هو السلام نفسه، فإن العبارات المغلفة هناك، تأخذ طريقها إلى العلانية هنا، ومن الطريف أن نتنياهو يستخدم مثالاً قريباً من التاريخ لايخدمه البتة، فحرب حزيران حسب استشهاده لم تحل النزاع، كذلك حروب سابقة ولاحقة عليها، وهذا معناه في العمق، أن الحروب لاتصنع السلام، وهو ما أفاض به دايان نفسه في أخريات عمره، لكن نتنياهو الذي قرأ دايان دون شك، يعرف أن المقصود بالضبط هو الاستسلام وليس السلام، ولّما كانت جرأته لاتسمح بقول ما هو مرفوض علناً، فإنه يوّشي (دعوة العرب إلى الاستسلام) بخيوط من ذهب السلام المراوغ، إنه يحتاج إلى جولات وهزائم جديدة، كي يُضطر العرب إلى قول ما لم يقله أحد بعد حزيران وقبلها، فبسلامه المستحيل

(*) إذا كان الحاضر المنظور عند نتنياهو هو ما جاءت عليه فصول كتابه، من حصان طروادة إلى مسألة القوة اليهودية مروراً بحقيقة القضية الفلسطينية كما يراها، والجدار الواقي الذي هو سلام الردع، والسلام الدائم الذي هو دعوة لامتلاك المزيد من القوة.. فإن المستقبل سيكون أعمى بلا جدال..

يصنع الأساس لجولات جديدة وحروب محتملة، فالتطابق عنده بين السلام المعروض والاستسلام المطلوب، مقدّمةٌ لا مفر من نتائجها، إذ هي بوابة الدخول لنزاع دموي جديد، والعرب ـ عرب الشعب وليس بالضرورة عرب المسؤولين ـ مازال لديهم مخزونهم الاحتياطي للتحمّل والمواجهة والرفض، وليس من الضروري أن طابع مرحلتهم الراهنة هو اليأس، ومثلما أن الحروب لاتصنع السلام، فإنها عجزت واقعياً عن فرض الاستسلام، ولا يخطر في بال نتنياهو أن معاهدات توقع من وراء ظهر الشعوب، فشعب أسفل السلّة، وهو الشعب بأكثريته الساحقة الماحقة، لايقبل حتى الآن بمجرد السماع بإسرائيل فكيف بوجودها، إذ فضلاً عن عدم التناسب المريع في العدالة، هناك المعتقدات الراسخة التي لاتتزحزح، وفي كتابه كلّه لم يصدر عن نتنياهو ما يشير إلى التحدث بالعمق، فهو ينطلق من مسلمات هجينة تقع ما بين الصهيونية الابتدائية ولوحة الاعلان الأمريكية، وقد يعزى ذلك إلى ثقافته الأمريكية السريعة والسطحية، وليس أدل على ذلك من خلطه الدائم بين عرب المسؤولين وعرب الشعب، إنه ينطق باسمهما كأنهما قطعة واحدة، علماً بأنه لم يجر أي استفتاء عن رأي العرب بمسؤوليهم!. وعلى سبيل النموذج، فإنه لم يقدم مثلاً أي تحليل أو جواب، على السؤال المتعلق بمصير المسيرة السلمية بين شعب مصر وإسرائيل، رغم مضي ٢٠ عاماً على هذه المسيرة، وإذ هو لا يسأل ولا يجيب، فإنه بهروبه، يجهل أو يتجاهل أعظم ما في المسيرة من تعقيدات، فالمنطقة بصفتها ما زالت في التاريخ، فإن ثوابتها صادرة من وحي معتقداتها الراسخة، وقوة الإسلام في مصر، هي ذاتها من المغرب إلى العراق، وكان على نتنياهو، سيّد إسرائيل اليوم، أن يجد مفتاحه إلى المنطقة من تاريخها، لا الإغلاق على التطرّف لذاته، كمن يضع شعباً بكامله في قفص الاتهام دون السؤال عن الدوافع..

من جهة أخرى، فإن المنطقة تعيش حاضرها، بمروحة اتجاهات إيديولوجية تجول ما بين القومية واليسار، ومهما كانت التباينات الناشبة حول العقائد والأفكار والخطوط، فإن قاسماً مشتركاً سرعان ما يظهر لدى الحديث عن التسوية مع إسرائيل، وكل ذلك بسبب تاريخ الظلم الذي ألحقته إسرائيل بشعوب المنطقة، إذ من الواضح أن إسرائيل الراهنة جاءت من خارج المنطقة لا من تاريخها، وحتى مع فرضية الحقوق التاريخية المدعاة، فإنه لايحق لنتنياهو أن يسقط حقّاً بالتقادم أنشأه العالم قبل أقل من خمسين عاماً فقط، (قرار التقسيم ١٩٤٧)، فيما هو يقيم حقّه على أنقاض فرضية متداعية قبل ألفي عام من الزمن..

ها هنا عدم التناسب في السلام المعروض.. والمرفوض، الأمر الذي لايدل على أن نتنياهو قد كلّف نفسه، عناء التفتيش عن أسبابه ونتائجه ومخاطره..

ربما تكون مصادر نتنياهو التي أوحت بكتابه، هي المسؤولة عن ذلك، فهي لاتتحدث إلا بلغة الأمر الواقع، لكن الأمر الواقع في البراغماتية الأمريكية معادلة ذات طرفين، لا يرفض طرف فيها واقعية ما فرضه الطرف الآخر، والحال فإن المنطقة لم تحظَ حتى الآن بمثل هذه الواقعية، فهناك دماء ما زالت تسيل على طرفي المعادلة، وهناك نزاعات تنشب على الأرض

والطرد والنفق، حتى العربة الإسرائيلية التي تمر من شارع في الخليل أو نابلس... فإنها قادرة على تأجيج النزاع من جديد، وهكذا فإن الأمر الواقع لا يُعتّد به، مثله تماماً مثل الضعف العربي الذي يتكئ عليه نتنياهو في صولاته وجولاته، غير أن جدارة الزمن العربي، لاتقاس بمؤشر الحاضر، والماضي الذي آل إليه، فنتنياهو لايمكن أن يتصور بحكم نشأته - أكثر مما هو ومجموع تاريخه المُلقّن، وذلك ما لا يمكن اشتقاقه في سبيل مصادرة المستقبل أو إغلاقه عليه، فاستشراف مستقبل الضعف العربي، بناء يقوم تأسيسه على قواعد الحاضر المقررة والمرئية، مما يضع المستقبل نفسه في ساحة رهان، فما كان مستحيلاً بالأمس، قد يصبح واقعاً اليوم أو بعده، وبتبديل الشروط والظروف والقوى، وهي قواعد التطور العلمية والتاريخية، لايمكن أن يبقى شيء على حاله، لا بالكم ولا بالنوع، فكم هي الاستحالات في قاموس العالم القديم، سواء بالنسبة للتاريخ الإنساني أو العلمي، انقلبت إلى حقائق لاتقبل النقاش، حتى (نهاية التاريخ - فوكوياما) فإنها كانت تتحول إلى لانهاية منذ القرون الغابرة، مع روما واليونان والبرتغال وإسبانيا وبريطانيا.. الخ، ثم مع أمريكا اليوم، إذ مَن كان يُصدّق أن العبيد سيهزمون روما في عصر العبيد، وأن عرب الصحارى في إسلامهم سيهزمون روما وفارس بآن معاً، وأن مسيحية ابن بيت لحم، تلك القرية النائية والمهجورة، ستمتد إلى ثلث البشرية فوق هذا الكوكب... ومنذ أن رُفض دوران الأرض على يد الكنيسة في أوروبا، فإن الأرض مازالت تدور، ومنذ أن رفَض العالم تلك الكروية الإلحادية لشكل الأرض، بل عوقب الناس على قولها، فإن فرديناند ماجلان حملَ كرتَه في العام ١٥٢٢ وعاد بها إلى البرتغال(*).

فلماذا والحال على ما ذكر، يُقفل نتنياهو عقله على وضع عربي مؤبد؟ هل تدور إسرائيل مع أرض هذا العالم، ولايدور غيرها؟!

في المحصلة النهائية، فإن نتنياهو لايؤمن بالسلام بل بالنزاع:

(لابأس من تحسين الواقع شريطة عدم تجميله بالأماني.. لكن ذلك هو ما يريده العديد من الإسرائيليين ويحاولون عمله، فمن خلال خيالهم الخصب يؤمن هذا العديد الإسرائيلي بإمكانية انهاء النزاع العربي - الإسرائيلي بالكلام الفارغ، وكأننا لا نعيش في ذروة عاصفة صحراوية تغمرنا بخليط من التعصب والعداء، وكأننا نعيش في الغرب المتوسط الأمريكي، ولانعيش في الشرق الأوسط ص٤١٥).

ترى مَن الذي دعا جد نتنياهو إلى الشرق الأوسط؟.. لماذا عاد من بولونيا أو من شرق أوروبا إلى آسيا؟ أليست أرض إسرائيل نفسها واقعة في الشرق الأوسط، لمن تنتسب فلسطين، إلى عالم الصحراء الذي يزعجه، أم إلى عالم وارسو أو كييف أو ڤينا، ثم ألا يرى

(*) تُنسب كروية الأرض إلى رحلة ما جلان الشهيرة في العام ١٥١٩، لكن الحقيقة أن ماجلان قُتل في الفيليبين أثناء رحلته هذه، ومات وهو لايعلم ما الذي حصل، غير أن نائبه سباستيان دول، هو الذي تابع الرحلة بإصرار، وقفل عائداً إلى البرتغال عام ١٥٢٢، مسكين ماجلان، مات وهو لايعلم عَظمة ما صنع..

نتنياهو هذا الخليط من التعصب والعداء، في قانا اللبنانية أو في بحر البقر المصرية أو في الخليل الفلسطينية، هل تراه لمسه في انفجارات حماس أو الجهاد، ولم يلمسه عند باروخ جولدشتاين صاحب مجزرة المسجد الفظيعة، أو في دير ياسين وقبية ونحالين.. أين يرى نتنياهو ولايرى، فالدم يسأل الدم، والتعصب يجر إلى مثله وأشد، والعداء كَلِّه العداء، والحروب تلد الحروب، فلماذا الإتيان على العداء من طرف واحد؟ متى كانت إسرائيل مغرمة بالسلام، وقد جاءت كلها على عذابات شعب آخر، ثم متى قدّم الإسرائيليون في تاريخهم عرضاً متوازناً للسلام. إلا العروض الاستعراضية والمراوغة أمام الأمم الأخرى، (نحن لانستطيع الإعلان عن كل ما يجري هنا)، هذا ما قاله وزير العدل الإسرائيلي لمدير مكتب رابين رئيس الوزراء، عندما أراد الأخير، نشر مذكراته عن مأساة مدينتي اللد والرملة في التاريخ القريب... ثم ماذا بعد؟

إن نتنياهو لايتردد في انتهازية وقورة، عن الهجوم على اليسار واليمين في إسرائيل: (فاليسار يريد أن يتخلّص من المناطق المحتلة، واليمين يريد التخلص من سكانها، ولاشك أن هذين الموقفين، يدلان على عدم وجود رؤية واقعية.. وعلى أحلام كاذبة، تنبع من محاولة الهروب من الصراع المحتوم - ص٤١٦).

فإذا كان كتاب نتنياهو لم يَعنِ الكثيرين من الإسرائيليين بصفته أقرب إلى عالم الكاوبوي من عالم السياسة، فإن أمريكا مازالت تخفي إعجابها بتاريخها!.. والحال فإن كتاب نتنياهو قد يكون موجهاً بالدرجة الأولى إلى مايعجب الأمريكيين في تاريخهم.. وحاضرهم، فهجوم نتنياهو على اليمين واليسار معاً، أسلوب من أجل تحسين الصورة أو السجّل أمام الصانع الأكبر لكل تحوّل يمسُّ بلاده، غير أن أمريكا تعرف حتى عدد الأصوات التي قذفت به إلى المنصّة، كما تعرف الكثير عن ماهية هذه الأصوات ومن أي مواقع جاءت، ومع ذلك فإن أمريكا لاتبني على أساسٍ من عضلات نتنياهو، أو قبضة اليمين الإسرائيلي المتطير، فقد سبق لها أن فهمت كيف تحوّل جابوتنسكي نفسه من موقف إلى آخر ضده، ثم رأت كيف تحوّل بيغن من معارض (على شكل آتيلا) ضد المعاهدة المصرية ـ الإسرائيلية إلى موّقع عليها، كذلك فعل شامير وأرينز، عندما دعا إلى التخلص من غزة.. إرضاءً لأمريكا..

ومن الطبيعي أن ذلك لايجري لعيون السلام نفسه، بل لعيون الاستراتيجية الأمريكية في المنطقة، فإسرائيل لاتستطيع يمينها ويسارها، أن تتمرد على هذه الاستراتيجية بل ما تستطيعه وتتقنه هو التماهي مع هذه الاستراتيجية على حساب العرب، وحيث أن أمريكا في تشرين بعد كل أربع سنوات، تصبح أسيرة ستة ملايين ناخب يهودي، فإن الرئيس الأمريكي يصبح إسرائيلياً بالاعتراف، وما بلاغة إسرائيل في النهاية، إلا في استثمار هذا الاعتراف، بحيث يصبح دمج الاستراتيجيتين الأمريكية والإسرائيلية، في ظل غياب أو غيبوبة عربية كاملة، أسهل ما في تاريخ هذه المنطقة من وقائع...

في تظاهره، أن أمريكا شأنٌ لايهمه، إذا تعارضت مع المصالح الحيوية الإسرائيلية، فإنه يقدم

إعلاناً للناخب الإسرائيلي ليس أكثر، (إن هذا منطق أعوج، إذ لايجوز أبداً لإسرائيل أن تضحي بمصالحها الحيوية في سبيل المحافظة على علاقات تكمن أهميتها في قدرتها على ضمان هذه المصالح وليس التضحية بها.. إن الكثير من الإسرائيليين يميلون إلى نسيان أن إسرائيل لم تحصل على مساعدة أمريكية في الفترة ما بين ١٩٤٨ إلى ١٩٦٧، تلك الفترة التي بدت فيها إسرائيل دولة ضعيفة يتهددها الخطر - ص٤٣١)

وفي هذا المقام، فإنه ليس أبلغ مما قالته العرب في قديم أزمانها: (أَحَشفاً وسوء كيلة)؟.. إذ مَن الذي سعى لإجبار ألمانيا على دفع ملياراتها الستة كتعويضات لقاء الدم اليهودي بالنيابة عن هتلر إلى إسرائيل.

ألم ترفع هذه التعويضات نمو الناتج القومي في إسرائيل من ٢ بالمئة إلى ١٧ بالمئة في غضون عقد ونصف (٩٥٤ - ١٩٧٠)، وهي قفزة فلكية في عالم النمو الذي يتحرك أو لا يتحرك بسرعة السلحفاة بالنسبة إلى جميع شعوب العالم؟.

أين كان التراكم الرأسمالي الداخلي يومها في إسرائيل؟

يقول بول ريفلن في كتابه الاقتصاد الإسرائيلي ص٧ (في فترة النمو السريع للاقتصاد الإسرائيلي خلال العقود من الخمسينات إلى السبعينات، فإن الادخار القومي الإسرائيلي ظل سالباً، صحيح أن الادخار الخاص كان عالياً نسبياً، إلا أن ذلك في مجمله، لم يكن كافياً لتغطية العجز الخطير في ميزانية الحكومة الإسرائيلية). كيف إذن أمكن رفع معدل الاستهلاك الفردي بزيادة ٩ بالمئة عما كان عليه الوضع في سنوات التأسيس وحتى أواسط عقد الستينات؟!

كيف يجازف نتنياهو بالقول، أن إسرائيل لم تحصل على مساعدة أمريكية في الفترة من العام ١٩٤٨ إلى العام ١٩٦٧؟!..

ألا توجد ملفات رسمية في هذا العالم، خاصة في الولايات المتحدة المفتوحة على أي شيء يمكن السؤال عنه، حتى الأنترنيت الذي يأخذ بيدك إلى أسرار الذرة والفضاء وآخر ما أنتجته الترسانة الأمريكية من أسلحة... وغيرها.

يرسم محمد رابيه مسؤول الشؤون الأمريكية الخارجية للمعونات الإسرائيلية جدولاً في كتابه (سياسات المعونات الخارجية)، ويؤكد هذا الجدول على أن أمريكا قدمت معونات لإسرائيل بين العامين ١٩٤٩ - ١٩٥٠ بلغت مجموعها بين قروض ومنح مبلغاً وقدره ٥٥٣ مليون دولار (هذا في سنة واحدة، يوم كان هذا المبلغ يشكل ربع مشروع أرض التوراة كله)، كما يؤكد مرة أخرى، بأن إسرائيل بين العامين ١٩٦٠ و ١٩٦٩ تلقت مساعدات أمريكية بلغت ٨٣٤،٨ مليون دولار، وهي الأرقام الرسمية للمساعدات الحكومية، أما المساعدات الأمريكية غير الحكومية من قبل المؤسسات الخاصة، فإنها ظلّت تكبر وتكبر حتى وصلت في العام ١٩٨٦ إلى عدد يربو على ٢٠٠ مؤسسة ولم يتقدّم تكاثر هذه المؤسسات في أي بلد في العالم مثل الولايات المتحدة التي ينكرها نتنياهو اليوم، وفي المحصلة، فإن إسرائيل نفسها

هي (معونة أمريكية) قدمّها الغرب لنفسه على حساب المنطقة في جميع المقاييس.

لايمكن لنتنياهو أن يتنكّر اليوم لما يجول بين ٢,٥ ـ ٣,٥ من المليارات الأمريكية لإسرائيل سنوياً، ولئن لم تقدّم أمريكا كما يجب أوائل الخمسينات وشيءٍ من الستينات، فذلك لأن باريس ولندن وبون كانت متكفّلة بالوضع طوال المدة قبل وقوع الرهان مع بن غوريون على واشنطن، وبعكس حاييم وايزمن المخلص لإخلاص بريطانيا مع الصهيونية، فإن بن غوريون رأى من خلف الأكمة لمعان الذهب الأمريكي، قبل أن يراه في خزائن تل أبيب.

هكذا، بعد أن أنجز مهامه بالدعوة إلى التمسك بسياسة المدفع، فإن نتنياهو ينتقل في الأخير من صفحاته المتبقية إلى الدعوة للإنتقال إلى مدفع آخر، وذلك هو بالضبط ما يعنيه بسلاح الإعلام، وهو في سبيل ذلك يستشهد بهرتزل في يومياته: (إن أصعب شيء سنواجهه في المستقبل هو العثور على دبلوماسيين يهود أقوياء، فقد ثبت في القرن العشرين أن القوة السياسية على جبهة الإعلام لاتقل أهمية عن القوة العسكرية ـ ص٤١٨).

وفي هذا المضمار، يرى أن العرب متفوقون، وأن الإسرائيليين مقصّرون: (لقد ركز العرب سعيهم في الدرجة الأولى على تجريد اليهود من كل جانب أو رمز أو محتوى يشير إلى عدالة نضالهم، وشوهوا تاريخ إسرائيل بصورة مدهشة، وزرعوا بدلاً منها تاريخاً فلسطينياً كله من نسج الخيال والأكاذيب، فقد حلّ العرب مكان اليهود في كونهم أبناء هذه الأرض منذ بدء الخليقة، في حين أن اليهود احتلوا مكان العرب في الدور التاريخي للغزاة الأجانب، واستبدل الشتات اليهودي بشتات فلسطيني فظيع ـ ص٤٢٠).

لايملك قارئ نتنياهو إلا خوفه حيال هذه النظرة المقلوبة للتاريخ، وعلى خطى الوالد بنزيون، فإن نتنياهو يبقي عينيه مفتوحة على تاريخ الغرب، ثم يغلقها على أن ذلك التاريخ، هو تاريخ العرب مع اليهود، إذ لايجرؤ نتنياهو على تسمية الأشياء بمسمياتها الحقيقية ضد حلفاء اليوم، أعداء الأمس اللاساميين، فالعرب لم يجردوا اليهود من كل جانب يشير إلى عدالة قضيتهم، إلا يوم أريد لهذه العدالة، أن تسحق أمة في تاريخها، وأن تستلب أرضاً من جغرافيتها، وأن تشرّد شعباً في جهات الأرض الأربع.. فإذا كان ذلك من نسج الخيال، إذن بماذا يفسر نتنياهو الشتات الفلسطيني القائم في الحاضر، لا في الأسطورة، ثم كيف له أن ينكر احتلال اليهود لفلسطين كغزاة أجانب، علماً بأن التاريخ لايموت في غضون نصف قرن أو أقل، أما الشتات اليهودي، فإننا لانعلم عنه سوى ما قدمته الأسطورة لنا، وعلى افتراض أن ذلك قد حصل قبل ألفي عام، فما علاقة الفلسطينيين بهذا الشتات، ومن هو المسؤول عنه، ثم أين هي شعوب ما قبل ألفي سنة، فنتنياهو نفسه يتبنى ما تبناه المؤرخون من هيجل حتى توينبي: (ماذا حل بمصير الآشوريين والبابليين والفرس والمصريين واليونانيين والرومانيين وحتى الشيوعيين في عصرنا الحاضر.. حضارات ولدت وازدهرت، ثم ذبلت فماتت ـ ص٤٣٧) ويتابع: (إلا اليهود فإنهم يشكلون ظاهرة شاذة في هذه النظرية) (ص٤٣٧ أيضاً). لماذا؟! لا أحد يعلم. غير أن ظاهرة الشذوذ عن القاعدة لدى اليهود، تبرهن على موافقة نتنياهو بأن الأمم

تولد، وتعيش (دور الفتوة) فالكهولة فالشيخوخة فالموت.. فإذا كان ما قصدَه ووجّه إليه هو إخراج اليهود من دائرة هذه النظرية، فإنه يفعل ذلك للبرهان على لاشيء، فيهود الشتات ماتوا مثلهم مثل غيرهم من الأمم، كما أن الشعوب المُسبّبة للشتات اليهودي، ماتت هي الأخرى في إمبراطورياتها الغابرة، ومع ذلك فإن الأحياء اليوم، هم الذين يسامون سوء العذاب، بجريرة تاريخ ميّت ومدفون، فإذا ما بقي الحال على ماذكر، لماذا لايشرع نتنياهو بمطالبة العالم بافتتاح محكمة على غرار نورمبرغ لمحاكمة، فراعنة مصر ونبوخذ نصّر، وانطوخيوس والاسكندر وقيصر وحيرود وأنتيباس ونيرون وبومبي وآدريان.. حيث هم من مجرمي حروب التاريخ، لكن محكمة من هذا النوع، لاتفيد نتنياهو في شيء، فنبوخذ نصّر، لايمكنه التعويض عليه، كذلك الاسكندر وآدريان، لذلك فإن التعويض يقع على كاهل شعب آخر. لا لشيء وإنما لبساطة المصادفة، أنه ولد وعاش ومات، ثم عاد للحياة بأولاده وأحفاده منذ فجر التاريخ ومايزال في هذه المنطقة. لايرفض الفلسطيني لو أن موطنه التاريخي كان في بولندا، لكن نتنياهو لايستطيع البرهنة على ذلك، فيما يستطيع طالب تاريخ مبتدئ أن يدحض ما هو مقلوب في تاريخ نتنياهو:

(بالأمس جاء والد جدي لأمي إلى مستعمرة ريشون لتسيون.. وفي عام ١٩٢٠ جاء جدي لأمي الحاخام ميلويسكي ونزل إلى سواحل أرض إسرائيل بزوارق تجديف - ص٧٠)..

لماذا يسكت نتنياهو عن الإدلاء ببطاقة أحوال شخصية أخرى، إذ من أين جاء جده، من روسيا، من بولاندا، من أوديسا؟ غير أن جدّي أنا، لا يعرف بحاراً أكبر من بحيرة طبريا، والحال فإنه كصيّادٍ للسمك، فإنه كان يطلق على القلّة من سكان طبريا اليهود كلمة (موسكوب)، وهي الدلالة الرمزية، أو العامية، على أن أصلَ هؤلاء من موسكو..

من أين جاءت هذه الأقوام التي تحظى بقلب طيّب واحد، وتتحدث لغة واحدة (لا لغة البديش ولا لغو اللادينو)(*)، إلا من قلب هذه المنطقة، وهل تمّ الهبوط بالمظلات من كوكب آخر، لماذا لايتفضّل نتنياهو ويتكرّم بتحديد وطن آخر للفلسطينيين، فإذا كان الوطن العربي هو ما يقصده بل ويكرره، فإن هذا الوطن هو للفلسطيني وهو في فلسطينيه، وهو للشامي وهو في شامه، وللعراقي وهو في عراقه، وللمصري وهو في مصره، وليس للعراقي بدون عراقه، أو للمصري بدون مصره، فإذا ما درَج هذا الخط في سلسلة نتنياهو، فإنه لن يجد العرب موطئ قدم لأنفسهم في بلادهم..

حتى نظرة (الفلسطينية) القادمة من بحر إيجة. فإنها تحظى بمستند ضعيف، فسفن فينيقيا أو جزر اليونان، لم يكن بمقدورها نقل الشعوب، بل البضائع، وهذا ليس معناه أن الاتصال بشعوب البحر كان معدوماً، بل قائماً على أساس المبادلات، وليس الهجرات على طريقة الهجرات اليهودية إلى فلسطين، وهذا بدوره لم يمنع أن بضعة آلاف من سوريا سكنوا اليونان وأن بضعة آلاف من اليونان سكنوا في بلاد الشام أو مصر... ومن حيث أن البحث لا محل له هنا تماماً، فإنه يمكن

(*) الأولى لغة الاشكناز أي يهود أوروبا والثانية لغة السفارديم أي يهود الشرق.

الإيجاز، بأن تاريخ الجزيرة العربية شهد تجمعات بشرية، في أماكن (على الخط السياسي بين السعودية واليمن الآن)، كان يسميها العرب (فلسته)، ومن الممكن أن تكون هذه الفرضية ذات رجاحة في يوم من الأيام.

لم يبق من أجل استكمال دورة نتنياهو التاريخية، سوى تقريع اليهود بسبب ميدانٍ هجروه، إنه ميدان الإعلام وكسب الرأي العام العالمي: (مقابل العرب الذين بدأوا معركة منهجية ومستمرة لكسب الرأي العام العالمي، هجرت إسرائيل هذا الميدان كلياً، وما أثقل على اليهود بشكل خاص، كان عدم خبرتهم في الحلبة الدولية، وربما نجم ذلك عن انقطاعهم الطويل عن حياة الدولة - ص٤٢١).

من أين هبطت علينا نحن العرب هذه المنهجية الإعلامية المبرمجة من أجل كسب العالم؟ إنه هبوط مفاجئ لا علم لنا به، إلا في ادعاء نتنياهو نفسه، فبين العرب والإعلام الذي يسيطر عليه اليهود في العالم أجمع، مسافة السماء عن الأرض، ومع ذلك فإن نتنياهو يستحث شعبه ليغذّ الخطى في هذا الميدان، كأن وكالات العالم كلها من مردوك إلى ماكسويل وهيرسانت وبيرلسكوني، ورويتر، والأسيوشيتد برس، واليونايتد برس، وشركات إنتاج السينما من ميتروجولدين ماير إلى فوكس القرن العشرين، وهوليود بأفلامها بما فيها جهود إليزابيت تايلور (وماتيلدا كريم - معشوقة الرئيس جونسون اليهودية) كلها لاتكفيه..

ماذا يصنع اللوبي اليهودي في أمريكا إذن؟..

لنستمع إلى هذه القصة من تاريخ أمريكا القريب. عندما سأل السيناتور وليم فولبرايت رئيس لجنة التحقيق في المجلس، السيد إيزادور هاملين مدير الفرع الأمريكي للوكالة اليهودية، قائلاً:

- أيها المدير، أريد أن أُطلعك على نسخة من مذكرة لا تاريخ لها بعنوان (مجلس صهيوني أمريكي - معلومات وعلاقات سياسية) وفيها الخطوط العريضة لسياستكم المالية والدعائية.. فهل لديكم نسخة منها في ملفاتكم؟!

ويجيب المدير: نعم لدينا نسخة منها في ملفاتنا.

يرد فولبرايت: حسناً، ليستمع السادة الزملاء إلى مقتطفات منها... وكانت مذكرة فولبرايت تقع في ثلاثمئة صفحة تورد أهم المقاطع الدعائية والمالية والثقافية.. للوبي الصهيوني في أمريكا وحدها ولا بأس من تذكير المواطن العربي ببعضٍ منها:

- على صعيد الصحف والمجلات: يُعمل على تثقيف المحررين لنشر المقالات في أوسع المجلات انتشاراً، كذلك في أقوى الصحف الشهيرة في الولايات المتحدة.

- على صعيد الإذاعة والتلفزيون والسينما: تنظيم لقاءات وحوارات والالتصاق بالشخصيات البارزة التي توجّه وسائل الإعلام، أما السينما فيقع عليها دور تثقيفي خطير، ومن هنا يجب تغذية السينما بسيناريوهات تخدم حاضر إسرائيل وتاريخها...

- على صعيد المنظمات المسيحية: إعادة تثقيف القادة الرئيسيين في هذه المنظمات، والتحريض

على نشر مقالات تخدم إسرائيل، في الصحافة المتعاطفة مع الاتجاهات البروستانتية والكاثوليكية كما يجري الرد على أية مقالة معادية فوراً.

ـ الأوساط الجامعية: تنظيم يوم لإسرائيل في جميع المدن الجامعية، كذلك إقامة ندوات ومناظرات عن الشرق الأوسط في القاعات المخصصة لذلك وخاصة في الجامعات الشهيرة في أمريكا.

ـ على صعيد الكتب: تقديم العون المالي للكُتّاب والناشرين بغية إنتاج وتوزيع كتب ذات قيمة بالنسبة لإسرائيل.

وهكذا على صعيد المحاضرين والمشاريع والرحلات ومحطات الفضاء ومجالس المعابد اليهودية وهيئات المديرين (مجالس الإدارة) والمؤسسات الثقافية الأمريكية ـ اليهودية... الخ.

ثم يختصر السناتور فولبرايت ثلاثمئة من صفحاته بقوله:

(يُشرفُ الإسرائيليون على سياسات الكونغرس ومجلس الشيوخ والبيت الأبيض.. نعم... إنهم يملكون ٧٠ بالمئة من أصوات مجلس الشيوخ كما تشهد دائماً عمليات التصويت المخصصة للمساعدات العسكرية والاقتصادية لإسرائيل).

وعندما علّق إيزا دور هاملين، على كلام فولبرايت بأنه اتهام خطير... أجاب فولبرايت:

(نعم... إنه خطير.. فحين تشير سجّلات المجلس إلى أن ٧٠ بالمئة من زملائكم هنا، يتخذون قراراتهم بوحي من اللوبي الصهيوني، لا بوحي آرائهم الأمريكية التي تمليها مبادئ العدالة والحرية... فإن في ذلك الخطر كله).

ثم فقد فولبرايت مقعده في الانتخابات اللاحقة...

ومنذ ذلك اليوم، أو قبله في عهد الرئيس جونسون، بعد إيزنهاور وجون كندي، مازال رؤساء أمريكا يغرقون إداراتهم بشخصيات الولاء المزدوج، لا لأصوات اللوبي الصهيوني قبل أمريكا فحسب، بل ولأنفسهم قبل الاثنتين معاً، غير أن آخر الأصوات لن يكون صوت سيدة الفظاظة أولبرايت مع الركب الطائر حولها.. فأمريكا كفّت منذ زمن بعيد، عن أن تكون أمريكا واشنطن أو لنكولون... وكان ينقص نتنياهو تقريع اليهود على تقصيرهم في ميدان ثالث، ألا وهو ميدان المال في العالم، ولو أنه فَعَل، لدار دورة كاملة مع ماجلان، حول أرض توراته في تاريخ عاصف.

□□□

خاتمة

للعرب... وليس لنتنياهو

لانريد أن نضيف هماً جديداً فوق هموم، كما لانريد أن نثقل على قلب قارئنا العربي وعقله، فرغم التوصيف والتشبيه وعلم الكلام والتشريح بالتحليل والحجة بالمنطق، واستخدام مدارس الفلسفة وديالكتيك الطبيعة والتاريخ.. فإن ثمة رسوخاً يضرب جذوره في الأرض بحيث يبدو أن شيئاً ما لايتزحزح، فمنذ سايكس بيكو ونحن هنا... ومنذ حزيران باستثناء قفزة تشرين، مازلنا نقيم في غيبوبة السبات الدهري، لكن الثبات مع الأسف، لا وجود له مع أرض تدور وقوانين تطوّر تسري على الجميع، فوجهة التطور حسب المألوف ليست أحادية صاعدة، بل مزدوجة صاعدة وناكسة، ومايمكن أن يُقيّم به الوضع العربي، مهما تعلّل فرويد بنظريات تفاؤله وتشاؤمه، هو أنه وضع غير متصالح مع الصعود، وربما أنه يندرج تحت عنوان النكوص في التطور. إنّ علة عدم التماهي بين الأفكار العصرية والواقع اللاعصري هنا، إنما مردها إلى أن الواقع لايمكن جرّه بالأفكار فقط، إذ تظل البنية التحتية أرسخ بما لايقاس، فالأفكار يمكن استعارتها واستنباطها بل وإبداعها في شتى ضروب المعرفة الإنسانية من الفيزياء إلى الموسيقا.. لكنه ليس بوسع المرء أن يستعير واقعاً بنمط إنتاجه وعلاقات ملكيته ومستوى مرحلته... غير الواقع الذي هو فيه، وما لم تنشأ من أحضان هذا الواقع وخصوصيته، قوى مشبعة بروح عمل الفريق، مسكونة بهاجس (الحكم الوسيلة) وليس بأثرة (الحكم الغاية)، تعمل لحاضرها بأكثر مما تتناحر على ماضيها، تؤسس لمستقبلها بأكثر مما تبتغيه من مغانم حاضرها، تخطئ وتصيب، تعرف كيف تختلف وتتفق في ظل من الاحتكام لروح الجماعة ومبدأ الأكثرية، نقول: مالم يبدأ هذا أو مثله على الطريق، فإننا سنظل أسرى المحراث الروماني فيما يوّدع العالم قرنه العشرين.

وفي ظاهر الحال وواقعه أيضاً، فإن عالمنا العربي منذ قرن على الأقل، مازال يعيش، رغم تبدل الأوصاف والنعوت، في التبعية المغرقة للخارج، رغم أنه يستطيع الاعتماد على نفسه، فيما حظي من صفتي الموقع والواقع، وهو مازال يعيش حالةً عرضية في التاريخ، بحالة غير عرضية بل لعلّها هي الواقع الوحيد في زمان العرب هذا، فحالة سايكس بيكو، التي مرّ عليها أكثر من ثمانين عاماً، فإنها مازالت هي الحالة التي تقدّم نفسها منذ تلك العقود حتى الآن، وهذا معناه، أن استجابتنا الداخلية هي الأساس، في كلّ ما يقع علينا من الخارج، وأن العامل الخارجي ليس بالقضاء المقدور، الذي لايُرد، لولا عاملنا الذاتي الذي فهمه الغرب ونسج عليه. إن التطور بشكليه الناكس والصاعد، يؤدي إلى حقيقة واحدة هي عدم الثبات، وكما أن الصعود من أشكال التطور فإن

وجهه الآخر، هو الهبوط أو التراجع، وبعد التشخيص الذي أصبح يشكل فضل القيمة مع التراكم، فإن إرادة المريض نفسه تلعب دوراً في شفائه، كماأن هناك مهارة الطبيب وفعّالية الدواء، وليس من الضروري أن ننتظر آخر الزمان، حتى نتقدم إلى غرفة العمليات بثبات، إذ هناك حقائق مَرَضية الآن، لاتقبل الجدل في صحتها وتشخيصها..

فهناك التجزئة، أو ما يسمى اليوم، بتجزئة التجزئة، وعكسها خطوط تراحم في النفوس أو خطوط تواصل في الاقتصاد والسياسة والحد المعقول من تنسيق متطلبات العرب في حياتهم وأمنهم... وهناك التخلّف، وعكسه يكمن في البدء بحملة مبرمجة لاقصاء الأمية أولاً، إذ لايُعقل اليوم، أن نسبة متوسط الأمية في العالم العربي، تجول بين ٤٠ و ٦٠ بالمئة حسب الأقاليم وتوزعها على الأرض، وهناك المرض، وهو يتصل بالتخلّف والفقر، فمتوسط عمر الإنسان العالمي المتقدم، تجاوز حدّ السبعين، وهو في تحسن مضطرد، فيما متوسط الأعمار في منطقتنا العربية ثابتٌ عند حد الخمسين وربما أدنى بكثير في بلاد الفاقة العربية، فعدم التناسب في العدالة هو سيد الموقف على الدوام، إذ لايُعقل من بين أوطان العالم كله، أن أعلى متوسط عالمي للدخل، وأدناه إطلاقاً، يعيشان هنا في موقع الوطن العربي وواقعه.. وأكثر من ذلك بكثير، فإن عدم التناسب في العدالة يتصل بمركز الحياة العربية ومصيرها، فمصر على سبيل المثال، خرجت من دورها العربي بالفعل، بسببٍ من ضائقة مزمنة ظلّت تتواصل في عدم التناسب ـ نهائياً ـ بين ازدياد السكان بمعدلات نمو مفجعة إذا قيست بمعدلات التنمية المتواضعة، وقد أدى ذلك فيما أدى إلى الاعتماد على الخارج الأمريكي بدلاً من الاعتماد على الداخل العربي، من حيث أنه حق مصير للجميع، بل وعلى الجميع.

إن نسبة ستة بالمئة من سكان الوطن العربي، الذين يمتلكون ثمانين بالمئة من كنوزه، هي نسبة مكسورة في كل أشكال التصور العقلي والأخلاقي لأمةٍ تعيش زماناً من أصعب الأزمنة في تاريخها.. حتى تاريخ الغرب العقلي في رأسماليته، فإنه أفضى في النهاية إلى تطور حاسم في مسيرة الرأسمالية نفسها، ومن خلال الواقع نفسه، فإن تمديداً للثروة بين الشرائح العليا والدنيا في المجتمعات، تم تسويته منذ عقود، فالرأسمالية هنا، لم تعد رأسمالية، اضرابات عمال وحرائق وتدمير لوسائل الإنتاج، أو أي رمز يتصّل بنخبة الطبقة العليا، ومن النافل، أن الراسمالية تجدد نشاط دورتها في السوق على شكل رفع الأجور ومواءمة الأسعار في ظل مضاربات عاقلة، ويحدث في ألمانيا أو فرنسا واليابان، أن الأسرة تستطيع تبديل طراز حياتها في المسكن والأثاث والغذاء والسيارة... وكل شيء، مرة واحدة في كل سنة، وهناك معدلات وصلت إلى إمكانية التبديل مرة في كل ستة أشهر، وهذا معناه في النهاية، أن الشعب بات لديه قوة شراء، تكافئ قوة ما تنتجه الرأسمالية للبيع، وهو ما تبتغيه دورة رأس المال في آخر المطاف.

إن عدم التناسب في العدالة يزداد كارثية في دول الفقر العربي، كما هي في دول الغنى سواءً بسواء.. أما مظاهر الإرهاب الداخلي، في أحد جوانبه فهو انعكاس لصورة الظلم الواقع، فليلة زفاف واحدة، في قصور الرياض أو مراكش، فنادق القاهرة وغيرها من عواصم العرب في بلاد

الشام، تحمل في تبذيرها وبطرها، كل آيات الإرهاب ضد مجتمعات السطوح مع الحمام أو القبور مع الموتى...

إننا لسنا هنا بصدد التشريع للعودة السلفية هكذا، دون الأخذ بعين الاعتبار مسألة الجوهر، فهناك عصور وقرون جرى فيها من التبدل والتطور ما يملأ مساحة محيطات هذا الكوكب، بحيث يبدو إنسان ما قبل قرن فقط، وكأنه لايصلح أكثر من الجلوس في المتاحف، أو في صالات الشمع كما هو الحال في متحف تيسو الشمعي في لندن.

ولمن أراد التحليق عالياً في السماء، أو خوض عباب البحر، فإن قرننا الماضي واسع ومفتوح بأفق السماء أو بعرض البحر، ولم يعد أمامنا سوى أن نحاور أنفسنا وظروفنا، كما نحاور العالم وظروفه، ثم لنُجرّب من جديد.

لكن علينا أن نتفق أولاً على جدارة الحوار وجدّيته، فقد حَمَل رفاعة الطهطاوي أوّل ما حمل في كتابه الشهير (تخليص الإبريز في تلخيص باريز)، شجاعة الشك وجسارة النقد غير الهيّابة، فسجلات الأمم مليئة بشهداء الموقف، وشهداء الفكرة وأبطال العلوم التي كانت نتائجها تسوق إلى المشانق، ومع ذلك فإنها ليست دعوة إلى الموت قدر ما هي دعوة إلى الحياة.

فالدخول إلى ساحة الأزمة العربية المُركّبة، يستدعي الطرقَ على بوابتين: بوابة الأنظمة السياسية العربية بجمع ما لايجمع، ثم بوابة شعوب الأمة المنتظرة وهي مازالت في النفق، وسيذهب آخرون، الذين هم مناضلوا الأفغان بالأمس، إرهابيو العرب اليوم، حسب محاكم خاصة بل وخصوصية، بأن تفريغ الأنظمة يكون بالتكفير، وأن تفريغ الشعوب يكمن في التقصير، وهما حلّان متطيّران لا يأتيا بالبديل العصري المطلوب في كل القياسات.

أما أصوات الرضوخ فتقول:

- إن إسرائيل سبقتنا في كل شيء.
- نحن وحدنا في هذا العالم ولم يبق لنا حلفاء.
- إن الواقع يفرض أحكامه.
- أعداؤنا شركاء في تحالف لم يشهد التاريخ مثيلاً لقوّته.
- إن ثقتنا بأنفسنا آخذة في التلاشي.

- ثمة تداخل وتشابك في عناصر الأزمة العربية أفقدتها صفة العمومية القومية، بحيث باتت الأزمة الآن شظايا أزمات وبيلة في زمان ومكان كل مجموعة إقليمية عربية على حدة، أو حتى في كل إقليم منفرد بهمومه ومعاناته..

وسواء كان ذلك، كلّه أو بعضه، متأتياً عن عوامل موروثة أو محدثة، ظاهرة أو مستترة، فإنها مع ذلك تظل تدور بين عاملين اثنين، عامل الداخل وعامل الخارج، إذ هما أبطال الرواية العربية منذ قرن أوأكثر على الأرجح، فإضافة إلى موقع عالمنا العربي وواقع كنوزه التاريخية، فإن ثمة مشاهد قريبة أو معاصرة، لابد من النظر إليها بعينٍ فاحصٍ، وتَدبُّر حكيم.

وبحسب تسلسل زمني تقليدي، فإن المسرح العربي شهد منذ حملة نابليون على مصر، مسرحية كبرى من أربعة فصول:

١ ـ مشروع محمد علي باشا، الذي وصل إلى الدرعية (في السعودية)، على يد طوسون، ثم إلى قونية (تركيا) على يد إبراهيم، وما بينهما جرت مياه غزيرة في السين والتايمز.. إلى أن استقرت مياه التايمز وحدها في بحر المانش، حيث كان الرضوخ لمعاهدة لندن في العام ١٨٤٠، ثم توارى المشروع ليدفن في ليالي الغانيات على أنغام التخت الشرقي في قصور أحفاد الأسرة حتى بداية الخمسينات من هذا القرن.

وهكذا وصل نكوص التاريخ إلى مبتغاه في المرحلة الفاصلة بين قرنين، قرن غاب وتوارى مع إرهاصات غياب الإمبراطورية الإسلامية العثمانية، وقرن استهل نفسه، بالبديل الحلم، الذي هو الثورة العربية الكبرى.

٢ ـ كان عنوان المشروع الثاني دون تسلسل، دولة واحدة لأمة واحدة، ولم يكن قد أدركنا بعد، أن الفارق بين المأمول والواقع، لايكمن في رصاصة أطلقت بيد عربية، فاستفاقت مكة تستطلع الخبر، بل في الرصاصة التي أطلقت بيد مخترعها الأول...

وكان ذلك يساوي بالتمام والكمال، ثلاثة قرون ذهبية، بين الإطلاق الأول والثاني في جميع الظروف..

هذا وسيخفق المشروع لا لشيء، وإنما ببساطة، لأنه لم يكن ذاتي الدفع، بل ذاتي الاندفاع، وهو ما يمثل فرق الزمن أيضاً، فقد ظلّت ثورتنا العربية الكبرى، منذ إرهاصاتها الأولى، وتحديد صفرها واندلاعها، مع أخلص النوايا، محمولةً على أكتاف الخارج، ثم ظنّت أنها ستظل هكذا، حتى هدفها الأخير، وحين تراءى بتخطيط الخارج وقوة وجوده، أنّ ثمّة انحرافاً عن الهدف، عجزت قوة الدفع الذاتية عن تصحيح الانحراف بقوة الدبلوماسية في مؤتمر فرساي أو بقوة السيف في ميسلون، وهكذا كان.

لم يكن عدم الانتباه، هو علّة الثورة الأولى، حيث لايمكن تفسير التاريخ بعلل الغفلة دائماً، بل والتغافل أحياناً، فعندما نبش جمال باشا السّفاح، أوراق القنصلية الفرنسية في بيروت، عثر على أسماء بدا وكأنها تتعاون مع فرنسا، تعاوناً لايعرف الخطّ بين الحليف والوكيل، كما لم تتنبّه القيادة لاحقاً، كيف تقيم الفارق في (سرها على الأقل) بين مَن يعمل لداخله ومَن يعمل لخارج غيره في زمنٍ حاسم... وكان نصيبنا من دمائنا في الثورة العربية وثيقتين دامغتين:

ـ وعد بلفور وسايكس بيكو.

٣ ـ في حرب فلسطين ضد إسرائيل، سيحمل واقع سايكس بيكو نفسه، مع خباياه التناحرية إلى ميادين القتال، وجميل أن يرى المرء أمة تقاتل بعضها وعدوها في آن واحد.

كانت قيادة فلسطين العسكرية، تحارب بنفسها ولنفسها، وكانت المآرب ما وراء فلسطين هي الأساس، وحتى لو كانت فلسطين هي المأرب الواحد والوحيد، فإن قوة الدفع الذاتية لستة جيوش،

كانت أقل من الاعتراض على مهمة جيش واحد، لا لنقص في الكبرياء أو الشجاعة التي تحلى بهما الجندي العربي على مر التاريخ، بل لنقيصةٍ في المسؤولية التاريخية لقيادات عميت عن رؤية المستقبل والمصير... فقدرة ست جيوش عربية بالجمع والتنسيق، كانت قادرة على إلحاق الهزيمة بجيش بن غوريون ما في ذلك ريب، وقد تحدث كبار مؤسسي إسرائيل عن حالات قلقة كادت تذهب بالوعد وأرض التوراة، إلا أن النزاع ليس بالكلمة القليلة، حين يتصل الأمر، بحدّ الفصل في أيام التاريخ الحاسمة..

كان النفط يومها، قد أطلّ برأسه من منطقة القرون الغافية مع أهل الكهف، وكانت الحياة التي لابد أن تستمر، تشق طريقها عبر سراب الصحراء باحثة عن أملٍ في مواطن الكلأ والمرعى لقطعانٍ هزيلة، فيماأهل الشطآن يغنّون (للدانا) وما يتيح الحظ العاثر من مُصادفات الصَدف والأسماك في بطون البحار.. وكانت الثروة شيئاً من حكايات علاء الدين وبغداد الخرافية..

(سأبني دولة عند كل بئر نفط أكتشفه).. هذا ماقاله تشرشل لأصدقائه على فوهة الخليج، بعد أن رسمت فوهة المدفع، دويلات الشارع الواحد والساحة الواحدة، ولما فهمت الدويلات مأثرة توليدها، فإنها آثرت الانضواء تحت جناح مولّدها، ليظلّ المولّد راعياً حتى يومنا هذا..

٤ - ثم جاء المشروع القومي لجمال عبد الناصر بعد ثورة تموز، وكان هذا المشروع محاولة طموحة لوضع مصر والأمة العربية على مداخل عصر جديد أعقب الحرب العالمية الثانية، واستجابة في الوقت نفسه لدواعي وضرورات أمنٍ مكشوف ومُعرّض أمام تهديدٍ مستوطنٍ ومقيم، لكن هذه المحاولة تعرّضَت للهجوم ثلاثم مرات، مرة في السويس، وثانية في الانفصال وثالثة وبنجاح كاسح في حزيران.. وكان الجرح غائراً.

وفي كل المشاهد السابقة كان الغرب يُحطّم بوحشية السلاح حلم نهضة عربية ودخولاً عريضاً إلى خط صناعة التاريخ العالمي المعاصر، ولم يكن تحطيم العراق آخر المشاهد في القرن العشرين، بل أولّها إلى القرن الواحد والعشرين في المنطقة.

وهنا يرد السؤال، ما الذي يمكن أن نكون تعلّمناه من دروس هذه المشاهد؟

١ - إن الدولة العصرية ليست مجرد جيوش، فالجيش هو من مواليد الدولة العصرية وليس خالقاً لها، والحال فإن الدولة العصرية ومولودها الجيش العصري كلاهما استعداد لتحمّل المسؤولية الكبرى، لابتجميع موارد الأمة بإدارة ساسة وشراكة شعب فحسب، بل بمحصلة شرعية حكم، واستنارة فكر، وعدالة طبقات وحرية رأي..

وبصورة إجمالية فإن أساس الدولة العصرية إثنان: علم وقانون، الأول للجميع والثاني على الجميع.

٢ - إن التقنية الحديثة، لاتجيء بالاستعارة، كما أن الإنطلاق بالتجديد لا يتأتى عن التقليد، فدورة المعاصرة، تربة وبذرة وري، فمشاريع محمد علي باشا، كانت استعارات مصانع ومدافع، ومشاريع اسماعيل من بعده كانت استعارات منشآت ومواكب، حتى مشاريع الاقتصاد كانت

استعارات قروض ومنح من الخارج الأجنبي لا من الداخل العربي القادر، ولاستكمال المشهد، فإن الاستعارة الحالية لعلوم الغرب وأسراره، تجد طريقها بعد دفع كلفها الباهظة إلى التحطيم، ونموذجها المفاعل النووي العراقي كذلك المدفع العملاق.

٣ ـ إن الاستقلال الوطني ليس فراغاً من الديمقراطية التي تشهد (انتحار المعنى ـ محمود درويش)، ولا هو إحكام بملزمة حديدية تفرض نفسها لتنوب عن الشعب في كل شيء يرضاه ولا يرضاه!.

فالاستقلال هو ديمقراطية الإدارة المسؤولة في زمنٍ صعب، سواء أكانت هذه الإدارة رئاسية أو سلطة تشريعية، أو تنفيذية... إنها كفاءة النظام السياسي في إدارة جميع الشؤون الاقتصادية والسياسية والاجتماعية والأمنية، بحيث يلمس الشعب في معيشته وغده، وجهة الإيجاب التي يتطور نحوها، أما إذا استشعر الشعب بأن الأمور تتقدم من وجهها السيء، فليس أصدق من حدس الشعب، بأن عَطباً قد أصاب النظام إما في محيطه أو بمركز قراره.

٤ ـ إن من أخطر تجاربنا السابقة هي محاولة القفز فوق المراحل بحيث بدت تنحية التطور الطبيعي غايةً في حد ذاتها، وحتى لو أن واقعنا الراهن، لايُبشّر بأي مستقبل عكسه، فإن التطور الطبيعي مع إخلاص جمعي، أفضل بما لايقاس من القفزات إلى المجهول، فالمشكلة لم تكن قائمة في القفزة ذاتها، بل في حاملي مهامها، وها هي (يابان) الشرق الأوسط في بلد عربي أو بلدان عربية أخرى، تؤول إلى مكتسبات لا نهاية لحدودها، بل ولا مشروعة، لتستقر في بنوك سويسرا أو قصور فرنسا على يد الطبقة الجديدة!.. إنه ليس من المستغرب أن تؤدي دراسات موثوقة كل الثقة، بأن مجموع ما ترتب على دولة عربية ما من ديون بالكامل، يكافئ ما تم ترحيله من ثروة الشعب، إلى الحسابات الخصوصية في الخارج.. ومع أن الفساد ظاهرة عالمية في شرق العالم وغربه، إلا أن الفساد في عالمنا العربي، بدأ يغترف من الحاضر على حساب المستقبل، وها هي بلاد الغنى النفطية، تشرع في الأنين على وقع سياط النهب الأمريكي الجاري في فلكية الحسابات الرقمية لأثمان الحَملات، والسلاح، وتشغيل المتراكم من رأس المال العربي وفوائده، في مواقع لايختارها، وفي مصالح لاتعود عليه بالنفع، قدر ما تعود عليه بتكرار الطلب من جديد... ومن هنا فإن العالم الثالث، وفي مجاله الوطن العربي، بدأ يحظى بالصناعات الوسخة على حساب البيئة، فيما الغرب ينفض عن كاهله، مراحل صناعات أعمدة الدخان والهباب والتلوّث.. ليحتفظ بكل ما هو نظيف وثمين في ثورة تكنولوجياته ومعلوماته..

لقد كان من الأجدى في جميع المقاييس أن نرد على أنفسنا، قبل أن نرد على بنيامين نتنياهو، وهو الحق المبين، فنتنياهو عدو يعمل لمصلحة نظريته وكيانه بكل الأسلحة الأخلاقية وغير الأخلاقية، فهو في حمأة معركة لاتتوقف، وهو في ظل صراع يعترف به قبل غيره، وهو سيد إسرائيل المكلّف أن يكون خادمها الأول، وهو على شرعية مفادها أن نصف إسرائيل زائداً الواحد، هي التي توجّته ملكاً على عرش إسرائيل، وهو يتحدث بحق القوة لا بقوة الحق، وهو يضع التاريخ حيث يصنع ويريد، وهو ينظر إلى العرب كأمة واهنة لا دور لها أو مشيئة أو قرار.

واعتقادنا، أن ما يليق بتاريخ وميراث أمتنا، وما يقتضيه مستقبلها في الوقت نفسه، يفرض أن تتصدى الإرادة لما يفرضه الإحباط، أما المخرج الذي تتعلق به آمالنا، فيكمن في تنبه العناصر المستنيرة للأمة، سواءً في أوطانها أو في مهاجرها، إلى مهمة واقعة عليها وليس على غيرها، وأن تتقدم جميعاً إلى دور الفاعل ولو بالانتزاع، وليس دور المراقب بالقسر، ثم إلى دور المؤثر لا المتأثر... وليس أفضل من هكيل في توصيفه هنا:

«إن الأمة رغم الأزمة وحمولاتها الثقيلة، ورغم النفايات المسمومة، المبعثرة على تخومها مازالت تملك طاقات وموارد، مادية ومعنوية، ضخمة ومؤهلة للتغيير والتجديد.

فهناك ملايين الرجال والنساء المتعلمين والعارفين بإمكانيات العصر ووسائله، وهناك مئات الألوف من المستعدين لمسؤوليات التحضير والتخطيط والإدارة.. وهناك كتل عريضة من جماهير واسعة، فاهمة ومدركة، وهي لم تفقد يقينها ولم تلق سلاحها استسلاماً لغارات الخارج عليها أو الداخل على ثرواتها وأحلامها».

وفي اعتقادنا، فإن الضرورة الراهنة، تقتضي السعي إلى خلق تيّار ذي مروحة واسعة، متناسق ومتوافق وصاحب همّة ومسؤولية، بحيث تكون له الأهلية والكفاءة لاستكمال عملية درس وتشريح واستيعاب أزمتنا وما آلت أو تؤول إليه.. كما أنه يضع نفسه بالقرب من اللحظة الحرجة، علّه يستطيع التأثير والتوجيه عندما ينبلج شعاع الصبح لينير بداية الطريق.

إننا لانعتقد بأن الانتقال نحو المستقبل يتم بتوجيه الأوامر إليه، ولا هو ذلك الخيال الجامح للتسفار بين النجوم أو الغوص في أعماق المحيطات، فخيال المستنير دوماً باتجاه الأرض ومايجري عليها.. وكما أننا أخفقنا في استنباط الحل الشامل حتى الآن، فإن الآليات الموصولة إلى المستقبل المغاير، تبقى مع ذلك، باتجاهنا على بوصلة الديمقراطية، وتمسكنا بحقوق الإنسان، وأمن الوطن وأمان المواطن، بتشديدنا على التمسك بتنمية شاملة للبشر والموارد، بتأكيدنا على ضرورة تناسب العدالة بين الأقاليم والطبقات، باهتمامنا الأكيد بمحو الأمية وتنظيم الأسرة وحق المرأة الذي هو من جواهر تراثنا العربي ـ الإسلامي.. باستغراقنا في كل الخطوط النقدية، العريضة والتفصيلية، للبدء برحلة الخروج من النفق، وهو غيض من فيض أحوالنا اليوم.

□ □ □

مراجع الكتاب

الفصل الأول:

١ ـ الكتاب المقدس. العهد القديم. المطبعة الكاثوليكية ـ بيروت.

٢ ـ مباحث تاريخية هامة للأساتذة:

ـ دكتورة شلوميت جيفا.

ـ د. كيت ويتلم.

ـ د. نورمان كانتور.

٣ ـ عصور من الفوضى. البروفسور فيلوكوفسكي.

٤ ـ إسرائيل التوراة. التاريخ والتضليل. سيّد القمني.

٥ ـ فلسطين أرض الرسالات. روجيه غارودي.

٦ ـ دليل الحائرين. موسى بن ميمون.

٧ ـ كذب حضارتنا التقليدية. ماكس نورداو.

٨ ـ فرنسا اليهودية. ادوار درومونت.

٩ ـ يهود كولون. وليم جونسون.

١٠ ـ العرب واليهود في التاريخ. أحمد سوسة.

١١ ـ الشرق الأوسط. معبد جانوس. ديزموند ستيوارت.

١٢ ـ صديقي العدو. يوري آفنيري.

١٣ ـ دولة اليهود. تيودور هرتزل.

١٤ ـ سجين زندا ـ رواية. أنتوني هوب.

١٥ ـ الخلاص اليهودي. موسى مندلسون.

١٦ ـ المفاوضات السرية بين العرب وإسرائيل. ج١. محمد حسنين هيكل.

١٧ ـ التحرر الذاتي. ليوبنسكر.

١٨ ـ السلطان الأحمر. جون هاسلب.

١٩ ـ كتاب الأمير. نيكولو ميكيافيلي.

٢٠ ـ تاريخ أعظم أحداث العالم. موريس شربل.
٢١ ـ الجذور ـ رواية ـ أليكس هالي.
٢٢ ـ تاريخ الحضارات العام. كويلت ليبيد.
٢٣ ـ تاريخ سوريا الحضاري. أحمد داوود.
٢٤ ـ تعليق على رسم. القس جورج كرولي.
٢٥ ـ زيارة لفلسطين. القس هوج فيسك.
٢٦ ـ تقرير البعثة الأمريكية لعام ١٨٤٨ ـ ف. لينش.
٢٧ ـ وثائق استطلاعية. مجموعة ضباط من البحرية الفرنسية ١٧٩٨.
٢٨ ـ من سومر إلى التوراة. د. فاضل عبد الواحد علي.
٢٩ ـ التاريخ القديم للشعب الإسرائيلي. توماس تومسون.
٣٠ ـ قبائل يهوه. بروفسور آ. غوتولد.
٣١ ـ نصوص الشرق القديم وعلاقتها بالعهد القديم. د. ه. غريسمان
٣٢ ـ مراسلات تل العمارنة في مصر. الموسوعة الفلسطينية.
٣٣ ـ البلدانية الفلسطينية. الأستاذ مصطفى الدباغ.
٣٤ ـ قاموس القرى الفلسطينية. محمود برهوم ومحمد خروب.

○○○

الفصل الثاني:

٣٥ ـ اتفاقية لاهاي. الأمم المتحدة.
٣٦ ـ أعمدة الحكمة السبع. توماس لورنس.
٣٧ ـ الموسوعة الفلسطينية. القسم العام. المجلد الرابع.
٣٨ ـ الكتاب الأبيض. حكومة تشامبرلن ١٩٣٩.
٣٩ ـ دور الهاغاناة. د. حمدان بدر.
٤٠ ـ تاريخ الهاغاناة. دافيد بن غوريون.
٤١ ـ سكان إسرائيل. د. يوسي وايتنر.
٤٢ ـ دليل إسرائيل العام ـ المؤسسة الصهيونية. إلياس شوفاني.
٤٣ ـ الموسوعة الفلسطينية. القسم. العام. المجلد الأول.
٤٤ ـ الحروب العربية ـ الإسرائيلية. كابتن تريفور دوبوي.
٤٥ ـ قصة الثورة ـ حرب فلسطين الأولى. أحمد حمروش.

٤٦ ـ الفاشية. موشي دايان.

٤٧ ـ قصة حياتي. موشي دايان.

٤٨ ـ إسرائيل سبب محتمل لحرب ثالثة. برنار غرانوتيه.

٤٩ ـ الخزري. يهودا بن هاليفي.

٥٠ ـ الانحطاط. ماكس نورداو.

٥١ ـ اليوميات. تيودور هرتزل.

٥٢ ـ تمايز الأعراق. د. تروتشكه.

٥٣ ـ دليل إسرائيل العام. الفلسطينيون في إسرائيل. إيليا زريق.

٥٤ ـ العنصرية ـ تعريف. الأمم المتحدة.

٥٥ ـ لعبة الأمم. مايلز كوبلاند.

٥٦ ـ الرسالة اليهودية الإخبارية. المجلد الثالث. ١٥ نيسان ١٩٥٧.

٥٧ ـ موسى والتوحيد. سيغموند فرويد.

○ ○ ○

الفصل الثالث:

٥٨ ـ العنف والسلام. إبراهيم العابد.

٥٩ ـ مشروع دالس. وثيقة آب ١٩٥٥

٦٠ ـ خمسون عاماً من أجل فلسطين. إميل الغوري.

٦١ ـ نحو حرب دينية ـ جدل العصر. روجيه غارودي.

٦٢ ـ الميثاق الوطني الفلسطيني. منظمة التحرير.

٦٣ ـ الانفجار. محمد حسنين هيكل.

٦٤ ـ وثائق سرية ـ ٤ شباط ١٩٨٣ جريدة يديعوت أحرونوت.

٦٥ ـ وثائق سرية ـ ١٩ آب ١٩٨٣ جريدة أحرونوت. للنقابي اليعازار هاليفي.

٦٦ ـ إسرائيل والعالم. الفيلسوف اليهودي مارتن بوبر.

٦٧ ـ ضد إسرائيل. بيير ديرون.

○ ○ ○

الفصل الرابع:

٦٨ ـ أكرم الحوراني ـ رجل للتاريخ. حمدان حمدان.

٦٩ ـ حرب ضد بلد عربي مسلم. ادوار سعيد.

٧٠ ـ دليل إسرائيل العام. المؤسسة العسكرية الإسرائيلية. محمد زهير دياب.
٧١ ـ السلاح والخبز. د. عبد الرزاق الفارس.
٧٢ ـ العرب واليهود في إسرائيل. الأكاديمي اليهودي سامي سموحا.
٧٣ ـ العرب في إسرائيل والقضايا العربية. د. دافيد روزن بلوم.
٧٤ ـ دليل إسرائيل العام. الوجود الاستيطاني في فلسطين. خالد عايد.
٧٥ ـ شرق أوسط جديد. شمعون بيريز.
٧٦ ـ عاصفة الصحراء. اريك لوران.
٧٧ ـ الخليج بيننا ـ قطرة نفط بقطرة دم. حمدان حمدان.

○○○

الفصل الخامس:
٧٨ ـ اغتيال سياسي. آمنون كابليوك.
٧٩ ـ عقل جابوتنسكي. جريدة الحياة. ٢٦ تموز ١٩٩٦. حازم صاغية.
٨٠ ـ الخرافات المؤسسة للسياسات الإسرائيلية. روجيه غارودي.
٨١ ـ الإبادة الجماعية. الكاتب اليهودي بواز إيفرون.
٨٢ ـ الاقتصاد الإسرائيلي. بول ريفلن.
٨٣ ـ دليل إسرائيل العام. الاقتصاد في إسرائيل. فضل النقيب.
٨٤ ـ عقود من الخيبات. كيف وصلنا إلى هنا؟ حمدان حمدان.
٨٥ ـ أزمة العرب ومستقبلهم ـ محاضرة في باريس. محمد حسنين هيكل.

صدر للمؤلف

• مئذنة الخالة أم جورج - قصة.

• الخليج بيننا - قطرة نفط بقطرة دم.

• عقود من الخيبات - كيف وصلنا إلى هنا؟

• أكرم الحوراني - رجل للتاريخ.

المحتويات

مدخل ٧

الفصل الأول: التاريخ يكتبه المنتصرون ١٣

الفصل الثاني: في التخلي عن الصهيونية ٦٥

الفصل الثالث: عن قلب الحقيقة وحصان طروادة ١٠٧

الفصل الرابع: سلامان وجدار واقي ١٤٩

الفصل الخامس: السكان والسلام ولغة القوة ١٧١

خاتمة: للعرب لا لنتنياهو ٢٠٧



- الفلسطيني غير موجود في التاريخ، لكنه موجود في الإرهاب، إنه موجود وغير موجود .. **ألا يعتقد صاحب الماجستير من فيلادلفيا بأن ثمة تعارضاً بين اللاوجود التاريخي والوجود الجغرافي بآن واحد؟**

- **حق القوة في النهاية، لا قوة الحق، هي راسمة الحقوق على الأرض.**

- عند نتنياهو فإن الخواء هو أول ما خلقه الله في فلسطين، **ألا يظن بأن الغرب كان قد سبقه بقرون عن نظريات فراغه في العالم المستهدف؟**

- لقد خطّ دايان إعترافاً فوق رمال النقب، إنه السطور الأخيرة من كتابه قصة حياتي، **لماذا يقرأ نتنياهو ما إنتهى إليه متطرفون قبله؟..**

- ينطلق ملك إسرائيل في سلامه من فوهة مدفع، فسلام الردع ، وسلام القوة وسلام الجدار الواقي.. **ألا يوجد في مخيلة نتنياهو شيئا عن السلام غيرمرادفاته الحربية هذه؟!..**